DATE DUE

J. Lib.
2 8 MAR 1984
JAFET LIB.
Circulation Dept. 4
11 JAN 2016

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

962:H35kA V.1 c.2

حسونة، محمد أمين .

كفاح الشعب ...

962
H35 kA
V.1
C.2

7 AUG 1973
FE 21'56
MY 22'57
AG 22'58
MR 11'56
MR 21'56
JUN 1'56
JUN 1'56
AP 11'56
AUG 8 '61
Feb 1 '57
MY 2 '57

962
H35kA
V.1
c.2

كفاح الشعب

من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر

المجلد الاول

الوعى القومى

محمد امين حسونه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

القاهرة ـ ١٩٥٥

فاتحة الكتاب

انى رأيت انه لا يكتب انسان كتابا ما فى يومه الا قال فى غده : « لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

العماد الاصفهانى

للمؤلف

أعمـال روائيـة

اشبال الثورة .. .. سنة ١٩٣٠
الورد الابيض .. .. « ١٩٣٢
الباب الذهبى .. .. « ١٩٤٤
هنرى الرابع « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٣٧
الاستاذ كلينوف « عن كيرن برامسون » .. « ١٩٤٣
الحب والموت « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٤٧

دراسات ادبية

ساعات الصمت .. .. « ١٩٤٥
بيراندللو .. .. « ١٩٤٩

سـياحة

وراء البحار .. .. « ١٩٣٦

تاريـخ

مصر والطرق الحديدية .. .. .. « ١٩٣٨
٢٣ يوليـــو .. .. « ١٩٥٣
جمهورية مصر فى عامها الاول . .. .. « ١٩٥٤

تاريخ مصر
فى ظل التحرير

نشأنا ودرسنا وشببنا وسط اكداس من الاكاذيب والمفتريات احاطتنا بها فئة من المؤرخين المتملقين ، ألقوا فى روعنا بأن مصر هبة من اسرة محمد على ، وصوروها فى صورة أمة ذليلة مهينة ، غارقة فى الجهل والفوضى والظلام ، الى ان هبط عليها « مبعوث العناية الالهية » فخلصها من براثن الظلم وانتشلها من الوحل والرغام ، وهى دعاية كاذبة جوفاء تنقصها الحقائق الناصعة .

أهمل المؤرخون مزايا الشعب فى ثنايا مؤلفاتهم . الشعب صانع التاريخ ومبتدع الخوارق والمعجزات، فاعتنوا بالطلاء الخارجى البراق وتناسوا الجوهر . فجاءت مؤلفاتهم صورا باهتة مشوهة ، أقرب الى الباطل منها الى الحق . درسوا مصر من خلال مواكب طواغيتها وأقيالها ، تلك الطبقة المدفونة فى قصورها الباذخة ، المحجوبة وراء أسوارها العالية ، الغارقة الى آذانها فى لذائذها ، المحوطة بحاشية من الاقطاعيين والنفعيين والوصوليين ، الذين لا يمتون الى الشعب بصلة ولا يعبرون عن نفسيته وأحاسيسه وعقليته وتفكيره ، ولا يتخاطبون بلغته ، بل كانوا خوارج ، دخلاء ، اغرابا عنا روحا وشعورا وتفكيرا ولسانا .

نظر هؤلاء المؤرخون الى التاريخ كمغامرة لبعض الاشخاص الذين لا يملكون من فضيلة أو عبقرية سوى النفوذ الخرافى ، سواء آل اليهم ذلك النفوذ عن طريق الاغتصاب أو عن طريق الميراث أو نتيجة الزلفى وارضاء نزوات ومطامع المستعمر .

وجهوا كل همهم الى الاشادة بمناقب الطواغيت وتمجيد اعمالهم الخرفاء ، والزعماء الذين يقودون الصفوف قيادة عمياء أساسها الاستغلال والنفعية . شبهوا الملوك بالشموس والاقمار وانصاف الآلهة ، ووصفوا المستبد السفاح بالرحيم العادل ، فى الوقت الذى كان يلهب فيه ظهور رعاياه بالسياط ويسومهم سوء العذاب ، ويستنزف دماءهم ، ويسلو على ثمار كدهم لانفاقه فى مآربه . اما الجماعات فأين هى ؟ ماذا كانت تعمل وتدبر وتفكر ؟ ماذا كان رأيها فى هذه المشكلة أو غيرها ؟ الى أى حد شاركت حكامها فى العمل على

تشييد صرح الحضارة وتطور وسائل العمران ؟ . أكان الشعب راضيا عن هذه المسألة أم كارها أم ناقما ؟ كم عدد الامهات اللواتى ثكلن فى فلذات اكبادهن فى أعمال السخرة وضروب الاستعباد والوان التنكيل والبطش ؟ كم عدد العبقريات الشعبية التى شاركت فى الفتح والغزو والذود عن ارض الوطن واقامة المعالم والمنشآت ؟

الواقع ان تاريخ مصر الرسمى لا يمثل الشعب على حقيقته ، الشعب الذى هو محور الامور وروح المسائل ، لا يصور حياته وكفاحه وجهاده واناته من الظلم وصرخاته فى وجوه الظالمين .

ذلك أن مؤرخ مصر الحديثة ، لم ينزل من برجه العاجى ولم يهبط من سدته الرفيعة الى حيث الشعب يشقى ويتألم ويتعذب ، لان الشعب لا يمنح المؤرخ الجاه والسؤدد ، ولا يدر عليه العطايا والمنن .

وابتكر المؤرخون من حملة القماقم ، تاريخا سودوا صفحاته بأمجاد زائفة ، واحداث خارقة ، واعمال باهرة هى فى مجموعها تلفيق فى تشويق ، كأنه لم يكن امامهم شعب يناضل ويكافح ، ويكد ويعمل ، ويضحى بالغالى والرخيص ، شعب حمل على ظهره مثارف الحكام ونقائصهم ومعائبهم ، شعب شقى افراده لارضاء كبرياء رجل ، وجاعوا فى سبيل تخمة فرد واحد . شعب عريق فى الحضارة ، نهض باعباء الزعامة ورفع مشعل المدنية ، واقام منارة للعلم فى عصور سادت فيها الظلمة والجهل غيره من الشعوب .

ان طوائف الشعب المصرى ليست باقل عبقرية ونبوغا وسداد رأى من الحكام الذين يسود بهم المؤرخون صفحات مؤلفاتهم . فمن بين افراد الشعب خرجت طبقات الصناع والزراع والعمال والجند والتجار ، تلك الطوائف التى قاومت الغزو الفرنسى ، وردت الانجليز على أعقابهم فى رشيد ، وحاصرت الوالى العثمانى فى القلعة وهتفت بسقوطه ، وانزلته من كرسى الولاية ، وفرضت على خلفه شروطا هى بمثابة وثيقة دستورية ، ودحرت قوات الاحتلال البريطانى فى معارك متطاحنة ، وانزلت فاروق عن عرش جبروته . . . ولكنها سياسة النفاق والمواربة التى قلبت الحقائق ، وصورت الحكام الذين باعوا الوطن للغاصب فى صور يأباها الواقع .

نحن نعرف ان حروب مصر ، واقامة السدود وبناء القناطر وتعبيد الطرق ، وشق الترع والمصارف ، واقامة الخطوط الحديدية

والاسلاك البرقية ، وتشغيل المصانع لم تقم الا على اكتاف وسواعد الطبقات الكادحة، ولكن لنتأمل زيف المؤرخين: فقد نسبوا هذه الاعمال الى الحكام الاغراب ، فقالوا : ترعة المحمودية ، والابراهيمية ، ومدينة الاسماعيلية ، وقناطر محمد على ، وقلعة السعيدية ، ومديرية الفؤادية ، وجامعة فاروق ، ومتاحف ومدارس وشوارع وقرى فلان .... وعلان !!

• ● •

ان الامم الناهضة الحية تعنى بدراسة تاريخها القومى دراسة مجدية ، ويبذل علماؤها وعشاق البحث فيها سنى حياتهم فى تتبع آثاره واحياء ما درس من أمجاده .

ومصر التى تكافح اعداءها فى الداخل والخارج كفاحا شاقا مريرا فى سبيل رفعة شأن الشعب واقرار سيادته ، فى حاجة الى تاريخ حافل يسجل على صفحاته صور البطولة وايات المجد والفخار .

نحن فى حاجة الى صور بارزة فى البطولة نحتذيها ، والى مثل عليا من ضروب الوطنية نقتدى بها ، وتدفعنا الى العمل والسير قدما الى الامام ، والتطلع بعيون باسمة مشرقة الى المستقبل .

لقد كان جزاء كل من يتصدى لنقد اعمال الحكام والاشادة بمزايا المواطن الصالح ، اما القتل واما النفى الى اعالى النيل ومصادرة مؤلفاته .

فالجبرتى لقى مصرعه فى مزارع شبرا على أثر نقده حكم محمد على فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » . وخليل سليم نقاش صودرت الاجزاء الاولى من سفره التاريخى « مصر للمصريين » وهى الاجـزاء التى تحدث فيها عن مباذل وآثام الخديو الخليع اسماعيل . والمنفلوطى واحمد حلمى واحمد فؤاد ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش حكم عليهم بالسجن والغرامة . وعلى الغاياتى ومحمود بيرم التونسى ومن قبلهما يعقوب صنوع وأديب اسحق اضطروا للفرار من مصر واللجوء الى عواصم الغرب بسبب نقدهم سياسة الحكام الاغراب المستبدين . وعباس العقاد قدم الى المحاكمة وسجن لمجرد كونه نقد عملا من اعمال الملك فؤاد فى مجلس النواب على الرغم من تمتعه بالحصانة البرلمانية ، وغيرهم كثيرون فقدوا أرزاقهم

واضطهدوا وشردوا واحرقت مؤلفاتهم فور صدورها بسبب انهم « عابوا فى الذات العلية » .

وفى الوقت الذى فرضت فيه رقابة صارمة على المطبوعات العربية وأشرف على تنفيذها أعوان الحاكم ، فتح الباب على مصراعيه لطائفة من المؤرخين الاجانب الذين باعوا ضمائرهم لقاء اثمان بخسة، فوضعوا سلسلة من المؤلفات حشوها بالطعن فى كفاية الشعب والحط من كفاح ابطاله والشك فى مقدرتهم ، مع تمجيد الحكام الأغراب تمجيدا يرفعهم الى مرتبة القداسة .

وبقى أمام مؤرخ مصر الحديثة مصدران يستقى منهما مادته :

اولهما : مصدر اجنبى شوهه أساطين الاستعمار الذين صوروا الشعب على انه ظل محكوما بأمم اجنبية، كالرعاة الهكسوس والفرس واليونان والرومان والاتراك والمماليك والعثمانيين، وان وقوع المصريين لعصور طويلة من الظلم والاستبداد قد طبع الطبيعة المصرية بطابع الاستسلام والخنوع ، ثم بوبوا التاريخ الى عصور اطلقت عليها اسماء غير مصرية ، كعصر الفرس والعصر الرومانى وعصر الاحتلال البريطانى ... واخيرا شوهوا سمعة البلاد واطنبوا فى سرد مزايا الحكم الاجنبى ، وكيف انه انقذ الفلاح من براثن الظلم وحرره من سيطرة المرابين وفداحة الضرائب والسخرة ، وعمل على أصلاح الاداة الحكومية وحمى الحرية الشخصية ووطد الثقة المالية بالبلاد .

ان هذه الترهات التى دونها المستعمرون فى تاريخ مصر الرسمى معناها ان الشعب لم يعرف فى أى دور من ادوار تاريخه المجيد العزة والكرامة والروح القومية . فضلا عن ان تبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه ان يدخل فى روع المواطنين ان مصر كانت مباحة للغزاة الفاتحين .

اما المصدر الثانى فهو المحفوظات التاريخية للدولة ، وقد ظلت هذه المحفوظات التى تشمل المكاتبات الرسمية والوثائق والاسانيد ودفاتر الروزنامة والحجج الشرعية ، والمعاهدات الدولية ، وملفات خدمة كبار الموظفين ، فى مقرها الاصلى فى القلعة . وكان الاطلاع عليها ميسورا لمن يشاء من الباحثين والمحققين اذ انها أصبحت ملكا للتاريخ وفى ذمة الزمان ، فاعتمد عليها المرحوم امين سامى فى وضع موسوعته التاريخية « تقويم النيل » اذ نقل منها وترجم عنها الوف الوثائق .

وجاء الملك فؤاد فنظر بعين الحذر والحيطة الى هذه الوثائق والاسانيد والسجلات الرسمية لان فيها مادة صالحة للمؤرخ الذى ينشد الكتابة عن مصر والحكم على رجالها فى امانة ونزاهة واخلاص، غير متحيز لناحية خاصة أو واقع تحت سيطرة امير أو سلطان ، فأشار بنقلها الى قصر عابدين حيث أفرد لها مكانا خاصا وعين لها الحفاظ والمترجمين الذين تعمدوا ابراز المحاسن من تاريخ بيت محمد على دون المساوىء والاضداد، وسخر طائفة من الكتاب الاجانب للدفاع عن سمعة أسرته ، ومنهم جبرائيل هانوتو والقاضى كرابيتس وهنرى دودل وساماركو وقطاوى ودوان والايوبى ، ورصد المال مكافأة لمن يبرز فى وضع مؤلفات تمجد من أعمال ابائه ، ثم امتد هذا النفاق التاريخى الى غيره من الحكام ، فزيفت مؤلفات عن محمد على وابراهيم واسماعيل وتوفيق ، وشوهت الحقائق تشويها غير مشرف لمن كتبوها ، وظهر الزعماء الصالحون فى صور بغيضة الى قلوب النشء ووصفوا بانهم « عصاة » و « رعاع » و « غوغاء » و « ثوار » و « خارجون على القانون » و « متمردون على الخلافة أو على سيد البلاد » .

• ● •

لقد مضى ذلك العصر ولن يعود ، مضى بكل ما يحتويه من مفاسد وشرور واثام

ان تدوين تاريخ مصر القومي على نسق جديد ينبغى ان يتم فى ظل التحرير ... يجب اعادة النظر فى اسفار التاريخ وان يستبعد منها كل ما يشتم منه رائحة التمجيد الكاذب، وابراز محاسن الزعامة الشعبية ومقوماتها ... يجب ان توضع الوثائق التاريخية تحت تصرف المؤرخين والباحثين بعد ترجمتها ونشرها مبوبة حسب ازمانها وموضوعاتها واشخاصها والاحداث البارزة فيها ، وان تقوم الدولة بانشاء دار عامة للمحفوظات الرسمية تكون بمثابة مستودع للتاريخ ، والعناية باعداد من فى وسعهم فهم هذه الحقائق والاسانيد ودرسها وترجمتها توطئة لتدوين تاريخ الشعب وطوائفه وكفاحه تدوينا صحيحا .

• ● •

يهتم المؤرخون عادة بتدوين المصادر التى اعتمدوا عليها فى تأليف أسفارهم واستمدوا منها مادتهم وهم يطلقون على هذه المصادر والمراجع « مكتبة الكتاب » ولكن معظمهم يعمد الى نقل فهارس من دور الكتب باسماء عشرات الكتب الخاصة بموضوعه وان لم يطلع الا على النذر اليسير منها .

لذلك سنضرب صفحا عن ذكر المراجع والمصادر والاسانيد والمحفوظات والرسائل التى رجعنا اليها واقتبسنا منها مادة هذا الكتاب ، فلم يكن يعنينا ونحن غارقين وسط هذا الخضم الزاخر بالمواد التاريخية ، الا ان نظفر بلب الموضوع الذى يدور فى فلكه مادة هذا الكتاب .

على اننا نخص بالذكر بعض المصادر الاصيلة التى أخفيت زمنا عن العيون والارصاد ومنها :

١ ـ مجموعة من الوثائق والاسانيد بعضها بقسم المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى « عابدين سابقا » والاخر فى متحف سراى طوب قابو باستامبول ولا سيما صور البرقيات والمراسلات التى تبودلت بين عابدين والقبو كتخدائية باستامبول حول شئون مصر .

٢ ـ مذكرات خطية لمحمد عارف « باشا » رئيس مجلس الاحكام بعنوان : عبر البشر فى أعيان القرن الثالث عشر ، ترجمها الاستاذ محمود نفعى ولا توجد منها سوى نسخة واحدة تركية بمكتبة جامع السلطان احمد باستامبول ونسخة وحيدة اخرى من الترجمة العربية .

٣ ـ مذكرات خطية لخطيب الثورة عبد الله نديم بعنوان : مذكراتى عن خديو مصر الاسبق اسماعيل باشا .

٤ ـ مذكرات خطية لاسكندر فهمى باشا ، احد مديرى مصلحة السكك الحديدية ، عن أحداث عاصرها فى أيام ولاة مصر السابقين ودونها فى حينها فى صورة يوميات .

٥ ـ مذكرات خطية لامين سامى باشا احد كبار رجال التربية والتعليم فى مصر عن بعض الاحداث الجسام التى عاصرها .

اما المؤلفات الافرنجية فلا تقع تحت حصر وأهمها : الكتب الصفراء والزرقاء والبيضاء التى أصدرتها الحكومات الاجنبية عن المسألة المصرية .

• ● •

وليس من شك فى أن القارىء الحصيف سيخرج من هذا الكتاب بالنتائج التالية :

١ — ان مصر سبقت جميع الشعوب فى اعلان حقوق الانسان .. حدث هذا عندما اجتمع العلماء والزعماء وحرروا الوثيقة الاجتماعية الكبرى التى أوقفوا بها الحكام الطغاة عند حدودهم وألزموهم بالاعتراف بحقوق المواطنين السياسية والاجتماعية .

٢ — ان عزل الحاكم الظالم حق من حقوق الشعب يمارسه حسب نصوص الشريعة السمحاء ... وقع هذا عندما نهض الشعب ليعزل الوالى احمد خورشيد ، وعندما اجتمع أعضاء « الديوان العرفى » فى القاهرة ووقعوا وثيقة بعزل الخديو توفيق . وعندما طلب قادة الثورة باسم الشعب الى اخر ملوك مصر فاروق التنازل عن العرش .

٣ — ان الزعامة الشعبية التى حاول محمد على ان يبيدها بعد القضاء على مكرم والشرقاوى ومشايخ الازهر ، برزت قوية واضحة بعد ستين عاما بقيادة البطل الفلاح احمد عرابى الذى صاح صيحته التى دوت فى سمع الزمان : لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم .

٤ — ان حكام مصر الاغراب منحوا الاجانب وبنى جلدتهم معظم الاراضى التى كان المصريون يملكونها بالوراثة ، ثم سلطوا على الفلاحين أعوانهم من جباة الضرائب لتركهم جياعا ، وفى جميع المناطق كان القتل والخطف والاعتداء على النفس والعرض من الامور العادية ، ولم يكن أمام الاحرار الا ان يختاروا بين الموت والحرية .

٥ — ان الثورة الوطنية الكبرى التى قادها عرابى انتكست لانه كان يواجه قوات تفوقه عددا وعدة ، وكانت الخيانة وضعف الروح المعنوية متفشية بين الافراد والجماعات ، وكان عرابى مضطرا الى أن يختار قواده ومعاونيه من المتمصرين الذين عجلت خيانتهم بخراب البلاد .

٦ ـ ان الذين غرسوا بذور الكراهية فى نفوس اخواننا السودانيين وأوقعوا بهم المظالم كانوا من سلالة العثمانيين ومن يلوذ بهم ، وليسوا من المصريين الاقحاح كما ينسب ذلك خطأ الينا ، فكما كانوا يحقرون المصرى بلفظة « فلاح » كذلك كانوا يسبون السودانى بكلمة « عبد ».

٧ ـ على الرغم من أعمال البطش وكبت الحريات والتنكيل بالمواطنين ، والتعطش الى الدماء ، سار الشعب فى طريق الكفاح والجهاد حتى يثبت المبادىء والمثل العليا ، وكانت الثورة على الاستبداد السياسى وعلى الظلم الاجتماعى ثورة متصلة لم تهدأ حتى تقيم فى الوطن حياة حرة سليمة ، وتجلى الروح المصرى بوراثاته الاصيلة وفضائله العالية .

٨ ـ ان الحاكم والحكم كانا معناهما الخيانة . وكانت الثقة مفقودة بين الحكام وبين المحكومين ، لان الحكم لم يكن لابناء الشعب ، بل ان مصر كانت تحكم من الخارج ، تارة من استامبول واخرى من لندن أو من باريس بوساطة سماسرة الاستعمار ، وكان الحكم عبارة عن شركة يتبادل النفع فيها المستعمر والحاكم على حساب المجموع.

٩ ـ ان الحدث الاكبر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ان مصر لاول مرة منذ عهد قمبيز تحكم من القاهرة وبرجال من ابنائها ، وان العزة القومية واقرار السيادة الشعبية ، بعثت مع هذه الثورة .

١٠ ـ ان ٢٢ مليونا من الاحرار يزهون اليوم على ضفاف النيل بوطن جديد يشيدون صرحه ويعملون من اجل رفعة شأنه ، بفضل جهود ابن بار من ابناء مصر هو جمال عبد الناصر ورفاقه من قادة الثورة الذين قضوا على الملكية وقوضوا صرح الاقطاع والرجعية ، وعمموا العدالة الاجتماعية ، ثم أقاموا الجمهورية ، وحرروا وطنهم من الاستعمار ، وها هم يقودون الصفوف الى النهضة لتلحق مصر بركب الحضارة وعجلة لتطور .

فليفتح الجيل الناشىء عيونه على هذه الحقائق ويستوعبها ، وليؤمن معنا بأن صفحات هذا الكتاب هى بمثابة تحد لتلفيقات تاريخية وتفنيد لمفتريات وارهاصات سبق ان صاغها ونشرها قوم مضللون .

القاهرة ـ أول يناير ١٩٥٥

محمد امين حسونة

كشاف
بالكلمات الدخيلة والمصطلحات الاعجمية

واسماء المناصب العثمانية الواردة فى الوثائق والاسانيد التاريخية

ابريقدار : حامل ابريق الماء للوضوء ، وهى من الوظائف الرئيسية داخل القصور .

ابعاديات : مزارع أصلها اراضى بور .

ارناؤود : جنود البانيون برعوا فى التلصص وقطع الطرق ، يرتدون سراويل فضفاضة وصدارا مكلف بصفائح من المعدن والسلاسل وعلى رءوسهم طربوش أحمر .

أغـا : اذا ذكرت مفردة ، فالمراد بها « المستحفظان » أى محافظ العاصمة ومدير الشرطة بها ، واذا اضيفت الى اللقب عنى بها « رئيس » . ثم اطلقت فيما بعد على الرؤساء العسكريين .

الامراء المصرلية: أى المماليك . وكلمة مملوك اسم مفعول من « ملك » وهم ذرارى الارقاء الذين كان النخاسون يبيعونهم وهم صغار السن الى الحكام والسراة ، فشبوا على الفروسية والاقدام ووصلوا الى مراكز الصدارة فى الدولة وكانوا اصحاب الكلمة النافذة .

التزام : فى الوثائق المالية بمعنى أخذ بعض ايرادات الحكومة لحساب الشخص والتعهد بتحصيل اموالها وتوريدها للخزانة العامة فى مقابل ربح أو « فائض » معين . والمتعهد بالتحصيل والتوريد يطلق عليه اسم « الملتزم » . وكانت الحكومة اذا ارادت توجيه التزام تحصيل اموال احدى النواحى تطرحه فى المزاد ، ومن يرسو عليه المزاد يصبح ملتزما معتمدا من الحكومة ويشرع فى تحصيل الاموال بمساعدة حاكم الولاية وكاشفها وعساكرها وتحت يده محصلون من طرفه .

الجى : سـفير .
امرارية : ديوان المرور .
اميراخور : امين اسطبل .
امير الحج : من كبار موظفى الدولة ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل الى الحرمين فى موسم الحج
امين العنابر : مدير مخازن الحكومة التى تشون فيها الحاصلات الزراعية
انجرارية : ديوان النقل النهرى .
انختارأغاسى : ناظر القصر أو أمين المفاتيح .
انكشارية : فرقة من الجيش العثمانى النظامى ، انشأها السلطان أورخان ، وكانت مكونة من ابناء الذميين الذين يقعون اسرى منذ الصغر ، فيشبون على تعاليم الاسلام ويتلقون تعليما عسكريا خاصا ، يوم كانت جيوش الدول الاخرى جيوشا مؤقتة تعبأ لفترة قصيرة ، واعتمد آل عثمان على الانكشارية فى توطيد ملكهم فى الداخل وفى الخارج وفى الدفاع عن ممتلكاتهم ، ولكن شرورهم كانت قد استفحلت فى عهد السلطان محمود الثانى فأوعز الى « العساكر المنصورة » بابادتهم وكان عددهم قد بلغ زهاء اربعين الفا ، فبدأت المجازر فى استامبول فى عام ١٨٢٦ .
اودة باشا : ضابط فى الانكشارية ، وهو احيانا رسول من قبل المماليك والعلماء الى الوالى ، يذهب اليه حاملا قرار الديوان بعزله ، ويطلق عليه العامة اسم « ابو طبق » .
اوغلو : ابنـه .
ايج اغاسية : خدم خصوصيون فى داخل الحرم .
باب العالى : مقر الصدارة العظمى ، أى مركز رياسة الحكومة العثمانية باستامبول .
بارة : جزء من اربعين من القرش .
باش اختيار : اقدم ضابط فى الجيش .
باشبوزق : جنود مرتزقة .
باشبوغ : القائد العـام .
باشى اوغلان : رئيس الغلمان المكلفون بالخدمة داخل القصور .

باشوية ذات ذنبين : هى التى تخول لحاملها ان يضع ذؤابتين من شعر الخيل تميزه عن الاخرين .
بايردار : ومثلها علم دار ، أى حامل العلم فى الكتيبة العسكرية .
بشلك : خمسة قروش .
بصاص : مخبر فى البوليس .
بلص : رشـوة .
بلوك باشا : ضابط فصيلة .
بندقلى : صانع أسلحة .
بيت المال : وزارة الماليـة .
بير لربيك : الوالى الذى ينوب عن السلطان فى مزاولة سلطته .
تاريع : المسـاحة .
تتر : سـاعى .
تسريح : رسم يدفع على المحصولات الزراعية عند ارسالها من بلد الى آخر .
تفكجية : حملة البنادق أو الذين يتولون اصلاحها .
تعليمجى : مدرب .
تمـن : كانت القاهرة مقسمة الى ثمانية اقسام لكل قسم مركز للبوليس اطلق عليه اسم « تمن » .
توتينجى : خادم لاعدد لفافات التبغ .
جابى : محصل الضرائب .
جامكية : مرتبات .
جبخانة : مدفعية .
جـدد : جزء من عشرة من اجزاء البارة .
جنتمكان : ساكن الجنة .
جندارجى : خادم لغسل الملابس .
جهادية : عساكر نظامية .
جوخدار : حاجب . والاصل فى الكلمة أن أبواب مكاتب كبار موظفى الدولة كانت من الجوخ الاخضر ، فالرجـل الذى يقف خلفها « جوخ دار » .
جوربجى : عمدة .
حاصل : مخزن .

خازندار : امين الخزانة ، ووظيفته هى ان يحمل الجزية السنوية الى العالى .

خـان : وكالة . مكان للمبيت والاقامة المؤقتة ، بمثابة فندق .

خشداش : زملاء فى خدمة قصر واحد .

خفيـة : البوليس السرى .

خوجه‌باشى : كبير المدرسين .

داورى : الوالى . وداور مصر أى حاكم مصر .

داى : خال . ويطلق الاسم على حاكم الجزائر . ومثلها «باى» أى بك ويطلق على حاكم تونس .

دبوس : ألة من حديد ذات اضلاع تستعمل فى الحروب واحيانا فى تعذيب العصاة من الجند .

دخولية : عوائد تدفع عن التجارة التى تدخل الى العواصم والمدن.

دده : رئيس الدراويش

دفترخانة : دار المحفوظات .

دفتر دار : مدير الايرادات والمصروفات، والمشرف على ضبطها وحفظ سجلات الاراضى الزراعية .

دكريتو : مرسوم .

دلاتية : فرقة من فرسان الجيش العثمانى . خليـط من المغاربة والسوريين والاكراد ، قائدهم برتبة « دليل باشى » أى رئيس الادلاء ، ثم انحرف المعنى وصارت كلمة « دلاة » معناها الهوس أو الجنون ، وكان الدلاتية يتحمسون فى القتال واقتحام المخاطر ، وكان سلاحهم السيف وغدارتان ولباس الرأس عندهم قلنسوة اسطوانية من اللبد الاسود ويحيط بأسفلها شريط من التيل انبوبى الشكل .

دوربينجى : الناظر بالمنظار المكبر الى السفن القادمة الى الميناء .

دونتمة : أسطول

دويدار : حامل الدواة أى المحبرة .

ديار رومية : الجزء الذى كانت تركيا تحكمه من بلاد اليونان .

ديوان افندى: واحيانا افنديسى ، أى سكرتير الوالى ومدير مكتبه .

ديوان‌الصغير: مقره القلعة ويؤلف من مندوبين عن الفرق العسـكرية ومن الكتخدا والدفتردار والروزنامجى ويعقد يوميا .

ديوان الكبير: مقره القلعة أيضا ويؤلف من رؤساء فرق الحامية العثمانية وبعض كبار الموظفين ومنهم الدفتردار والروزنامجى وامير الحج وقاضى مصر ورؤساء المذاهب الاربعة ، والعلماء والاشراف ، ومهمته النظر فى الشئون الرئيسية للحكومة .

وكان الوالى لا يشهد جلسات كل من المجلسين وانما يتابع المداولات من وراء ستار .

ديوان المكس: الجمرك .

روزنامجى: المشرف على جمع الضرائب وضبط حساباتها .

روزنامة: ادارة جمع الضرائب .

زردخانة: واحيانا السلاح خانة ومعناها بيت السلاح وتحتوى عادة على السيوف والقسى والنشاب والدروع من الزرد ، ويرؤسها «امير سلاح» يعاونه فريق من الضباط يعرفون باسم « السلاح دارية » .

سر جشمة: واحيانا صارى جشمة أى قائد قوة غير نظامية .

سر خفية : رئيس البوليس السياسى .

سر عسكر: واحيانا صارى عسكر ، أى القائد العام .

سفارتنامة: التقرير الذى يرفعه السفير .

سلحدار: امين الاسلحة .

سنجق: مدير الاقليم .

سياستنامة: دفتر السياسة ، والمقصود به دفتر نظام الحكم .

شاه بندر: نقيب التجار .

شاهد: موظف مهمته حفظ سجل اراضى الالتزام ، حيث يدون فيه مساحة الارض واسماء المستثمرين .

شبوقجى: خادم لاعداد الشبق للتدخين .

شماشرجى: الخادم الموكل اليه بملابس الرجال .

شنك: وصحتها « شنلك » أى الصواريخ التى تطلق فى الفضاء فى الحفلات .

شيخ البلد: حاكم مصر وصاحب السلطة العليا فى البلاد والمرجع الاول فى شئون الدولة ، وتماثل وظيفته «رئيس الحكومة فى الوقت الحاضر » .

شيخ زامة: مورد عمال .

صدر اعظم : رئيس الوزارة
ضبطية : دار الشرطة .
ضربخانة : دار سك النقود .
طبردارية : لفظ فارسى معناه الفأس ، وحملة الاطبار بمثابة الحرس الخاص للسلطان يلازمونه فى الاحتفالات ويرؤسهم « امير طبر » ويحملون عادة البلطة .
طبلخانة : الموسيقى العسكرية .
طلخان : غطاء رسمى للرأس « قاووق » يلبسه كبار موظفى الدولة
طوخ : شارة الوزير ، وهى عبارة عن عصا طويلة عليها ذؤابة يحملها التابع امام جواده .
طوفنجى : حامل القربينة وهى سلاح بين البندقية والغدارة .
عرضى : معسكر ، واصلها اوردو أى فيلق الجيش .
عسكرباشى : رئيس الجند .
غاروقة : عقد يتسلم الدائن بمقتضاه ارض المدين، يستغلها وينتفع بثمارها نظير فائدة حتى يسدد المدين هذا الدين .
فردة : أو فرضة ، وهو ما تفرضه الحكومة من ضريبة على الذكور من مختلف المذاهب فوق الثانية عشرة من العمر ، وقيمة الفرضة بين ١٥ و ٦٠ قرشا سنويا .
فرمان : مرسوم الولاية .
قابجى : رسول من كبار موظفى الباب العالى .
قادين افندى: السيدة الكبيرة فى القصر .
قاضى البهار : مدير قسم من جمرك السويس خاص بالتوابل والبن التى ترد الى مصر من الشرق الاقصى عن طريق البحر الاحمر .
قاضى عسكر: قاضى القضاة والمشرف على الانظمة القضائية ، يعينه السلطان العثمانى لمدة عام أو عامين ويعاونه قضاة آخرون
قافلة باشى : من كبار موظفى الدولة ، مهمته تفتيش القوافل القادمة الى مصر والصادرة عنها، أى بمثابة مدير سلاح الحدود.
قبودان دريا : امير البحار ، وكان فى مصر ثلاثة قبودان للمحافظة على ثغور : الاسكندرية ودمياط والسويس باعتبارها ابواب مصر .
قبوكتخدا : وكيل الوالى لدى الباب العالى ، بمقام سفير .

قزلار اغاسي : رئيس الخصيان فى القصور .
قمشجى : سائس .
قليونجى : بحار واحيانا « غليونجى » .
قنابر : قنابل .
قهوجى باشا : رئيس سقاة القهوة فى القصور .
قوجه باشي : رئيس قرية من النصارى .
كاشف : وكيل السنجق فى المديرية ، ووظيفته ضبط الامن والاشراف على جمع الضرائب .
كافل الديار : حاميها وحاكمها .
كبكبة : موكب .
كتخدا : كلمة فارسية اصلها « كد خدا » أى رب المنزل . وفى الاصطلاح الادارى بمعنى الوكيل أو النائب ، فهو الذى ينظر فى المسائل تمهيدا لعرضها على الوالى ، ويصدر أوامره رأسا فى المسائل الثانوية ، ويحل محل الوالى فى غيابه أو عندما يشغر منصب الولاية ، واحيانا يطلق عليه اسم « كخيا » اختصارا .
كشكول : صحن من الخشب يضع فيه الدرويش طعامه ويعلقه بسلسلة فى عنقه .
كشوفية : نصيب الكشاف والسنجق من فائض الضرائب فى مقابل حماية الفلاحين من سطوة البدو ، وحماية الملتزمين عند تحصيل الضرائب .
كلاف : يعنى بمواشى الوسية ويقوم بتطبيبها وكذلك مواشى الفلاحين فى مقابل حصوله على جزء من المحصول .
كلخانة : أى « بيت الورد » وهو اسم قصر من قصور السلطان نسب اليه الخط الريحانى أو الخط الشريف الذى تكتب به المراسيم والاوامر السلطانية .
كلف : الغرامات .
كلفا : وصيفة فى القصور .
كيسة : خمسمائة قرش . ومثلها الحمل وقدره مائة الف قرش
كيلارجى : امين مخزن الطعام .
لالا : مربى فى القصور .
مابين : الديوان السلطانى . وما ـ بين كلمة عربية يقصد بها ما بين السلطان والحكومة .

مباشر : فى الاصل الموظف الذى يباشر الامور المكلف بتأديتها ، وعرف « المباشر » بانه الذى يدير بيت المال وشئون الحسابات والاشراف على جمع الضرائب .

متسلم : موظف كبير يتولى شئون البلد ومراقبة الاعمال الحكومية

محتسب : موظف له الاشراف على الاسواق والتفتيش على الباعة ومراقبة التجار لمنع وقوع الغش .

مسافرخانة : بيت الضيافة .

مستحفظان: وجاق الحرس الذى يناط بهحفظ الامن فى داخل المدينة

معمارجى : مدير مبانى الحكومة ، ومن اختصاصه أيضا : الاشراف على ترميم الحصون والقلاع .

معجون أغاسى: صيدلى .

مفروزة : فرقة من الحرس الاهلى انشأها عباس الاول .

ملتزم : شخص يتعهد بتحصيل الضرائب للدولة فى منطقة معينة تسمى « دائرة الالتزام »

مهردار : حامل الاختام .

مهم : احتفال .

ناظر الجيش : القائد العام ـ وكان يعاون ناظر الجيش اربعة من كبار القادة وهم : صاحب ديوان الجيش. ومستوفى الجيش. ومستوفى اقطاع العرب . ومستوفى الرزق .

نوبة : موسيقى خاصة بالحاكم .

والى : صاحب السلطة العليا فى البلاد ، يعينه السلطان العثمانى لفترة أقصاها ثلاث سنوات ، وأهم وظائفه مراقبة تنفيذ الاوامر السلطانية . ودعوة الديوان الى الانعقاد . وتعيين حكام الاقاليم .

وجاق : سلك عسكرى ، أو بمعنى آخر فرقة عسكرية ، وكان فى مصر ست فرق لكل منها ضباط يسمون « الوجاقلية » .

وسية : الارض التى تمنحها الدولة لملتزمى الضرائب ، وهى عادة معفاة من الضرائب ، ومنها ما يخصص للانفاق من ريعها على وجوه البر وتسمى فى هـذه الحالة « أرض رزقة بلا مال » .

وكيل خرج : امين المحفوظات ، لان الاوراق الرسمية كانت توضع فى غرارة « خرج » .

ويركو : ضريبة تفرض على اصحاب المهن وعلى الصناع .

يشقجى : خادم للعناية بمخادع النوم .

يسرجى : تاجر رقيق .

يول اغاسى : حارس طريق ـ خفير ـ وبالاخص الطرق المؤدية الى ينابيع المياه للشرب .

الشعب خالد لا يموت

نشوء فكرة الحملة الفرنسية ـ المقاومة فى الاسكندرية ـ موقف حاكم الثغر السيد محمد كريم ـ معركة شبرا خيت ـ معركة الاهرام ـ الكفاح المسلح فى الاقاليم ـ ثورة أكتوبر ـ معارك الفداء والتضحية ـ ثورة مارس ـ مصرع كليبر ـ جلاء القوات الفرنسية

كانت مصر ولا تزال عروس الشرق ودرته، وعقد العالم المتوسط ومطمح انظار الدول . ولو كانت بنيلها وواديها الخصيب فى بقعة اخرى من بقاع الارض غير موقعها الحالى لما تطلعت اليها الانظار ولما تسابقت اليها المطامع ، اذ ان ثروتها الطبيعية ليست فى حد ذاتها مما تبعث على الطمع أو الجشع فكل ما يخرج من ارضها يكاد يكفى ابناءها . ولكن موقعها الجغرافى بين قارات ثلاث جعل لها أهمية ستراتيجية ممتازة ، ومركزا تجاريا تحسد عليه حتى أدى التنافس بين الدول الى فكرة عامة وهى ان من يحتل أرض مصر يملك زمام الشرق ويسيطر على طريق الهند .

شاعت هذه الفكرة بين الفرنسيين وهم بسبيل تكوين امبراطوريتهم والتوسع فى الفتح نحو الشرق ، فنادوا بتجريد حملة عسكرية على مصر لحفظ تجارة فرنسا فى حوض البحر الاحمر ومنطقة الشرق الاوسط ، واتخاذ مصر قاعدة للهجوم على انجلترا فى الهند وهدم مراكزها التجارية فى الشرق ، وايجاد اسواق لتصريف انتاجهم الصناعى ، والنظر فى حفر برزخ السويس للسيطرة على المواصلات مع الشرق الادنى .

ومنذ يوم ٩ مايو عام ١٧٩٨ نشرت سفن الاسطول الفرنسى قلاعها واعلامها فى البحر الابيض المتوسط ووجهتها ثغر الاسكندرية ، وبعد ان عرجت على مالطة وكريت بقصد تضليل الاسطول البريطانى ظهرت امام شاطىء ابى قير فى اليوم الاول من شهر يوليو عام ١٧٩٨ فبرزت امام الضباط والجند المآذن والمبانى وعمود السوارى والمنارة وقد اتشحت بأزار الفجر .

وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين ثغرا صغيرا لا يزيد عدد سكانه على عشرة آلاف نسمة ، ولا توجد به حامية قوية تذود عنه ، وليس هناك من الحصون والمدافع والذخائر سوى منشآت عتيقة لا تصلح لصد عدوان ، ولكن كان على رأس الثغر حاكم مصرى قح هو السيد محمد كريم ، فسرعان ما تزعم حركة الدفاع عن المدينة ، فرمم

الحصون والقلاع ترميما ساذجا توحى به الضرورة العاجلة ، وجهزها بما استطاع العثور عليه من ذخيرة وعتاد ، وركب المدافع العتيقة على الاسوار ، وأهاب بالمواطنين الى حمل السلاح ، ثم استنجد بفرسان البدو فى الصحراء الغربية والبحيرة للانضمام الى قواته ومناوشة العدو وصد هجومه .

وكادت احلام نابليون بونابرت ، قائد الحملة ، تطيش ، فقد لقى حركة مقاومة عنيفة على الرغم من الدعايات الجوفاء التى كان يبثها وزعمه بان الفرنسيين هبطوا أرض النيل لتخليصها من « السناجق المماليك الذين يتسلطون على البلاد ويختصون انفسهم بكل شىء حسن فيها . وان الفرنسيين مسلمون مخلصون ، واصدقاء السلطان العثمانى وأعدى اعدائه » .

واحتشد الشعب السكندرى على الاسوار وفى الابراج يحملون السلاح ويطلقون النار على القوات المغيرة ، وكاد نابليون نفسه يذهب ضحية الرصاص الذى كان يتطاير حول رأسه ورءوس اركان حربه . وخشى ان تحدث مذبحة فى المدينة يتردد صداها فى بقية المدن وفى العاصمة فتكون دعاية سيئة ضد القوات التى زعم بانها حليفة السلطان .

استبسل محمد كريم فى الدفاع عن المدينة بما يملك من حول وقوة ، وقامت الاضطرابات ونشبت القلاقل فى وجه الجيش الفرنسى ، وبعث السيد محمد كريم الى مراد بك حاكم مصر يطلب النجدة من القاهرة . بيد ان مراد بك تقاعس عن نجدته ، واخيرا رأى سكان الثغر ان الكفاح قد لا يثمر امام قوة مسلحة تفوقهم عددا وعدة فهادنوا الفرنسيين الى ان تسنح لهم الفرصة للانقضاض عليهم .

وتلقى نابليون السيد محمد كريم فى مجلس من الوجوه والاعيان بقوله : لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان فى وسعى ان اعاملك معاملة الاسير ، ولكن نظرا الى استبسالك فى الدفاع أعيد اليك سلاحك ، وأتعشم ان تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة فاسدة .

وترك نابليون الاسكندرية فى عهدة الجنرال كليبر ، وواصل الزحف بقواته صوب القاهرة بعد ان أوصاه بالتودد الى السكان ومعاملتهم بالحسنى ، بيد ان نابليون ما كاد ينزح عن الثغر حتى هب السكان لاستئناف القتال ، وبدأوا يناوشون القوات المحتلة ، محاولين النيل

من هيبتها ، فاضطر كليبر الى ان يقبض على السيد محمد كريم واتهامه بأثارة الفتن والتواطؤ مع اعداء الجمهورية ، ثم ارسله الى بارجة فرنسية لاعتقاله وانذر السكان بتسليم اسلحتهم ، وتوعد من يتأخر عن التسليم بالاعدام ، ثم فرض غرامة قدرها ثلاثمائة الف فرنك على التجار .

اما السيد محمد كريم فسيق الى رشيد ، ومنها نقل الى القاهرة حيث أجرى هناك تحقيق معه بشأن تحريضه السكان على المقاومة واثارة القلاقل ، والتواطؤ مع المماليك ومع البدو ، واخيرا قدم الى المحاكمة وحكم عليه بالاعدام ، وسمح له بان يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثين الف ريال فى بحر اربع وعشرين ساعة فلم يقبل الدفع وقال : اذا كان مقدرا لى ان أعيش فعلام ادفع الغرامة ؟

ومات شهيدا وطوف برأسه فى شوارع العاصمة ليكون موضع عبرة وذكرى ، فكان السيد محمد كريم أول مصرى ضحى به على مذبح الاستعمار الاوربى .

• • •

وظن الفرنسيون انه بمجرد أن تطأ أقدامهم ثرى الكنانة فان المصريين سيفتحون لهم اذرعتهم مرحبين بهم لانهم سيخلصونهم من جور المماليك ، متشبهين بسكان القسطنطينية الذين كانوا يهتفون لجيوش محمد الفاتح : ألعمامة ولا التاج البابوى .

بيد ان المقاومة التى لقوها فى الاسكندرية وعلى طول الطريق الى القاهرة خيبت ظنونهم ، بل انهم بعد ان احتلوا العاصمة وقهروا المماليك فى معركة الاهرام اخذوا يتصورون بانهم قد ملكوا مصر ودانت لهم رقاب أهلها . ولكن فاتهم ان اية قوة معادية لا يمكن أن تخضع شعبا ينفر بفطرته من الاستعمار ، فهبت الثورات فى وجوههم وكابدوا أهوالا ، وكانوا أقرب الى ان يكونوا محصورين منهم بالفاتحين .

كان نابليون يحلم بان احتلال مصر هو خطوة أولى لتأسيس امبراطورية فرنسية فى الشرق والتغلب على أوربا المتألبة على فرنسا . بيد أن الامور لم تجر على نحو ما يشتهى ، فقد ثار الشعب ثورات متتالية فى سبيل الظفر بالحرية والكرامة ، فأضطر الفرنسيون الى ان يسلكوا مسلك القسوة والبطش . قبضوا على الزعماء كرهائن ،

واقدموا على اعتقال العلماء لاتفه الاسباب ، وقاموا بأعمال تعذيب وارهاب لا تختلف فى شىء عن همجية القرون الوسطى ، وصوبوا نيران مدافعهم الى قلب العاصمة بغية هدم مراكز التكتلات الشعبية فى المساجد والاسواق ، واسترسلوا فى ضروب التعذيب والتخريب والسلب والنهب ، واعدموا المكافحين وقطعوا رءوسهم وطافوا بها فى الطرقات ارهابا للمواطنين ، وجلبا للطاعة والخضوع ، ثم فرضوا الغرامات والضرائب الباهظة ، وصادروا الاموال ، وسخروا دواب النقل وارهقوا كواهل الشعب بسلسلة طويلة من المظالم .

ولقد عمدوا الى المساجد ودور العلم وبوابات الحارات فهدموها حتى لا تعوق تحركاتهم العسكرية عن التوغل وقمع حركات المكافحين، ومنعهم من التحصن ، وخربوا البساتين وقطعوا الاشجار واقتلعوا ابواب المنازل وشبابيكها لاتخاذ حطبها وخشبها وقودا .

وحاول نابليون ان يحطم الروح المعنوية فى نفوس المصريين ويبعث اليأس الى نفوسهم ببياناته ونشراته حيث قال فى احداها : وأعلموا ان أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية ، فيجب عليكم ان تعتقدوا ذلك وتركزوه فى اذهانكم كما تعتقدون بوحدانية الله تعالى .

بيد ان هذه الحملة العسكرية المقرونة بالبطش والقسوة انتهت الى الاخفاق الذريع ، اذ رفض الشعب الرضوخ لاهواء المستعمرين وصمد أمام اطماعهم فى عزم واصرار ، وبرزت من خلال الاحداث والمحن شخصية الشعب المصرى ، بعد ان مرن على النضال والكفاح، وصقلت الشدائد والتجارب روحه الفتية . وانجبت الثورة طائفة من الزعماء والقادة الذين قادوا خطاه ووجهوا جهوده ووحدوا قواه للظفر بالحرية والكرامة .

بعث السيد محمد كريم حاكم الثغر الى مراد بك فى القاهرة ينبئه بظهور الاسطول الفرنسى على شواطىء الاسكندرية ويقول : انه يتألف من سفن كثيرة لا أول لها ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله ادركونا بالرجال .

فلما قرأ مراد بك ذلك الجواب غضب غضبة شديدة واجتمع بالامراء وبالوالى العثمانى ابو بكر باشا وبقادة الجند والوجوه وعلماء الازهر ، وقد صور الخيال لمراد بك بان هؤلاء الفرنجة يقومون بغزو

دينى وانه لا يخرج عن كونه انتقام لهزيمة لويس التاسع واسره فى مدينة المنصورة ، ثم ركبه الغرور فصاح فيمن حوله : سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنابك خيلى .

وأخذ مراد بك يتأهب ويستعد لمنازلة « جيش الكفار الكثير العدد والعدة » . فصادر الاموال وسلب ما يحتاجه الجيش من مؤون وخيام دون أن يدفع الثمن ، ثم شرع فى التحول مع جنده لملاقاة الفرنسيين عند الرحمانية ، وأخذ معه المدافع والبارود وفى ركابه فرسان البدو بما يقدر عددهم جميعا بنحو عشرين الف مقاتل .

وفى ١٢ يوليو التقى الجيشان عند شبراخيت ، ونثرت الشمس اشعتها الذهبية فوق خوذ المماليك واسلحتهم وملابسهم المذهبة التى يختالون بها فوق صهوات جيادهم ، ودارت المناوشات بين الفريقين ، واظهر المماليك فيها من ضروب البسالة والاقدام وخفة الحركات ما ملأ صدور الفرنسيين اعجابا واجلالا بهم ، الى ان احتدم القتال بين الفريقين ، ولم يكن من السهل على المماليك وهم لم يلتحموا فى حروب منذ عشرات السنين ان يقهروا جيشا مدربا تدريبا فنيا ومجهزا بأحدث الاسلحة ويقوده رجل عسكرى من عباقرة القواد .

ووصلت الانباء الى القاهرة عن هزيمة المماليك ، فباتت العاصمة ليلتها فى رعب وفزع ، ونودى بالنفير العام ، فاجتمع العلماء فى الازهر ، وتحفز الشعب للدفاع ، وتطوع المواطنون بالمال والانفس ، وهبط السيد عمر مكرم نقيب الاشراف من القلعة ناشرا « البيرق النبوى » الى بولاق وحوله الالوف من أفراد الشعب وهم يهللون ويكبرون ومعهم الطبول والاعلام والطاسات .

أهاب السيد عمر مكرم بالشعب للدفاع عن عاصمة العروبة والاسلام فلبى الشعب النداء ، خرج الرجال والشبان وجاد كل منهم بماله وروحه ، اشتروا السلاح والمؤون والخيام ، واقاموا المتاريس فى الشوارع واخيرا تجمعوا فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل .

• ● •

تعد معركة الاهرام من المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر ، شأنها شأن مواقع : اليرموك التى قضت على السلطة الرومانية المسيحية فى اسيا الصغرى . والقادسية التى قضت على الدولة الفارسية . وفتح القسطنطينية الذى قضى على الدولة البيزنطية وعبد الطريق امام العثمانيين فى البلقان الى ان وصلوا الى فيينا .

كذلك كانت معركة الاهرام ، فقد قضت على المماليك وادالت دولتهم ، وكان الغرور قد صور لهم بان الفرنسيين سوف يلقون حتفهم ويحفرون قبورهم ويحل القضاء بهم عند سفح الاهرام .

شرع المماليك يستعدون للنزال ، فالفوا جيشين : الاول ، بقيادة مراد بك ، ويمتد من بشتيل الى امبابة فمنطقة اهرام الجيزة . فالميمنة ترتكز على شاطىء النيل وقاعدتها امبابة وفيها الاستحكامات والمدافع .

والميسرة على مقربة من الاهرام وفيها الفرسان وسبعة الاف متطوع من المصريين وفى اقصاها فرسان البدو ، وبينها القلب ويتكون من عشرة الاف مملوك والفين من الاغوات .

وهناك الاسطول النهرى ويحرس هذه القوات من ساحل امبابة الى مصر العتيقة فالجيزة .. وقدر عدد المدافعين جميعا بخمسين الف مقاتل بخلاف المصريين .

اما الجيش الثانى بقيادة ابراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل ، ومن حوله سكان القاهرة يحملون الطبول والزمور لتشجيع المقاتلين .

وبدأت المعركة فى صبيحة يوم ٢١ يوليو ...

وحين وقع نظر نابليون على هذه الحشود وخبرها وعجم عودها تطلع الى جنده يبعث الحماسة فى نفوسهم فقال : تقدموا .. ان اربعين قرنا تطل عليكم من فوق قمة الاهرام .

فكانت لهذه الكلمات فعل السحر فى النفوس .

وبدأت المعركة بان رتب نابليون قواته على شكل مربعات : ففرقة الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال رينيه فى الميمنة ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال فيال فى الميسرة ، وفى القلب فرقة الجنرال دوجا وفيها القائد العام .

وبدأت القوات الفرنسية الهجوم على ميمنة جيش المماليك حتى تكون بعيدة عن مرمى المدافع فاخترقتها واستطاعت تطويقها . وكان ان ترك مراد بك الفى جندى وكر على فرقة الجنرال دوجا فى القلب بنحو خمسة الاف من خيرة فرسانه حتى اذا صار على مرمى المدافع الفرنسية فتحت هذه المدافع افواهها فجأة وسحقتها القذائف والنيران ، بيد ان المماليك على الرغم من هذا القوا بانفسهم فى هذه المعمعة يضحون بأرواحهم فى سبيل الذود عن أرض الكنانة .

وتحول مراد بك ببقية فرســـانه على فرقة الجنرال ديزيه فى الميمنة ، وكان هجوما عنيفا قاسيا قال فيه نابليون عبارته المأثورة : لو كان عندى نصف عدد جيش المماليك لافتتحت به العالم .

ولكن المدافع الفرنسية سلطت عليهم قذائفها من جهات أربع فاوقعت الاضطراب فى صفوفهم ، ثم دارت فرقة الجنرال دوجا بحركة التفاف حـــول المماليك فأطبقت عليهم وحالت بينهم وبين الوصول الى شاطىء النيل فوقع المماليك فى الشرك وصاروا يتساقطون كالثمار الناضجة . واستشهد فى هذه الموقعة زعماؤهم الذين دافعوا دفاع الابطال واستطاع الباقون الانسحاب والتقهقر الى الوراء .

واخيرا جاءت قوات الميسرة التى يقودها الجنرال بون فكرت على قوات المماليك فى امبابة وحاول المماليك صد هـــذا الهجوم باطلاق القذائف من مدافعهم بيد ان هذه المدافع كانت من طـــراز عتيق لا تتحرك ولا تدور فلم تنجح فى صد الهجوم ، وكان ان اختل النظام وسادت الفوضى صفوفهم ، واستطاع الفرنسيون تطويق هذه القوات والاستيلاء على المدافع والمؤون والذخيرة .

اما مراد بك فتمكن من الفرار ومعه ثلاثة الاف فارس الى جنوب الجيزة ، وأغرق الاسطول النهرى هناك حتى لا يقع غنيمة باردة فى ايدى الفرنسيين .

وقبيل الغروب كانت المعركة قد انتهت بعد ان ظلت دائرة نحو عشر ساعات ، وبلغت خسائر المماليك والمصريين زهاء سبعة الاف قتيل ، وتقول المصادر الفرنسية ان قتلاهم لم تزد على ثلاثمائة قتيل وهو رقم بالطبع مشكوك فيه .

وعم الفزع شـعب القاهرة الذى كان يرقب المعـــركة ويتلهف للوقوف على نتيجتها ، فلما ايقن بهزيمة المماليك قضت العاصمة ليلة عصيبة ، ونزح عنها الوف المواطنين ومعهم نساؤهم واطفالهم وهم يبتهلون الى الله ان يأخذ بيدهم .

سلمت القاهرة الى نابليون فدخلها دخول الظافر المنتصر ، واذاع على الشعب بيانا زعم فيه بانه ليس فى نيته احتلال ارض مصر ، وانما هو يحارب المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الخليفة ، وان أقصى رغباته ان يحافظ على نفوذ السلطان وحقوقه . وليس على السكان ان يخافوا على عيالهم وبيوتهم وممتلكاتهم لا سيما وانه يحترم القرآن ويعظم النبى ويقدسه .

اما جنده فجعلوا قبلتهم بيوت المماليك فاقبلوا عليها ينهبون محتوياتها ويسبون جواريهم وسراريهم وكن من الحبشيات والروميات والجركسيات ، وفرضوا على التجار الف وستمائة كيس ومثلها على المباشرين الاقباط وثمانمائة كيس على التجار النصارى .

وادرك نابليون بأن مركزه محفوف بالخطر ، وانه يقيم بجيشه بين شعب يتحين الفرصة للانقضاض عليه ، فصار يتودد الى المصريين بكل الوسائل ، ويتزلف الى الزعماء ، ويسترضى العلماء باعتبارهم قادة الشعب وينهى جنده عن العبث بمعتقدات المصريين وتقاليدهم والتعرض لدينهم واموالهم واعراضهم ، ثم راح يشهد الحفلات الدينية والقومية ، فأسهم فى حفلات المولد النبوى والمحمل ورؤيا رمضان ووفاء النيل ، بل لقد ذهب به التملق والضرب على النغمة الدينية الى حد اشاع فيه انه اعتنق الاسلام، وانه يضع القرآن الكريم جنبا الى جنب مع كتب السياسة ، وقال فيما بعد : انه كان فى مصر مسلما وفى فرنسا كاثوليكيا من أجل ممالأة الشعب .

ووقع عصيان مسلح فى البحيرة وفى رشيد ، وتكرر الاعتداء على مؤخرة القوات الفرنسية فكانت تعمد الى قمعه بنيران المدافع والتنكيل بالمكافحين رميا بالرصاص ومحاصرة القرى واحراقها .

وكان ابراهيم بك قد فر بمن بقى من جيشه الى الشرقية، وكذلك فر مراد بك الى الصعيد . فوجه نابليون قواته تقتفى أثر الجيشين بقصد ابادتهما . وسار بنفسه على رأس قواته الى بلبيس ، غير ان ابراهيم بك اخلى له المنطقة قبل ان يصل اليها ، واتجه الى الصالحية فتعقبه نابليون واشتبك معه فى معركة حامية الوطيس اضطر فيها المماليك الى الانسحاب بعد ان استبسلوا فى القتال .

اما مراد بك فاعتصم فى الصعيد، فسير اليه نابليون حملة عسكرية قوامها خمسة آلاف جندى بقيادة الجنرال ديزيه غير ان جيش مراد بك اخلى له منطقة البهنسا التى كان مرابطا فيها وانسحب نحو الجنوب .

وشبت الثورات والقلاقل فى الفيوم وبنى سويف واسيوط وجرجا ، وفى كل مكان رابطت فيه قوات فرنسية ، ولم يستطع نابليون ان ينعم بثمار انتصاراته على المماليك بل اصبح موقفه حرجا اذ كانت روح المقاومة تشتد وتتفاقم وباتت مواصلات الجيش النهرية

والبرية مهددة بالانقطاع فكان المقاومون يهاجمون السفن ويستولون على ما فيها من المؤون والذخائر والاسلحة ويستعملونها فى قتال الفرنسيين .

وبرهنت هذه الثورة على ان السلطات الغاشمة لم تكن فى يوم من الايام أقوى من حركات الشعوب وتكتلها فان الاولى مصيرها الى الزوال اما الثانية فخالدة بخلود الشعب ، مادام هناك افراد مناضلون تتردد فى صدورهم نبضات الحياة .

• ● •

فى يوم ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ أى بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال ، شبت الثورة فى القاهرة ، وكانت انتفاضة ووثبة جاءتا عنوانا لنفسية الشعب .

ويعزى السبب فى قيام الثورة الى تفنن المحتلين فى ابتزاز الاموال ومصادرة الممتلكات وانتهاك الحرمات ، فقبض على نساء المماليك فى مقابل ان يفتدين انفسهن بالمال ، فأفتدت السيدة نفيسة المرادية نفسها وتابعاتها من زوجات الامراء والكشاف بمائة وعشرين الف ريال . وكان لهذه السيدة مكانة مرموقة فى نفوس المصريين ، فضلا عن ان العادة لم تجر قبل ذلك بان يتعرض المحاربون للنساء ويقبضون عليهن وجعلهن تحت الحفظ .

وعمد المحتلون الى هدم بعض المساجد والمنارات بحجة توسيع الطرق لتحركات الجيش وسير المركبات ، وازالوا ابواب الحارات ، بحجة التنظيم ، وطلبوا الى التجار سلفة اجبارية تقدر بملايين الفرنكات ، للانفاق منها على الجيش، وارتكبوا الفظائع فى قمع شعور المواطنين والتنكيل بهم واعدامهم ، ثم جاءت اخيرا الضريبة التى اقرها « الديوان الخصوصى » على العقارات والدور واصحاب الحرف والصنايع . فكثر لغط الناس وتناجوا فيما بينهم ، واكتظت بهم الطرقات .

اختمرت فكرة الثورة فى الاذهان ، وانتشرت الدعاية لها بأساليب متباينة ، فخطب عالم من الازهر هو السيد بدر المقدسى فى جمع غفير وحرضهم على الذهاب الى بيت القاضى لحمله على ان يرافقهم الى دار القيادة والتوسط فى الغاء الضريبة الاخيرة .

وكان من عادة المصريين ان يلجأوا الى رجال الشرع وعلماء الدين يبسطون لهم شكاواهم ويستعدونهم على القوم الظالمين، وكان للزعامة الدينية فى ذلك العصر مكان الصدارة .

وما كاد القاضى يلبى دعوة الجموع الحاشدة المتظلمة حتى وجد نفسه فى الطريق امام جموع أخرى تزحف اليه وكلها تناشده التوسط فى شأنهم ، فخشى القاضى مغبة الامر وانكفأ الى منزله ، فانهالت عليه هذه الجموع وعلى اعوانه ضربا بالعصى ورجما بالاحجار ، ثم اتجهت الجموع صوب الازهر وهم يضجون ويصخبون وينادون بالثورة والدعوة الى كراهية حكم الاجنبى ونبذ طاعته ثم جاء غيرهم وهم يحملون الاسلحة ويصيحون : الى القتال — الى الجهاد .

ولم يكد الجنرال ديبوى حاكم القاهرة يبلغه نبأ ذلك الحشد فى الازهر حتى نهض على رأس قوة صغيرة من الفرسان ليتعرف اسباب الهياج ، فقابل المواطنون هذه القوة العسكرية برجمها بالاحجار ، فحمل الجند عليهم ، وجاء برتلمى الرومى ومن اعوان الاستعمار وصنيعتهم على رأس قوة أخرى من حفظة الامن وأطلق الرصاص على هذه الجموع ، مما اثار سخطها فاشتبكوا مع الفرنسيين فى قتال وانهالوا عليهم طعنا بالسيوف والخناجر ، واصيب الجنرال ديبوى بطعنة رمح فى صدره فهوى عن جواده واسلم الروح بعد ساعات .

وكان لمصرع حاكم القاهرة أثره فى نفوس الثوار فتحمسوا واقبلوا على الضباط والجند يرمونهم بسهامهم ويحملون عليهم بالاسلحة الساذجة التى فى ايديهم فقتلوا منهم العشرات ، ثم استولوا على المواقع المحيطة بالعاصمة واتخذوا من مصاطب الحوانيت متاريس اقيمت على منافذ الطرق لعرقلة حركات الجند واخذوا يطلقون النار من خلفها .

وهنا أدرك الفرنسيون خطورة الموقف وانذرتهم هذه المقدمات بهبوب العاصفة . لقد ترامت هتافات الشعب الى مسامعهم ، وهم وان لم يفهموا معنى الالفاظ الا انهم أدركوا مغزاها ومرماها . انها صوت نذير الثورة ، وهم يدركون تماما ما هى الثورة ، فما عهدهم بثورة شعبهم ببعيدة عن اذهانهم . انهم يعرفون ان لا شىء أقوى من شعب يتوق الى الحرية ، ويسعى حثيثا اليها ، انه يضحى فى سبيلها بما يملك من حول وقوة . لقد خبروا نفسية الشعوب الثائرة التى

حاولوا اخضاعها ، انها نفسية لا ترحم . تمزق المستعمر اربا وتصب اللعنات فوق رأسه ، فهذه هى لغة الشعوب اذا استبد بها الظلم واطاش صوابها الاستعباد .

وشكلت لجنة قيادة الثورة وجعلت مقرها الازهر ، وانتخب الشيخ السادات رئيسا لها، ونظمت كتائب المتطوعين وزودوا بالاسلحة وانبث العلماء وشيوخ الازهر بين الصناع والتجار ومختلف الطوائف يدعونهم الى الثورة ، وتسلل الدعاة الى الريف يستنهضون همم الفلاحين لمناهضة المستعمرين ومؤازرة المكافحين ، فاقبلت أفواج منهم يحملون العصى والفؤوس والرماح والبنادق ، واعتلى المؤذنون شواهق المآذن ينادون نداءات مثيرة للخواطر . ثم اغلقت المتاجر واوصدت الاسواق ابوابها حتى بدت العاصمة كمدينة مهجورة .

وعلت صيحات السخط فى كل مكان، وتجمع المواطنون فى الجوامع يستمعون الى العلماء وهم يخطبون ويحمسون افراد الشعب على منازلة المحتلين وتحرير مصر ، الى ان اندلع لهيب الثورة واشتد أوارها .

وانبث الفقهاء فى الشوارع ينادون : من كان موحدا يأتى الى الجامع الازهر لان اليوم يوم المغازاة بالكفار وعلينا ان نزيل هذا العار بأخذ الثأر .

وهرع الفرنسيون الى اعداد مدافعهم وقناصتهم، ونصبوا المدافع على سفح جبل المقطم لضرب المدينة بسيل من القذائف .

وخرج قرابة ثمانية آلاف مجاهد من باب الفتوح ، وتدفقوا منه الى المرتفعات للاستيلاء على المدافع التى تصب نيرانها ، فصدتهم القوة المرابطة عند سفح الجبل ، فتسلق فريق منهم أسطح جامع السلطان حسن وصعدوا الى مناراته لضرب الجنود الفرنسيين الذين يقفون خلف المدافع واصلوهم نارا حامية. فبادر القناصة الى اقتحام الجامع وتحطيم ابوابه وقبضوا على فريق من المكافحين ورموهم بالرصاص .

وتلقى الثوار الكولونيل سلكوسكى قائد حرس نابليون عند باب النصر ، وكان على رأس كتيبته ، واشتبكوا معها فى قتال مر المذاق الى ان اصابوه برصاصة صرعته فى الحال .

واستشاط الفرنسيون غضبا ، فسلطوا قذائف مدافعهم على الازهر موطن الثورة ، واخذت القنابل تترامى على الجامع وعلى الاحياء المجاورة حتى تصدعت الجدران وانهارت المنازل الملاصقة ودفن الالوف من النساء والاطفال والشيوخ تحت الانقاض ، وجرى الدم فى الشوارع من الفريقين ، وورد فى احصاء رسمى عن مقر القيادة بان عدد القتلى بلغ زهاء اربعة الاف من الانفس فى هذا اليوم .

ولم يلبث الفرنسيون أن احتلوا الجامع الازهر بخيولهم وجاسوا خلال اروقته وربطوا الخيول عند القبلة . وحطموا القناديل ونهبوا المخطوطات والمصاحف .

وعمدوا الى الانتقام من شعب القاهرة ، فقبضوا على زعماء الثورة من علماء الازهر واعتقلوهم فى القلعة ثم أعدموهم دون محاكمة ، وطرحت جثثهم فى النيل . واسرفوا فى تعذيب طائفة من قادة الحركة واوثقوا مئات من الفلاحين فى الحبال وازهقوا ارواحهم . اما الشيخ السادات فقد أمر نابليون بعدم المساس بشخصه واعدامه .

• ● •

ولم يقتصر غليان العواطف واضطراب المشاعر على سكان العاصمة وحدهم بل لبى نداء الثورة المواطنون فى الجيزة ، وقدم من قليوب شيخ العرب سليمان الشواربى على رأس فرسان البدو والفلاحين لنجدة المكافحين، فارسل نابليون مفرزة من الجند تصيدتهم عند مشارف العاصمة . عند عزبة الزيتون ، وحالت بينهم وبين الانضمام الى الثوار ، وقبض الفرنسيون على الشواربى واعدموه فى القلعة .

واخيرا استطاع الفرنسيون أن يقمعوا الثورة فى القاهرة بعد أن أفنوا الالوف من شعبها ليواجهوا ثورة أنكى منها أمتدت من أقصى مصر الى أقصاها .

ففى المطرية نهض حسن طوبار وعبأ الالوف من المجاهدين وزودهم بالاسلحة فسيطروا على منطقة بحيرة المنزلة وما جاورها وحشد المراكب والزوارق لعرقلة حركات الجيش الفرنسى ومهاجمة سفنه وكان الثوار مسلحين بالسيوف والحراب والخناجر والسهام والبنادق فالتحموا فى معارك مع القوات الفرنسية وهزموها ، ولم تجد هذه القوات سبيلا الى الانتقام الا بأحراق القرى الثائرة والقيام باعمال السلب والنهب واغتصاب الاموال والحلى وانتهاك حرمة المنازل ، والقبض على الوجوه والاعيان بصفة رهائن .

وفى ميت غمر وسنباط وميت الفرماوى ودنديط هب الفلاحون يذودون عن حقوقهم وكرامتهم ، فقطعوا الجسور لتغمر المياه الاراضى وتعرقل زحف القوات المعادية واعتصموا بالتلال يصلون منها هذه القوات نيرانا حامية .

وابدى ثوار المنصورة بسالة وأقداما ، محاولين أن يستعيدوا امجاد اسلافهم الذين ردوا الفرنسيين على أعقابهم فى الحروب الصليبية ، وأسروا قائدهم الملك لويس التاسع وسجنوه فى بيت لقمان .

وبلغ التمرد والعصيان فى طنطا أقصى مداه فى أيام المولد الاحمدى، وشد فرسان البدو أزر الطنطاويين فى الكفاح ، وكان نابليون يخشى أن يرتكب جنده حماقة فى هذا البلد الدينى المقدس الذى يعد فى نظره بمثابة مكة ، فأمر باستعمال سياسة اللين والحكمة والاكتفاء بالقبض على شيوخ الجامع الاحمدى وزعماء المدينة بصفة رهائن .

ولقى المستعمرون عنتا فى منوف وقليوب والمحلة الكبرى وحملوا على الثوار حملات جنونية طائشة ، وصاروا يقابلونهم بقذائف المدافع والرصاص ، ثم تحرج الموقف فى الصعيد وخرج سكانه عن بكرة أبيهم ينتفضون للتخلص من قبضة المستعمر الذى أخذ ينكل بهم ويحرق قراهم ويشردهم هائمين على وجوههم فى العراء .

• ● •

خمدت ثورة اكتوبر واستكان المصريون الى المهادنة ريثما تبرأ جراحهم ليحملوا على المستعمر فى ثورة أشد هولا ونكالا ، ثورة عارمة تزعزع قواعده وتهدم مراكزه وتدفعه الى طلب الجلاء بنفسه عن الارض الطيبة يدنسها برجسه .

ولم تشهد القاهرة فى ثورتها الثانية ارتباطا وثيقا وتفانيا بين الافراد والجماعات وتضحية بالدم والمال مثلما شهدته فى ابان ثورة مارس عام ١٨٠٠ فقد تنازل كل مواطن راضيا عن نفسه وعن ماله وعن جميع حقوقه لكسب معركة التحرير ، واخذت حركات الكفاح الشعبى تنحدر بمرور الايام فى اشكال وصور شتى حتى حولت الرجال الى قنابل وشيكة الانفجار ، وصار أفراد الشعب فى نظر المستعمر ليوثا كاسرة ، تتربص الوثبة للانقضاض عليه ، وسرعان ما صارت القاهرة كشعلة من نور ونار تضىء معبد الحرية وتبدد ظلمات الاستعباد .

جاءت الانباء الى القاهرة بأن تركيا قد عبأت جيوشها للزحف على مصر من ناحية الشرق برا . وعلى الشواطىء الشمالية بحرا بغية طرد الفرنسيين من أرض الكنانة . وان هنا لك ثمانين ألف جندى عثمانى يرابطون على أبواب القاهرة ، وان الفرنسيين بقيادة كليبر قد خرجوا لمنازلة هذه القوات فى منطقة عين شمس .

وتمكن العشرات من الجنود العثمانيين من التسرب الى القاهرة واخذوا يختلطون بمختلف الطوائف ويحرضونها على الثورة . فلم يكد كليبر يعود من معركة عين شمس منتصرا على الاتراك حتى وجد نفسه يواجه ثورة عارمة شبت فى القاهرة وفى الاقاليم .

دوى فى القاهرة بوق الثورة فلبت العاصمة النداء ، واستمدت قوتها من ايمان افراد شعبها ونخوتهم واستبسالهم، وانتفضوا جميعا تحركهم فكرة واحدة هى طرد الدخيل عن الارض الطاهـرة ، ومن هذا اليوم تحولت القاهرة الى بحر زاخـــر متلاطم الامواج ، كثير المفاجآت ، مروع الحوادث .

كان نابليون قد غادر مصر عائدا الى فرنسا بعد ان عهد بقيادة الحملة الى خليفته الجنرال كليبر ، فايقن الشعب بأن حكم الفرنسيين يجب أن يزول ، وتحفز المواطنون للمقاومة والكفاح وخوض معركة التحرير وجعلوا قبلتهم حرية مصر .

واتجهت الانظار الى الزعماء الذين سيخوضون معركة التحرير ، واهتزت النخوة الوطنية فى الصدور . صاح عمر مكرم صـــيحته المدوية فلباها السادات وشيوخ الازهر ، وتعهد الســـيد المحروقى بالقيام بنفقات المجاهدين ، وقامت النساء بطهو الطعام وغسل ملابس الثوار ، وتطوع الفلاحون من سكان الضواحى بمدهم بما يحتاجون اليه من الغلال والمواشى والسمن .

كانت الشرارة الاولى للثورة فى حى بولاق ، يتزعمها الحاج مصطفى البشتيلى ، فحمل سكان الحى السيوف والبنادق والرماح والهراوات، وزحفت جموعهم صوب مخازن الجيش الفرنسى على شاطىء النيل، واشتبكوا فى معركة خاطفة مع الحراس ، وتمكن الثوار من الاستيلاء على محتويات المخازن من ذخيرة وعتاد حربى ومؤون .

ثم اتجهوا لمهاجمة الفرنســـيين فى قلاعهم ، وكانت أقربهـــا الى طريقهم « قلعة قنطرة الليمون » لاقتحامها، ولكن مدافع حامية القلعة تلقفتهم بقذائفها واستطاعت أن تحصد منهم نحو ثلاثمائة شخص .

فأعاد الثوار تنظيم صفوفهم ، وتوالت القذائف والانفجارات فوق الرءوس ولكن الشعب برغم هذه الكارثة التى حلت به لم يتراجع أو يتخاذل بل أقبل يجود بالروح فى معركة الدم .

امتدت الثورة الى بقيةاحياء العاصمة فاحتشد زهاءخمسين ألف ثائر اخترقوا بجموعهم اشوارع وتسللوا من الدروب متجهين صوب مقر القيادة الفرنسية فى حى الازبكية ، وكانت قد سبقتهم الى هناك ثلة من الفدائيين فاحتلوا اسطح المنازل المطلة على مقر القيادة لاطلاق النار عليها .

وتحت وابل من القنابل التى كانت ترسلها مدافع القلاع ، تقدم الثوار لوضع حد لمهزلة الاحتلال ، والتحم الفريقان فى معارك حامية الوطيس تمثل فيها الصراع بين الحرية والاستعباد . وبين الحياة والموت . كانت اشلاء الثوار تتطاير مع الشظايا ، والقذائف تحصدهم حصدا ، الدور والقصور ، المعابد والمساجد يتقوض بنيانها وينهار ، واشبال الثورة لا يكفون عن التقدم واقتحام المخاطر .

أبدى الثوار من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية ، وكانوا يملكون ثلاثة مدافع استعاروها من الجيش العثمانى ولكنهم لم يجدوا ذخيرة لاطلاقها فصاروا يطلقون منها كرات الحديد ، والمثقلات التى يزن بها التجار بضائعهم .

واستمرت المعركة فى عنفوانها ، حول مقر القيادة الفرنسية الى اليوم التالى ، وعثر الثوار على عدة مدافع كانت مطمورة فى حدائق قصور المماليك ، فاخرجوها من تحت الطين والتراب وجلبوها الى ساحة المعركة ، وتمكنوا من احتلال منازل بعض القواد الفرنسيين ، وتحصنوا فى المنازل المطلة على القلاع وحول بركة الازبكية .

وقضت القاهرة يومين فى جحيم مستمر وظلام دامس ، وخاف بعض المواطنين على عائلاتهم ، كما خشوا ان يحاصر الفرنسيون القاهرة فيهلك المسنون والاطفال والنساء جوعا ، وتجمهر أصحاب هذا الرأى فى حى « الجمالية » وبيتوا النية على الرحيل ليلا ، ولكن الثوار ناهضوهم وعنفوهم ، واقسموا بالا يتخلى عن العاصمة فى محنتها أحد ، ثم اغلقوا ابواب القاهرة وعينوا عليها حرس أهلى . وقاموا بحركة بارعة الغرض منها تطهير المدينة من الطابور الخامس ، فهاجموا المحافظ مصطفى اغا لتواطئه مع المستعمر ، واعتدوا على السيد خليل البكرى صنيعة الفرنسيين .

وبينما كان فريق من الثوار يصد هجوم الفرنسيين ويناوشهم كان فريق آخر يعمل فى اقامة المتاريس وخطوط الدفاع ، ثم قسموا المدينة الى مناطق ، وجعلوا على رأس كل منطقة قائد شعبى يدافع عنها ، وأهابوا بكل قادر على حمل السلاح أن ينضم اليه فى منطقته وبذلك تحولت الحركة الى تعبئة عامة .

ووجد الثوار انه ليس فى وسعهم أن يقهروا جيشا منظما مدربا ومسلحا كالجيش الفرنسى ويجلوه عن أرضهم الا بالسلاح نفسه ، فانشأوا معملا للبارود فى بيت قائد اغا فى الخرنفش وجاءوا بالصناع والعمال من حدادين وسباكين وبرادين ونجارين وتحايلوا على صنع الذخائر والبارود ، واقاموا مصنعا آخر لصب المدافع فى بيت القاضى وجمعوا الحديد لذلك من المساجد ومن تجار الحدايد ومن بقايا المدافع المتخلفة عن معركة عين شمس ، وكانوا يحرصون على جمع القنابل المتساقطة عليهم ويعيدون صبها ، ولم تمض أيام معدودات حتى أخرجت هذه المصانع أولى انتاجها .

وعاد كليبر الى العاصمة فوجد الحالة أخطر مما كان يتصور وان موقف الثوار على شىء من المناعة ، وان محاولته قمع حركاتهم سيؤدى الى خسائر فادحة ، كما انه كان فى حاجة الى ذخائر ونجدات لقتالهم ، فاكتفى بشد أزر حاميات القلاع ، وضرب القاهرة بالقنابل ليل نهار لاثباط عزيمة الثوار واضعاف روحهم المعنوية ، ولما لم يفلح فى ذلك ، عمد الى اجراء ديبلوماسى وهو التفرقة بين العناصر المختلفة ، ففاوض العثمانيين فى وضع شروط للصلح ، وابرم معاهدة مع مراد بك زعيم المماليك منحه بمقتضاها الحكم على الصعيد فيما وراء بلصفورة على أن يدفع للفرنسيين ما كان يدفعه للعثمانيين ، وعلى الا يساعد كل من الطرفين الاخر فى حرب ، وارسل الى بعض العلماء يدعوهم الى مقابلته لطلب الصلح ، اما الشعب فكان فى نظر هذه العناصر الثلاثة غنيمة باردة .

وعاد المشايخ : عبد الله الشرقاوى والمهدى والفيومى والسرسى الى الثوار يحملون اليهم شروط الهدنة التى عرضها القائد العام ، ومنها أن ترجع الحالة الى ما كانت عليه قبل الثورة دون جزاء أو عقاب . وكان رد الثوار على هؤلاء الوصوليين الذين ساوموا على حرية الشعب أن دبت الروح فى نفوسهم ونادوا باستئناف الكفاح الى آخر رمق ،

وبلغ من حنقهم على هؤلاء المشايخ أن اعتدوا عليهم ورموا عمائمهم الى الارض وأسمعوهم قوارص الكلم .

وكانت القاهرة فى غضون هذه الفترة العصيبة من حياتها هدفا لاعصار مدمر هائج، فالقذائف تدقها اناء الليل وأطراف النهار فتخرب وتدمر وتقوض المنازل ، والسكان يقضون ليالى لا يذوقون فيها طعم الكرى الا غرارا ، اذ كان الاخلاد الى النوم معناه الموت . والماء قد شح اذ حال المستعمرون بين المصريين وبين مياه نيلهم، فصار السكان يروون ظمأهم من مياه الابار على قلتها ، والقوت قد عز واختفى ، وكل ما كان شائعا من الطعام هو الارز المطبوخ بالعسل الاسود ، والمخابز والمحال التجارية قد أوصدت أبوابها ، والماشية قد نفقت لندرة العلف ، ولكن السيد عمر مكرم كان لا ينى يطوف بمراكز الفدائيين يتفقدها ويحثهم على مواصلة الكفاح .

كان الثوار يعلمون بأن بعض القوات الفرنسية فى طريقها الى العاصمة للنجدة والتنكيل بشعبها واذلاله، فبذل الثوار ما فى وسعهم للقضاء على هذه القوات قبل تجمعها ، فضاعفوا مجهودهم وقابلوا كل هجوم بما هو أشد هولا منه .

وعاد كليبر يطلب الى وفد العلماء الاجتماع به للمفاوضة، والحف فى الطلب ، وعرض عليهم شروطا للهدنة ووقف القتال بشرط أن يخرج العثمانيون من القاهرة ، فرد عليه العلماء بأن السكان يخشون ان ينتهز الجند فرصة نزوح العثمانيين للتنكيل بهم ، فعمد كليبر الى المراوغة وقال : اذا قبل السكان الشروط اجتمعنا مع العثمانيين والمماليك ومعكم بوصفكم زعماء الشعب وعقدنا الصلح ووقعنا عليه جميعا .

وبعث الفرنسيون الى سكان حى بولاق يطلبون الهدنة فرفضوا هذا العرض فى اباء وشمم وذكروا بانهم مرتبطون بمصير القاهرة واذا هوجموا فسيدافعون عن انفسهم حتى الموت .

اخفقت مساعى الصلح ، وكان لا بد من استئناف القتال ، فعند فجر يوم ١٥ ابريل سلط كليبر قواته المسلحة على حى بولاق . وجعل يغزوه من البر ومن النيل ، وهاجمه الجنرال فريان بقسوة وفى منتهى الشدة ، واستطاع الجند ان يتسللوا الى داخل الازقة والدروب ، فأصلاهم سكان الحى نيرانا حامية وسقط المئات من الفريقين بين قتلى وجرحى .

واخيرا رأى الفرنسيون ان الاستيلاء على بولاق بهذه الطريقة يكلفهم خسائر فادحة فى الارواح والعتاد فعرضوا الهدنة . بيد ان الثوار أبوا الا مواصلة الكفاح ، وازاء هذا الاصرار من جانبهم عاد الفرنسيون الى خوض المعركة يصارعون الموت والموت يصرعهم ، وبلغ من شدة حنقهم ان دمروا ميناء بولاق واحرقوا المنازل ، فكان لا يسمع سوى دوى المدافع وانات الجرحى وحشرجة الموت ، وسرعان ما خضبت الطرقات بالدماء وتكدست الاشلاء والرمم على جوانب الطرق ، وتحول الحى الى خرائب واطلال .

وثارت الطبيعة بدورها ، وكانت ثورتها صدى لما يجرى على سطح الارض ، فانهمرت الامطار ، وصحبها البرق والرعد وسالت الطرق بالمياه وسدت بالاوحال واختلطت بالرمم والاشلاء ، وكان منظرا كريها موحشا .

وكانت ثورة الطبيعة من العقبات التى عاقت حركات الثوار ، وصارت اقدامهم تغوص فى الطين وتنزلق ، ولكن ذلك من ناحية أخرى ساعد الفرنسيين على الكر على حى بولاق اذ كانوا يهاجمونه من مساحات من الارض مفتوحة لا تؤثر فيها مياه الامطار والاوحال كما كان الحال داخل الازقة والدروب .

واصل الفرنسيون هجومهم على بقية احياء العاصمة ، تتقدمهم المدفعية ويتبعها القناصة ، ثم الفدائيون الذين كانت مهمتهم قذف فتائل مغموسة فى الزيت والقطران على المنازل بقصد احراق المدينة ، وكانت النار كلما اشتعلت فى أحد المنازل عمد سكانه من النساء والاطفال الى النجاة بأن يلقوا بانفسهم من النوافذ فرارا من الموت ومن فحيح اللهب .

وجاء الهجوم عنيفا على احياء الحسينية وباب الحديد وبركة الرطلى ، وأخذت حصون قنطرة الليمون والظاهر والرويعى تقذف الدمار على المدينة من مدافعها .

وفى خلال هذا الهول كانت الرسل تتردد بين المعسكرين المتطاحنين لوضع حد لهذه المجزرة البشرية الرهيبة ، وقد بدأ الفرنسيون بطلب الصلح الى أن تم الاتفاق اخيرا على الهدنة مع منح السكان العفو والتصريح لمن يريد منهم مغادرة العاصمة بالنزوح عنها .

وهكذا استطاع الثوار بصلابتهم وعنادهم أن يفرضوا شروطا مشرفة لصلح توج ثورة عارمة دامت سبعة وثلاثين يوما هلك فى اثنائها منهم نيف وخمسة الاف شهيد .

ودخل كليبر العاصمة من باب النصر دخول الغزاة الفاتحين ، تتقدمه الخيالة وفى ايديهم السيوف مصلتة ، ويليهم المشاة وقد وضعوا فوق رءوسهم قلانس من الفراء ، واحتفل بهذا الانتصار المزعوم ثلاثة أيام ، واخيرا طلب كليبر وفد العلماء ومشايخ الازهر وانهى اليهم بانه كان فى وسعه ان يحرق المدينة عن آخرها ولكن الشفقة اخذته على النساء والاطفال ، وبما انه قد صفح عن السكان فهو يلزمهم بدفع غرامة حربية قدرها مليونا ريال وعشرين الف بندقية وخمسة عشر الف طبنجة وعشرة الاف سيف ، على ان توزع الغرامة على الاعيان والتجار وأصحاب الحرف والصنائع ، وجعل على اصحاب العقارات ان يدفعوا قيمة ايجار سنة مقدما ، وخص السيد احمد المحروقى بغرامة قدرها مائة وخمسين الف ريال .

وكانت هذه الغرامات والكلف فى حد ذاتها فادحة ومطلبا جنونيا لا تطيقه أية عاصمة خرجت من ساحة الشرف مثخنة الجراح ، ولكن الاجراءات التى تلت ذلك كانت أشد وأنكى ، فقد خرق الفرنسيون شروط الهدنة فاقتحموا المنازل وصادروا الاسلحة وحكموا بالاعدام على كل من يحرز سلاحا ، وقاموا بحركة أرهاب واسعة النطاق ، فقبضوا على لفيف من العلماء وعلى رأسهم الشيخ السادات الى أن يوفوا ما هم مطالبون بدفعه من غرامة . ووزعت الغرامات على السكان فكان نصيب الشخص غرامتان أو أكثر حتى أوشك الناس على الافلاس ومنهم من قضى نحبه تحت آلات التعذيب ، وقبلوا أن يدفع البعض بدل النقود مصوغات ذهبية أو فضية وكانوا يقومونها بأبخس الاثمان ، فضلا عما نهبوه من محتويات المتاجر والقصور ومنها دار السيد عمر مكرم .

• ● •

كان هذا اللون البشع من الارهاب فى اخضاع عاصمة العروبة والاسلام حديث الشرق وشجنه ، فملأ السخط اطواء الصدور وبكاها من بكاها الى أن تحمس لها شاب سورى اسمه سليمان الحلبى فى الرابعة والعشرين ربيعا ، فصمم على غسل الاهانة بالدم ولوح بنصل

حاد فى يده ، تحركه شهوة الانتقام ثم ركب راحلته تطوى به البيد والقفار الى ان دخل القاهرة وسار فى شوارعها ودروبها ويتطلع حزنا وأسى على ما أصاب عاصمة الشرق من خراب ودمار وينصت الى أنباء الفظائع والموبقات التى ارتكبها « عساكر الكفار » .

ومضى الى الازهر تهديه مآذنه السامقة وآوى الى صحنه عدة أيام يريح جسمه المكدود من عناء السفر ، حتى اذا ما استرد نشاطه خرج فى صبيحة ١٤ يونيو ١٨٠٠ ووجهته مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الازبكية ، وتسلل خفية الى الحديقة حتى اذا ما لمح الجنرال كليبر مقبلا عقب حفلة غذاء عند احد قواده انقض عليه بنصله ، فارداه قتيلا ، وبذلك قضى على روح المقاومة فى جيش فرنسا فى الشرق .

وقبض على سليمان الحلبى وعلى ثلاثة من المجاورين ثبت انهم كانوا على بينة بنيته فى الاغتيال ، واغلقت ابواب الجامع الازهر ، وقبض على المشايخ : الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وحجزوا فى القلعة .

وصدر الحكم باعدام الحلبى ورفاقه الثلاثة أمام عينيه وتفصل رءوسهم عن اجسادهم ، ثم يعاد التعذيب مع المتهم الاول فتخرق احشاؤه وتحرق يده اليمنى ويترك ليموت موتا بطيئا .

ولم تشف هذه الطريقة الانتقامية ما فى صدور القوم من غل فاحتفظوا بالرءوس الثلاثة بعد ان طرحت الجثث فى العراء للطيور الجارحة تنهشها ، واحتفظوا أيضا بهيكل جسم الحلبى ، واخذوها معهم الى فرنسا .

وبعد أن قتل كليبر حل محله فى القيادة العامة الجنرال مينو وكان قد اعتنق الاسلام وتسمى باسم « عبد الله باشا مينو » واقترن بسيده من كرائم الاسر فى مدينة رشيد ، ولم يكن هذا القائد على شىء من حزم نابليون ولا كفاءة كليبر ، وفى عهده حدث انقسام بين صفوف الجيش ، وقد استهل حكمه بتوفية مبلغ الغرامة الحربية السابق فرضها على سكان العاصمة .

واخذت انجلترا تسعى الى اخراج الفرنسيين من وادى النيل بتحالفها مع الباب العالى ، وكانت الخطة الموضوعة تتلخص فى أن تزحف القوات العثمانية البرية عن طريق العريش ، والقوات البحرية

تنزل فى أبى قير ، ويزحف من ناحيـــة السويس جيش بريطانى من الهند ، وتهبط الى شواطىء الاسكندرية قوات أخرى من الاسطول البريطانى ، وبذلك يطوق الجيش الفرنسى من جميع الجهات ويمنع وصول المدد اليه .

وقد نفذت هذه الخطة الموضوعة باحـكام وكان من جرائهـا ان نشبت معارك حامية الوطيس بين القوات المتحالفـــة وبين الجيش الفرنسى ، واضطر الفرنسيون الى اعتقال عدد كبير من الزعمـــاء والعلماء واودعوهم القلعة ، خشية تحريضهم الشـــعب على القيام بثورة .

وفى النهاية نظر الفرنسيون الى الموقف ووجدوا الا فائدة ترجى من المقاومة والبقاء بين شعب يعاديهم وامام قوات عسكرية تفوقهم عددا وعدة ، وبذلك انهارت احلامهم ، فاتخذت القيادة العليا قرارا بوجوب الجلاء ووقعت اتفاقية بهذا الشأن فى ٢٧ يونيـــو ١٨٠١ مع رؤساء اركان حرب الجيوش العثمانية والبريطانية .

شعب فى المزاد

جلاء الحملة الفرنسية ـ نشأة محمد على ـ مناوراته السياسية ـ نفوذ الالبانيين ـ الولاة ومصيرهم ـ الباب العالى يطالب بطرد محمد على ـ التطاحن على السلطة ـ الفزع والارهاب فى القاهرة ـ آخر عهد المماليك بالحكم

انتهت الحملة الفرنسية على وادى النيل بانتهاء القرن الثامن عشر ، وعلى الرغم من انها لم تمكث سوى ثلاث سنوات وثلاثة أشهر فقد تركت من الآثار العلمية والعملية ما يعد أساس نهضة كبرى ، وهذه النهضة هى التى احتضنها محمد على ونسبت اليه خطأ ، فقد اضطر رجال الحملة الى ان يعملوا مجدين فى انشاء صناعات كبرى وفى مقدمتها المنسوجات والورق والبارود ورفع المياه ودبغ الجلود وتعميم المستشفيات ، فضلا عن انهم نظموا الحياة الاقتصادية والمالية والادارية ، وساعدوا على ايقاظ الروح القومية بما استحدثوه من انشاء « الدواوين » التى كانت بمثابة برلمانات صغيرة ، والدعوة الى المبادىء التى قامت عليها الثورة الفرنسية وحقوق الانسان .

وبعد ان غادر آخر جندى فرنسى أرض النيل ، وقعت مصر فريسة لاطماع المغيرين وموضعا لتنافس وتطاحن الانجليز والمماليك والعثمانيين ، وكان كل منهم يسعى جهده للكيد للاخرين لانتزاع السلطة منهم .

فالانجليز قدموا الى مصر حلفاء للعثمانيين بغية اجلاء الفرنسيين عنها ، ولكنهم كانوا يضمرون احتلالها للسيطرة على طريق المواصلات الى الشرق وبخاصة الى الهند وايجاد أسواق لتصريف انتاجهم الصناعى . وكان جيشهم بقيادة الجنرال هتكنس وعدته ستة عشر الف مقاتل يرابطون بين الاسكندرية ورشيد ودمنهور ، وكان هناك ستة آلاف جندى من الهند بقيادة ميجر بيرد ويحتلون منطقة الجيزة .

والمماليك وعدتهم خمسة الاف مقاتل ، بخلاف قبائل البدو المنضمة تحت لوائهم ، كانوا ينظرون الى ان السلطة فى مصر حق من حقوقهم ، توارثوها عن اسلافهم . وكانوا يعدون انفسهم غير غرباء عن مصر فهى موطنهم الدائم الذى لا يعرفون وطنا سواه ، وقد تسلسلوا من اسلاف قدموا الى وادى النيل منذ اجيال ، وتأقلموا واندمجوا فى المصريين ، فكانوا ينظرون الى الوالى العثمانى كحاكم غير شرعى ، دخيل عليهم ، والمواطن أحق بحكم بلده من الغريب .

وقد اكسبهم شعورهم بأن الحق فى جانبهم ، قوة معنوية ، جعلتهم يتفانون فى الدفاع عن كل شبر من أرض الكنانة ، بما يملكـون من بسالة وأقدام .

اما العثمانيون الذين سعوا الى اجلاء الفرنسيين بفضل معاونة حلفائهم الانجليز للانفراد بالحكم والقضاء على نفوذ المماليك ، فكانوا يرون أنفسهم أصحاب سيادة وفاتحين لمصر من جديد ، فلم يكترثوا لابناء البلاد الذين أســهموا فعلا فى الحكم أيام الاحتلال الفرنسى ، فأقصوهم ونظروا اليهم نظرة ازدراء واحتقار .

كان يمثل العثمانيين فى الاسكندرية القبطان حسين باشا ، وفى القاهرة الوزير يوسف ضيا باشا ، الى ان عين محمد خسرو باشا واليا ، وكانت تحت امره قوة تقــدر بنحو ثلاثة عشر الف مقاتل بخلاف اربعة الاف من الجند الالبانيين غير النظاميين .

وقد سعى الاتراك قبل زحفهم على وادى النيل بشــهور الى الحصول على رجال يصلحون للقتال من المناطق المشمولة بنفوذهم ، وكان حسين اغا جوربجى قوله ممن طولبوا بتقديم ثلاثمائة مجند « لاخراج الكفار من مصر وكسر شوكة المماليك » وتموين الاسطول بما يحتاجه من المؤون والمعدات ، فجند فصيلة أسند قيادتها الى ابنه على عثمان ، ودربها على فنون القتال على قدر ما تســمح به الحاجة ، وجعل لشاب مغامر يناهز الثلاثين من عمره اسمه محمد على ان يكون « باير قدار » هذه الفصيلة ، اذ كان مفتول العضل ، مشهورا بالاقدام واقتحام المخاطر ، فى وسعه حمل علم الفصــيلة والذود عنه .

ووصلت المركب المقلة لفصيلة قوله الى خليج أبى قير فى بداية شهر مارس عام ١٨٠١ وغادرها الجند بعد ما عانوا من أهوال السفر فى البحر ثم مشاق الحرمان فى رمال ابى قير المحرقة . وكان على عثمان معتل الصحة ، ضيق الصدر ، لا يستطيع القيام باعباء منصبه العسكرى فطلب العودة الى مسقط رأسه تاركا قيادة الفصيلة الى ذلك الرجل المغامر « الباير قدار » الذى شعر بان أرض النيل تجذبه اليها بقوة سحرية .

• • •

ولد محمد على فى ثغر صغير على حدود مقدونية وتراقية بجنوب بلاد اليونان اسمه قوله أو « لاكا فالا » أى الفرس . وقيل انه ولد

فى نصر تلى من أرباض قوله . وليس فى هذه المنطقة من السجلات والوثائق ما يكشف عن شىء من مولده أو عن تاريخ زواج والده أو زواجه هو أو قيد اسماء ابنائه . ولكن عندما سمع محمد على فيما بعد ان نابليون بونابرت وولنجتون وشيللر وكوفيير وغيرهم من العباقرة ولدوا فى عام ١٧٦٩ زعم لكل من يقابله ولا سيما اذا كان من الافرنج انه ولد فى تلك السنة . وانه من وطن الاسكندر المقدونى ، ليقترن نجمه بنجوم هؤلاء الافذاذ العباقرة ، وقد سبق له ان صارح بعض اخصائه مرة بقوله : اذا اعطيت درويشا عشرين قرشا فانه يمدحك فى التكية ، ولكن اذا منحت احد الافرنج خمسمائة قرش فانه يمدحك ويفخمك فى كل بقعة من بقاع الارض عن طريق الصحافة .

وأسرة محمد على أصلها من الاكراد فى ديار بكر ، انتقل أبوه ابراهيم وأخواه الى قونية فى الاناضول ، غير ان المقام لم يطب لهم فيها ، وسرعان ما نزح عمه عثمان الى استامبول للتجارة ، وانتقل ابراهيم وأخوه طوسون الى قوله .

واضطر والده الى أن يعمل « يول أغاسى » أى حارس لتأمين الطريق الى ينبوع المياه فى القرية ، وهى وظيفة تافهة لا تدر على صاحبها سوى دخل ضئيل محدود . أو هى لا تدر عليه الا راتبا ناقصا أو راتبا بالاسم لا يتقاضاه مطلقا شأن الوف الموظفين والمستخدمين والعمال فى الدولة العثمانية ، وكانوا يعولون فى تدبير معاشهم على الرشاوى والهدايا والاحسانات ، اما عمه طوسون فاحترف صناعة شباك صيد الاسماك .

واقترن ابراهيم بفتاة فقيرة تدعى خديجة من قرية نصرتلى ، كانت فى صباها تتجول بين القرى ، حاسرة نقابها لكسب قوتها ، وقد انجب منها عدة اولاد لم يعش منهم سوى محمد على . وقد تخبط المؤرخون فى ذكر وفاة ابراهيم ، وكيف انه توفى عن ولده وهو صبى دون سن الحلم ، فكفله عمه طوسون ، ثم جوربجى قوله ، ولكن هذه الواقعة تنقضها الاسانيد التى لا يرقى الشك اليها ، فعلى ضريح على ابراهيم فى قوله ، نقشت على الشاهد هذه العبارة :

« هو الخلاق الباقى — مرحوم ومغفور يول أغاسى على أغانك اوغلو ابراهيم اغا — قوه له لى مرحومون روحته بحرمة الفاتحة — رمضان ١٢٠٥ » .

أى أن هذه الوفاة وقعت وسن محمد على نحو عشرين عاما وليس اربع سنوات كما ورد بطريق الخطأ فى كتب التاريخ ، واذن فلا يكون هناك محل لان يكفله أحد .

بلغ محمد على اشده وضاقت نفسه من قلة الرزق وتاقت الى الاسفار سعيا وراء الرزق واجهد جسمه فى تحمل الجوع والعناء ، ومما رواه هو نفسه انه قال : كنت اتمنى ان يدفع الله عنى هذه الشدائد ويرحمنى مما الاقيه من الذل والضنك ، فكنت اجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الارض ، سائرا على قدمى ، لا أذوق طعاما ولا مناما ، كانت الارض فراشى والسماء غطائى ، واتفق ان سافرت على ظهر مركب أريد بلدا فى طلب الرزق ، فهبت ريح صرصر عاتيـــة وارتفعت الامواج والقت المركب على الصخور حتى يسر لى الله النجاة بالسباحة الى جزيرة طاشيوز .

ابتكر محمد على وسائل للعيش ، فكان يجوب القرى ويتسـلق الصخور لصيد الطيور ، أو يشترك مع القرصان الذين يخرجون من مخابئهم يترصدون الصيادين ليسلبوهم صيدهم ، أو يتسـلقون جوانب السفن ويفاجئون الملاحين لسلب ما تحمل هذه السفن من مؤون وسلع ، وكانت مصر فى خياله واخيلة امثاله من شباب قوله أرض السعادة والحظ وتحقيق الاطماع والاحلام ، الارض التى تصير العبد حرا والخامل بطلا والفقير موسرا .

وكان بين الذين اتصل بهم تاجر دخان فرنسى اصله من مرسيليا اسمه ليون فاستخدمه « خرمنجى » فى مصنعه ، أى يتذوق طعـم الدخان وينسق صنوفه ، ويقال انه كان لهذا التاجر الفرنسى الذى احسن اليه فى فترة صباه وشبابه شىء من التأثير فى ميول محمـد على وحبه واخلاصه للفرنسيين .

وعقب وفاةوالده اضطر الىان يلوذ بدار جوربجى قوله، ويصادق ابنه على عثمان الذى كان فى مثل سنه ، وما زال به حتى قلده مركز والده « يول اغاسى » وكانت معظم المراكز الحكومية تؤول الى الانباء بطريق الارث .

ثلاثة احداث لفتت اليه انظار سكان منطقة قوله :

يتلخص اولاها فى أن شابا اسمه آغو كان ممتازا وأشـجع من محمد على ، وكان له أخ يدعى عثمان ، خشن الطباع ، وكان ان عمد

الى قتل اخاه آغو فى ثورة عاطفية ، وانسل الى دار جوربجى قوله مستظلا بحماه ، فما كان من محمد على الا أن جمع رفاقه وهاجموا دار العمدة دون ان يراعوا حرمته واختطفوا القاتل عنوة وشنقوه على شجرة الدلب .

وثارت قرية فى الجبل تسمى « بروستا » وامتنعت عن سداد الضرائب وتحمل الظلم ، لان سكانها طولبوا بدفع الضريبة مضاعفة ، فهاجموا جباة الضرائب وحاولوا الفتك بهم ، وخشى جوربجى قوله ان يحتاج الامر الى بضع مئات من الجند لاقتحام القرية وارغام سكانها على دفع المستحق من الضريبة ، وفيما هو حائر فى أمره ينشد مخرجا من هذا العصيان الذى جاهرت به القرية ، اذ اقترب محمد على منه وسأله ان يترك له تدبير المسألة بشرط ان يمده بقليل من الحراس المدججين بالسلاح يأتمرون بأمره .

وكان ان اجابه الجوربجى الى طلبه فاصطحب معه سلحدار القرية سليمان اغا وثمانية من الحراس ثم اتجهوا صوب بروستا . واقتحم محمد على المسجد ودلف الى المحراب وجلس فيه بعد ان أوصى الحراس بايصاد الابواب عدا بابا واحدا . ولما حانت ساعة الصلاة وتوافد الاتراك الفقراء على المسجد اشار محمد على الى حرسه بالانقضاض على المصلين وشد وثاقهم ، ففزعوا وطلبوا الامان ، بيد انه خاطبهم بقوله :

— يالكم من قوم اخساء ، كيف تثورون على الحكومة ؟

ثم ساق امامه أربعا من الاسرى ، شيخ القرية وفقهاءها الثلاثة وقادهم الى دار حسين اغا ، ولما وقع نظره عليهم قال له :

— خذ نعاجك . . انا لست قصابا ، وهل يحتاج الحكام الى قصابين لاخضاع النعاج .

اما هذه الضريبة المضاعفة التى فرضها الجوربجى فكانت بسبب وجود خسرو باشا ضيفا عليه فى قوله ، ليتمكن من القيام بنفقات الضيافة اللازمة له ولاتباعه .

اما الحادث الثالث فمجمله أن الشبهات حامت حول محمد على لمقتل شخص يدعى على اغا من قرية نصرتلى التابعة لدرامة ، وكان متزوجا من سيدة على حظ غير قليل من الثراء والجمال تدعى آمنة

وبعد مرور أيام على وقوع الحادث كان محمد على فى مجلس شراب بمنزل راشد الذى كان ينزل فى ضيافته كلما مضى الى بلدة درامة المجاورة ، فقال محمد على يخاطبه :

ـ هل من الجائز ان اتزوج من درامة ؟

فاجابه على الفور :

ـ نعطيك آمنه ابنة على مصرلى

ولقى راشد عناء فى حمل خليل محمد اغا جوربجى درامه فى الموافقة على عقد هذا الزواج ، فقد كان محمد على فى نظره « فتى طائش شقى لا يؤمن جانبه » .

هذه الحوادث واشباهها جعلت جوربجى قوله يفكر فى طريقة يتخلص بها من الشاب الشقى وابعاده عن المقاطعة باسرها الى ان أهتدى الى الوسيلة التى ينشدها ، فعند ما اتصل به الامر بتجنيد طائفة من شبان المنطقة ، انطلق الى حاكم الروملى واخذ يطنب له فى شأن محمد على وكيف انه عينه جنديا احتياطيا للمحافظة على الامن بعد ان اظهر مهارة فى اخضاع عصيان سكان قرية بروستا ، حتى حمله على ان يسند اليه مركز « عسكر باشى » ووكل اليه حمل علم فصيلة قوله .

وكان خيال مصر لا يزال يداعب فكر محمد على ، وأخذ يحلم بالذهب الذى سيعثر عليه فى أرضها ، وما كاد يهبط الى البر فى ابى قير حتى انخرط فى سلك القوة التى سيرها القبطان حسين باشا فى فرع رشيد بالاشتراك مع فرقة انجليزية تولى قيادتها الكولونيل سبنسر لمهاجمة قلعة الرحمانية ، وكان قد اعتصم بها الفرنسيون بقيادة الجنرال لاجرانج ، ومن حسن الحظ ان انتهت المعركة بانتصار القوتين المتحالفتين وانعم على محمد على بهذه المناسبة برتبة « سر جشمة » .

وفى سبتمبر عام ١٨٠١ كان الضابط القوللى الصغير على رأس فصيلة من الجند غير النظاميين ، واستطاع ان يتقرب من الوالى محمد خسرو باشا الذى سبق ان عرفه فى قوله ، ايام حادث بروستا ، فرقاه الى رتبة « طوفنجى باشا » ، ثم اتصل فى الوقت ذاته برجل أصله من قوله ، هو عمر أغا قواص القنصلية الفرنسية فى القاهرة ، والذى لعب دورا خفيا بين مواطنه وبين القنصل ماتيو دى ليسبس .

كان خسرو باشا قد اعتزم القضاء على المماليك . وقد بدأ بتنفيذ خطة جهنمية توطئة للانفراد بالسلطة المطلقة فاستصدر امرا من السلطان بمنع جلب الجراكسة والكرج الى مصر ، ونشر جواسيسه بين المماليك للوقوف على نواياهم وخططهم ، وكان فى مقدمة الجواسيس الذين اعتمد عليهم الضابط محمد على الذى حباه بالكثير من عطفه ورقاه ترقيات استثنائية انتهت بأن أسند اليه قيادة كتيبة من الفرقة الالبانية غير النظامية .

ووقعت معركة دمنهور بين العثمانيين والمماليك فى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٠٢ وكان من المنتظر ان يحفظ محمد على جميل سيده بان يتفانى فى تنفيذ الامر الصادر اليه ، بيد ان محمد على تخلى فى اللحظة الاخيرة عن المهمة الموكولة اليه وهى قيادة الكتيبة الالبانية والاشتراك فى المعركة ، وكان من نتيجة تخلفه عن خوض غمار المعركة مع جنده ان هزم الاتراك وتكبدوا خسائر فى الارواح والعتاد ، فلما علم الوالى بتقاعس محمد على حنق عليه واستدعاه الى مقابلته ، وكان الوقت ليلا ، فرفض الضابط الصغير الامتثال للامر والمضى الى القلعة وأجاب الرسول الذى حمل الامر اليه بانه سوف يحضر فى رابعة النهار على رأس فرقته ، فابتلعها الوالى وسكت على مضض ولو كان حاكما سديد الرأى ، لامر على الفور بالقبض على هذا الضابط الذى يعصى أوامره ومحاكمته عسكريا .

والواقع ان محمد خسرو باشا كان رجلا ضعيفا ، ربى فى احضان المابين الهمايونى وتقلب بين مناصبه المختلفة ، وقضى فترة من حياته كان مغضوبا عليه فى اثنائها من السلطان فى قوله حيث كانت تربطه بحاكمها حسين اغا صلة من الود ، فلما صفح عنه السلطان وعين واليا على مصر استهل حكمه بالتودد الى زعماء الشعب ووعد بانزال العقاب بالجند الذين يسلبون الناس ارزاقهم ويعتدون على الانفس ، ولكن وعوده كانت بمثابة دخان فى الهواء ، فلا هو أشرك الزعماء فى الحكم على نحو ما عمد اليه الفرنسيون ، ولا خفف عبء الضرائب والكلف ، ولا الجند ارتدع عما كان يأتيه من المخازى والآثام واخراج العائلات من دورها ليقيموا هم فيها ، ثم واجهته مشكلة المماليك الذين عزم على القضاء عليهم ، فقد كانوا من الحول والقوة بحيث لم يستطع ان يواجههم بقواته المفككة . هذه السياسة الملتوية الضعيفة التى اتبعها الوالى جعلت الضابط الالبانى الصغير لا يأبه لاوامره .

اشتهر عن محمد على الدهاء والحنكة وانتهاز الفرص واتباع سياسة فرق تسد ، فعقب انتهاء مهمة القوات البريطانية من اجلاء الفرنسيين ونزوحها عن ثغر الاسكندرية فى مارس عام ١٨٠٣ ، ثم اشتداد ساعد المماليك . رسم لنفسه خطة حازمة هىالا يساعد أحد الحزبين المتطاحنين على الاخر ، وان يعمل ما فيه صالحه منتفعا بمركز مصر وخصب أرضها ، وما فطر عليه شعبها من سكينة وولاء. وكانتالوسيلة العمليةلذلك هىأن يترك العثمانيينوالمماليك يتطاحنان فيضعف بعضهم بعضا ويتلاشى نفوذهما وبذلك تسنح له الفرصة للوثوب عليهما والتخلص منهما .

وقد واتته الفرصة الاولى عند ما حاصر المماليك مديرية المنيا وخربوا القرى وعاثوا فيها فسادا . فقد أمر الوالى جنده بالسير الى الصعيد لمطاردتهم ، ولكن محمد على حرض الفرقة الالبانيـــة على القيام بحركة عصيان والامتناععن التحرك الا اذا دفعت اليهممرتباتهم المتأخرة وهو يعلم بأن خزائن الوالى خالية من المـال . فما كان من خسرو باشا الا ان ارتكب حماقة بأن صــوب الى الجند المتمردين المدافع من القلعة ، وحاول طاهر باشا قائد الفرقة الالبانية التوسط فى الامر فرفض الوالى ذلك رفضا باتا ، وهنا اضطر طاهر باشا الى احتلال القلعة ، وفر خسرو باشا الى دمياط ، حامـلا معه كل ما استطاع العثور عليه من أموال وأسلحة .

وتولى طاهر باشا الحكم بالوكالة ، وكان رجلا اميا لا يعرف التكلم بالتركية ولا العربية ، وانما بلهجة سكان الجبال فى البانيا ، وكانت تغلب عليه الشعوذة الدينية ، فهو من اتباع الطريقة البكتاشية يقضى معظم أوقاته فى التكايا ، يجادل الدراويش ويســامرهم ، واراد ان يستبد بالمواطنين ففرض عليهم ضرائب فادحة ولكن القدر لم يمهله فى جنى ثمارها فقد ثار الانكشارية اذ رأوا فى انتصار الالبانيين وتولية زعيمهم انتقاصا من شأنهم بوصفهم من أعوان الوالى، وكان ان أقتحم القلعة ضابط اسمه اسماعيل أغا ، وكان رجلا كرديا صلب الـرأى عنيدا ، ومعه ضابط اسمه موسى اغا وبضعة جنود ، وخاطب طاهر باشا بقوله :

— ليس فى وسعى ان أرغم الجند على السير بدون مال .

فعنفه طاهر باشا وسبه بكلمات بذيئة ، وهنا ثار الضابط الكردى وخاطب جنده الذين يلتفون حوله بلغته وفى صوت خفيض بان يفكوا

ازار سيوفهم لانه اعتزم أن ينهى حياة الرجل بضربة واحدة من حد حسامه .. ثم عاد والتفت الى طاهر باشا وخاطبه فى ثورة وعنف :

ـ سيدى .. ان الدب الجائع لا يرقص ، والجنود لا يشبعون بشتائمك ، فلن يكون هناك سفر بدون نقود ، ولا يجوز ان تكيل السباب والالفاظ البذيئة لمن هم على أهبة السفر .

وبعد لحظات شوهد رأس طاهر باشا يسقط من النافذة على أثر ضربة واحدة من السيف ، ولم يتجاوز حكمه ٢٦ يوما ، ثم عمد الانكشارية الى داره فنهبوا محتوياتها واشعلوا النار فيها .

وحاول محمد على ان يصدر عفوا عن القتلة ، ولكن بعض القادة فوتوا عليه هذه الفرصة بأن انتهزوا فرصة مرور الوزير احمد باشا بالاراضى المصرية فى طريقه الى المدينة المنورة لتسلم قيادة الحامية العثمانية بها ، فنادوا به واليا على مصر .

وكظم محمد على غيظه من هذا المسلك وقال معقبا : انه لا يعرف فى شخص الوزير احمد باشا سوى انه رجل اجنبى ولى ولاية اقليم عربى وانه غير أهل للاضطلاع باعباء الحكم لجهله بدخائل الامور فى مصر .

وكان ان مضى الى معسكر المماليك وفاوضهم فى مناهضة الوالى الجديد ومهد لهم سبيل العودة الى احتلال القاهرة، وما زال بهم حتى انضموا اليه ودخلوا العاصمة واقتحموا مخازن القمح . ثم سلط الجند الالبانيين على احمد باشا لطرده أو اغتياله .

وهاجت الخواطر فى الباب العالى لما أصاب سلطته من التصدع ، وبادر بان أرسل وال جديد هو على باشا الطرابلسى أو الجزائرى ، واصله من المماليك الجراكسة ، فوصل الى الاسكندرية فى ٨ يوليو عام ١٨٠٣ مصحوبا بقوة عسكرية قوامها الف جندى ... واختلف الوالى الجديد وهو فى الطريق مع الامراء المماليك من ناحية ومع الجند الارناؤود من ناحية أخرى ، فضيقوا الخناق عليه وحاصروه ثم قالوا له : لقد حان وقت رحيلكم والخيول فى انتظاركم .

واخيرا تربصوا له عند قرية منية السيرج ، قبل ان يصل الى العاصمة ، واخذوه أسيرا ثم وجهوه الى الشرق مع حرسه وشرعوا فى اغتياله ، فلما احس دنو أجله خاطب قاتليه بقوله : ان واليا مسلما يعرف كيف يموت فهو لا يلوث يديه بلمس العصاة .

ثم نشر امام الجند قطعة من القماش كان يحتفظ بها بين امتعته، ذكر عنها بانها كفنه ، واستحلفهم بالا يحرموا جثته هذا الكفن .

فمال عليه الجند بالسيوف وجزوا عنقه ....

ثم اتجهوا الى اتباعه واجهزوا عليهم ، وفر بقية حرسه الى الصحراء حيث وارتهم رمالها .

ووصل النبأ الى محمد على فأمر بأقامة معالم الزينات ، كما اتفق مع البرديسى زعيم المماليك على فك اسار خسرو باشا من معتقله فى دمياط ، وهو يعلم بان خسرو من ضعف الرأى وسوء الادارة بحيث سيصبح فى هذا المنصب ألعوبة فى يده يحركها كيف يشاء ، ولكن البرديسى اعاد خسرو مخفورا الى القاهرة ليسجن فى القلعة بدلا من ان يحكم منها .

هكذا أصبح الحكم فى ظاهر الامر بأيدى المماليك ولكن الواقع أن محمد على كان لا يزال يعمل ويكد ويحرك الدسائس من وراء ستار، فبعد ان أخذ يتخلص من منافسيه على الولاية واحدا أثر الاخر اتجه الى الشعب يتقرب من زعمائه وشيوخه واعيانه ويعمل على ان يصور نفسه امام الجميع فى صورة البطل المنقذ .

وفى خلال هذه الفترة العصيبة التى كانت تمر بها البلاد والازمات التى تعصف بالمواطنين الامنين ، ظهرت على مسرح الحوادث شخصية قوية جبارة ، هلع لمقدمها محمد على ، تلك هى شخصية محمد الالفى بك زعيم المماليك الذى كان قد رافق الحامية الانجليزية فى جلائها عن الاسكندرية ، وبعد ان مكث فى انجلترا زهاء أحد عشر شهرا وثق فى خلالها علاقته برجال السياسة فى لندن ، عاد الى مصر مزودا بالمال والتحف والهدايا ، والعهود والمواثيق لتنصيبه حاكما على مصر .

وأدرك محمد على انه امام خصم عنيد جبار لا يلين ، خصم ليس من طبقة الولاة الضعاف الذين ينصبهم الباب العالى على مصر بالاسم دون ان تكون بيدهم القوة الفعالة فيناهضهم محمد على ويؤلب الخواطر عليهم ، وكان ان ضيق الخناق على الالفى ورصد حركاته وأخذ يعمل على تشتيت انصاره ، حتى انه عاقب سليمان البواب بك وصادر ممتلكاته لمجرد انه استضاف الالفى فى منوف .

ولما كان وجود الالفى يهدد نفوذ محمد على والبرديسى الزعيم الاخر للمماليك فقد اتفقا سويا على القيام بعمل مشترك وسلطا عليه الفرقة الالبانية فاعترضت طريقه فى النيل ونهبت متاعه وأمواله وما

اتى به من تحف وهدايا ، اما هو فركن الى الفرار للنجاة بنفسه واللجوء الى مضارب البدو فى الصحراء .

توطد مركز البرديسى بعد اختفاء الالفى فأصبح هو زعيم المماليك، وصور له خياله أن الجو صفا له ، وان الامور دانت وأستقرت له . وانه أصبح على قاب قوسين أو أدنى من الصعود الى منصة الحكم . ولم يفطن الى ان محمد على يلعب دوره فى الخفاء وان كل حركة تقع، له فيها أصبع .. وكان الزعيمان المتكالبان على الحكم قد عقدا اتفاقا وذاق كل منهما دم صاحبه شارة التضحية والاخلاص . ولكن اطماع البرديسى غيرت عاطفة محمد على نحوه . واخيرا اتهم هو محمد على بانه لا يناصره فى موقفه من الالفى وانه يحاول الاتصال به سرا .

وبدت أول بوادر الانشقاق عندما أوعز محمد على الى جنده بان يطالبوه جهارا برواتبهم المتاخرة فلما مثلوا الدور المتفق عليه ، أجابهم بانه ليس بصاحب جباية ولا أمين خزانة وأحالهم الى البرديسى .

وحاول زعيم المماليك ان يستخلص المال المطلوب من شعب القاهرة ليسكن ثائرة الجند ، ولكن الحالة فى العاصمة بصفة خاصة وفى الاقاليم بصفة عامة كانت فى منتهى الخطورة وتزداد سوءا يوما عن الاخر ، وقد زاد من تفاقمها نقص النيل فى أغسطس عام ١٨٠٣ نقصا فاحشا ينذر بالقحط والجوع ، ثم انكب الناس على تخزين القمح وارتفع سعره وشح الخبز فى الاسواق ووقع الفقراء فى كرب وضيق .

واخذ المواطنون يتذمرون من مطالب شتى وفى مقدمتها : فداحة الضرائب وتعدد المغارم ووقوع مظالم من الجند ، وندرة المحصولات الزراعية . واخيرا لجأ الشعب الى العلماء يستعدونهم على القوم الظالمين ويشرحون لهم مخاوفهم ويصارحونهم بالامهم ومتاعبهم ، فأخذت الحمية عمر مكرم والشرقاوى والامير وانطلقوا فى يوم ١٠ نوفمبر عام ١٨٠٣ الى الامراء المماليك وطلبوا اليهم الحد من هذه المظالم والمغارم ومنع الجند من امتداد ايديهم الى أفراد الشعب بالاذى عليهم ، ولكن هذه الوعود كما جرت العادة كانت وعودا جوفاء ، فلم يستطع البرديسى ولا غيره ان يحول دون سطوة الجند ولا أن يحول بينهم وبين اعتداءاتهم الآثمة ، فالجند لهم رواتب متأخرة وخزانة الدولة خالية بسبب سوء الادارة وتلف الاراضى الزراعية .

وفكر البرديسى وادمن التفكير ، وهداه تفكيره الى ابتداع وسيلة شيطانية للحصول على المال ليدفع منه رواتب الجند ويسكن به ثورتهم ، ففى مارس عام ١٨٠٤ اصدر أمرا بفرض ضريبة على جميع العقارات والمنازل فى القاهرة ، هى دفع اجر سنة مقدما ، واخذ جباة الضرائب يعاونهم جند المماليك يجوبون الشوارع والطرقات ويطرقون الابواب لاجبار كل مالك على الدفع ، فأمتنع الكثيرون واستنكروا هذه اللصوصية السافرة ، وخرجوا من دورهم ومتاجرهم يجاهرون بالتمرد والعصيان ، واحتشدوا فى الشوارع وامام المساجد وفى وفى ايديهم البيارق والدفوف والطبول وهم يستمطرون اللعنة على الحاكم الظالم .

انفجر اذن مرجل الثورة ... ونزع شعب القاهرة الى تدبير مظاهرات صاخبة اخذت تطوف بالاحياء وهى تردد صيحات ونداءات عالية : يالطيف يالطيف ، واشتركت النساء فى هذه المواكب الشعبية فعمدت الى صبغ وجناتهن بالنيلة وهن يصحن ويولولن كأنهن فى مأتم ، وبصحن بعبارات تهكمية : ايش تاخد من تفليسى يابرديسى .

واتجهت هذه الجموع الى الازهر ، وغص صحن الجامع بالالوف من المتمردين الذين تطوعوا باحتلال الشوارع والاماكن الحكومية . والفتك بجباة الضرائب ، واضطرب البرديسى وهو يرى ويسمع هذه الصيحات المدوية المنذرة بهبوب العاصفة .

اما محمد على فقد أوجس خيفة من عواقب هذه الثورة ، وخشى ان تمتد غضبة الشعب الى جنده ، فبادر الى كشف المماليك امام الثوار وجعلهم وحدهم هدفا للنقمة ، واوعز للجند الارناؤود ان ينزلوا الى الشوارع ويختلطون بمختلف الطوائف ، وان يخاطبوا كل من يلقونه بقولهم : نحن معكم . ان رواتبنا على الميرى وليس على كواهلكم . وقصد زعيم الجند الى الازهر حيث تجمعت القوى المعنوية للكفاح والنضال ، واظهر عطفا مكذوبا على مطالب الشعب ووعد بمساعدته ، واخيرا اعلن جهارا انضمامه الى جانب الزعماء وتحديه البرديسى .

نجح محمد على اذن فى كسب الجولة الاولى، وتمكن من ان يؤجل دفع الضريبة المفروضة فهدأت الخواطر الى حين ، وتفرقت الجموع ، وقام بعض العلماء فشكروا لزعيم الارناؤود حسن مسعاه .

وكانت الفرصة سانحة امام محمد على للتخلص من مزاحميه ، فرتب قيام ثورة عسكرية تطيح بنفوذ المماليك ، ومن سـوء حظ البرديسى انه قابل هذه الثورة فى بادىء الامر بالتعالى والكبرياء ، ونقم على الشعب ان يجاهر بالتمرد والعصيان ، والامتناع عن دفع الضريبة ، وتوعده بان يلزمه بدفع الضريبة المطلوبة ثلاثة اضعاف . ولكن الارناؤود لم يمهلوه ان يتمادى فى غيه ، وكان ان حاصروا معاقل المماليك فى مصر القديمة وبركة الفيل والناصرية واحكموا الحصار ، ثم اتجهوا الى دار البرديسى نفسه فهاجموها وانقضوا عليها ونهبوا محتوياتها ، واشاعوا الذعر والفوضى فى قصور الامراء المماليك واعملوا السلب والنهب وجردوا النساء من حليهم وجروهن من شعورهن .

ووجد البرديسى نفسه فى مأزق حرج ، بين ثورة شعب وتمرد عسكرى ، فتولاه الفزع وخشى على حياته ، واسرع بمغادرة القلعة ولاذ واتباعه بالفرار الى الصحراء ، وكان هذا آخر عهد المماليك بالحكم اذ لم تقم لهم بعدها راية .

وارسل محمد على اتباعه لفك اسار ولى نعمته السابق محمد خسرو باشا من سجن القلعة حيث ظل به ثمانية أشهر . وكتب الى الباب العالى يقول انه تنفيذا لارادته حارب المماليك واعاد الحكم باسم السلطان ومكن الوالى الشرعى من مباشرة مهام منصبه وجباية الخراج ودفع الجزية ومخصصات الحرمين .

وبذلك اكتسب محمد على عطف الباب العالى والوالى والجند الارناؤود والزعماء وطوائف الشعب ، وكان يبغى من وراء ذلك كله تحقيق الشطر الاول من برنامج خطته التى ترمى الى الاستيلاء على مقاليد الامور وحصرها فى قبضته .

وبدأ خسرو يحكم مصر من جديد ... ولكن قادة وضباط الجند الارناؤود لم يقبلوه حاكما وطالبوا باسقاطه وهددوه بالثورة .

صوت الشعب

نفوذ الالبانيين فى مصر ـ فظائع الجند ـ ولاية خورشيد باشا ـ تحذير الباب العالى لمحمد على ـ مناورات فى سبيل الحكم ـ ثورة القاهرة .

أصبح الالبانيون هم أصحاب الحول والطول فى القاهرة، والمتصرفون فى شئون العباد ، كان الجندى الالبانى يأتى الى تاجر أقمشة مثلا ويطلب مقعدا ويجلس بالباب ويستمر على هذا المنوال عدة أسابيع وفى النهاية يطالب التاجر بنصيبه فى الربح بدعوى انه شريكه ، معتبرا أن جلوسه بالباب قد اكسبه الحق فى مشاركة التاجر فى تجارته ، فاذا امتنع التاجر عن الاعتراف بهذا الحق المغتصب استولى الجندى على المتجر عنوة واقتدارا يساعده فى ذلك اعوانه . والا رضخ التاجر المسكين للامر الواقع وأقره الدخيل على ما يفرضه عليه من شروط ، وبهذه الطريقة كان لمعظم التجار المصريين شركاء من الارناؤود والعثمانيين .

واعتاد الجند سرقة الحمير بأن يتفقوا مع المكارى على المضى بهم الى جهة ما معينة فاذا وصلوا اليها طردوا المكارى وعادوا بالحمار لبيعه فى السوق ، ومنهم من كان يقتحم احد المنازل مطالبا صاحبه بتسليمه حماره على سبيل الاعارة فاذا ما أنكر رب البيت وجود حمار لديه ، شرع الجندى يقلد نهيق الحمار ، فاذا صادف وجود حمار فى البيت ، دفعته الغريزة الى مقابلة الصوت بمثله وعندئذ يدخل الجندى الى مكانه ويأخذه اغتصابا لبيعه فى السوق .

وكان هؤلاء الجند يعمدون الى قتل المواطنين فى الطرقات لغير ما سبب ، وخطف العمائم من فوق الرءوس لا سيما فى الليل ، فكان الرجل اذا مشى يربط عمامته خوفا عليها ، واذا تمكنوا من أحد شلحوا ثيابه وسلبوه دراهمه ، بل لقد بلغ الامر بهم ان تبعوا شيخا معمما فى الطريق ففر منهم ولجأ الى حمام الطبندى فاقتفوا أثره وفتكوا به فى داخل الحمام وسلبوا ما يحمله من دراهم .

وكانت جميع المنازل فى القاهرة وفى القرى مفتوحة أمامهم يدخلون ويأكلون ويمرحون وقتما شاءوا وكيفما ارادوا دون ان يستطيع رب البيت ان يحتج ، وكانوا يترصدون للمزارعين وهم فى طريقهم الى سوق امبابة فينهبون ما بأيديهم من الاغنام والدواجن والبيض والزبد

والجبن . ومنهم من تطاولت أيديهم الى النساء ينتهكون حرمتهن وينسابون عليهن فى الحمامات العامة .

وهناك فريق من الجند جانبهم الشر فقنعوا بكسب قوتهم عن طريق ان يكون بائع سحلب أو بقلاوة وجندى معا !!

وبعد مواقع دامية بين الارناؤود والانكشارية ، هب الاولون الى نهب بيوت الامراء المماليك ، وكانوا لا يكتفون بسلب الاثاث والرياش، بل عمدوا الى نزع الابواب والنوافذ واستولوا على ما فى المخازن من القمح والدهون والسمن وصاروا يعرضونها للبيع فى الاسواق .

وحدث أن ألبس محمد على اربعين نفرا من اتباعه الملابس العسكرية وأمرهم بالاندساس بين الجند ، واخذوا يقلدون لهجة الارناؤود ويصيحون : ان رؤساءنا يطعموننا الرصاص بينما هم ينعمون بالمال ، فاذا كانوا فى حاجة الى مزيد من المال فانهم ينطلقون الى محمد على يطالبونه به ، اما نحن فنمضى الى الحمزاوى لنهبه ثم نذهب الى عيوشة والدمياطية وزنوبة والرشيدية ومبروكة ..

وانشأ الجند يتناقلون هذا الكلام خفية وجهرا ، الى أن اتجهوا الى حى الحمزاوى ونهبوا متاجره وتركوا البوم ينعى فى ارجائه .

امتعض سكان العاصمة واشتد بهم الضيق والفزع ، ونهضوا يحتجون على أعمال اللصوصية السافرة والقرصنة ، فأغلق التجار متاجرهم والصناع مصانعهم ، وهجر الفلاحون مزارعهم ، وهنا ظهر محمد على على المسرح ووجد أن خير فرصة يدعو بها لنفسه ليحول مجرى الحوادث لصالحه ، هى أن يتصل بالزعماء اتصالا وثيقا ، فمضى الى الازهر واخذ يواسى شيوخه بكلمات كلها رياء ونفاق ومداهنة ، وتظاهر بالعطف والشفقة فقال لهم : سأذهب الى الحمزاوى والى جميع الاسواق وسوف أضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه النهب والاغتصاب .

وعندئذ أصبح محمد على صاحب الكلمة المسموعة ، فى يده زمام الجند وفى اليسرى زمام الشعب ، ودعا العلماء ورجال الدين وقادة الجند الى اجتماع أظهر لهم فيه وجوب تعيين وال .

وكان خسرو باشا قد خرج من مصر أو بالاحرى طرد منها ، بعد ان اعترض قادة الارناؤود على وجوده بتواطئهم مع محمد على ، وهنا اتجهت الانظار الى حاكم الاسكندرية أحمد خورشيد باشا ليتولى الحكم .

وكان خورشيد حاكما من الطراز نفسه ، أى رجلا قصير النظر ، متغطرسا ، من بقايا الارستقراطية العثمانية ، وكان مركزه حرجا ، فدولته تخذله ولا تمده بالجند لاقرار الامن والنظام. وخزائنه خاوية من المال لدفع مرتبات رجال الحامية وتسيير دفة الحكم، ويده قاصرة عن تحصيل الضرائب لا سيما فى الريف حيث كان المماليك يغيرون على القرى ويستخلصون لانفسهم خيراتها ، والقوات العسكرية التى تحت امره لا تتحرك الا اذا دفعت مرتباتها المتأخرة ، ومن حوله المماليك والارناؤود كل يبغضه ويضمر له السوء .

وصل خورشيد باشا الى بولاق فى اواخر مارس عام ١٨٠٤ وسكن القلعة فى يوم ٢٠ مايو وتفتق ذهنه الضيق عن ابتكار وسيلتين لجمع المال . اولاهما ان أصدر أمرا بالقبض على السيدة نفيسة المرادية ، وكان القبض على النساء أمر لم يجر به العرف ، فثارت خواطر العلماء ورجال الدين واحتجوا على ذلك .

اما الوسيلة الثانية فانه فرض اتاوة جديدة على ارباب الحرف والصنائع وفرض كلفا على الذميين من التجار ، فضج الجميع وعمدوا الى اغلاق الحوانيت والمصانع ... ولم تمض أيام معدودات حتى احتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف ومن حولهم الجماهير واتجهوا الى الازهر ، وصعد الكثيرون الى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، ووصلت هذه النداءات الى سمع الوالى وهو قابع فى مجلسه فى القلعة ، فبعث الى السيدعمر مكرم يستوضحه جلية الامر، فاجابه بأن ارباب الحرف والصناع من طبقة الفقراء لا يمكنهم تحمل الضريبة، وطالبه برفعها ، فاستجاب الوالى الى هذا الطلب وقرر رفع الضريبة عن الجميع .

• ● •

واخذ الباب العالى ينظر بعين القلق الى ما يجرى فى مصر ، فهناك شعب اعزل من رعايا الخليفة يلقى افراده صنوفا من العذاب والهوان على أيدى فئة من الجند غير النظاميين يتحكمون فى مصيره ، وهناك مغامر طموح يحرك هؤلاء الجند للفتك بالابرياء واستنزاف ثمار كدهم ، ووجد الباب العالى ان الطريقة المثلى لدفع سخط الشعب هو ابعاد محمد على عن مصر حتى تستقيم الامور وتختفى عوامل الفتنة ، فوجه اليه انذارا فى مارس عام ١٨٠٤ قال فيه : تعلمون انه لما أقام الفرنسيون اركان حكمهم فى مصر ، بذل الباب العالى المال

والرجال لاعادة فتح هذا القطر وتنظيمه ، ومنذ هذا الوقت وجد بينكم من ساءت نياتهم وفسدت ضمائرهم فالقوه فى مخالب المماليك، وسلموا زمامه اليهم . وليس من قصد الباب العالى ان يتهمكم بتدبير هذا الخطأ ، ولكن حيث ان الماضى دخل فى خبر كان ورفعت المسئولية وانمحت الجرائم بالعفو السلطانى ، فأن الباب العالى يدعوكم الى مغادرة مصر على الفور والعودة الى وطنكم انتم ورجالكم . والباب العالى واثق من انكم ستقدرون تسامحه وعفوه فتمتثلون لاوامره ولا تخرجون عن طاعته » .

واضطرب محمد على وحسب للامر الف حساب ، واغتنم هذه الفرصة ليتودد مرة أخرى الى طوائف الشعب ويسبر غور شعورهم نحوه ، فاشاع بانه سيصفى ممتلكاته ويبيع داره فى الازبكية تأهبا للرحيل اطاعة لاوامر الباب العالى ، واوعز الى الوالى من ناحية أخرى بان يفرض الضرائب والاتاوات ليدفع منها رواتب الجند قبل رحيلهم، وكان غرضه الخفى هو أن يعم الاستياء مختلف الطبقات فتضج بالشكوى وتعمد الى الثورة .

واخيرا سمح للارناؤود ولقبائل البدو بتشكيل عصابات تعيث فسادا فى العواصم والقرى وتعمل للسلب والنهب حتى يضطرب حبل الامن . وفعلا اختل النظام وسادت الفوضى فى كل مكان واحرج مركز الوالى ، الذى اضطر الى ان يفوض الى محمد على قيادة الجند لكبح جماح الثوار والضرب على أيدى العابثين .

ولم يجد خورشيد باشا مفرا من ان يستنجد بالباب العالى ليمده بالقوة التى فى وسعها أن تسيطر على الحالة ويقر الامن والنظام ، فبعث اليه بثلاثة الاف جندى من فرق الدلاة .

وكان هؤلاء الدلاة كارثة على خورشيد باشا ، لانهم لصوص قبل ان يكونوا جنودا ، فقد جبلوا على الشر وامتداد أيديهم بالاذى ، وارتكاب الفظائع والموبقات .

وجد الدلاة انفسهم فى أرض غنية، وبعد أن كانوا لا يجدون قوتهم ولوازمهم الا بشق الانفس ، تفتحت خيرات الوادى امامهم ، فأخذوا يتمادون فى النهب ويعيثون فسادا ويقترفون الجرائم على تعدد أنواعها .

• ● •

كان محمد على يخال أن الوالى فى قبضة يده ما دام قد عهد اليه

بحفظ النظام ، فلا يقدم على أمر كهذا دون مشورته ، ولكن خورشيد باشا كان من الدهاء بحيث لم يرض لنفسه ان يكون العوبة فى يد غيره ، فاستنجد بقوة الدلاة ليوازن بهـا القوة التى يسيطر عليهـا محمد على حتى لا يستأثر وحده بالامر .

تفاقم الخلاف بين الوالى وبين قائـد الارناؤود ، وكان ان بعث خورشيد باشا الى الوجاقلية والى العلماء ورجال الدين والاعيـان للاجتماع به فى القلعة ، وابرز لهم ورقة من كيس أخضر ذكر عنها أنها خط شريف « يبيح له ان ينفى هذا الشقى محمد على ويعيده الى موطنه » .

ولم يتوان محمد على من ناحيته عن تنفيـذ الخطة التى ينتصر بها على خصمه ، فمضى الى معسكر الدلاة وغمر رؤسائهم بالهـدايا واستطاع أن يقنعهم بانه ليس عاصيا ولا متمردا ، وان سبب غضب الوالى عليه ونفوره منه هو انه يطالبه بدفع ما لرجـــاله من رواتب متأخرة . وانتهت المقابلة بعقد تحالف بين الدلاة وبين الارناؤود .

وبعث الوالى يسأل الدلاة حقيقـة التحالف المقعـــود ، فكان جوابهم : اننا لن نشهر السلاح فى وجوه الالبانيين ما دامت لهم حقوق فى عنقكم .

وتكشفت هذه الاحداث عن وقوف محمد على والوالى وجها لوجه كلاعبين فى رقعة شطرنج ، الاول بدهائه وحذره ومكره ودسائسه وتسلطه على الجند بذلاقة لسانه . والثانى بعجزه واستكانته وفساد رأيه وافلاس خزائنه من المال .

واشتدت سواعد الدلاة بتأييد محمد على الذى ســـلطهم على الشعب اقتداء بجنده ، فأخذوا يغشـــون المنازل عنوة ويطردون اصحابها منها ، ويخطفون النساء والغلمان ، ويعتـدون على الارواح والاعراض .

وكان خورشيد باشا يدرك تمام الادراك بأن محمد على هو اليد الخفية المحرضة فى كل الاحداث التى وقعت ، ولكنه كان من الدهاء بحيث كان يتباعد عن تحمل المسئولية سواء امام الوالى أو المماليك أو الشعب أو الجند ، فاذا تأخر دفع رواتب الجند ســـلطهم على قائدهم فنكلوا به ، واذا فرض الوالى ضريبة ما بادر هو الى الاجتماع بزعماء الشعب وتظاهر بالاهتمام بتخفيف كروبهم ورفع المظالم عنهم ،

واذا حاول الوالى تسيير حملة لتأديب المماليك بادر هو الى معسكرهم فطمئن خواطرهم ، واذا استنجد الوالى بقوات نظامية لاقرار الامن وتأديب العصاة انطلق الى معسكر الجند وتآمر مع قوادهم ضد مصلحة الدولة .

ورأى خورشيد باشا أن يتخلص من محمد على بحيلة ولكنها انقلبت عليه ، وكانت بمثابة المسمار الاخير الذى دق فى نعشه ... كتب الوالى الى الباب العالى يشرح سوء الحالة فى البلاد ، ويقترح ترحيل محمد على باسناد ولاية الحجاز اليه ، واجاب الباب العالى هذا الطلب وجاء الفرمان بذلك .

وتأهب الوالى لعقد اجتماع فى القلعة يتلى فيه الفرمان ، بيد ان محمد على خشى الذهاب الى القلعة لئلا يكون فى الامر مكيدة للقبض عليه واقترح أن يعقد الاجتماع بمنزل سعيد أغا ، وعقد الاجتماع فعلا وشهده قاضى القضاة والعلماء والقادة ، وأصبح محمد على يحمل رتبة الباشوية وخرج من منزل سعيد اغا فى موكب حافل وهو ينثر الذهب والفضة فى الطرقات .

ولم يسافر الى مقر منصبه الجديد . ألم يصبح واليا وحاملا لرتبة الباشوية ، فماذا يمنعه من ان يتريث قليلا ويمكث فى القاهرة لعل الظروف تساعده على عزل خورشيد باشا واستبدال ولاية الحجاز التى لا تدر على صاحبها نضارا بمصر ذات الارض الخصبة والخير العميم .

• ● •

تابع الدلاة اعتداءاتهم المنكرة ، حتى اشتد التذمر والتبرم وبدأ الشعب يفكر فى الثورة ...

والواقع ان الشعب تحمل الكثير من المكاره ، فمن قتال فى المدن والدساكر والقرى ، وضياع الانفس والاموال ، واتلاف المزارع ، ونهب المتاجر ، وسرقة البيوت المطمئنة ، ونشر الخراب والدمار .

انفجر مرجل الثورة وأعلنت الدعوة الى الكفاح ، فاجتمع العلماء فى الازهر وقرروا الاضراب عن القاء الدروس ، ثم اغلقت المتاجر والاسواق واحتشد المواطنون فى الشوارع والمساجد يطالبون بوضع حد لهذه المهازل والفضائح وجلاء الجند الدلاة عن مساكنهم .

وخشى الوالى سوء العاقبة فارسل نائبه ومحافظ العاصمة الى الازهر للاجتماع بالعلماء ، ولكن سيلا من الحجارة انصب عليهما ، فاضطرا الى العودة، اما علماء الازهر فاتفقوا على مطالبة الوالى بترحيل الدلاة عن القاهرة وارباضها فى ظرف ثلاثة أيام . . . ثم انتهى الاجل المحدد ولم يرحل سوى نصف عدد هؤلاء المتوحشين ، وظل النصف الاخر يتابع جرائمه المنكرة .

وحانت الساعة الفاصلة التى ظل محمد على يرتقبها سنوات خمس ، تعاقب فى خلالها على مصر خمسة حكام ، قتل منهم ثلاثة ، وطرد اثنان بعد ان سجنا ، وكان محمد على فى خلال هذه الفترة العصيبة لا يفتأ يخاطب نفسه بقوله : « يكفى المرء أن يكون عثمانيا وقائدا لطائفة من الجند حتى يصعد الى منصة الحكم فى مصر » . ولذا انتهز فرصة تذمر طبقات الشعب من الضرائب والكلف التى فرضت عليهم ، وعبث الجند وارتكابهم المخازى والموبقات ، ثم احتشاد الطوائف فى الازهر للاجتماع بالعلماء ومجاهرتهم بالتمرد والعصيان ، واغلاق لمتاجر والمصانع والمنازل حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة . . . انتهز هذه الفرصة ، فصار يداهن السيد عمر مكرم ويتردد عليه سرا فى الليل ، ويستميله بشتى الوعود الخلابة ويقسم له الايمان الكاذبة بانهم لو مكنوه من الحكم فانه يسير حسب نصوص الشرع والاقلاع عن المظالم ، ولا يصدر أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وانه اذا خالف هذه الشروط عزلوه واخرجوه من القلعة .

ولم تكن للسيد عمر مكرم دراية بالسياسة ومناوراتها ، كان ينظر الى محمد على بعاطفته الدينية وليس بعاطفته القومية ، وكان ينشد تولية حاكم صالح واقامة دولة جديدة تقر الامن والنظام وتعيد الطمأنينة الى النفوس . . ولذلك صدق هذه الوعود البراقة واستطاع محمد على ان يطويه تحت جناحه ، واخذ مكرم على عاتقه تمهيد السبيل للولاية وحمل العلماء ورجال الازهر على مشاركته فكرته ، وهى ان محمد على لا يبغى من وراء الحكم سوى انقاذ أرض الكنانة من براثن الفوضى وعوامل الاضطراب .

الزعيم الاول

نشأة لسيد عمر مكرم ـ الوثيقة السياسية التى سبقت اعلان حقوق الانسان ـ الشيخ الشرقاوى ـ الشيخ السادات ـ عزل الوالى بارادة الشعب ـ اول انقلاب من نوعه فى الشرق ـ حصار الوالى فى القلعة ـ تولية محمد على بشروط يمليهـا نواب الشعب .

كانت بيوتات البكرى والسادات ومكرم هى البيوتات المعروفة فى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر . فاذا ألمت مصيبة بالشعب أو وقع ضيم على مواطن ، من حاكم أو مملوك ، لجأ أفراد الشعب الى هذه البيوتات يستظلون بحماها ويستعدون أربابها ، ويطلبون المشورة ورفع الحيف والعدوان عنهم .

ذلك ان الزعامات الدينية كان لها شأنها وخطرها وسلطانها فى هذا العصر ، وكان الحكام يفهمون الزعامة على هذا الوجه ويدركون ما لها من نفوذ وطاعة فى نفوس أفراد الشعب . فمن هنا كانت مكانة هؤلاء العلماء فى الشئون السياسية العليا ، ومن هنا كانت مكانة رجال الدين محفوظة وكلمتهم نافذة .

والواقع ان هؤلاء الزعماء الشعبيين كانوا عند حسن ظن المواطنين بهم ، فطالما نهضوا لمكافحة المظالم الصارخة ، ورفع ثقـل الاحمال الفادحة ، وطالما قاوموا ألوان العنت والعدوان مقاومة باسلة مشرفة ، وتحملوا فى سبيل ذلك تضحيات غالية .

والسيد عمر مكرم ، نقيب الاشراف ، وحامل لواء الزعامـة الشعبية ، من أرفع الاسماء ذكرا فى القرن الثامن عشر ، قضى حياته فى خدمة الشعب ، وتحقيق الامانى القومية ، ورفع الحيف عنه ، والسعى الى تحريره واعلاء كرامته ، بحيث كانت الوطنيـة عنده عقيدة ومبدأ يذود عنهما .

وقد ولد السيد عمر مكرم وشب ونشأ من اسرة عريقة النسب ، تمت الى الدوحة النبوية بصلة ، كان مولده فى مدينة اسيوط ، حوالى عام ١٧٥٥ ، وتلقى علومه فى الازهر ، وتثقف الى جانب ما درسه من علوم الدين ، ثقافة عصرية شاملة ، تشهد بذلك مكتبته النفيسة التى خلفها ، وعند ما توفى السيد محمد البكرى نقيب الاشراف « ١٧٩٣ » ولم يكن له عقب ، اتجهت الانظار الى عمر مكرم ليشغل هذا المنصب الدينى الرفيع .

وانصرف مكرم الى الشئون العامة الى جانب ما كان يمليه عليه منصبه الدينى من تبعات ، وكانت أبرز مواقفه السياسية وكفاحه المشرف الرائع ، انه حين اضطربت الامور فى غضون عام ١٧٩٥ وفزع القوم من طغيان الامراء المماليك وعلى رأسهم مراد وابراهيم ، وأبى ترك الطاغيتين يحكمان على هواهما ، نهض السيد عمر مكرم على رأس وفد من العلماء للدفاع عن الحريات العامة ومناهضة معالم الاستبداد ، وألزم الطاغيتين بشروط تعهدوا فيها باقامة العدل ، وأنهم يتوبون عن العدوان ، ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم العرف والشرع ، من صرف الاموال على مستحقيها ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم الى الاموال ، وبأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة .

ان هذه الوثيقة التى استخلصها مكرم وزعماء الشعب من الحكام الطغاة ، يعدها المؤرخون بمثابة حقوق الانسان الاولى التى سبقت فى التاريخ اعلان حقوق الانسان فى فرنسا فى أعقاب ثورة سنة ١٧٩٨ ، وهى حجة دامغة وصفحة مشرفة للشعب المصرى الذى يأبى حملة القماقم ، من الكتاب المغرضين ، الا أن يصوروه ذليلا ، مستسلما للظلم ، راضيا عن الهوان ، وانه ظل مطية لمن غلب .

وفى الحقيقة ان مصر وان كانت قد رزحت زمنا تحت نير الاستبداد ، وتحملت صنوف الآلام والبلوى والاذى ، الا أنها مع ذلك لم تنفصل عن ماضيها المجيد ، ولم تفقد شخصيتها القوية ، وطابعها المستقل ، ومواهبها فى الحضارة . فقد صقلتها التجارب وهزتها الانقلابات ومرنت على الكفاح ، فخاضت غمار معارك دامية متواصلة فى سبيل استخلاص حقوقها ، والظفر بحياة الحرية والعزة والكرامة ، وبرز من خلال هذه الاحداث والمحن عدد من الشخصيات كانوا بمثابة زعماء الشعب وقادته وموجهو خطاه .

• ● •

ومضت أعوام ...

حتى اذا كان ٣ يوليو عام ١٧٩٨ هبطت القوات الفرنسية شواطىء الاسكندرية لتغزو مصر غزو استعباد واذلال ، وكان شعب القاهرة فى حالة فزع واضطراب ، فهل فى وسع المماليك أن يدافعوا ويناضلوا ويردوا الغزاة على أعقابهم مدحورين ويصونوا أرض الكنانة ؟

وتمثلت هذه الحملة العسكرية فى خاطر عمر مكرم على أنها غزو يقوم به النصارى وانها امتداد للحروب الصليبية ، فاجتمع بالعلماء والمشايخ فى الازهر وشرعوا فى تلاوة البخارى والدعوات الصالحات واسماء الله الحسنى ، ويبتهلون الى المولى بالنصر ، ثم اذاع الزعيم نداء على الشعب يستحثه فيه على الجهاد .

كان مكرم يحسب أن الامراء المماليك من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين صدوا جحافل التتار والصليبيين ، ولكن موقعة « الاهرام » بددت أحلامه ، فقد هزم المماليك هزيمة نكراء ، وفى ساعات محدودة ، مما جعله يؤمن بانهم لا يحاكون المماليك الاول فى شجاعتهم وبسالتهم واقدامهم ، فهم جبناء ، عتاة ، ظالمون ..

وعلى الرغم من انه لم تكن له دراية بفنون الحرب ولا أساليب القتال ، الا أنه شهد بعينيه ، ابادة قوات المماليك ، وفرار البقية الباقية منهم ، واتجاههم صوب الصحراء أو ناحية المشرق، أو تفرقهم فى فيافى الصعيد ، ثم زحف القوات المغيرة على العاصمة واحتلال أطرافها . وأبت عليه كرامته أن يرضخ لهذا الهوان ، فخرج الى الشام ، وأقام فى يافا يرقب عن كثب الاحداث الجارية فى وطنه ، فلما دخل نابليون المدينة حرص على اكرام وفادة من لقيهم من الزعماء المصريين ، وأكبر فى مكرم عاطفته القومية المشبوبة وشجاعته الادبية، وكرامته التى يذود عنها ، فدعاه الى العودة الى وطنه .

عاد الى مصر فألفاها على غير ما كان يعهدها اذ تحولت من عاصمة للعروبة والاسلام الى بلد يطؤه الفرنسيون بأقدامهم ، ويبسطون نفوذهم على كل شبر فيه ، ووجد للمستعمرين أعوانا من الخونة ، وزعماء يصانعونهم ويمالئونهم ، ويضعون موارد البلاد تحت تصرفهم، ومصر تئن أنينا صامتا موجعا .

وكانت القاهرة فى غضون هذه الفترة تغلى كالمرجل ، والثورة على الابواب ، وتحرير الوطن من نير المستعمر قبلة الجميع ، فلما شرع مكرم يدعو بنى قومه الى الجهاد الاكبر و « مغازاة الكفار » ، أقبل المواطنون يلبون دعوته بما يملكون من حماسة وشعلة وطنية ، ويضحون بالغالى والرخيص ، فأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وتحصنوا فى دور العبادة وبذلوا الاموال والارواح فدية لوطنهم .

صاح مكرم صيحة التحرير فلباها أولا العلماء وشكلوا لجنة للثورة جعلوا مقرها الجامع الازهر ، ثم قاد الجموع وأثار اليقظة والدعوة

الى الكفاح ، وبدأ النضال عنيفا سافرا بين المحاصرين والمدافعين ، وشهد الفرنسيون ببسالة المصريين واقتحامهم المخاطر والاهوال ، وحين انتهت الثورة بالاخفـــاق نقم المســـتعمرون على الزعيم الاول فنفوه الى دمياط .

• ● •

والى جانب عمر مكرم برزت أسماء زعماء شعبيين التفوا حوله ووضعوا أيديهم فى يده وتصافوا على الاخوة فى الجهاد ومناهضـــة المستعمر ، ففى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الجامع الازهر ، تتمثل الوطنية الاسلامية فى أجلى معانيها .

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى أحد أبناء اولئك الفلاحين الذين يقع على كاهلهم العبء الاكبر من المظالم وألوان السخرة ، فبعد أن أصاب حظا من التعليم فى قريته « القرين » بالشرقية ، وفـد على القاهرة سعيا على قدميه ليلتحق بالازهر ، وتحامل على نفسه وعكف على الدرس والتحصيل وملازمة أساتذته من الشيوخ والفقهاء ، وكان للمتصوفة مقام بين الازهريين، فكان كثير من العلماء يجمعون لانفسهم بين ألقاب العلم والتصوف ، ويتعهدون تلاميذهم بما يلقونهم به من تعاليم وواجبات فى حلقات الذكر الليلية ، كما يتعهدونهم بما يلقونه اليهم من مسائله فى حلقات الدروس النهـــارية . وكان للشرقاوى نصيب من هذه الحياة المختلطة ، فجمع بين العلم والتصـــوف ، واستطاع فى فترة وجيزة ان يكون فى طليعة العلماء المجتهدين ، وان يتصدر التدريس فى المعهد الدينى العتيق ، فطبع التدريس بطابعه الشخصى ، وكان لعلمه منهج التحقيق والدقة فى فترة خمد فيهـا الفكر ، ونحن نعلم ان منهج التحقيق العلمى فى هذا العصر كان بمثابة أغلال تمنع العقل من الانطلاق فى سبيل النظر والتفكير ، ونعلم الى جانب هذا ان أقوال الفقهاء الذين مهدوا طريق الخمود كان لها عند المشتغلين بالعلم فى هذا العصر حرمة وتقديس ، فان كان انصافا أن نعرف ما كان للشرقاوى من رسوخ فى العلم ، وتحقيق لمسائله فمن الانصاف أيضا الا ننسى أن علمه وتحقيقه كانا يتحركان من وراء تلك الاغلال .

ولى الشرقاوى مشيخة الازهر ، الى أن جاءت الحملة الفرنسية ، ثم كانت الثورة التى قاوم فيها السكان العزل ، المحتلين المسلحين بما

يملكون من بأس وقوة ، واعتصم الثوار بالازهر واتصلوا بالشرقاوى ففتحت هذه الثورة السبيل أمامه ليشق طريقه الى الصدارة ، واستطاع ان يجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية .

وكان الفرنسيون قد تمكنوا قبل ذلك من ان يهادنوه وان يكسبوا وده ، ووقع اختيارهم عليه وعلى عشرة آخرين من العلماء والوجوه ليتألف منهم « الديوان » ثم اختاره زملاؤه ليكون رئيسا للمجلس . وكان الديوان بمثابة مجلس نيابى مصغر ينظر فى كل ما يتعلق بالشئون الادارية العليا كاقرار الضرائب ، والاشراف على الاوقاف ، وتنظيم الامور المالية ، وكان اشراكهم بطبيعة الحال صوريا ، كما كان الديوان ابعد ما يكون عن قواعد الدستور .

وحسب الفرنسيون انهم اشتروا الشرقاوى بالمنصب الذى اسندوه اليه وبالمائة ريال التى يجرونها عليه شهريا . ولكن وطنية الشرقاوى كانت فى حرز مكين ، فقاوم سياسة المستعمرين أكثر من مرة ، وكانت له فيها مواقف مشهورة ، حدث أن نابليون صنع شارات تجتمع فيها ألوان العلم الفرنسى ، وأمر رئيس الديوان والاعضاء أن يثبتوها على صدورهم . ثم مضى نابليون الى الديوان وأشار الى أحد أتباعه بأن يعلق الشارة على صدر الشرقاوى ، فما كان من الشيخ الا أن نزع الشارة عن صدره وألقاها على الارض وانصرف لساعته ساخطا غاضبا .

كان الشيخ يعلم بأن الشارة نسيج من ألوان ثلاثة ، فليس فيها ما يمس عقيدته الدينية ، ولكنه فطن الى انهم يريدون منه أن يضع فوق صدره هذا الرمز الذى ينطق بأن حامله يدين للمستعمر الفرنسى بالولاء فنفر من ذلك نفرة الابى الشجاع .

وبعد مصرع كليبر عمد الفرنسيون الى اعتقال الشرقاوى وألزموه بالبحث عن الازهريين الاربعة الذين جاء ذكرهم فى سياق التحقيق مع سليمان الحلبى واحضارهم . ثم فتشوا الازهر بحثا عنهم فما كان من الشرقاوى الا أن أغلق أبواب الجامع . ثم اعتقل مرة أخرى مع المشايخ : المهدى والصاوى وسليمان الفيومى قرابة ثلاثة أشهر عندما دخلت القوات العثمانية مصر .

• ● •

ما الساعد الثانى للسيد عمر مكرم فهو الشيخ محمد ابو الانوار

السادات رئيس لجنة الثورة ومن زعماء الاصلاح الدينى والسياسى.
ولد فى بيت كريم ومن أسرة عريقة، وتلقى علومهفى الازهر، فجمع بين الفزارة فىالعلم وشرف النسب، واشتهرباقتناء نوادر المخطوطات، وكان الى جانب هذا جريئا فى الحق ، نافذ الكلمة ، متصفا بالبسالة والاقدام ، له مواقف نبيلة مشهورة فى مناهضة الحكام المستبدين ، وليس أدل على ذلك من موقفين رائعين نستشهد بهما ، الاول ان حسن الجزائرلى باشا المبعوث العثمانى ، حاول ان يستبيح أموال المماليك ويقبض على نسائهم وأطفالهم وطرحهم للبيع فى السوق على زعم انهم أرقاء « لبيت المال » فاحتج السادات على ذلك احتجاجا صارخا لان هؤلاء المماليك ولدوا أحرارا ، فحنق الباشا عليه وهدده برفع المسألة الى السلطان وعدها حركة تمرد وعصيان للاوامر « الشاهانية » ، فلم يعبأ الشيخ بذلك التهديد والوعيد . وأما الموقف الثانى ، فانه حين هبطت القوات الفرنسية ثرى الثغر ، وعقد مراد وابراهيم اجتماعا للتشاور فى الامر ، فاجأ السادات الحاكمين بقوله: أن كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للافرنج . . . ثم التفت الى مراد بك وقال له : وخصوصا أنت بأفعالك الدميمة وتعديك مع امرائك على متاجر الناس وسلب بضائعهم .
وهى جرأة فى الحق ، نادرة المثال ، فى وقت عم فيه الطغيان واستشرى الظلم . . .
وقد حاول الفرنسيون ان يضموه الى عضوية « الديوان » فرفضها ، ثم اتهموه بتزعمه ثورة القاهرة الاولى وخشى نابليون ان يحاكمه ويعدمه كبقية الزعماء لئلا يصبح شهيدا فى نظر الشعب . . ورأس السادات لجنة الثورة التى كان مقرها الازهر ، وكانت له منزلة مرموقة ومكانة رفيعة فى انظار الشعب .

• ● •

ظلت الحوانيت والاسواق مغلقة فى القاهرة ، والمواطنون لا يكفون عن التجمهر والصياح فى الطرقات ، والاستغاثة بقولهم : يالطيف . يالطيف .
وفى ١٢ مايو عام ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب بهيئة مؤتمر فى بيت القاضى لاختصام الوالى احمد خورشيد باشا ، وكان المنادى قد أعلن فى انحاء العاصمة ضرورة احتشاد السكان أمام المحكمة « حسب

ما رسم به النقيب مكرم » . فخرج الالوف من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم ، وأقبل المزارعون من الضواحى زرافات ووحدانا حتى اكتظت بهم الطرقات والمسالك المؤدية الى المحكمة الشرعية . ولاول مرة فى التاريخ أخذت المواكب الشعبية تشق طريقها فى الشوارع وتتجمهر قبالة مكان الاجتماع ، وهم يهتفون هتافات مدوية « يارب يا متجلى ، أهلك طائفة العثمانلى » .

طلب الشعب الى الزعماء والعلماء والفقهاء وقاضى القضاة، ضرورة مثول مندوبى الوالى أمام مجلس الشرع ، فلما قدموا شرع السيد عمر مكرم ببحث الحالة معهم على ضوء الهتافات التى تطالب بتنحية الوالى عن الحكم ، وشرح الآلام التى يعانيها الشعب من عدوان الجند على المواطنين الامنين واخراجهم من منازلهم ، والمظالم والفوضى وقبض الخراج مقدما ومصادرة الممتلكات الى غير ذلك من ألوان الاستبداد والارهاق .

واخيرا أصدر المؤتمر قرارا تاريخيا مشرفا جاء فيه : عدم فرض ضريبة من اليوم الا اذا أقرها العلماء والاعيان ـ يجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل الحامية الى الجيزة ـ الا يسمح بدخول أى جندى الى العاصمة حاملا سلاحه ـ أن تعاد المواصلات فورا بين القاهرة والصعيد .

وتسلم مندوبو الوالى هذه الوثيقة لرفعها اليه ، ووعدوا بالجواب فى الغد .

وتلقى الوالى هذه المطالب بالسخط والاستنكار ، وكان تصرفا غريبا منه ، اذ كان يعتقد بان الشعب المصرى ليس سوى مجموعة من الاكداس والاكوام لقوم فلاحين لا حقوق لهم ولا كرامة .

وأشارت عليه بطانته بأن يعمد الى سياسة اللين والمراوغة ، فبعث فى طلب القاضى والعلماء الى مقره فى القلعة ، الا أن محمد على خشى أن يكون فى ذهابهم خمود نار الثورة وتفرقة الجموع المتكتلة وهذا لا يوافق طبعا مصلحته . وخاطب العلماء يحذرهم من لقاء الوالى لانه بيت النية على اعتقالهم أو الفتك بهم ووجد هذا الرأى آذانا صاغية من العلماء ورفضوا الذهاب الى القلعة ، فكبر على الوالى هذا الرفض وحنق عليهم وعد رفضهم تمردا وعصيانا .

ولم يضيع الزعماء الوقت سدى ، ففى اليوم التالى ـ الاثنين ١٣

مايو ١٨٠٥ – أجمع نواب الشعب الرأى على وجوب المجاهرة بخلع الوالى ، واجتمع بدار المحكمة الشرعية العلماء والفقهاء ونقباء الصناع وقاضى القضاة ، وبعد التداول فى الموقف قرروا خلع احمد خورشيد باشا من الولاية واسنادها الى محمد على .

وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة من الجند العثمانى ، وبأعمال اللصوصية وبالضرائب التى يطلب اليه دفعها صاغرا . كان فى حاجة الى مصافحة أى يد تمتد اليه لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكرب والمحن ، ولذلك وافقت الجماهير المتراصة فى فناء المحكمة وفى الساحة والطرقات المؤدية اليها على القرار الذى أعلنه عمر مكرم ، لا حبا فى محمد على وانما كرها فى احمد خورشيد .

وسار نواب الشعب وعلى رأسهم مكرم والشرقاوى، يتبعهم زهاء اربعين الف مواطن ، الى منزل محمد على فى الازبكية ، وكان على بينة بما هم قادمون من أجله .

حمل اليه نواب الشعب قرارات المؤتمر وخاطبوه بقولهم :

– شرع الله بيننا وبين هذا الحاكم الظالم .. لقد اجتمعنا اليوم لخلعه فان أطاع نجا وان خالف عاملناه بما كسبت يداه .

فسألهم : ومن تريدون بدله ؟

فأجابوه : قد اخترناك بدلا منه بشروط منها : أن تسير فى الحكم بالعدل وفق نصوص الشريعة السمحاء ، وألا تبرم أمرا الا بمشورتنا، واذا خالفت هذه الشروط عزلناك من الولاية .

فقبل هذه الشروط ، ثم نهض مكرم والشرقاوى وألبساه خلعة الولاية .

وطاف المنادون فى الطرقات يزفون الى الشعب هذه البشرى ، وأرسل نواب الشعب الى احمد خورشيد باشا فى القلعة يطلبون اليه النزول عن الحكم طوعا لارادة الشعب .

لم يصدق الوالى ما سمعه بأذنيه . كان لا يزال مستسلما لاوهامه التى فرضتها عليه أبهة الحكم ، فأجاب الرسل الذين حملوا اليه قرار العزل بقوله :

– اننى معين بخط شريف فلا أنزل بأمر الفلاحين .

وتناسى أن هؤلاء المواطنين الذين نعتهم « بالفلاحين » سبق لهم

قبل سنوات عشر من هذا اليوم المشهود أن أرغموا الطاغيتين مراد وابراهيم على قبول الوثيقة السياسية المشرفة التى تعلى من شأن الشعب وتعترف بحقوقه ، ولو آمن بهذه الواقعة التاريخية، لاعترف لفوره بحقوق الشعب ولما جابهه بذلك الجواب الاحمق الذى يدل على الغطرسة والتعالى والكبرياء الاعمى .

واستشاط العلماء غضبا من هذه اللطمة الموجهة الى الشعب ، واتفقوا على اشعار الوالى بكرامة الشعب وقوته ، عن طريق حصار القلعة لارغامه على التنازل عن الحكم .

وبدأ النضال سافرا بين شعب يذود عن حريته وبين حاكم يأبى الا أن يستعبد هذا الشعب . فتحصن الوالى استعدادا للدفاع عن مركزه والذود عنه . وأحاط نفسه بقوة مكونة من ألف وخمسمائة رجل ، ونقل الى داخل القلعة الماء والخبز والقمح ، ثم أوصد الابواب على نفسه ، أما الشعب فشرع لتوه فى تكوين فرق شبه عسكرية تتولى اقامة المتاريس وحراسة مداخل العاصمة ومد يد المساعدة الى الجند الارناؤود وقبائل البدو . وتسلح الافراد بالاسلحة البيضاء من خناجر ومدى وسيوف ، وبالهراوات والعصى والمشاعل . وبعث قاضى القضاة يحذر الوالى من نتيجة عناده وشططه ويذكر له ان عشرات الالوف من المصريين حضروا اليه واجتمعت كلمتهم على ضرورة تنحية الوالى عن الحكم أو حربه ، بيد أن الوالى أبى سماع أية كلمة استكبار .

وكان عمر الارنؤدى وصالح قوش أغا قد انضما بجنودهما الى الوالى وعسكرا بداخل القلعة للدفاع عنه ، فبعث محمد على اليهما يفصح ما اجتمع عليه رأى الشعب من عزل احمد خورشيد باشا ونبذ طاعته ، ويحذرهما من أن يقدما على شىء ضد مصلحة الشعب، فأرسلا يقولان : أرونا سندا شرعيا نرتكن عليه فى التخلى عن هذا الحاكم .

وفى ١٦ مايو اجتمع العلماء والمشايخ وقاضى القضاة فى دار المحكمة الشرعية ، وحرروا وثيقة شرعية بعزل خورشيد باشا من الولاية ، وبعثوا بصورة منها الى الباب العالى ، اما هذه الوثيقة فقد تولى الشيخ محمد المهدى صياغتها واستهلها بقوله :

« ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام

الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم اذ انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم، لان الحكام الظالمين خارجون على الشريعة ».

وفزع الوالى من الحصار المضروب عليه ومن انضمام أفراد الشعب الى الارناؤود الذين سبق لهم أن أذاقوهم الهوان ، وقبائل البدو التى كثيرا ما أغارت على أراضى الفلاحين ، فأرسل مندوبا عنه للاجتماع بزعماء الشعب فى دار حسن باشا قائد الفرقة الالبانية ، وجرى النقاش التالى بين المندوب وبين العلماء :

— كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » .

فرد عليه عمر مكرم بقوله :

— أولى الامر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وصاحبك رجل ظالم ... وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور .

— وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الطعام والشراب وتقاتلوننا ، هل نحن كفرة ؟

— نعم . فقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لانكم عصاة .

— ان هذا القاضى كافر .

— اذا كان قاضيكم المعين من قبل السلطان كافرا فكيف بكم ؟

كان جواب مكرم لمندوب الوالى يدل على يقظة ذهنية وجرأة فى سبيل الحق .

وكان هذا الانقلاب من الاحداث الغريبة فى تاريخ مصر بل فى تاريخ الشرق بأسره ، ووجه الغرابة فيه ان بطله الشعب، فقد نهض الشعب لعزل الوالى العثمانى على الرغم من تأييد دولته له ، كما انه انتخب الرجل الذى يصلح فى نظره للحكم على الرغم من الفرمان السلطانى بابعاده عن مصر واسناد ولاية بلد اخر اليه ، وتم الانتخاب بشروط فرضها نواب الشعب على محمد على وهى ان يحكم لصالح المجموع ولا يبرم أمرا الا بمشورة زعمائه .

استمر حصار القلعة عدة أسابيع وألقى عبء الحصار ومناوشة القوات المعتصمة فى القلعة على عاتق من أسماهم احمد خورشيد باشا « بالفلاحين » . وأخذت جموع المكافحين تتدفق من الحسينية والعطوف والازهر ومعهم أسلحتهم وبيارقهم ، يؤازرهم ألوف من المزارعين الذين قدموا من الضواحى والقرى المحيطة بالعاصمة ، وقد كونوا جميعا قواتا أشبه ما تكون « بالحرس الاهلى » بزعامة السيد عمر مكرم .

وكانت قيادة مكرم للحركة موفقة الى أقصى حد ، فهو شعلة من الحركة والنشاط ، لا يفتأ يتنقل بين أبواب الحارات ومراكز التكتلات، يشجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية ، وكان له نقباء وعرفاء يأتمرون بأمره ، وفى طليعتهم حجاج الخضرى وهو مواطن من عامة الشعب يتزعم طائفة باعة الخضر ، وكان مشهورا بالبسالة والاقدام ، له صولة بين مواطنيه ، وقد تمكن هو واتباعه من اقتناص قافلة مكونة من خمسين جملا محملة بالذخائر والمؤن ، وكانت فى طريقها الى القلعة لتموين قواتها ، ففتك بحراسها واستولى على القافلة ، وساقها غنيمة باردة للمناضلين ، وكذلك ابن شمعة شيخ طائفة الجزارين ، وقد استطاع أن يجند الالوف من ابناء الاحياء الشعبية المجاورة لمناهضة الوالى المعزول .

وفى أثناء هذا الحصار الذى استمر عدة أسابيع حاول الجند الارناؤود أن يخذلوا محمد على ويخرجوا عن قيادته ، اذ كانوا لا يزالون فى حاجة الى المال ، وأخذوا يهاجمون أفراد الحرس الاهلى، المرابطون خلف المتاريس ، فما كان من عمر مكرم الا أن أهاب بمواطنيه ان يدافعوا عن أنفسهم وأن يدفعوا الاذى بما فى أيديهم من سلاح . واخيرا اضطر محمد على الى ان يقترض من فيلكس مانجن وكيل فرنسا فى القاهرة عشرة أكياس من الذهب اشترى بها طاعتهم الى حين .

• ● •

وكان الباب العالى قد تردد كثيرا وماطل كثيرا فى افرار اسناد ولاية مصر لمحمد على ، ولكن ماتيو ديلسيبس قنصل فرنسا فى القاهرة لعب دورا اخر فى الموضوع ، وكان قد سبق له ان أشار فى أحد تقاريره الى حكومته بقوله : « أن محمد على قائد الالبانيين يطلب

حماية فرنسا ويوسطها لدى الباب العالى ، وانه يرجو أن يصبح السيد الاعلى ، وانه منضم الينا بجوارحه » . ولذلك سبقت قرار العزل والولاية الذى رفعه العلماء الى الباب العالى ، توصيات الى السفير الفرنسى فى استامبول « بسبب ان محمد على خير صديق لفرنسا » . ونجحت وساطة السفير لدى دوائر الباب العالى ، كما نجحت الهدايا والرشاوى التى بعث بها محمد على الى استامبول .

وفى التاسع من يوليو عام ١٨٠٥ وصل « قابجى دار السعادة » يحمل فرمان الولاية الى محمد على « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » . فاستقبل الشعب المندوب الشاهانى بمظاهر الحفاوة والابتهاج ، اذ كان وصوله آية على انتصار الشعب ورمزا على قوة ارادته .

وفى دار محمد على فى الازبكية تلى فرمان الولاية بحضور العلماء وقاضى القضاة وقادة الجند والاعيان . غير أن خورشيد باشا كانت لا تزال لديه بقية من كبرياء وصلف الحكام الاتراك ومظاهر سيادتهم فلم يعبأ بالفرمان وتذرع بحجة انه « ولى حكم مصر بخطوط شريفة وأوامر منيفة وانه لا يعزل بورقة » .

استمر خورشيد باشا على عناده ورفض مغادرة القلعة ، الى ان وصلت الى ابى قير بحرية عثمانية للتحكيم بين أحمد خورشيد ومحمد على وتأييد سلطة الاقوى . وقضى صالح بك ، الكتخدا الثانى عدة أسابيع فى المداولة والمشاورة الى أن رضخ خورشيد للامر الواقع واعتزم مغادرة القلعة ، فبعث اليه عمر مكرم بعدد من الابل حملت متاعه ونساءه ، وانتقل خورشيد الى منزل عمر مكرم وظل به زهاء خمسة أيام الى أن خرج فى يوم ١٣ أغسطس الى ساحل بولاق ليستقل المركب الى الاسكندرية .

ونزلت هذه الانباء على كل من البرديسى والالفى نزول الصاعقة ، ولو اتحدا فى بادىء الامر لتفاديا هذه الاحداث التى أدت الى اضعافهما وضياع نفوذهما ، ولكن الشقاق والفرقة والتكالب على السلطة بينهما أدت الى فوز محمد على وظفره بالولاية .. وحاولت قوات المماليك اقتحام القاهرة ولكن الجند الارناؤود كانوا لافرادها بالمرصاد ففتكوا بهم وهزموهم شر هزيمة وظلوا يطاردونهم فى كل بقعة يأوون اليها . كان محمد على يقول : لن يهنأ لى عيش ومثالى انا ومثال الالفى

كبهلوانيين يلعبان على الحبل ولكن هو فى رجليه قبقاب .

وكان الالفى يتحدث الى اخصائه فيقول :

« والله يخيل الى أن أقتل نفسى ولكن لا تهون على ، وقد صرت الان واحدا بين الوف الاعداء وهؤلاء قومى وعشيرتى فعلوا بى ما فعلوا ، تجنبونى وعادونى من غير جرم ولا ذنب بدر منى فى حقهم وأشقونى وأشقوا أنفسهم وملكوا البلاد لاعدائى واعدائهم ، وسعيت واجتهدت فى مرضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا وتباعدا عنى ، ثم هؤلاء الجنود الارناؤود ورئيسهم الذين ولجوا البلاد وذاقوا حلاوتها وشبعوا بعد جوع وترفهوا بعد ذل ، يحاربوننى ويكيدون لى ، وهؤلاء العربان المجتمعون على أصانعهم وأسوسهم وأغاضبهم وأراضيهم ، وكذلك جندى ومماليكى كل منهم يطلب منى رياسة وأمارة ويظنون بغفلتهم ان البلاد تحت حكمى ويظنون انى مقصر فى حقهم ، فتارة أعاملهم باللطف وتارة أزجرهم بالعنف ، فانا بين الكل مثل الفريسة ، والجميع حولى مثل الكلاب الجياع يريدون نهشى وليس بيدى كنوز قارون فأنفق على هؤلاء الجموع وتضطرنى الحاجة الى المال الى التعدى على عباد الله وأخذ اموالهم ، والى مزارعهم ومواشيهم فأسلبها ، فان قدر الله لى بالظفر عوضت عليهم خيرا » .

مؤامرة لابادة شعب

محاولة لابعاد محمد على عن مصر ــ الاتراك يبيعون ذممهم ــ حملة فريزروهزيمة الانجليز فى رشيد ــ تنحية المصريين عن الاشتراك فى الحكم ــ نهب اموال الاوقاف ــ الوقيعة بين محمد على والعلماء ــ تنكره لعمر مكرم ــ ابادة الزعامة الشعبية .

شعر الباب العالى بعد فوات الفرصة بفداحة الخطأ الذى ارتكبه من اسناد الولاية الى محمد على ، وكان محمد خسرو باشا واحمد خورشيد باشا قد استقرا فى استامبول ، وكان صدراهما موغرين من محمد على فألبا الخواطر عليه ، واستطاعا ان يظفرا بفرمان لتوجيه الولاية الى موسى باشا ونقل محمد على الى سالونيك .

وفى يونيو عام ١٨٠٦ وصلت الى الاسكندرية عمارة بحرية ضخمة وعلى ظهرها ثلاثة الاف جندى ، بقيادة الوالى الجديد ، وارسل قبطان باشا رسولا الى محمد على يفضى اليه بما استقر عليه الامر من نقله الى سالونيك ، وحمل الارناؤود على مغادرة وادى النيل ولو بالقوة ، واعادة السلطة الى الامراء المماليك ، وأشار قبودان باشا أخيرا الى ضرورة الاذعان للقرار الشاهانى ..

واضطرب محمد على فى بادىء الامر ، وتظاهر باطاعة هذا القرار ، ولكنه احتاط للامر بأن زعم بان لهؤلاء الجند رواتب متأخرة تبلغ قرابة عشرين الف كيسة ولذلك فهم يمانعون فى الرحيل ، ولكى يمثل دوره أتم تمثيل أوعز الى الجند بأن يطالبوه جهارا برواتبهم ، وهى نغمة قديمة طالما لجأ اليها ، وانقذته فى مواقف الحرج والشدة .

وشرع فى دعوة الضباط الارناؤود يتذاكر معهم الموقف على ضوء القرار الشاهانى ، وجعلهم يقسمون على حد السيف بالا يتخلوا عنه ولا يتركوه وحده ، وان يدافعوا عن موقفه الذى هو موقفهم جميعا ، وصرح لهم بقوله : ان ما استوليت عليه بقوة السيف لن أتنازل عنه الا بقوة السيف ، وأنا أعلم من أمر الاتراك ما أعلمه ، فهم قوم يبيعون ذممهم وسأعرف كيف اشتريها !!

وفرض على التجار والاعيان ستة الاف كيسة « برسم قبودان باشا » وذكر انها سلفة سترد لاصحابها ، ثم لم ترد بعد ذلك .

وارتدى زى المصريين وخلع عنه رداء الاغراب ، ثم هبط الى الاسواق يتجول فيها بالزى الوطنى ويختلط بمختلف الطوائف ويتودد اليها حتى يشعرها بانه ليس دخيلا على البلاد .

واخيرا اجتمع بالعلماء والمشايخ ليقف على رأيهم فى قرار ابعاده عن مصر ، ودفعت الحمية عمر مكرم فأخذ على عاتقه تثبيت محمد على على أريكة الولاية ، واتفق مع المشايخ على ان يرسلوا ردا على الفرمان السلطانى ومضمونه : « ان الاوامر وصلت الينا وتلقيناهـا بالطاعة ، الا أن أهل مصر قوم ضعاف ، وربما عصت العساكر على الخروج فيحصل لافراد الشعب ضرر وخراب الدور وهتك الحرمات وانتم أهل للشفقة والرحمة » .

ولما وصل هذا الجواب الى قبطان باشا رد عليهم بانه لا يقبـل أمثال هذا العذر ، ولا بد من تنفيذ أوامر السـلطنة ولو لجأ الى القوة ، وانه لا محيص من مغادرة محمد على والجند الارناؤوط أرض النيل عن طريق دمياط .

ولعبت الرشاوى والعطايا وكرم الوفادة دورها ، واستطاع محمد على ان يستميل اليه قبطان باشا بهدايا هى عبارة عن اربعة الاف كيسة ، وثلاثين جوادا من كرام الخيل ، ومائة جمل محملة بالسكر والبن والاقمشة الفاخرة .

وشكر له قبطان باشا هذه الهدايا وبعث اليه بمدفعين وخمسمائة بندقية ، وكمية من الذخيرة ، كما اتفق مع العلمـاء على ان يكتبوا عرضا آخر حتى لا يقال بان ذمم رجال الباب العالى اشتريت بالمال !! أما هذا العرض الذى وقع عليه العلماء والمشايخ والوجوه فقد جاء فيه:

« ان محمد على كافل الاقليم وحافظ ثغوره، ومؤمن سبله وقامع المعتدين ، وان السكان من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القـرى والارياف وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى أيام المماليك المعتدين الذين كانوا يسلبون الناس أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بالفرض والكلف الخارجة عن الحد ، اما الان فالشعب المصرى مطمئن لولاية محمد على ويرجون من مراحم الدولة العلية أن تبقيه واليا عليهم ولا تعزله لمـا تحققوه فيه من العدل وانصاف المظلومين وايصال الحقوق الى أربابها وقمع المفسدين من البدو وقطاع الطرق . اما القروض التى اقترضها والفروض التى فرضها على ابناء مصر فليس الغرض منها سوى طرد الاشقياء والمفسدين ، على أن فرضها كان بموافقة سابقة من الاعيان والعلماء وفى اجتماع تفاوضوا فيه » .

هكذا كانت تدار شئون الدولة العلية .. مبعوث سام يقدم الى مصر بقرار شاهانى لعزل حاكم وتولية آخر مكانه ، فيقصر فى اداء مهمته بتأثير الرشاوى والعطايا !

وكان الوالى الجديد موسى باشا لا يزال فى الاسكندرية لا يدرى بالمناورات التى تجرى فى الخفاء ، ويلح على قبطان باشا بتنفيذ أوامر الخلع والولاية ، الى أن تدخل قنصل بريطانيا فى الاسكندرية فرسم لقبطان باشا خطة الغرض منها مفاوضة محمد على على أساس ان انجلترا تضمن له بقاء ولاية سالونيك فى حوزته مدى الحيـاة ، ثم تقدم الالفى بك زعيم المماليك فعرض بأن يدفع الى الباب العالى جزية سنوية قدرها الف وخمسمائة كيسة بضمان الخزانة البريطانية ، اذا ما خرج محمد على من مصر ، ولما اتصل الامر بمحمد على ساوم على مصر بأن تعهد بدفع اربعة الاف كيسة سنويا ، وأبدى استعداده بأن يجعل من ابراهيم الذى كان قد وصل الى مصر حديثا رهينة لدى الدولة العلية ضمانا للسداد !

وجاء دور قنصل فرنسا وأراد ان يحبط من هذه المساعى التى تبذل لاقصاء صديق فرنسا عن مصر ، فكتب الى الكونت هوراس سيباسيتانى سفير دولته فى استامبول ليعيد وساطته فى تثبيت ولاية محمد على على مصر .

وفى النهاية أبحر قبطان باشا بعمارته من الاسكندرية وعلى ظهرها موسى باشا والرهينة ابراهيم ، ومحمد أولاز أوغلى ومعهما الهدايا والرشاوى المرسلة الى رجال الباب العالى .

ومن حسن حظ محمد على أن البرديسى مرض وتوفى بعد أيام قلائل ، ثم أتاه من يبشره بموت الالفى فهتف من أعماق فؤاده : طابت لى مصر وما عدت أحسب لغيره حسابا .

وبذلك خلا الجو لمحمد على من منافسيه ، وانقضى الدور الاول للظفر بالولاية التى لم يرق اليها الا بعد أن استغل انشقاق العناصر المقلقة وضعفها بتسليط بعضها على الاخر عملا بسياسة « فـرق تسد » .

والواقع ان هذه العناصر وفى مقدمتها الولاة والمماليك والجنـد النظامية والجند المرتزقة ظلت تتطاحن الى أن أنهكت قواها . وفى غضون ذلك كان محمد على يتودد الى الزعماء تارة والى القادة تارة اخرى حتى ظفر بثقتهم وتأييدهم . ولكنه مع ذلك ظل يخشى غدر

الارناؤود به ويخاف شرورهم، فكلما ثاروا وتمردوا وأقبلوا يسومون الشعب سوء عذاب ويبتزون الارزاق ترك لهم الحبل على الغارب دون ان يقدر على كبح جماحهم .

واستشرت شرورهم في المدن بسلب التجار بضائعهم أو مقاسمتهم أرباحهم ، أما في الدساكر والقرى فكانوا يغزونها بأوراق في أيديهم مكتوبة باللغة التركية ، فيلقون شيخ البلد والفلاحين السذج ويزعمون لهم أن ما بأيديهم أوامر من الوالى بتحصيل الضريبة أو تقديم عدد من الاكباش والاغنام والدجاج والبيض والحاصلات الزراعية ويستولون عليها أغتصابا .

ولم ترتح انجلترا الى اغتصاب محمد على مقاليد الحكم ، فقد كان فى نظرها صنيعة فرنسا التى أخذت بناصره ، وكان الصراع الخفى يدور بين الدولتين المتكالبتين حول اتخاذ مصر قاعدة للوصول الى الشرق ، فسير الانجليز حملة مكونة من خمسة الاف مقاتل بقيادة الجنرال فريزر ، ووصلت الحملة الى الاسكندرية فى ١٧ مارس عام ١٨٠٧ واحتلتها دون مقاومة تذكر ، ثم تقدمت الى رشيد وكان المدينة فى حماية فرقة باسلة ، فما كادت القوة تدخل رشيد حتى هبت الحامية ونهض السكان يطاردون القوات المغيرة ويقاتلونها قتالا مر المذاق الى أن دحروها ، وخسر الانجليز بضع مئات من القتلى ، الذين علقت رءوسهم على أسنة الحراب وطوف بها فى شوارع العاصمة، اما الاسرى فسيقوا الى القاهرة واعتقلوا فى القلعة .

وكان محمد على فى أثناء تلك الموقعة فى منقباد بأرباض اسيوط يقاتل المماليك فلما اتصلت به هذه الانباء المثيرة بادر بالعودة الى العاصمة .

وحاول الانجليز وهم فى الاسكندرية أن يستعدوا المماليك وان يستنجدوا بهم لنصرتهم ، ولكن المماليك رفضوا ان يلوثوا أنفسهم بالخيانة والتواطؤ مع الاجنبى ، وخشوا اساءة سمعتهم اذا ما هم انضموا الى اعداء البلاد .

واضطرب شعب القاهرة لوصول القوات البريطانية واستعد للخروج الى رشيد تدفعه الرغبة الى التضحية والاستبسال وانكار الذات. واجتمع العلماء فى بيت القاضى وفى الازهر للتشاور والتداول فى كيفية الدفاع عن العاصمة ، وقام عمر مكرم يستثير حمية الافراد والجماعات ويوقظ النعرة القومية فى النفوس ، ثم شرع يجمع

التبرعات ويشير بتعزيز الاستحكامات واقامة المتاريس وحفر الخنادق .

وعند ما عاد محمد على الى الصعيد ذهب عمر مكرم والعلماء للقائه وكاشفوه بما عقدوا العزم عليه من الاستعداد لحمل السلاح والذود عن كل شبر من أرض الوطن ، بيد أن محمد على صدمهم فى شعورهم وفى عاطفتهم النبيلة بان صرح لهم بانه لا يسمح لمخلوق بالاشتراك فى تسيير دفة الحكم ولا التدخل فى شئون الدفاع وفاجأهم بان قال لهم : يكفينى نفقات الجند وعليكم بامدادى بتسعمائة كيسة .

وتألم عمر مكرم ومعه العلماء من محاولة محمد على ابعاد الشعب من مشاركته فى الدفاع عن أرض الوطن ، لقد خيب امالهم وبدد احلامهم وبدأ المكنون من نفسيته للانفراد بالحكم .

والواقع أن محمد على كان يخشى زعامة مكرم ، كان يغار من هذه الزعامة لما لها من سلطان على القلوب واخضاع للارادات ، ويسىء الظن بالمصريين ويتجنب اشراكهم فى حكم بلاده . كان لا يرى فيهم الا « قوما لا يصلحون لغير حمل الاثقال وسوق الحمير » . ولذلك نحاه ونحى زملاءه عن التدخل فى شئون الحكم ، وقد سبق له أن تحدث مرة الى صديقه فيلكس مانجن « بانه سيحول بين المصريين وبين شئون الحكم والادارة وان يلزمهم حدهم » .

• ● •

أما الصدمة الثانية التى أصابت الزعامة الشعبية فى الصميم ، فان محمد على ما كاد يظفر برضاء الباب العالى حتى عمد الى تسخير الشعب فى خدمته ، ففرض الضرائب الباهظة ، وساق المواطنين الى السخرة بحجة الاستعداد للحرب . وشرع جنده يستولون على المهمات ويستخدمون الصناع فى تشييد المراكب . وفزع أفراد الشعب من ثقل هذه التكاليف ، واتجهت الانظار الى عمر مكرم الذى صرح بان الوالى خرق الضمانات التى تعهد بتنفيذها .

وأصبح محمد على كلما أعوزته الحاجة الى المال لنفقات الادارة ونفقاته الشخصية مال الى الاوقاف فاغترف منها ما يشاء أو يكلف الناس فوق ما يطيقون .. كانت هناك أوقاف مشمولة برعاية العلماء ورجال الدين فأراد هو استغلالها وقبض ريعها، فتذمر العلماء وشعر النظار بالغضاضة لان هذه الاوقاف بمثابة خيرات ينفق ريعها على

تعمير بيوت الله وفى وجوه البر كافة .

وكان عمر مكرم قد أقام من نفسه وكيلا عن الشعب ، ورقيبا يحاسب الوالى على هذه الفعال، ويأبى عليه ان يمضى فى هذه التكاليف، وما زالت هذه حالهما حتى سأل الوالى العلماء أن ينصحوا صاحبه بأن يكف عن معارضته .

وكان العلماء يحسون من تلك التكاليف كل القسوة التى يحسها مكرم فلم يكونوا ينكرون منه الاعتراض لذات الاعتراض ، حتى لقد عاهدوه وعاهدهم ان يكونوا يدا واحدة تدفع بعض ما أراد الوالى ان يرهق الناس به . وكتب العلماء يحتجون على هذا المسلك وطالبوا باعفاء الاوقاف من الاتاوات والضرائب ، وحمل اليه الشيخ الشرقاوى قرار الاحتجاج ، فما كان منه الا ان ثار وأجاب قائلا :

ــ انا وحدى الذى ينتفع بالضريبة واما انتم فتبهظون كاهل الشعب بأثقل الاعباء . انكم سبب شقاء مصر والامها لانكم مع ايثار الحكومة لكم باعفاء املاككم من الضرائب لا تزالون تتقاضون من الفلاحين ضرائب تقدر بالفى كيسة .

ثم تهددهم بلهجة قاسية فيها شىء من الخشونة والغلظة واستطرد يقول :

ــ سوف أفحص المستندات وأبيع الاملاك الموقوفة، انكم تعقدون الاجتماعات فى المساجد وتتكلمون عنى بلهجة تكاد تكون لهجة الامر ، وهذه نزعة باطلة لا يمكن استقبالها بغير الازدراء والاستخفاف، وانى على استعداد لان أرمى عنق كل من يستظل بلواء المعارضة فى وجه سياستى .

وتغيرت لهجة محمد على وتنكر لطبقة العلماء الذين رفعوه من الحضيض وولوه الحكم بحيث جعلوا الباب العالى من هذه التولية بازاء الامر الواقع فلا يملك سوى اقرارها .

وحل موعد دفع الجزية السنوية ، فطلب محمد على بيانا بالاموال المرصودة على الاوقاف ، ليغترف منها حاجته ، ولكن عمر مكرم كان له بالمرصاد فرفض تقديم مستندات الوقف . فأرسل اليه يدعوه الى مجلسه فى القلعة فأبى أن يذهب اليه الا أن يرفع عن المجموع ما طوق أعناقهم من مظالمه ، وجعل فريق من العلماء وغيرهم يلحون عليه أن يجيب الدعوة فلم يجب ، ولم ينزل عن شرطه ، بل زاد للمقابلة

شرطا جديدا هو أن ينزل محمد على من القلعة الى حيث يلتقيان فى بيت السادات .

وأحفظ هذا الشرط الجديد محمد على أشد من حفيظته الاولى، واستعظم الامر فصاح قائلا : هل يريد هذا الرجل ان أترك مقر حكمى لاقابله فى بيت فرد من الرعية .

ورفض أن ينزل ساعة أو بعض ساعة عن الاريكة التى أصعده اليها زعيم الشعب .

وعلى الرغم من ان بعض العلماء نقضوا العهد مع مكرم وبقى هو وحده أمام الحاكم المستبد وجها لوجه . فقد أقسم بأن يكاتب الباب العالى بشأن سياسة محمد على وأن يثير عليه الشعب وينزله عن الاريكة التى أجلسه عليها ، وأخذ ينقم على الوالى مظالمه ويجاهر بهذه النقمة ، وأخيرا اجتمع بالعلماء ورجال الشرع وقال لهم :

ـ ان هذا الرجل محتال ، واذا تمكن فسيصعب ازالته ، فلنعزله من الان .

وأراد السيد أبو الانوار السادات اطفاء نار الفتنة ، فمضى الى القلعة وخاطب محمد على بقوله :

ـ هيا بنا .. قم معى الى السيد عمر لتقبل يده فيعفو عنك وتظل متمتعا بمركزك .

وأومأ اليه من طرف خفى بأن يفعل ما يشاء بعد أن يستتب له الامر ويتنفس ، ولكن محمد على أهاب بالشيخ وقبض على يده يلثمها قائلا له :

ـ لقد عينتك نقيبا للاشراف !

وكان عمله هذا ايماء الى ان اليد الواجب لثمها هى يده وحده ، بيد ان السادات تظاهر بالامتناع عن هذا العرض وأجاب :

ـ كيف يكون هذا وقد أتيت لاصلاح ذات البين فتعرض على منصب الشيخ .

وتظاهر محمد على بانه أخذ على خاطره متدللا ، ثم التفت الى بكتاش احمد أغا المترجم وخاطبه بقوله :

ـ قل للشيخ انه تفضل فتبنانى ، وانا اتخذته أبا ، فهل لا يقبل الان رجاء ولده .

ولم ير السادات بدا من قبول رجاء محمد على وقنع بمبلغ عشرة آلاف قرش بصفة عطية بدلا من الفرو لتعذر وجوده آنئذ .

وأخذ محمد على يبث العيون والجواسيس حول مكرم ، ويرصد

حركاته وسكناته ، ويقصى عنه الملتفين حوله ، الى أن واتته الفرصة فأصدر أمرا بنفيه الى دمياط وفى حالة عدم اذعانه ستطلق قذائف المدافع على منزله ويهدم على من فيه .

وبلغه أمر النفى فأجاب فى رباطة جأش : أجل ! ان النفى غاية مطلوبى غير اننى أريد العيش فى بلد لا يستظل بلواء محمد على .

ورأى بعين الحسرة ان الآمال التى كان يعلقها على قيام حكومة جديدة يشترك فيها المصريون قد انهارت وتبددت وتبخرت فى الهواء ، فهاهو الرجل الذى رفعته الزعامة الشعبية الى منصة الحكم بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق يخون الرسالة التى اؤتمن عليها وينفرد بالحكم ويقصى المصريين عن حكم بلادهم .

وأزف موعد رحيل السيد عمر مكرم فاحتشد فى يوم ١٣ اغسطس عام ١٨٠٩ على ساحل بولاق جمع غفير يمثلون مختلف الطبقات ، ليودعوا الرجل الذى وقف حياته فى سبيل الدفاع عنهم ورد الحقوق اليهم ، وسعى الى تحريرهم من نير العبودية ، وتحرك المركب بالزعيم الاول بين الانات التى زفرتها صدور ابناء الشعب والدموع التى انهمرت من مآقيهم .

وكتب محمد على الى الباب العالى يبرر فعلته من عزل نقيب الاشراف ، فزعم بانه أدخل طائفتى الاقباط واليهود الذين فى خدمته فى سجلات الاشراف ، وانه قبل رشوة من الالفى زعيم المماليك ليمكنه من الحكم . ثم أجبر محمد على العلماء ان طوعا أو كرها على التوقيع على عرض يرفع الى الباب العالى بهذا المعنى .

ورفض الشيخ احمد الطهطاوى مفتى الحنفية أن يوقع قائلا :

ــ ان محوتم منها فرية الاقباط واليهود فانى القى اليكم بخاتمى فتمهرون العرض به .

وكان للسادات الوفائية والبكرية والعلوية مقام رفيع وشأن جليل وكان مفتى الحنفية لا قيمة له الى جانبهم ، فلما سمع الشيخ ابو الانوار حجة الطهطاوى صاح قائلا : « هل هو أتقى منا ؟ » . وتوقف بدوره عن التوقيع .

وبلغ الامر محمد على فقال لمترجمه : هل هذا شىء عويص ؟ اصنعوا خاتما فى الضربخانة باسم الشيخ احمد الطهطاوى وامهروا العرض .

ولم يكن الشيخ الطهطاوى هو الوحيد الذى قلد خاتمه وزور به، كما سنرى فيما بعد .

وعزل الطهطاوى من منصب الافتاء ، فحمد ربه على أن خلصه من ورطة التوقيع على أمر يخالف ضميره .

ولما توفى الشيخ السادات حجر محمــد على على ممتلكاته وهم بمصادرتها ، فاحتج العلماء على ذلك ، وقال الشيخ الشرقاوى :

ـ ان بيوت المشايخ مكرمة ، ولم تجر العادة بالختم على تركاتهم .

فكان جواب محمد على :

ـ ان المتوفى كان طماعا ، جمـــاعا للمال ، وطالت حياته ، وحاز أموالا وعقارا ، والخزانة العامة أولى بتركته لحاجة الحكومة الى المال فى نفقات الجند ومحاربة الخوارج .

وأخيرا اتفق على أن يدفع الورثة الى الوالى خمسة أحمال والى أولاز أوغلى خمسة وعشرين الف قرش ، والى المترجم على افندى هدية متواضعة فى مقابل الافراج عن التركة .

وأخذ محمد على يقلب ظهر المجن لبقية العلماء الذين غرســوا شجرة الملك فى بيته ، فقبض على ثلاثة شيوخ من الازهر وهم : الشرقاوى والدواخلى وسعيد الشامى ، وحدد اقامتهم فى بيوتهم لا يبرحونها .

اما عمر مكرم فظل فى دمياط نحو سنوات أربع تحت الحراسة ، ثم نقل الى طنطا ، وظل بها خمس سنوات أخرى ، ثم أذن له محمد على بالعودة الى القاهرة ظنا منه ان الشعب قد نسيه ، ولكن آماله تبخرت حين وجد الشعب يتكتل مرة أخرى حول زعيمه ، فقرر نفيه مرة أخرى الى طنطا، وبذا أبعد عن طريقه أقوى شخصية يمكنها ان تقف فى وجهه ، ويمكنها ان تدافع عن حقوق الشعب .

هكذا مهد محمد على السبيل لاخضاع الشعب لحكمه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وظل يواصل سياسته الخرقاء من محاربته للعلماء ورجال الشرع الى أن أباد الزعامة الشعبية وقضى عليها قضاء مبرما .

مظالم حكومة محمد على

قرصان باشا ـ صنيعة فرنسا ـ نهضة الاصلاح وبواعثها واهدافها ـ نقص عدد السكان ـ خفراء قولة امراء مصر ـ محمد الدفتردار وجرائمه ـ الغدر بزعماء الشعب ـ الدعوة الى الجمهورية ـ جنون محمد على .

أطلق أحد كتاب الافرنج على محمد على اسم « قرصان باشا » . ووصفه معاصره الجبرتى : بأن من طبعه الحسد والشره والطمع ، والتطلع الى ما فى أيدى الغير وأرزاقهم .

والواقع أن هذا الحاكم الدخيل لم يكن يهمه من أمر الشعب سوى سلبه أمواله ، وتسخيره فى خدمة أغراضه ومطامعه ، وامتصاص اخر قطرة فى دمه .. كان كرمال الصحراء ، دائم الظمأ ولكن الى النضار ، تتسرب ثروة مصر الى خزائنه فيغدق منها على أفراد أسرته وأعوانه وأصفيائه ، ويشترى بجزء منها ذمم رجال الباب العالى ليثبتوه على الولاية وحصرها فى ابنائه وذراريه .

كان كلما أعوزته الحاجة الى المال لجأ الى الضرائب والكلف ، فينتفض المواطنون ويلوذون برجال الشرع يستعدونهم على الحاكم الظالم ، فيهرع هو اليهم ويخاطبهم فى مسكنه : « النوبة دى بس . ولعن الله من يفعلها مرة أخرى » . ثم يعود بعد أسابيع أو أشهر حينما ينضب معينه فيثقل الكواهل بالكلف والغرامات ، الى ان ضاق العلماء ذرعا بأساليبه الجشعة وهددوه بابطال الشعائر الدينية فى الازهر .

وكانت له طباع القراصنة ، يسطو على أموال الاوقاف المرصودة على تعمير بيوت الله ووجوه البر ، ويعمد الى الاستيلاء على القوافل التجارية المارة بطريق السويس ، فلا يفرج عنها الا بعد أن يدفع عنها أصحابها اتاوة يحددها هو ، والى ممتلكات أرامل المماليك اللواتى ثكلن فى فلذات اكبادهن أو أزواجهن فيضع يده عليها ولا يرفعها الا بعد ن يدفعن اليه مبالغ باهظة .

وكان جانب كبير من هذه الاقوال يتسرب من مصر الى الباب العالى والى سكان قوله بصفة خاصة ، وهكذا كان هذا الحاكم يسخو على الاغراب بشرط أن يكون المال من جيوب أفراد الشعب الذى يحرم عليه القوت .

هل كان محمد على حقا دمية تحركها فرنسا من وراء ستار ؟

ليس من شك فى أنه كان مدينا لفرنسا بالشىء الكثير ، مدينا لها بمساعدته على اعتلاء العرش وتثبيته على الولاية ، وكانت ضروب الاصلاح وتنظيم المالية وشئون الرى وتكوين الجيش والاسطول والفتوحات العسكرية واقامة المنشآت التى تحمل اسمه ، كل هذا وضعت بذرته فى الاصل الحملة الفرنسية ، وكانت تقارير البعثة العلمية التى صحبت بونابرت فى غزو مصر ولم يتسع الزمن لتنفيذها هى النبراس الذى وضعه نصب عينيه .

وكذلك كان مدينا لفرنسا بالمدربين العسكريين ، وبهيئة أركان الحرب ، وبالمستشارين والخبراء والفنيين ومهرة الصناع الذين اعتمد عليهم فى اقامة صروح النهضة ، وبعشرات الاساتذة الذين كونوا المعاهد العلمية والمدارس وتولوا التدريس فيها .

والواقع أن الفرنسيين كانوا هم أصحاب الكلمة المسموعة فى مصر ، وكان ساستهم هم الذين يتكلمون باسم مصر فى المحافل الدولية ويدافعون عن مسلك حاكمها ، لذلك بسطت فرنسا حمايتها على محمد على لا حبا فيه وانما نكاية فى انجلترا ، والى انه الحاكم الذى تعهد بتنفيذ مآربها فى الشرق .

سار محمد على فى سياسته على مبادىء الحكم المطلق ، فأقصى المصريين عن مناصب الدولة ، وأبعدهم عن الاشتراك فى المهام العليا ، وحرم عليهم شئون الدفاع عن وطنهم كما رأينا فى معركة رشيد ، واكتفى منهم بتقديم نفقات الحرب وصناعة معداتها ، وجعل مناصب الجيش والادارة والوظائف الرئيسية وقفا على الخوارج سواء من بنى جلدته أو من الافرنج ، فقد خشى اذ أسهم المصريون فى تسيير اداة الحكم ومشاركته شئون الدفاع والسياسة العليا ان يشتد ساعدهم فيعزلوه كما سبق لهم ان خلعوا الوالى السابق احمد خورشيد .

وقد افتتح مجموعة من المدارس والمعاهد العلمية ، وأرسل البعوث الى جامعات الغرب لا لغرض تعميم التعليم بين مختلف الطبقات أو تثقيفها وانما لتخريج طوائف من الاطباء والصيادلة والمهندسين والبيطريين والصناع ، أى الذين يمكنه الانتفاع بهم فى أداة الحرب .

وجند الفلاحين ولكنه كان يصرف للجندى راتبا شهريا تافها ، وكساء

بسيطا ، ويحرمه من العلاج والترفيه . وكانت الخدمة العسكرية غير محددة ، وكانت لا تختلف فى شىء عن السخرة ، من ضرب وحشى واذلال واهدار للكرامة الانسانية .

واستصلح جانبا من الاراضى الزراعية وأدخل الى البلاد محصولات جديدة ، وعمم سياسة الاحتكار فى الزراعة والصناعة والتجارة ولكن الارباح الطائلة عادت على خزانته وحده ولم ينتفع الفلاح بشىء .

وصفوة القول ان هذا الحاكم لم يكن يرجو من وراء هذه المشروعات والاصلاحات الخير خالصا لشعب مصر .. لقد كان يتعالى على المصريين ويأنف من دعوتهم الى قصوره حتى فى المناسبات والاعياد الدينية ، ولا يتكلم بلغتهم ، وينعتهم بأسوأ النعوت ، ويصفهم بأنهم قوم لا يصلحون الا لحمل الاثقال ، وانهم أصحاب أقفية عريضة ، ولا ينفعون الا زبالين !! وكانت حاشيته تؤلف طبقة ممتازة ، تأنف من الارتباط مع طوائف الشعب بصلات المصاهرة ، وتترفع عن التكلم باللغة العربية ، وكان الصلف والكبرياء والزهو من أخص صفاتهم ، ومنهم من خاطب الصفوة المختارة من الشعب بقوله : لن تستطيعوا ان توفونا حقنا من الشكر كاملا ولو أعطيتمونا كل أموالكم بسبب انقاذنا لكم من براثن المماليك !

اذن فما هو الباعث لمحمد على على القيام بهذه الاصلاحات ؟

فى الواقع انه كان يسعى الى خلق قوة عسكرية منظمة يحتفظ بها للدفاع عن مركزه أمام شراذم الجند المأجورين من ناحية ، وأمام الباب العالى فيما بعد .

وقد اقتفى محمد على أثر غيره من حكام الشرق فى تغيير النظم العسكرية العتيقة ، فالسلطان سليم الثالث سبق له أن كون « عسكر النظام الجديد » وشاه ايران سبقه الى الاستعانة ببعثة عسكرية فرنسية أدخلت اصلاحات فى الجيش الايرانى .

وأقدم محمد على على محاربة الوهابيين والكريتيين واليونانيين طوعا لاوامر الدولة العلية وباسم السلطان وتحت رايته ، فلما كان النصر فى جانبه تملكه الغرور وصورت له أوهامه أن يتساوى بالباديشاه فيستقل بمصر عن الخلافة وأن يحاربها فى أرضها ويحاول ان يثل عرش السلطان .

وكان محمد على أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن يحفل بالادب

أو يهتم بالشعر كغيره من امراء الشرق ، بل ان اللغة العربية لم تنل من عنايته أى نصيب ، وكانت حكومته تركية الصبغة والاساليب والروح ، عممت الكتابة بالتركية وحدها فى دواوين ومصالح الحكومة ، وحاولت ان تفرضها لغة أساسية فى التعليم ودور القضاء الشرعى والاهلى ، لولا ان ناهض هذه الفكرة المستشارون الفرنسيون ، ولكن هذا لم يمنع هذه الحكومة من تدريس اللغة التركية فى مراحل التعليم كافة .

وقد حاول محمد على بسبب حفيظته لرجال الازهر أن يقدم على الغاء هذا المعهد الدينى الذى له قداسة وحرمة فى قلوب ملايين المسلمين ، فلما أدرك ان فى هذا الامر انتهاك لحرمة الدين نفسه ، انكر حظ الازهر من النهضة ولم يعطف عليه ، بل أن يد الاصلاح لم تتناوله بشيء فظل قائما على نظامه العتيق ، محتفظا بشخصيته المستقلة وبمبادئه الخاصة فى التفكير ، بعيدا عن حركات الانشاء والتعمير التى كانت تدب فى كل ركن من أركان البلاد .

وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر فى تلك الاونة ان السكان يتناقص عددهم يوما عن الاخر ، فألوف الحقول والمزارع تعلوها طبقات من الرمال لقلة الايدى العاملة ، والمصانع تعمل بنصف عدد العمال اللازمين لها ، والشوارع غير غاصة بالمارة ، اذا استثنينا طبقة العجائز والمعممين ، ويعود نقص عدد السكان الى عوامل شتى وفى مقدمتها نظام الجندية الذى أهلك ألوف الشبان فى الحروب ، ثم نظام السخرة الذى أفناهم تحت رمال الصحراء ، واخيرا الظلم والارهاق مما دفع بالفلاحين الى هجر حقولهم ، وقد حاول محمد على ان يسد هذا النقص الجسيم بغزو السودان وجلب رجال يصلحون للخدمة العسكرية بيد ان التجربة فشلت فشلا ذريعا ولم يتحمل شباب السودان قسوة الجو فى الشمال .

• ● •

لم يبق فى منطقة قولة كبير ولا حقير الا دعاه محمد على للقدوم الى مصر ، وولاه أرقى المناصب وأقطعه أخصب الاراضى ولو كان يجهل القراءة والكتابة ، وكان من المألوف ان يبحثوا عن منصب لرجل بدلا من البحث عن رجل لمنصب .

وكان محمد على يدافع عن مسلكه فيزعم بأن الذين يفدون من

الخارج يعوضهم عن حرارة الجو والغبار بمرتبات ضخمة وتعيينات مغرية ، فتزيا خفراء قوله بزى الامراء . وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والاتباع ، ووصل كل صعلوك منهم الى مالا يخطر له ببال ، وسعوا الى الاقتران بأرامل وكريمات الامراء المماليك ، والاستيلاء على مجوهراتهن ورياش قصورهن ، ومن لم ترضخ لجبروتهم أرغموها على الزواج .

وكان كبار الموظفين الذين تولوا زمام الحكم من أصل وضيع فلما ملكوا نواصى الحال وصاروا حكاما بارزين بلغ منهم الفساد أشده ، ودفعتهم مظاهر البذخ والاسراف والسعة فى المعيشة الى مد أيديهم الى الاختلاس والرشوة والاستيلاء على حقوق الغير ، وكان محمد على نفسه قدوة سيئة لهم ، وصاروا يترنمون فى مجالسهم بقول مأثور له وهو : ان الدرهم كالمرهم ، وان الرشوة حلالة عقد الامور .

وكانت العادة ان هناك سفينة تجارية تبحر من الثغر السكندرى الى ميناء استامبول مرة فى الشهر ، يملكها حطب أوغلى ، فكان يوم وصولها بمثابة عيد للاطفال الاتراك ، لانها تحمل الى أهليهم خيرات وادى النيل من رشاوى وهدايا .

ولذلك كان كل أفاق كلما ضاقت به سبل العيش وهجر استامبول يضع نصب عينيه النزوح الى وادى النيل ، فقد كان الشائع لديهم بأن خزانة حكومة مصر قد أوشكت جدرانها ان تتهدم من كثرة الاموال المكدسة فيها .

• • •

من أعوان محمد على الذين كان يعتمد عليهم صهره محمد الدفتردار ، وكان رجلا قاسيا ، سفاكا للدماء ، فعند ما ذهب الى السودان للتحقيق فى مصرع اسماعيل بن محمد على الذى أحرق فى بلدة شندى ، لم يرض بدية أقل من عشرين الف شاب أبادهم جميعا، ثم أشعل النار فى عشرات القرى تشفيا وانتقاما .

وقد حدث ان فرض أحد مأموى الاقسام مبلغ ستين قرشا ضريبة على فلاح فى أحدى القرى ولم يكن الفلاح يملك قرشا منها ، فأمر المأمور ببيع البقرة الوحيدة التى يعيش الرجل منها بأن قسمها الى ستين جزءا باع كل جزء بقرش واحد ومنح رأس البقرة الى القصاب مقابل أتعابه . فشكا الفلاح الى الدفتردار الذى استحضر المأمور

وأنبه بعنف لا على استيلائه على بقرة الفلاح وانما على طرح أجزائها للبيع بستين قرشا فقط . ثم بعث فى طلب القرويين وأخذ يوبخهم على انهم دفعوا قرشا واحدا فى كل قطعة لحم على حين انها تساوى أضعاف هذا المبلغ وبذلك اشتركوا فى اختلاس أموال أميرية !! وأخيرا أحضر القصاب وأمره بذبح المأمور كما ذبح البقرة وأن يقسم جسمه الى ستين قطعة ، وأمر القرويين بأن يبتاع كل منهم جزءا بقرش وأعطى رأس المأمور للقصاب لقاء اتعابه !!

واشتهر عن الدفتردار بأنه ينهب حيا بأكمله .. ووقع مرة ان وضع يده على المساكن فى أحد الشوارع ، وأقام بابين فى بداية الشارع ونهايته ، ثم أحكم اغلاق البابين بالاقفال وعززهما بالحراس لمنع دخول السكان الى منازلهم . ولم يكن هؤلاء السكان من فصيلة الخلد حتى يحفروا سردابا تحت الارض ليصلوا عن طريقه الى مساكنهم ، ولا من أنواع الطيور حتى يحلقوا فى الجو ويهبطون اليها. وظل المساكين بضعة أيام وقوفا خلف البوابات ولم يسمح بفتحها لهم الا بعد أن دفعوا اليه مبلغا باهظا من المال .

وكان قصره فى امبابة تحوطه حدائق غناء مغروسة بأنواع الفواكه والثمار ، فكان يسقى البستانين الماء مذابا فيه الصابون اذا ما شك فى أنهم اختلسوا بعض الثمار . ثم رأى ان صرف الصابون فى كل يوم لهذه الغاية يستنفد جزءا من ميزانيته ، فلجأ الى حصر الثمار على الاشجار ، ولكن كاتب الحسابات المختص كان يختلس نصيبه من الفاكهة ، فاذا أحصى ثمار شجرة برتقال مثلا وكان العددمائة يستنزل منه عشرين عند رصده فى السجل ، وكان هذا الحاكم الغبى يخيل اليه بأنه ضبط محصول حدائقه بهذه الطريقة !

وارتكب الدفتردار من الموبقات والمعاصى لتحصيل الضرائب ما تقشعر له الابدان، وكانت « العدة » والكرباج أبسط ألوان العقوبات عنده .

وأخذ الفلاحون ينفسون عن صدورهم من مظالمه بأن يقلدونه عند ما يقيمون حفلات الاعراس . فيركبون رجلا له لحية من شواشى الذرة على حصان طاحونة ويمسك بيده قلما وورقة ، ويفترض بعض المتفرجين من حوله انهم تجار والاخر انهم قواصة . ثم يأخذ الدفتردار الممثل فى وزن أى محصول بميزانه ، ويتعمد طبعا ان

يأتى الموزون ناقصا ، وعندئذ ينهال القواصة على التاجر . بالضرب بالسياط ، وأخيرا يتوسل اليهم فيرفعون أيديهم عنه ، وهنا يقول الدفتردار : ان الواجب يقضى بتحرير « الوقائع اليومية » . ثم يمد القصبة المفروض انها قلم الى مؤخرة الدابة كأنها الدواة . ويمررها على الورقة كأنه يكتب شيئا . الى ان يدون ويشطب ما كتب . وبدلا من أن يقول له التاجر أو المزارع المقصر :

ـ دعنى واعف عنى فى مقابل دفع مبلغ كذا رشوة .

فانه يصرخ قائلا :

ـ انظر ياسيدى الى ما أصاب أظافرى من فرط الضرب المبرح

ويبرز له ابهامه فيقرأ الرقم الذى سجله على الظفر ، أى مبلغ الرشوة الذى فى وسعه أن يقدمه .

ومن أعوان محمد على أيضا سليمان أغا حاكم منطقة زفتى ، وكان من عادته ان يجلس فى نافذة قصره المطل على النيل ، فاذا أبصر بالفلاحات فى طريقهن الى مورد المياه ، ارتقب عودتهن يحملن البلاليص فوق رءوسهن ، وعندئذ يلهو باطلاق الرصاص على الجرة فتكسر وتبتل ملابس الفلاحة وجسدها وتشرع فى البكاء والنواح على حين يستغرق هو فى الضحك من هذا المنظر .

وكانت الصبايا عند ورود الماء يقلن لبعضهن : هل هو جالس فى الشباك أم راح فى داهية .

وكن ينتهزن فرصة انصرافه الى تناول الطعام أو نومه ساعة القيلولة فينطلقن الى مورد المياه .

ومنهم أيضا أوزون على قائد فرقة الدلاة الذى أسهم فى مذبحة القلعة ، وكان رجلا غليظ القلب ، خشن الطباع ، يقسو على جنده بأن يؤدبهم « بالدبوس » فكان الجند تكاد رءوسهم تطير من الهلع كلما تذكروا أداة التعذيب والتأديب .

وكان أكولا نهما ، مفرطا فى التهام مختلف ألوان الطعام ، ولا يكفيه فى الوجبة الواحدة أقل من خروف يشوى له على السفود . وكان فطوره فى الصباح يتكون من أربعين بيضة ورطلين من عسل النحل وبضع أقات من الخبز ، ويأخذ جنده يتزلفون اليه بقولهم : حبذا لو زارنا القائد ساعة الافطار ليكون وجوده بيننا باعثا على فتح شهيتنا .

وكان هؤلاء الاعوان كلما أعوزتهم الحاجة الى المال لجأوا الى مدير الخزانة العامة يهددونه بأساليب شتى ليدفع اليهم ما يحملون من

صكوك ، حتى تضايق منهم بحـــرى بك كبير الصرافين فمضى الى الوالى يشكوهم بقوله :

ـ ان اتباعك يثقلون علينا . . . نحن ندبر المال من أى مكان ولكن لا تدعهم يهجمون علينا فان خزانة الدولة ليست متجرا بل هى مقر حكومى له حرمته وقداسته .

فأصدر محمد على أمرا الى قواده باستخدام الكياسة كلما مضوا الى الخزانة العامة . بيد انه لم تمض أيام معدودات حتى اقتحـم مبنى الخزانة القائد محمد اغا اللوفجة وبيده حوالة بمبلغ حمل من القروش .

وكان بحرى بك رجلا شديد الكبرياء والاعتداد بالنفس ، ولكنـه ازاء بطش هذا القائد خفض له جناح الذل من الرحمة ورده بقوله :

ـ ما الذى فى وسعى ان أقدمه لك . ان الخــــزانة خاوية الان ، والاولى أن تصحبنى الى منزلى فأجمع تجار الشام وربما أوفق الى جمع خمسين ألف قرش وعليك أن تبتاع من هؤلاء التجار أقمشـة وشالا اكراما لهم .

فأجابه القائد فى زهو وصلف : وماذا يصنع الكلب الغريب بهـذا الشال ؟ انه ليس عالما حتى يلقيه على كتفيه ، وليس من التجار حتى يلفه على رأسه . . الفلوس . . . الفلوس . . .

فتمالك بحرى بك أعصابه وأجابه فى هدوء :

ـ ان الموت لا يكون الا مرة واحدة . . فان لم تصبر الى الغد فلن تصرف المبلغ الا يوم القيامة .

وتمكن بهذه الحيلة من تأجيل صرف المبلغ . . ثم عاود الشكوى الى محمد على الذى أنكر بأنه أعطى القائد صكا واتضح أخـيرا بان ختم الوالى قلد على الصك . ولما واجهه بذلك التزوير ، كان جواب القائد : لقد تلقينا عنك هذا الدرس عندما قلدت أختام مشـــايخ الازهر .

• ● •

وكان محمد على اذا ما غضب على شخص ما صاح « فليجر من رجليه » وهذا معناه الحكم عليه بالاعدام وتشريد أهله . وكانت قلعة ابى قير منفى للمغضوب عليهم من زعماء الرأى والعلماء والفقهاء .

وكان ابراهيم بك الكبير آخر « شيخ للبلد » تولى هذا المنصب ،

وقد انسحب الى دنقلة فرارا من مظالم محمد على وخوفا على حياته من بطشه ، وعاش هناك فى فاقة ولبس العرى . وعند ما اتصل بزوجته نبأ نعيه مضت الى القلعة ، وقابلت محمد على قائلة له :

ـ لقد قتل فلذة كبدى فى مذبحة القلعة ، وجاءنى اليوم نعى أبيه ولما يلتئم جرحى . . . لقد حكم ابراهيم بك مصر مدى خمسة واربعين عاما ، وكنت أنت بنفسك تتناول تعيينك منه ، فهو سيدك السابق ، وأخيرا فر الى دنقله دون أن يهتف بقوله : أليست لى ممتلكات فى مصر ؟ فاذا كنت لا تستكثر على رجل واحد ـ وقد استكثرت عليه مصر بأسرها ـ مقدار أربعة أذرع فى المقبرة التى شيدها ابان حياته فصرح لى باحضار جثمانه .

• ● •

وكان الغدر من شيم محمد على . . .

رأينا فيما سبق كيف وصل بدهائه ونفاقه وحيله وغدره الى منصة الحكم .

فغدر أولا بولى نعمته محمد خسرو وأوعز بطرده من القلعة بالتواطؤ مع طاهر باشا . ثم أغرى الاكراد بقتل طاهر باشا فلم يدم حكمه سوى ٢٦ يوما . وكيف أوعز بعد ذلك بقتل احمد باشا وعلى الطرابلسى باشا . ثم تقرب من الامراء المماليك ومزج دمه بدم البرديسى شارة الاخوة والتضحية ، ولكنه تخلى عنه وغدر به . واخيرا داهن عمر مكرم والشرقاوى والدواخلى وعلماء الازهر وتحالف واياهم على مبايعته بالولاية بشروط أقرها حتى اذا استتب له الامر غدر بهم جميعا فنفى من نفى وعزل من عزل وعمل على تقويض أركان الزعامة الشعبية والسعى الى افنائها .

واخيرا عمد الى اسكات صوت الشعب القوى المجلجل الذى نادى بولايته وخان أمانة البيعة ، وتحركت طبيعته الشريرة ، فقسم مصر الى شيع وأحزاب وخنق الطبقة التى رفعته الى منصة الحكم وقضى على نفوذها السياسى ، بتفرقة الزعماء ونفيهم ، ولوح للنفعيين والوصوليين بالاراضى والهبات .

ويبرر المشايعون لمحمد على بأنه اضطر الى ارتكاب جرائم الغدر بالزعماء بسبب تغلغل نفوذهم السياسى بين مختلف الطبقات ، هذا النفوذ الذى ظهر جليا واضحا عندما أجمعوا الكلمة على عزل الوالى

السابق ، فأراد أن يحصن مركزه بابعادهم عن محيط السياسة العليا.

وكانت خاتمة كل الرجال الذين عاونوه فى الوصـــول الى الحكم لا تختلف فى شىء عن مصير عمر مكرم . فالمعلم حجاج الخضرى الذى أبلى بلاء حسنا فى حصار القلعة وأمده بمحتويات قافلة مكونة من خمسين جملا ، حقد عليه بعد أن أستتب له الامر، فأمر بالقبض عليه وشنقه على السبيل المجاور لحارة الميضة وقت السحور وترك جثته معلقة بضعة أيام دون أن يؤخذ الرجل بجريرة بل قتل مظلوما ولفقت له تهمة كيدية .

والمعلم جرجس الجوهرى كبير المحاسبين قبض عليه وطالبـــه بمجموع ضرائب خمس سنوات ، واستطاع عن طريق الارهـــاب والتعذيب الوحشى أن يسلبه أربعة الاف وخمسمائة كيس ، وحاول الفتك به لولا أن الرجل فر من سجنه الى جهة مجهولة .

وألصق بالمعلم غالى كبير المباشرين تهمة بيعه أسرار ميزانية الدولة الى الباب العالى فوكل الى امير الصعيد مهمة الفتك به . ودعـــاه ابراهيم الى سياحة فى النيل ، وبعد أن سارت المركب بهما بضعة أيام طلب الى ضـــيفه الى يلاعبه الـــنرد ، وفى أثناء اللعب أخـــرج ابراهيم غدارته وأطلقها عليه فأرداه قتيلا ، وزف البشرى الى محمد على ، وأشار باسناد منصبه الى ابن عمه المعلم بشارة .

وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى من علماء الازهر ومن أساطين التاريخ ، وقد عاصر أحداث الحملة الفرنسية ودونها وطوى من عمره قرابة عشرين عاما تحت حكم محمد على ، وشهد بنفسه نشـــأة « النظام الجديد » . ولما كان الرجل مصريا فى روحه وفى تفكيره فقد أشفق على حال وطنه ، وساءته المظالم ومصادرة الحريات وفداحة الضرائب والزج بالابرياء فى أعماق السجون ، فخص الجزء الرابع من سفره التاريخى الموسوم بعنوان: «عجائب الاثار فى التراجم والاخبار» بسرد طائفة من هذه المساوىء ، فوصف محمد على بالدهاء والحيلة، والمداهنة ، والايمان الكاذب ، وسمى رجاله « بالظالمين » وان الذين أعانوه على قيام النظام الجديد يشاركونه فى الظلم و « من أعان ظالما سلط عليه » .

وقال عن ابراهيم : انه شاب مغرور ، لم يؤدبه مؤدب ، وصـــور العذاب الذى انصب على شعب الصعيد ، والذل والهوان اللذين لقياه على يديه . وأخيرا أنكر على محمد على مسلكه الشاذ فى الحكم حكما

اوتوقراطيا . فناصبه العداء ووقف منه موقف المعارضة العنيفة ، وأخذ يدعو للمماليك باعتبارهم مصريين وانهم اندمجوا فى الشعب وربطوا مصيرهم بمصيره وأفصح عن أحقيتهم فى الحكم ، واعتبار محمد على وأعوانه دخلاء عليهم .

ومن الطبيعى أن هذا الكلام كان لا يروق الوالى ولا أصفياءه ففى ١٩ يوليو عام ١٨٢٢ روع الجبرتى وأهل بيته بدخول طائفة من المواطنين يحملون ابنه « خليل » وهو بين الحياة والموت . واتصل بأبيه بان بعض الاشقياء هاجموه ليلا فى طريق شبرا بينما كان قافلا من قصر شبرا الى منزله وأثخنوه جراحا ثم ربطوه فى رجل حمار . وقضى خليل نحبه ثم اتضحت الحقيقة فيما بعد وهى أن سليمان أغا السلحدار قتل الولد تشفيا من والده لانه اطلع على صفحات من سفره التاريخى وأنكر عليه نقده الجارح للنظام الجديد والحكم القائم فاستأذن الوالى فى الفتك به ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد .

ولم تنقض سنوات حتى مثل أعوان الوالى بالجبرتى نفسه فى مزارع شبرا بالطريقة التى قضوا بها على فلذة كبده ، وظنوا أنهم بذلك قد قضوا على كتاب « عجائب الاثار » ولكن من حسن حظ مصر ان نسخا من المخطوط أخفيت فى مكان أمين عند شيوخ الازهر الى أن طبع الكتاب بعد سنوات ، فكان ظهوره بين أيدى القراء بمثابة نصر عظيم للتاريخ المصرى .

ورأى محمد على أن يطلب الى الشيخ محمد العروسى شيخ الجامع الازهر أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب يعارض به الجبرتى، فعهد بذلك الى الشيخ احمد الرجبى الشافعى من علماء الازهر، وكان فقيها أديبا ، فكتب تاريخا سرد فيه أعمال « ولى النعم محمد على » ذاكرا منشآته وتعميراته ، غير انه التزم فيه السجع الثقيل الممل فلم يكتب لتاريخه الذيوع والانتشار .

وكان احمد اغا لاز مديرا لقنا ، وعرف عنه بأنه كان معتدا بنفسه، لم يطأطىء رأسه فى يوم من الايام للوالى ، وصادف أن كان محمد على جالسا على شاطىء النيل فى ناحية « أثر النبى » تحت شجرة جميز يستروح نسمات العصر ، فأبصر بمركب يمخر عباب الماء ويحمل أوزا وبطا وطيورا فى أقفاص ، فسأل لمن المركب ؟ فقيل له : لاحمد أغا لاز وانه قادم فى أثره . . . ففكر قليلا ثم نظر فى ساعته وتظاهر بأن وقت عودته قد أزف ، وبعد ما استقر به المقام فى القلعة أوصى كتخداه

محمد أولاز أوغلى بأن يدعو احمد أغا لاز الى مائدته لتنـاول طعام الافطار ، وكان الوقت فى شهر رمضان ، فكأنهم أرادوا أن يقولوا له : لا تذهب جوعانا الى الاخرة .

ولبى الرجل الدعوة دون أن يدرى النية المبيتة ، وعقب الافطار ، دعاه الوالى الى مقابلته وتناول الحديث بينهما شـئون الحكم ، ثم تطورت المناقشة الى تكدير وتوبيخ ، واذا بالوالى ينسحب من القاعة، واذا بالاعوان يغشون القاعة ويجزوا عنق احمد أغا لاز !!

ومن قواد محمد على لطيف باشا ، كان فى الحجاز على رأس فيلق من الجيش يحارب الوهابين وندب لحمل مفاتيح المدينة المنورة الى دار الخلافة وهناك أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، فغار محمد على لانه لم يكن يحمل هذه الرتبة فى مصر سواه . ثم طلب لطيف الزواج من احدى بنات محمد على فرفض طلبه تكبرا منه ، وعندئذ تفوه لطيف بكلام يحط به من قدر محمد على وأصله .

ودبرت مكيدة لايقاع لطيف فى الشرك ، على زعم انه يدس للوالى لدى دوائر المابين ، وانه يسعى الى خلع محمد على عن طريق اشاعة نبأ وفاته فى الحجاز وذلك توطئة لينصب نفسه واليا بدلا عنه ، وفى ١٢ ديسمبر عام ١٨١٣ قبض على لطيف وحوكم محاكمة صـورية أمام الكتخدا وحكم عليـــه فى الحال بالاعدام ونفذ الحكم بطريقـة وحشية .

ومما يدل على صلف محمد على أن بطريق الروم فى الاسكندرية عندما توفى وأرادت الحكومة حصر التركة توطئة للاسـتيلاء عليها ، تقدم حامل عصا البطريق الراحل وسهل لرجال الحكومة هذه المهمة وأمدهم ببيان تفصيلى عن دخل الكنيسة ، فأمر محمد على بتنصيبه بطريقا على طائفة الروم . بيد ان بطريرقية الفنار فى اسـتامبول اعترضت على هذا القرار الذى لا يتفق والتقاليد الكنيسية أو مذهب الروم ، فماكان من الوالى الاأن أجاب: ان كلمتى لا ترد . وقد نصب البطريق الجديد بعد ان ورد حملين من القروش وهذا يكفى .

وتعود محمد على أن يحتفل لنفسه بشهر رمضان فى قصره بالقلعة. كان أحيانا يقيم فى قصره فى شبرا طوال العام حتى اذا أقبل رمضان انتقل فى موكب كبير الى القلعة وأمر بأن تضاء المآذن بالمصابيح المتعددة الاشكال والالوان . واختار مشاهير المقرئين يرتلون القرآن فى المسجد اما فى داخل القصر فكانت له الجوارى الحسان ، يرقصـــن حتى

السحور على قرع الدفوف وأنغام العود ، ومعهن المغنون والقيان ينشدن شعرا فى مدحه لا مدح النبى الكريم وفضائل الشهر المعظم الذى أنزل فيه القرآن .

وكانت الاغانى التركية والجركسية والالبانية تحتل مكانها فى البلاط . وكذلك ألوان الرقص .. ففى غرة رمضان من السنة الثالثة لحكمه تناول طعام السحور مع بعض خلصائه وسماره ، ثم نهض ليغسل يديه ووقفت جارية شقراء تصب الماء على يديه من ابريق من الذهب الخالص ، وكان شعرها طويلا مسترسلا ، أصفر كخيوط الشمس ، وكان محمد على فى ليالى رمضان يعبث بيده فى شعرها وهو يستمتع بالانغام . وعندما انحنت الجارية وهى تصب الماء انسدل شعرها الناعم فمس يده . فانتصب غاضبا ، واستل حسامه وأمر الجارية أن تحنى رأسها وهوى على عنقها البديع بسيفه المشحوذ فسقط رأس الجارية فى الطست ...

وجلس محمد على فى هدوء وأشار الى جارية أخرى فحملت الابريق ، وصبت له ، وأكمل غسيل يديه وهو يقول : قطعت رقبتها لتتأدب وهى تصب الماء على يدى .. كيف تسمح لشعرها بأن يقع على يدى الطاهرة !!

• • •

وانتشرت الجاسوسية فى ذلك العصر المظلم انتشارا مروعا ، وكان الكتخدا هو المشرف على دائرة الجاسوسية ، وكان أعوانه يتخفون فى أزياء باعة الكعك واللب واللوز ويترددون ليلا على أصحاب البيوتات الكبيرة ، وينصتون الى الاحاديث التى تدور أثناء السهرة ويضمنوها تقارير يلقون بها قبيل الفجر فى فتحة باب بمنزل قفطان باشا قبالة مسجد السيدة زينب ، وهذه الفتحة بداخلها مخلاة ، وكانت تقيم فى هذا المنزل سيدة ملمة باللغتين التركية والعربية، وتتولى تعليم محمد على القراءة والكتابة ، وكانت تجهل شخصيات الذين يضعون هذه التقارير ، كما كانوا هم لا يعلمون لمن يضعون هذه التقارير . وعند الصباح تفتح المخلاة وتلخص التقارير وتبوبها وتنسقها ، وقبيل الظهر بساعة يرسل الكتخدا بغلة تحمل السيدة وأوراقها الى القلعة فتقرأ عليه ملخص هذه التقارير .

ومن الطريف أن نذكر انه كان فى جملة الخبراء الاجانب الذين قدموا الى مصر ، رجل فرنسى ، عهد اليه بادارة مصنع للبارود والكيمياء فى طرة ، وتدريب عدد من الشبان على الالمام بأسرار هذه الصناعة . وقد نشأ ايم وترعرع فى مهد الثورة . كان مؤمنا بمبادىء الجمهورية ايمانا لا حد له ، فهو يدعو الى تحطيم سلطات الملوك والطواغيت غير المقيدة ، ويبغض الظلم ويعاف الاستبداد ، وينادى بالشورى وبالحرية والاخاء والمساواة ، ويبسط لزواره نظريات مارا وروبسبير ودانتون وغيرهم من زعماء الثورة .

وكان زواره يصغون الى أحاديثه مستخفين ساخرين ، دون ان يقيموا لها وزنا ، وكان البعض منهم يعتقد بانه انما يلجأ الى هذه الوسيلة للاعلان عن نفسه .

واتجه الرجل الى تلاميذه الذين يتلقون العلم عنه فى مصنع البارود ومعمل الكيمياء . فأخذ ينفث فيهم مبادئه ، ويشرح لهم نظرياته ، ويدفعهم الى الايمان بأفكاره، وتقديس مثله العليا ، ويفرض عليهم أن يتسموا بأسماء أبطال الثورة ، فمثلا يغدو أحمد : دانتون ، وابراهيم : مارا ، ومصطفى : روبسبير ، ومحمود : سيفولا ، وعبد الرحمن : كمبر . وأخذ يدربهم على النظام فى العمل على نسق مبادىء الجمهورية ، وفى أوقات فراغه ينشد لهم أغنيات الثورة ، ويدفعهم الى أن يفتتحوا عملهم بنشيد المرسييز ، وكان اذا سأل أحدهم من أنت ؟ فجوابه أن ينشد مترنما :

أنا رجل حر ، مصرى صميم ، جمهورى بالخيار
ولدت لكى أحب أخى وأخدم وطنى
وأعيش من ثمار عملى ومن كدى
وأبغض الطواغيت وحكم الملوك المستبدين .

وأتصل نبأ هذه الدعوة بمحمد على فطلب الى الرجل أن يشرح له بالضبط ماذا تعنى الجمهورية ، فكان جوابه دون خوف أو وجل : اذا صارت مصر جمهورية فأنك تغدو الشعب ، ويغدو الشعب هو الحاكم الاعلى ! ؟

ولم يفهم الوالى حرفا واحدا من حجة هذا الرجل عدو « النظام الجديد » ولم يعد دعوته خطرا ، وانما ظن أن به مسا من الجنون .. ثم سأل عنه قنصل فرنسا فى القاهرة ، فرد عليه : لا عيب فيه سوى انه يعتنق آراء تقدمية .

وأراد محمد على أن يتخلص منه بوسيلة ما ، فعينه « شيخا للواحات » ومنحه سلطة مطلقة فى اقرار الامن وتوطيد النظام فى هذه المنطقة النائية ، ووكل اليه استصلاح مساحة شاسعة من الارض ، ووضع تحت أمره مئات الشبان الذين كان يؤتى بهم من سنار ، وأن يجرب فى هذه المنطقة غرس القطن وقصب السكر والقرطم وأشجار الزيتون .

وأستقر ايم فى الواحات ، وانقطعت صلته بالعالم ، والتفت الى النهوض بالالتزامات الملقاة على عاتقه ، بيد انه لم ينزل عن ارائه ومبادئه ، ولم يتخل عن دعوته ، فكان ينتهز فرصة ساعة الغروب فيخرج مع خدمه وحشمه ويجمع الاعراب ومشايخ البدو ، وهناك تحت أشجار النخيل ، يظل يتحدث اليهم ساعة برمتها عن المبادىء الجمهورية وتعاليم « الكائن الاعلى » .

وبعد أن قضى قرابة عامين فى منطقة الواحات نقل الى الصحراء الشرقية للبحث عن مناجم الذهب والنظر فى كيفية استغلالها ، فاتخذ له مقرا فى نقطة « الفواخير » . ولم تشغله مهام العمل والانقطاع عن العالم فى هذه العزلة ووسط الصحراء والرمال المحرقة عن مواصلة الدعوة الى سحق الطواغيت والتنديد بنذالتهم والتنبؤ بظفر الجمهورية . . .

ترى ماذا لو كان ايم زعيما شعبيا وبين يديه وسائل الصحافة والنشر ، اذن لاستطاع ان يؤثر فى عقول المصريين فيهبوا كرجل واحد لابادة النظام الذى فرضه محمد على ويستقلوا بمصر عن الدولة العلية ، وتأسيس الجمهورية .

• ● •

اضطربت قوى محمد على فى اواخر أيامه بعد أن جاوز الحلقة الثامنة من العمر ، فكانت له تصرفات مريبة ، وكان يشتد سخطه وغضبه لاقل شىء ، وعرف عنه التهور والاندفاع الى حد أن أصاب حاشيته القلق .

كان أبغض شىء أن يرى ابراهيم الذى تبناه وخلع عليه اسمه، فاذا ما وقع نظره عليه أربد وجهه وبدت على تقاسيمه امارات الغضب ، وكان ابراهيم بدوره يبدى تذمره من فعال محمد على ويهينه فى مجالسه ، ويقول لمن حوله من بطانة السوء : لماذا لا يموت هذا المعتوه؟

وكان يجلس فى خلوته يجهز الجيوش بالقلم على الورق بحجة أن هذه الجيوش سوف يسيرها الى الصين لغزوها . فاذا قيل أن خزانة الدولة ليست عامرة ، صرف النظر مؤقتا عن هذه المسألة .

وفى ذات يوم أبدى رغبته فى السفر الى مكة لقضاء بقية أيامه هناك ، وأمر بطانته بالقدوم الى قصره على ضفاف ترعة المحمودية ، ثم استقل المركب ولم يكن يصحبه من خاصته سوى افراد قلائل وبعد أن أصدر أمرا الى القبطان بالابحار عدل عن رأيه فجأة وزايل المركب .

ولما اشتد اضطراب قواه العقلية ، صار يمشى على ترعة المحمودية ومن خلفه حارسه الالبانى ويصيح بأعلى صوته « الملك لك وحدك يا صاحب الملك » وعندما عاد أخيرا الى القاهرة رأى ابراهيم ان يعتقله فى قصر شبرا ، ووكل الى كلوت بك الاشراف على علاجه ، ثم ارسل الى الباب العالى تقريرا ضمنه ما وصلت اليه حالة الوالى ووجوب عزله ، فأجابه الباب العالى الى طلبه وصدر الفرمان بان يحل محله فى الولاية .

حمام الدم فى القلعة

دفاع عن المماليك ـ مهرجان فى القلعة ـ الغدر بالامراء المصريين ـ نهب مساكنهم ـ اختلاف الرأى فى مذبحة القلعة ـ مقارنتها بمذابح عالمية أخرى ـ محمد على أمام محكمة التاريخ .

دأب الكثيرون من المؤرخين المغرضين بتأثير الدعاية التى نشرها أعداء مصر ، على ان يصوروا المماليك فى صورة بغيضة الى النفوس، فوصفوهم بأنهم فئة طاغية باغية ، تتألف من طغمة من الاشرار والمرتزقة ، حلوا بوادى النيل فامتصوا دماءه وقضوا على رخائه ونكلوا بقادة الرأى وأصحاب الكلمة المسموعة فيه .

والواقع أن هؤلاء المماليك الذين شقوا طريقهم الى الصدارة ، كانوا على درجة فائقة من القدرة واتساع المدارك ونية الخير والاخلاص لكل بلد حلوا بظهرانيه سواء فى مصر أو الشام أو العراق . كانوا أشد الطوائف استمساكا بتعاليم الاسلام، واكثرهم تضحية فى سبيله، ودفاعا عن حوزته ، وأقدرهم على فنون الحروب وأثبتهم حنانا ، برز من بينهم : بيبرس وقطز وقلاوون والناصر وقايتباى وقانصوه الغورى وبرسباى ، وغيرهم من القادة الذين صدوا تيارات المغول المخربة ، وقاوموا الصليبيين ، وسعوا الى صيانة الخلافة الاسلامية قبل ان يقضى عليها هولاكو فى بغداد ، فنقلوها الى القاهرة الى ان تسلمها السلطان سليم ونقلها بدوره الى استامبول .

والمماليك هم الذين صانوا تراث العرب وثقافة الاسلام ، ففى ظلال سيوفهم أمن الازهر سطوات الدهر ، ونزلوا على أحكام الشرع واحترام العلماء ورجال الدين ، فكانوا يجتمعون بهم يشاورونهم فى الامر ، ولا يفرضون ضريبة ما دون الرجوع اليهم والحصول على موافقتهم ، وقد اختلطوا بطبقات الشعب كافة وصاهروها ، وكانت عادات مصر وتقاليدها وثقافتها هى عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، وكانوا يحسنون التكلم والتعبير باللغة العربية ، وامتازوا بما خلفوه وراءهم من الاثار النفيسة والعمائر النادرة المثال ، والجوامع والزوايا والتكايا .

ولا ننسى أن المماليك هم الذين دافعوا عن مصر ببسالة أمام قوات

نابليون بونابرت ، على حين كان الحكام العثمانيين وأتباعهم من الالبانيين والخوارج يتوارون خوفا وجبنا وهلعا ، ولكن غلطة المماليك التى أوردتهم مورد التهلكة هى أنهم لم يفهموا الغزو الاجنبى على صورته الحقيقية ، ولم يفطنوا الى انه فتح سياسى يرمى الفرنسيون من ورائه الى أغراض استعمارية بحتة .

بيد انهم بعد أن انهزموا أمام قوات بونابرت فى موقعة امبابة ، تحصنوا فى الشرقية وفى الصعيد ، وقاوموا الغزاة المغيرين وانقضوا عليهم فى عدة مواقع ، ثم نهضوا من كبوتهم بعد الجلاء ليستعيدوا مجدهم الآفل . ولم يجدوا أمامهم سوى محمد على ، وهو فى نظرهم حاكم غريب دخيل، فناصبوه العداء ، وظلوا شوكة فى جنبه، ونشبت بينهم وبينه ، معارك طاحنة كان النصر مرة فى جانبه وأخرى فى جانبهم واخيرا أيقن محمد على بأن المماليك عنصر قوى مهيب الجانب ، فكان لا مفر له من اتقاء شرهم بالمصانعة والمداهنة مع الكيد لهم . وبدأت المؤامرات تحاك حولهم . تارة بتسليط الجند الالبانى عليهم ، وأخرى بمهاجمة الانكشارية لهم ، وفى النهاية بسط محمد على يده لهم وحالفهم ليتقى شرورهم ، وأقطعهم عدة قرى ومنحهم حق الاستيلاء على خيراتها على أن يقدموا للحكومة كمية من القمح والحبوب .

وكانت زعامة المماليك قد آلت عقب وفاة البرديسى ثم الالفى الى جاهين بك . فقربه محمد على اليه وطلب اليه أن يقطن القاهرة مع أتباعه ، ومنحه خراج عدة قرى فى الجيزة والفيوم ، ولكن المماليك برغم ذلك كانوا متبرمين من مسلك الحاكم الدخيل الذى استلب السلطة منهم ، فدبروا عدة مؤامرات لاختطافه أو الفتك به . وصادف ان كان الوالى منهمكا فى اعداد الحملة العسكرية التى يسيرها الى جنوب جزيرة العرب لمحاربة الوهابيين طوعا لاوامر الباب العالى . وكان مشغول الخاطر لئلا يخلو الجو للماليك، فيتغلبوا عليه، ويقوضوا أركان دوته .

• ● •

وفى يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١ أعلن الوالى عزمه على اقامة مهرجان فى القلعة للاحتفال بتوديع الحملة العسكرية ، واهداء ابنه طوسون فروة الامارة عليها ، ووزعت رقاع الدعوة لحضور المهرجان

على كبار الموظفين ، وأمراء المماليك ، على أن يكون الحضور بملابس التشريفة .

ولم تكد شمس يوم الجمعة المضروب تعلو الافق حتى احتشدت الجماهير على جوانب الطرق المفضية الى القلعة للتفرج على الموكب. وبالاخص موكب الامراء المماليك وهم يعتلون صهوات جيادهم ويرفلون فى ملابسهم الزاهية المزركشة ، واسلحتهم المفضضة والمذهبة ، وكان عدد من لبى الدعوة من المماليك اربعمائة وسبعين أميرا .

وكان محمد على قد قضى ليلته فى سراى القلعة ، ونهض مبكرا ليستقبل وفود المدعوين ، وتلقى الامراء المماليك فى قاعة الاستقبال بكل بشاشة وحفاوة ، فشكرهم على تلبيتهم دعوته ، وبالغ فى اكرام وفادتهم ، وأمر لهم بالقهوة وشراب الورد ، وما فتىء يتبسط معهم فى أحاديث تسيل رقة ومجاملة حتى أتاه من أخبره بأن المدعويين قد استقروا فى الاماكن المخصصة لهم ، وان الفرق العسكرية قد اصطفت فى مواضعها ، فنهض من مجلسه وتبعه الامراء المماليك ثم خرجوا ليمتطوا صهوات جيادهم ووقفوا بها على رأس فيلقهم الباسل .

وتمت مراسيم الاحتفال وقلد طوسون امارة اللواء ، ثم أذن بتحرك الموكب ، فتقدمت فرقة من الدلاة ، ففرقة من الانكشارية ، ففرقة الوجاقلية . فالامراء المماليك بقيادة سليمان البواب بك . وسارت خلفهم الفرقة الالبانية بقيادة صالح أغا أق قوش . تتلوها فرق المشاة بقيادة الكتخدا محمد أولاز أوغلى .

وتأهب الموكب للخروج من باب العزب ، بهذا الترتيب ، حتى اذا خرج اخر جندى انكشارى من الباب ، كان الاربعمائة والسبعون مملوكا يشغلون بجيادهم المنحدر كله من أسفله الى اعلاه .. حينئذ وقع حادثان : الاول أن باب العزب ـ وهو باب القلعة من ناحية الغرب ويفتح الان على ميدان الرميلة ـ انغلق مصراعاه . والثانى أن صالح أق قوش أصدر أمرا الى جنده فانسلوا وراء المماليك وتسلقوا الصخور المحيطة بالمنحدر ، وكمنوا وراءها من الناحيتين، ومن أسفل الى فوق ، ثم تقدم الفيلق الذى يقوده الكتخدا وانتشر على الاسوار.

ودوت طلقة مدفع ، وكانت هذه الشارة ايذانا ببداية المجزرة ، فما شعر المماليك الا والرصاص يتناولهم من كل جانب دون ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم ، وأدركوا فى الحال حقيقة المكيدة المدبرة فلووا أعنة جيادهم محاولين الفرار ، ولكن حركتهم هذه زادت الموقف ذعرا ، وبثت

الاضطراب فى صفوفهم ، وأخيرا رأوا الا فائدة ترجى من جيادهم فترجلوا ، ونزعوا عنهم الفراء والثياب الغالية المشغولة بالذهب والقصب ، وقد كان من شأنها أن تعيق حركات أيديهم وأرجلهم فى ذلك الموقف الرهيب .

وأقبل الامراء المماليك يمتشقون سيوفهم فى يد وطبنجاتهم فى الاخرى يبغون لقاء عدو يثأرون بقتله للكارثة التى حلت بهم ، ولكنهم لم يجدوا أحدا ، واستمر اطلاق النار دون انقطاع ، كان الرصاص ينزل عليهم كالمطر فيحصدهم حصدا . فسقط زعيمهم جاهين بك أمام عتبة صلاح الدين وصار جسمه مثقوبا بالرصاص كالغربال ، وتمكن سليمان البواب بك من أن يبلغ باب السراى والدم يسيل من أطرافه فانطرح على العتبة وهو يصيح متأوها : « انا فى عرض الحريم » . وكانت استغاثة مقدسة فى ذلك العصر ، ولكن السيف جز عنقه ، وسحبت جثته بالحبال الى مكان سحيق ، واستطاع سبعة أو ثمانية من المماليك الوصول الى المكان الذى يقف فيه القائد العام طوسون ، فتراموا على قدميه وسألوه النجدة والامان ، ولكن طوسون كان أشد قسوة من أبيه ، فلم يلن قلبه لتوسلاتهم ، بل سرعان ما تخلى عنهم لحراسه غلاظ الاكباد ، يقتلونهم بين يديه ويمثلون بجثثهم أشنع تمثيل .

وما انفك الرصاص يدوى ويتساقط ، والمماليك يقعون صرعى كالذباب حتى فنوا عن اخرهم ولم ينج منهم سوى امين بك الذى قفز بجواده من فوق سور القلعة على ارتفاع ستين قدما فى مكان يعرف الان باسم « نطة المملوك » . ووصفت صحيفة « المونيتور اجبسيان » بالاسكندرية ، وكانت الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مصر فى ذلك الحين ، هذه المأساة الدامية بقولها :

« ولم ينج من المماليك سوى مملوك واحد هو أمين بك شقيق الفى بك ، لانه تخلف برهة فى عمل خاص فلم يدرك الا الصف الاخير من الموكب . فلما ترامى الى سمعه صرير الباب وهو يوصد ، وصافح أذنيه دوى الرصاص ، عاد بجواده الى داخل القلعة وانشأ يبحث عن منفذ ينجو منه بنفسه ، فلم يجد أمامه الا سورا فى ارتفاع عشرين مترا فانطلق بجواده الى قمة مرتفعة ، فوقف عليها ووخز الجواد للوثوب به فى الهاوية الفاغرة فاها تحت قدميه ، فما هى الا لمعة البرق حتى كان الاثنان فى قاعها: الجواد صريعا لا حراك به، وفارسهمطروحا

على الارض لم يصبه الا اغماء خفيف لم يبث أن أفاق منه ، ولم يتمالك الفارس الباسل أن أطلق ساقيه للريح ، وما زال مجدا فى السير حتى وصل الى مديرية الشرقية حيث آوى الى بيت أحد كرام عربانها ولبث فى ضيافته أياما ثم غادر مصر الى سورية » .

• ● •

أما محمد على فانه بعد أن رتب كيفية خروج الموكب عاد الى قاعة الديوان مع حاشيته ، وكان القلق مستوليا عليه فى غدواته وروحاته الصامتة فى طول القاعة وعرضها . وعند ما سمع طلقة المدفع الاولى المنذرة ببداية المذبحة ، وقف بغتة وجرى دمه نحو قلبه بسرعة ، ثم تقلص وجهه وأربد ، وعندما أطل من النافذة وشاهد الفرسان تردى تباعا والرءوس تطير حتى انتظمت دورة الدم فى عروقه وفارق وجهه الشحوب ، الا انه مع ذلك لم ينبس ببنت شفة ، وأخيرا تقدم منه مندرتشى ، طبيبه الخاص الايطالى وقال مهنئا :

ـ هذا أمر قد فرغ منه ، واليوم يوم عيد سعيد لسموكم .

فلم يجبه بكلمة واحدة بل رماه بنظرة قاسية وطلب ماء وشرب جرعا طويلة .

• ● •

وعند ما انتهت هذه المذبحة الفظيعة ورأى الالبانيون انه لم يعد هناك مملوك الا وهو مردى ، برزوا من مكامنهم ونظروا لاول مرة فى حياتهم دون رهبة أو وجل الى اولئك الفرسان المجزورين ، فأجهزوا على الجرحى منهم ومثلوا بالقتلى ، وجروا أجداثهم بالحبال ، وألقوا بها فى حفرة فى باطن الارض بعضها فوق بعض دون تمييز بين الامير والوضيع .

وكان شعب القاهرة فى غضون هذه الفترة العصيبة لا يعلم شيئا البتة عما يجرى بداخل القلعة ، بل ظل الناس فى الطريق يرقبون سير الموكب ليمتعوا انظارهم بمظاهره البهجة . وكانوا لا يكفون عن اطلاق صيحات الفرح ، وان هى الا سويعات حتى ظهرت صفوف فرق : الدلاة والاغوات والوجاقلية والالداشية ثم لا أحد ... هناك خامر الشك أفئدة أفراد الشعب لانهم لم يقفوا على سر انقطاع الموكب هذا الانقطاع الفجائى ، وذهبوا فى تأويل الحادث كل مذهب . الى ان انتشر بينهم غلمان المماليك سياس خيولهم وهم يهيمون على

وجوههم فى الشوارع ويصيحون : لقـــد قتل جاهين بك .. قتل سليمان البواب بك .. قتل ...

وما أن استقرهذا الصياح فى الاسماع حتى دب فى أوصال الجماهير، فأغلقت المنازل والحوانيت وأبواب الحوارى واقفرت الاســواق والشوارع من المارة .

وفى أعقاب هذه المأساة هبط الارناؤود أحياء القاهرة ، وأغاروا على بيوت المماليك ورموا أعناق من بقى فيها من الرجال ، وجردوا النساء من حليهن وثيابهن الثمينة وهتكوا أعراضـــهن . وكانت فى يدى احداهن أساور ذهبية فقطع أحد الجند المغيرين اليدين بحدحسامه حتى لا يجد عناء فى انتزاع الحلى منها . وكان بعض أولاد البلد قد تزيوا بزى المماليك بهذه المناسبة ووقفوا فى الشوارع يرصدون سير الموكب ، فأقبل الارناؤود يقبضون عليهم ويعملون السيوف فى رقابهم وهم يصرخون ويستغيثون : انا لست مملوكا ولا جنديا .. انا لست من شيعتهم .. فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث ، وتتبعوا الفارين فى نواحى المنازل بحجة التفتيش ويهتفون قائلين : هل عندكم مملوك ؟ أو : سمعنا بان عندكم وديعة مملوك .. وانتهزوا هذه الفرصة فنهبوا دور الاعيان والوجوه الذين ليسوا بالطبع من الامراء المقصودين . وجردوها من الاموال والامتعة والملابس والرياش .

وظلت القاهرة عدة أيام كمدينة غزاها العدو عنوة واقتدارا ، اذ استباح أرواح سكانها وسبى نساءها واعتدى على عفاف بناتها ، الى ان بلغ عدد المنازل التى تمكــن الالبانيون من نهبها وسلبها زهـــاء خمسمائة بيت .

وخشى محمد على ثورة الشعب وانتفاضته ، فهبط من القلعــة ممتطيا صهوة جواده ، وحوله الحرس ، والجند مترجلين يلتفــون حوله ، ورجال الحاشية على الجانبين ، وكانت الفرحة تغمر وجوه الارناؤود ، اذ أفلحوا فى ابادة المماليك والسطو على ممتلكاتهم والاعتداء على زوجاتهم وبناتهم .

وسار محمد على الى دار الشيخ الشرقاوى وجلس عنده ساعة ، وكان قد لجأ الى كنف الشيخ كشافان من المماليك ، فتشفع الشيخ فى العفو عنهما وخاطب الوالى بقوله : لا تفضح شيبتى يا ولدى واقبل شفاعتى بالعفو عنهما .

فاجابه : شفاعتك مقبولة .

فاطمأن الشيخ الى هذا الوعد .. على ان الوالى لم يكد ينصرف ويؤوب الى القلعة حتى بعث فى طلب المملوكين ، فاعترض الشرقاوى على ذلك وقال : كيف يأخذهما وهما فى كنفى وتحت حمايتى وقد وعدنى بالامان .

فقال الرسول : انه يطلبهما لعرض بعض المناصب عليهما .

فخدع الشيخ ، وأمرهما بالمثول لامر الباشا ، وما أن وصلا الى القلعة حتى جز عنقيهما وأضيفا الى قوائم القتلى .

وبينما كانت هذه المجازر تجرى فى العاصمة اذ سارت النجب بكتب من الوالى الى عماله فى الاقاليم يأمرهم بقتل كل مملوك يقع بين أيديهم . فنفذ الحكام هذه الاوامر وتباروا فيمن يرسل الى القلعة أكبر عدد ممكن من الرءوس . واغتنموا هذه الفرصة للتخلص من خصومهم ولو كانوا من المواطنين ، ورموا أعناق الفلاحين الذين قصروا فى أداء ما يثقل كواهلهم من التزامات ، حتى بلغ عدد القتلى بضع مئات من المماليك والمواطنين .

• ● •

هكذا كانت خاتمة هذه الطائفة التى حكمت وادى النيل حقبة طويلة تزيد على قرون خمسة سجل التاريخ فى غضونها أن أفرادها فدوا الكنانة بأرواحهم وشادوا ببسالتهم مجدا لا يمحى، وأقاموا فيها أيام ازدهار دولتهم منارات للعلم والادب .

وهكذا كانت خاتمة البقية الباقية من جند بواسل خشى الحاكم الجديد بطشها فلجأ فى القضاء عليها الى أوضع ضروب الغدر والخسة . ودبر مذبحته الرهيبة التى ترتجف لذكرها الاوصال فرقا وتبارى السفاكون فى ازهاق أرواح فرائسهم والولوغ فى الدماء والتمثيل الوحشى ببقايا أجداثهم .

اما أسرار المؤامرة وخططها فلم يطلع عليها الوالى سوى أربعة من اصفيائه وهم : الكتخدا محمد أولاز أوغلى وكان بسليقته يبغض المماليك أشد البغض ، والسلحدار سليمان أغا ، وحسن باشا قائد الفرقة الالبانية ثم صالح أغا اق قوش من زعماء الارناؤود .

• ● •

بعد أن عرضنا مأساة مذبحة القلعة حسبما استقيصناه من الروايات والمصادر التى لا يرقى الشك اليها ، نريد ان نعرض أيضا

آراء المشايعين والمعارضين لنخلص الى رأى قاطع فى الموضوع .

يبرر أنصار محمد على هذه المذبحة بأن أمثالها كان مألوفا فى الشرق، وان الباب العالى هو الذى أمر تابعه بالقضاء على المماليك وابادتهم على أية صورة ، وان الباديشاه حاول التخلص منهم تدريجيا، فنشبت الحرب السرية بينه وبينهم ، وكان لا ينقطع أوارها ، وكان يعمد الى اغرائهم بقتال بعضهم البعض ، واثارة المنافسة بينهم ، وتدبير مؤامرات للفتك بهم ، بيد انهم كانوا على حذر وكان النصر بطبيعة الحال الى جانبهم .

وتذهب روايات أخرى الى ان المماليك كانوا يبيتون فى الخفاء مكائد الغرض منها اغتيال محمد على ، فاطلقوا عليه الرصاص مرة وهو يجتاز الاسواق ، وحاولوا اختطافه قبل وقوع المجزرة بأيام حين أوبته من مدينة السويس ، فقرر هو ان يتغدى بهم قبل ان يتعشوا به .

وترى فيلكس مانجن صديق محمد على ومؤرخ سيرته وعصره ، ان الفتك بالمماليك فيه كل الخير لمصر ، فان بقاءهم يفضى الى حروب هى أضر على البلاد من الايقاع بهم ، وان الباشا انما دافع عن سلامته وعن وقاية النظام الجديد للدولة .

اما محمد على نفسه فقد دافع عن موقفه أمام رهط من الاجانب حينما عدوا فعلته عملا منافيا للانسانية ، فأخذ هو يسألهم : أى الحادثين أدعى الى المؤاخذة ، القضاء على المماليك أم حادث اغتيال دوق دانجين (١) ؟

وهذه المقارنة نوع من التفكير السياسى المتأخر اذ لاوجه للمقارنة بين القضاء على جماعة غيلة وغدرا وبين الحكم على شخص واحد بقصد التشفى والانتقام .

---

١ — دوق دانجين من سلالة آل بوربون ، كان يقيم فى خارج فرنسا فى ايتنهايم بمقاطعة بادن بالالزاس . وكانت تطوف بذهن نابليون بونابرت فكرة الانتقام من الاشراف والامراء السابقين ، فبدأ بكبيرهم دوق دانجين واستدرجه الى باريس ، ثم لفق له تهمة التآمر ضد سلامة الدولة وعرشه . وحوكم الدوق أمام « لجنة عسكرية » دون أن يسمح له بالاستعانة بمحامين ثم حكم عليه بالاعدام فى قلعة فنسان فى مارس عام ١٨٠٤ . واهتزت أوربا للحادث واجتاحتها موجة من السخط على بونابرت الذى حاول أن يخفف عبء المسئولية عن عاتقه فزعم بأن اللجنة العسكرية تعجلت الحكم وأنه أصدر أمرا باجراء تحقيق دقيق .

ويسوغ المؤرخ ادوارد جوان رأيه بأن أمثال هذه الحوادث شائعة في بلاد الشرق وان مصدرها شهوات النفس ومطامحها . وان محمد على كان على وشك الدخول فى حرب ضروس فى بلاد نائية ، فاذا غاب الجيش استيقظ ذوو المقاصد والاطماع الشريرة من سباتهم وبثوا الفتن لتحقيق أمانيهم ، وأن الوالى الجديد وقى الكنانة من عبث الحوادث المقبلة وأحاط نفسه وأسرته بسياج من الطمأنينة والامن .

وقال مسيو دلابورت : ان الفتك بالمماليك خير ذريعة لقطع دابر الفتن والاضطرابات والجرائم .

وكذلك قال مسيو جومار الذى صار فيما بعد مديرا للبعوث العلمية المصرية فى فرنسا : لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لاحكام التاريخ القاسية .

ومما هو جدير بالملاحظة ان جميع الذين دافعوا عن مسلك محمد على فى ابادته المماليك هم من المؤرخين الفرنسيين ، وليس هذا بغريب ، فقد ظل المماليك أعداء فرنسا الالداء وظل محمد على صديقها الوفى .

وسنضرب صفحا عن آراء المؤرخين الانجليز ، بسبب المعاهدات السرية والصلات الوثيقة بين الطرفين ، واستمالة الانجليز الامراء المماليك بالهدايا والاموال ليعضدوا موقفهم السياسى من معارضة فرنسا أو الباب العالى أو مناهضة الوالى الجديد .

ونذكر ان الجبرتى وقد طوى من عمره قرابة عشرين عاما تحت حكم « النظام الجديد » كان مشفقا على حالة المماليك . فانكر على محمد على مسلكه الشاذ فى اغتيال « الامراء المصرلية » وأخذ يفصح عن أحقيتهم فى الحكم واعتبر محمد على ورجاله دخلاء على البلاد .

وقال المؤرخ الثقة عبدالرحمن الرافعى : ان الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة ، كان له أعمق الاثر فى حالة الشعب النفسية ، لان مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس ، وكان من نتائجها ان استولت الرهبة على النفوس ، وان ذلك أول النذر بانحلال الحياة القومية وفسادها . . والواقع ان مذبحة القلعة قضت على الروح القومية وأحلت مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على اكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين عاما التى قضاها فى الحكم بعد ذلك روح معارضة أو انتقاد . . .

ونحن نرى أمثلة متعددة من مذبحة القلعة :

«١» فان بطرس الاكبر أفنى جماعة الاستريلتز فى مذبحة أنكى وأفظع اذ فتك بنحو الالفين منهم .

«٢» وهناك مذبحة سانت برتلمى التى أزهق فيها الهوجنوت أرواح الالوف من الفرنسيين الذين دعوا الى الاحتفال بأميرهم هنرى دى نافار .

وفى عهد السلطان محمود ذبح بضعة الوف من الجنود الانكشارية دون ما شفقة ولا رحمة .

وفى اثناء الثورة الفرنسية قامت مذابح فظيعة فى كل من فرساى وريمس وليون واورليان ، وازهقت الوف الارواح ممن اتهموا بانهم مشايعون للملكية ، وتعرف هذه المذابح فى التاريخ باسم « مذابح سبتمبر » لانها جرت فى غضون هذا الشهر . .

وفى العصر الحديث أقام هتلر المذابح على نطاق واسع للانتقام من اليهود أو من خصومه البولونيين الى حد ان قدرت محكمة نورمبرج التى تألفت لمحاكمة مجرمى الحرب عددهم بقرابة مليون شخص .

وفى جميع الامثلة التى سردناها كان الحاكم الشرعى للبلاد يقيم

---

١ ـ استعان بطرس الاكبر قيصر روسيا بالقائد لوفورت على تنظيم فرق عسكرية على النظام الحديث تكون عونا له على فرق الاستريليتز التى كانت عثرة فى طريق الاصلاح ، كما كان شأن الانكشارية فى عهد السلطان سليمان القانونى ، فنظم فرقة معظم جنودها من الفرنسيين النازحين عن وطنهم وعددها اثنى عشر ألف نسمة . الا أن الاستريليتز انتهزوا فرصة غياب القيصر فى رحلة له فى عواصم أوربا فقاموا بفتنة وبثوا القلاقل والذعر ، وعندما آب بطرس الى عاصمة ملكه فى أواخر عام ١٦٩٨ دبر مذبحة قضى بها على الاستراليتز

٢ ـ كانت انجلترا كاثوليكية المذهب الى أن جاء الكاردينال ولسى واضاف الى السلطة الروحية التى يتمتع بها السلطة الزمنية ، فكان يتدخل فى شئون الجيش وموظفى الدولة ، مما أثار سخط الملك هنرى الثامن ، فطلب الى البابا اعلان الحرمان الكنسى للكردينال ، فلما رفض البابا هذا المطلب أعلن هنرى الثامن بأنه هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية .

وكانت هذه الظاهرة شائعة أيضا فى فرنسا ، فبعد ظهور كلفان ولوثر فى ألمانيا حاولت طائفة من المصلحين ، ومنهم سكان مقاطعة فانديه القيام بحركة مماثلة لقلب نظام الكنيسة وجعله بروتستانيا . وقامت السلطة الفرنسية الكاثوليكية ورجال الجيش بقيادة الجنرال كونيلييه بمذبحة مشهورة فى ليلة ١٣ مايو عام ١٥٧٢ ، أى فى ليلة القديس برتلمى ، فذبحوا البروتستانت خصوصا فى هذه المقاطعة ، وفر عدد كبير منهم الى الخارج وهم المسمون « بالهوجنوت » ، واستقروا فى هولندا وفى جنوب أفريقية ، كان هنرى دى نافار من ملوك الكاثوليك ، وهو المعروف فى التاريخ باسم هنرى الرابع .

المذابح لاغراب عن البلد الذى يحكمه ، أو للخوارج الذين يعملون على تقويض صرح نظام ارتضاه الشعب وأقره . ولكن المماليك لم يكونوا أغرابا عن مصر ، فطالما أبدوا شعورا قوميا يصلهم بثراها ، وهذا الشعور يتخذ أحيانا صورة بطولة عسكرية للدفاع عن ذمار الوطن ، وفى احيان أخرى ينصب فى صورة تشييد مساجد وزوايا وتكايا وملاجىء لايواء اليتامى وابناء السبيل .

وفضلا عن هذا وذاك فقد انطوت نفوس المماليك على الكثير من الحب لمصر والاخلاص لارضها الطيبة ، وليس أدل على ذلك من الحديث الذى يرويه الجبرتى على لسان الزعيم محمد الالفى ، حين شعر بدنو أجله ، فقد ارتقى ربوة على مقربة من قناطر شبرمنت ، ثم تطلع الى ناحية القاهرة وقال والحسرة تملأ جوانحه :

« يا مصر ، انظرى الى اولادك ، وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين ، واستوطنك أجلاف الاتراك واليهود وأراذل الارناؤود . وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .

وهى كما نرى حنين خالص لمصر واعتراف بأفضالها ، ورثاء لما صار اليه حالها ، وتكاد هذه النغمة القومية ، التى لم نسمع بمثلها فى أية دولة اسلامية أخرى ، أن تكون نغمة جديدة على الاسماع ، وهى الطابع المميز الذى يجعلنا ننظر الى المماليك نظرة خاصة .

وقد نشأ هذا الشعور فى قلوب المماليك من طول الفترة التى أقاموها فى أرض النيل ومن كثرة ما أصابوه من خيراتها ، ومن فرط ما ظلت عند حسن ظنهم فهى التى أمدتهم فى كل وقت بالمال وخلعت عليهم السؤدد والجاه ، واعزتهم ونصرتهم على اعدائهم . وقد دفعهم هذا الشعور الى النهوض بمرافق مصر ورفع المظالم عن شعبها ، والتعاون مع العلماء ومشايخ الازهر وهم حماة الدين وقادة الشعب على ما فيه الخير العام .

من ذلك لا يسعنا فى النهاية الا أن نكون عند حد آراء المؤرخين المنصفين وهو أن القضاء على المماليك عن طريق حاكم دخيل ، كان فيه القضاء على القومية المصرية وتمهيد السبيل لاقامة دولة أوتوقراطية قوامها الظلم واستبداد الحكام ومصادرة الارزاق وكبت الحريات .

جلاد الشعب

التحقق من بنوة ابراهيم ـ مجونه وعبثه ـ الفتك بعلماء الدرعية داخل المسجد ـ تشجيع تجـارة الرقيق ـ الخراب والدمار فى المورة ـ الشك فى كفاءة ابراهيم العسكرية ـ البواعث الحقيقية لغزو الشام ـ محاولة خلع السلطان ـ مصر ضيعة تتوارثها أسرة محمـد على .

كان ابراهيم رجل المتناقضات والمفارقات ...

كان مشهورا ، أحمق ، صلب الرأى فى غلظة وخشـونة ، متكبرا متغطرسا ، معتدا بنفسه ، قلما يستمع الى نصـيحة الا اذا وجد نفسه فى مأزق ، يبذل الوعود يمنة ويسرة ثم يتناساها ، ويعمد الى السخرية والاستخفاف بمن يلقاهم ، أو هو يخاتلهم ويخادعهم .

وكان اسم ابراهيم يثير الفزع والخوف ، فاذا غضب انطبع وجهه بطابع من الوحشية مخيف ، واذا انفعل خال من حوله ان رءوسهم سوف تضرب فى الحال .

وقد تضاربت الاراء حول بنوة ابراهيم ، فمن المؤرخين من يزعم بانه انحدر توا من صلب محمد على . ومنهم من يؤكد حسب الروايات التى استقاها من شيوخ قوله ، ومن المصادر التى لا يرقى الشـك اليها بان ابراهيم هو ابن على اغا الزوج السابق لامنة ، وان محمد على تبناه وعمره عامين عقب زواجه من هذه الارملة . ويؤكد فريق ثالث بان الفارق فى العمر بين محمد على وابراهيم اثنى عشر عامـا فقط . وليس فى قوله بطبيعة الحال من سجلات المواليد ما يرشدنا الى بغيتنا ، فقد كان الامر يجرى على حالة بدائية .

وصلت اسرة محمد على الى القاهرة فى أواخر عام ١٨٠٥ عقب اسناد الولاية اليه ، وكانت مكونة من زوجة آمنة وابراهيم واحمد طوسون واسماعيل كامل ، فخص محمد على طوسون بمنصب رفيع هو حاكم القلعة ، على حين أبعد ابراهيم الى بقعة سـحيقة وجعله دفتردارا على الصعيد .

وكان محمد على يخص طوسون بعطفه ورعايته ويميل اليه ، فظفر له برتبة الباشوية ذات الذنبين ، وعقد له لواء الحملة العسكرية على الوهابيين وعمره ١٦ سنة ، واسند الى ابنه الاصغر اسماعيل كامل مهمة قيادة الحملة التى سيرها الى السودان ، اما ابراهيم فظل على

حاله ، مقصيا فى أطراف الصعيد .

ولم يلمع اسم ابراهيم الا بعد عشر سنوات ، أى فى غضون عام ١٨١٦ بعد أن لقى طوسون حتفه فى قرية برنبال بالدقهلية ، اما اسماعيل فكان مصرعه فى بلدة شندى فى السودان عندما دبر له الملك النمر مكيدة انتهت باحراقه . هناك أراد محمد على ان يجبر خاطر الام الوالهة التى فقدت فلذتى كبدها فتبنى ابراهيم على اعتبار انه أقرب الناس اليه بعد ولديه طوسون واسماعيل .

أسند الى ابراهيم أمر الاشراف على جمع الضرائب فى الوجه القبلى ، فارتكب من ضروب القسوة المتناهية ما جعل أفراد الشعب ترتعد فرائصهم فزعا اذا ما ذكر اسمه . حدث ان هبط المنيا ليجمع ما يجده عند الفلاحين من محصول القمح والفول والعدس ، وكان المحصول لا يزال فى باطن الارض ، فضرب موعدا أقصاه ثلاثة أيام لجنى المحصول وتذريته وشحنه فى المراكب بالنيل . ونصب المشانق فى الاجران لاعدام كل من يتوانى عن تنفيذ أوامره . وأتى بأحد وجوه الاقليم فطرحه القواصة الاتراك أرضا وسط الجرن وضربوه ضربا مبرحا ليكون عبرة لغيره، ثم حملوه الى داره بين الحياة والموت . وكانت النتيجة أن هجر الفلاحون الحقول فى غسق الليل ، وفروا بنسائهم وأطفالهم الذين كثر عويلهم وصراخهم وهاموا على وجوههم فى العراء .

والى جانب هذه القسوة البالغة، البعيدة عن الانسانية، اشتهر عن هذا الجلاد خلاعته ومجونه ، فاذا أمسى المساء أقبل على مجالس الشراب والغناء حتى يطرد عن مخيلته أشباح القتلى والمعذبين الذين يطيح برءوسهم ظلما وعدوانا ، وكان لا يأنف من أن يشارك سماره احتساء النبيذ والتهام لحم الخنزير . . حدث فى ذات ليلة ساهرة أحياها فى قصره ، وكانت موائد الخمر مبسوطة ، والقيان يرقصن رقصات خليعة على نغمات الناى ، أن دارت الخمر برأسه ففك شال عمامته ، واقتدى به المدعوون ، وظلوا على هذا الحال الى الصباح ، فلما مضوا الى ديوان القلعة بدون شال العمامة ، صارت « موضة » واستغنى من ذلك الوقت عن ربط الطربوش العثمانى بالشال .

وكان فى جملة أفراد حاشيته شخص يطلق عليه اسم « جورنال افندى » لانه يأتيه بأنباء البيوتات ، ثم درويش خليع اسمه عثمان كفرى ، وكان لهما دالة عليه ، فهما يرفهان عنه بنكاتهما وأغانيهما ،

ففى ذات ليلة ثمل ابراهيم الى حد انه نسى فيه وقاره ، وشرع فى الغناء بصوت منكر ، فما كان منهما الا أن خاطباه بقولهما : ان أباك يقضى وقته فى الحظ ويتركنا هنا فى الهم ، فبقينا تحت يدك متحملين فى النهار الغبار والمطر والوحل ، ثم نفد فى الليل على مجلسك لنقنع ببضع لقيمات وبضعة كؤوس فى مقابل غنائنا ، فما معنى صراخك وما معنى غناؤك ؟ ارحمنا ولا تستكثر علينا ما نزدرده وما نشربه ولا تجبرنا على افراغ ما فى جوفنا ، واذا كنت لا تتوب عن فتح فمك بالغناء فلن نرفع أصواتنا بعد الليلة !

وعلى الرغم مما اشتهر عن ابراهيم من قسوة بالغة فقد أبدى الندم على ما بدر منه وأرضاهما بقوله : تبت والف مرة !!

وقال له محمد على مرة :

ــ سمعت بأن لديك درويشا لطيف المعشر اسمه كفرى فارسله الى ليرفه عنى .

فكان جوابه : ان هذا الدرويش خليع وليس له مكان فى مجلسك !

• ● •

كان الثمن الذى طلبه الباب العالى الى محمد على لقاء تثبيته على الولاية ، نجدته بحملة عسكرية تخضع الوهابيين الذين عظمت شوكتهم فسيطروا على أرض الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين ونادوا بحركة تمرد على الدولة العلية والخروج على طاعتها .

وأخذ محمد على فى تجهيز الجند واعداد المعدات وعهد بالقيادة الى طوسون ، وكان حدثا دون العشرين من عمره ، وليست له أية ثقافة عسكرية ، ولذلك لم يكن من السهل عليه ان يقود الجيش فى معركة الى النصر . . وكانت النتيجة انه فشل فشلا ذريعا فى مهمته وأصيب الجند بالهزيمة تلو الاخرى . ثم قدم طوسون للترويح عن نفسه على أثر حركة تمرد بين الجند الارناؤود وسافر الى بلدة برنبال فى الدقهلية ، وعقب ليلة تعاطى فيها كمية من المخدرات قضاها فى أحضان جارية جركسية أراقت حيويته أصيب بهبوط فى القلب ، وقيل تمويها انه طاعون أو كوليرا أو حمى شوكية ، وفاضت روحه بعد ساعات . وولى ابراهيم بعده قيادة الحملة ، ولم تكن له هو الاخر أية دراية بالمعارك ولا بالحروب ولكن كانت الى جانبه هيئة أركان حرب من الاوربيين تدير دفة الحرب ، واستطاع الجيش بعد ان أعيد

تنظيمه وفق الإساليب الحديثة أن يقهر الوهابيين فى عدة مواقع وان يكتسحهم من الاراضى التى احتلوها وأنعم الباب العالى بهذه المناسبة على ابراهيم بلقب « خادم الحرمين الشريفين » ، وكان الاصح ان يسمى « بخادم الفرنسيين » فقد كان أمينا مخلصا لمصالحهم وكان لا يخرج عن كونه دمية تحركها أصابع الاستعمار من وراء ستار .

وارتكب ابراهيم فى الاراضى المقدسة ضروبا من الوحشية لا يمكن لقائد مسلم ان يفكر فى ارتكابها ، ونشر الخراب والدمار فى كل بقعة حل بها . فأهلك الحرث والنسل ، وضرب شيخ العلماء الوهابيين بالسوط على وجهه بعد أن بصق عليه وخاطبه بقوله : ما رأيك ايها الخنزير فى الجنة وما عرضها ؟ وجعل المذهب الوهابى مثار تندره وسخريته ، ولما ضاق بالعلماء وشيوخ الدين ذرعا أمر بهم فجمعوا فى مسجد الدرعية ثم رمى اعناقهم جميعا وكان عددهم يفوق الخمسمائة عالم ولم تمض دقائق حتى كان المسجد مقبرة للقتلى من الفقهاء وفحول العلماء .

• • •

وأراد محمد على أن يحصل على رجال يصلحون للجندية بعد أن أفنى شباب مصر فى الحروب وصنوف السخرة وبعد أن حصدت الاوبئة أرواحهم حصدا ، وكان قد سمع أن فى السودان رجالا أشداء، وأن فيه مناجم للذهب والفضة وأسواق عامرة بالرقيق ، ولما كانت لديه فكرة التخلص من الضباط والجند الارناؤود الذين رفعوا من شأنه ونبهوا ذكره فقد سيرهم فى حملة عسكرية الى السودان . ولم تكن هذه الاراضى داخلة تحت راية الخليفة العثمانى حتى يزعم الباب العالى بأن تابعه فى مصر قد اعتدى على شبر منها .

وسارت الحملة بقيادة اسماعيل كامل ، وكان شابا مفتونا مغرورا، ورافقه نفر من العلماء الافرنج لدراسة السودان من نواحيه الاقتصادية والنظر فى طرق استغلاله ، وحملة أخرى من رجال الدين للاتصال بالعلماء والشيوخ . كما فعل نابليون بونابرت عند ما قدم الى وادى النيل وفى ركابه رجال البعثة العلمية ، مما يدل على ان محمد على كان يسير على هدى الفرنسيين ويتبع مشورتهم فى كل خطوة يخطوها

وأتى اسماعيل كامل من ضروب الحماقة واستفزاز شعور الشعب السودانى ما حمل الملك النمر على ان يدبر مكيدة له وان يوقعه فى الشرك واحرقوه حيا فى شندى . اما الفظائع والموبقات التى ارتكبها

جند اسماعيل فهى التى لا يزال اخواننا السودانيين ينسبونها خطأ الى المصريين مع أن الجيش الذى ارتكبها كان مؤلفا من شراذم مرتزقة وليس من بينها مصرى واحد .

وهال محمد على مصرع ولده فأوفد صهره محمد الدفتردار الى السودان ليتولى بنفسه الانتقام ، فطلب أولا دية قدرها بعشرين الف رجل حصدهم بالرصاص ، ولم يتورع ابراهيم عندما تولى زمام القيادة عن ارتكاب سلسلة من المآثم وضروب الوحشية ، وعمل على تشجيع النخاسة وافتتاح اسواق جديدة للرقيق ، واستولى على خيرات السودان مما حمل مشايخ القبائل على عدم التعاون معه .

على ان فتح السودان بدد أحلام محمد على فلا هو عثر على الشبان الذين يصلحون للجندية ، ولا على مناجم الذهب والفضة المنشودة ، وانما قبض جنده على الالوف من السودانيين وساقوهم قسرا الى مصر للخدمة فى الزراعة واستصلاح الاراضى .

• ● •

وكانت بلاد اليونان مهد الثورات والفتن ، فأراد البـــاب العالى الانتقام من شعبها متذرعا بحجة القضاء على أعمال القراصنة الاغريق ، فطلب الى محمد على فى عام ١٨٢٤ ان ينجده بحملة عسكرية تؤدب العصاة ، ولبى محمد على الدعوة وأسعف سادته وأولياء نعمته بعمارة بحرية ضخمة بقيادة ابراهيم ، وما كادت الحملة تهبط أرض المورة حتى عمد الجند الى السلب والنهب والتنكيل بالابرياء ، وشق بطون الحبالى وقتل الاجنة ، واكراه النساء على اتيان الفاحشة أمام أعين أزواجهن .

وهبت اوربا لنصرة شعب اليونان ، واجتاحت قواتها الاراضى التى يحتلها جيش ابراهيم ، وعمدت الى احراق الاسطول المصرى فى مياه نافارين . ثم جاء الانجليز وساوموا ابراهيم على الانسحاب من المورة فى مقابل أن يفوز بنصيب من الجزية التى ستفرض على اليونانيين وأن يضمنوا له ولاية الشام واعلان استقلاله عن الدولة العليـــة . وخدع ابراهيم بهذه الوعود البراقة فسحب بقايا حملته العسكرية من المورة دون أن يحصل على الاذن بذلك من السلطان الذى يحارب بأمره وتحت رايته وبذلك خان سيده وكشف جناح القوات التركية ليكر الحلفاء واليونانيون عليه .

على ان كفاءة ابراهيم العسكرية مشكوك فيها ...

ونستشهد بما كتبه الكولونيل بريبه من ضباط أركان حرب الجيش المصرى ، اذ قال : « كان يبتعد عن العمليات الحربية الواسعة النطاق ، ولا يمكنه ان يفقه الخطة المرسومة لحملة من الحملات مع ما تشمله من ترتيبات فى فنون الحرب والحركات العسكرية .. وكانت الحرب التى يفهمها هى التقدم بجيشه فى غير ما هوادة نحو العدو ، والضرب بالسيف عند مجابهة الصفوف الامامية ، وقيادة جماعات غير منظمة من الفرسان ، واستخدام سيفه فى ابادة الذين لا ينجح فى اعادتهم الى الصفوف . وكان شعوره الفطرى بالنقص من حيث فنون الحرب ، بالنسبة الى قواد جيشه من الاوربيين يحمله على اظهار الازدراء نحو النظم العسكرية الحديثة والترفع عن الاقبال عليها » .

والواقع ان سليمان الفرنساوى كان روح الجيش والهامه ، وكان القائد الوحيد الذى فى وسعه السير بالجند قدما نحو النصر ، اما ابراهيم فقد لبس مسوح البطولة ونسب الى نفسه انتصارات لم يحرزها .

• • •

ومنذ عام ١٨١٠ كانت تطوف بذهن محمد على فكرة غزو الشام ليولى ابنه طوسون حاكما على عكا . وكان على استعداد لان يضحى بمبلغ جسيم من المال للباب العالى فى سبيل ان يظفر بذلك . غير انه لم يصبح فى وسعه تنفيذ هذه الفكرة الا بعد عشرين عاما اذ كانت قواته العسكرية منصرفة الى محاربة الوهابيين فالسودانيين فالكريتيين فاليونانيين .

وأخيرا سنحت الفرصة فى عام ١٨٣١ عندما تحرش بعبد الله الجزار والى عكا ، فطلب اليه دفع مبلغ مائة الف جنيه وطرد أكثر من ستة الاف فلاح فروا من مصر ولجأوا الى كنفه . فأبى الجزار ان يمتثل لهذا الطلب متذرعا بأن المصريين من رعايا الدولة العلية ومن حقهم ان يقيموا حيث شاءوا فى الاراضى التى ترفرف فوقها راية السلطان ، وانه اذا أراد طرد المصريين واجبارهم على العودة فعليه استصدار فرمان بذلك من الباب العالى .

وحنق محمد على من هذا الرد المفحم وهدد الجزار بانه سوف يزحف اليه بجيشه لتأديبه واعادة المهاجرين الى قراهم .

وقبل الزحف الى الشام استصدر فتوى دينية من العلماء بتكفير عبد الله باشا الجزار — وكان فى الاصل مملوك مجرى ثم اعتنق الاسلام — ومروقه عن قواعد الشرع ، وخروجه على طاعة السلطان.

هذه هى الاسباب الظاهرة لغزو الشام، اما البواعث الخفية فترجع الى طموح محمد على فى توسيع دائرة حكمه ، والحصول على موارد مالية بسبب فشل سياسته الاقتصادية فى الاحتكار ، وعلى أخشاب الارز من لبنان لبناء أسطول يحل محل الاسطول الذى دمر فى نافارين . وعلى انتاج مناجم الفحم الحجرى والنحاس فى منطقة قرنايل بلبنان ، وأخيرا الحصول على رجال يصلحون للخدمة العسكرية بعد ان افتقرت مصر الى شبان جدد .

وفى خريف عام ١٨٣١ سارت الحملة العسكرية بقيادة ابراهيم وهيئة أركان الحرب الاوربية ، فاستولت على الجزء الجنوبى من الشام المعروف باسم فلسطين وذلك بتأثير خيانة الامير بشير الشهابى ثم واصلت الزحف الى سهول لبنان فسورية ، وتوغلت فى بطاح الاناضول .

وكانت الدولة العلية من الضعف بحيث لم يمكنها وقف الجيش الزاحف ، وكانت الخيانات يتراكم بعضها فوق بعض ، وركب الغرور ابراهيم وصور له خياله أن يواصل الزحف الى استامبول توطئة لخلع الخليفة واقامة حكومة جديدة ، وسعى فى الحصول على فتوى شرعية تبرر له ما انتواه من شر ، ثم أمر باسقاط اسم الخليفة من خطبة الجمعة واستعدى عليه نصارى الشرق وامتنع عن دفع الجزية السنوية . وهبت الدول الاوربية توقفه عند حدود مطامعه ، فسخر فى بداية الامر من حركتها وأجاب متهكما : انى أضع هذه الدول التى تناصر الخليفة فى علبة سعوطى .

اما السلطان فلم يكن يملك من سلطات سوى ان أمر بعقد مجلس شرعى للنظر فى عصيان محمد على وابراهيم وخروجهما على طاعته ومحاربتهما فى أراضيه واعتدائهما على حقوقه الشرعية . وقد عقد المجلس فى يوم ١٦ ذى القعدة عام ١٢٤٨ « ٢١ سبتمبر ١٨٤٠ » فحضره ثلاثة من المفتين واربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من ائمة القصر السلطانى ، وشيخا جامع اياصوفيا وجامع السلطان احمد . ورسم السلطان بتوجيه الاسئلة التالية :

— ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة أمير المؤمنين

وخليفة رب العالمين ؟

الجواب على ذلك : قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة .

ـ وما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن اليه وأتم نعمته عليه ، فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الاحقاد وأيقظ الفتنة النائمة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرا أو خرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين .

الجواب على ذلك : يجرد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته للوحوش البرية أو الى طيور الفلا وهذا جزاؤه فى الدنيا ، وفى الاخرة الخزى والنار الآكلة .

ـ هل يكون الخليفة مسئولا عن دم ذلك المارق أمام الله والناس ؟

الجواب على ذلك : لا جناح عليه ولا تثريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين الحنيف .

وبعد ان اختلى المجلس ساعة أصدر الحكم التالى :

« حيث قد ثبت خروج محمد على وابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وابراهيم من جميع الرتب والمناصب وألقاب الشرف الممنوحة لهما ثم بالقصاص منهما قتلا مع سائر من يشاركهما فى هذا العصيان والخروج على طاعة السلطان » .

• ● •

وارتكب ابراهيم فى أراضى الشام الفظائع نفسها التى ارتكبها فى حروبه السابقة ، فثقلت وطأته على الرعية وابتذل أقدار الرجال ، وفرض شتى ألوان الضرائب على الفلاحين ، واحتكر صناعة الحرير والمحصولات الزراعية ، وكان لضريبة « الفردة » تأثيرها السىء فى النفوس ، بحيث كانت كل قرية مكلفة بدفعها عن جميع الذكور البالغين فوق سن الثانية عشرة ، ولو نقص عدد الذكور فيها بسبب الهجرة أو المرض أو الموت ، وأن يوزع المبلغ المطلوب على من يوجد من الرجال فى القرية . وكان يصحب تحصيل الضرائب سوء المعاملة وابتزاز مبالغ اضافية تحت ستار حجج واهية ، وتقديم هدايا فى

المواسم والاعياد الى جباة الضرائب ، وتسخير العمال فى المصانع ، وقطع الاشجار من الغابات ونقل الفحم من المناجم .

وعمد الى تجنيد الشبان بالاكراه ، فكان الضباط يسوقونهم كالانعام مكبلين فى القيود الى القاهرة مما دفع الوف الشبان الى الفرار والاعتصام بالجبال .

وآذى المسلمين فى شعورهم الدينى بتشجيعه افتتاح الحانات ، والسماح للمقاهى بتقديم الخمور لروادها ، واحتكار صناعة تقطير العرقى والنبيذ ، والاستيلاء على الآلات والمواعين المعدة لصنعها وحفظها ، وسلب ما كان مخزونا منها فى البيوت للاستهلاك الشخصى.

وكان من الطبيعى ان تدفع هذه المظالم شعب الشام الى الثورة والتمرد ، ومما زاد فى تأجج نار الفتنة ان قنصل انجلترا كان يتصل بالزعماء ويمدهم بالمال والسلاح ، ثم تآلبت الدول الاوربية على مصر ووقفت الى جانب السلطان واجتمعت كلمتها على اخراج القوات المصرية من أرض الشام .

وارادت فرنسا التى كانت تشمل محمد على بحمايتها أن تنقذ الموقف بطريقة ما ، فاقترحت منح ولايتى مصر وعكا الى محمد على وذريته من بعده ، مقابل سحب قواته من الولايات العثمانية ، ولكن الباب العالى عارض ذلك وطلب أن يكون الجلاء غير مقيد بشروط .

وفى ٢٢ مايو ١٨٤١ تم الاتفاق على أن تصبح مصر ولاية وراثية فى أسرة محمد على ، وحددت الجزية بثمانين ألف كيس سنويا ، وبانقاص عدد الجند الى ثمانية عشر الفا ، ومنح الوالى الحق فى منح بعض الرتب .

وانهارت آمال محمد على فى التوسع والفتح ، ثم اضطربت قواه العقلية ، الى ان عزل وتولى ابراهيم الحكم ، غير أن ولايته لم تدم طويلا ، فقد كان لادمانه على الشراب وأفراطه فى الشهوات تأثير بالغ على حياته ، وكان أقل حادث يهيج أعصابه ويدفعه الى البطش بمن حوله ... حدث أن تأخر مرة المركب الذى يقله فى طريق عودته من استامبول بسبب هبوب العواصف والانواء . وصورت له أوهامه أن الملاحين يتأمرون عليه وانهم بسبيل اهلاكه فأمر باغراقهم جميعا . وكان نوبار برفقته فتمكن بدهائه من أن يسكن ثورة غضبه ولولا ذلك لاصبح ضباط المركب والنوتية طعاما للاسماك .

وتمكن وهو فى المورة من أن يأسر بضعة ألوف من الاطفال والصبيان الذين تركهم اباؤهم فى القرى بعيدين عن مواطن القتال . فحملهم الى مصر ووزعوا بوصفهم أرقاء على قصور الحكام ، وفرض على الاخرين الاقامة فى قرية عرفت باسم « الابراهيمية » بالشرقية . وهؤلاء الاطفال الذين انتزعوا من بين أحضان ذويهم ونشأوا وترعرعوا على ضفاف النيل خصوا فيما بعد بأرفع مناصب الدولة وصار منهم الباشوات والوزراء والحكام .

وأصيب ابراهيم فى أواخر أيامه بالارق ، اذ كانت أشباح القتلى تقض مضجعه ، فلا يستطيع الى النوم سبيلا ، وصار يغرق همومه فى الخمر يعب منها الى أن يغيب عن وعيه ، وعند ما لفظ انفاسه على اثر ليلة شديدة الحرارة ، وأسرف فيها فى احتساء شراب الشمبانيا المثلجة ، أشيع بانه مات فى حالة غير طبيعية ، وان بعض أفراد الاسرة الذين كانوا ينظرون اليه على انه حاكم غير شرعى وانه ليس من صلب محمد على ، قد سلطوا الخدم لدس السم له فى الشراب .

الوالى المجنون

نشأة عباس الاول ـ عداؤه لافراد أسرته ـ اتجاهه الى السياسة البريطانية ـ غلقه المدارس والمعاهد والمصانع ـ نفى الاجانب ـ موقفه من الشعب ـ بوادر جنونه وهوسه ـ مصرعه

تعود المصريون ألا يروا من عباس الاول سوى المخازى والآثام ، والتخريب والقضاء على آثار العمران ، وبث الرعب والهلع فى النفوس ، وتشريد المواطنين ودفعهم الى السخرة ، ونفيهم الى أقاصى الجنوب وأعالى النيل ، وكان الموت هو الدواء الوحيد لمن يحيق بهم غضبه أو نقمته .

ولم يكن ذلك الوالى يمتاز بأى ضرب من ضروب الاصلاح ، بل بالعكس عاد بمصر القهقرى وأسلمها الى الجهل والفوضى والظلام ، وصبغ الطرق بدماء الابرياء من ابنائها ، وكانت ولايته شر الولايات فى تاريخ مصر ، اذ أخرها عن طريق الرقى أجيالا طويلة ، وكان صنوا للحاكم بأمر الله وكافور الاخشيدى ومراد وغيرهم من الطواغيت الذين كان حكمهم اذلالا للكنانة .

وعباس الاول هو ابن طوسون بطل مذبحة المماليك ، وقائد الحملة العسكرية الى الحجاز ونجد ، ولد فى مكة ، وكانت جدته لا تزال على قيد الحياة ، بعد أن فقدت ولديها : طوسون واسماعيل ، فوجدت العزاء فى حفيدها عباس وانشأته مدللا منعما ، الى حد أن محمد على وابراهيم لم يمكنهما الاشراف على تربيته وتعليمه . فتركا الامر لها لتسلمه بدورها الى طائفة من الاغوات والخدم الجهلاء الذين تكتظ بهم القصور عادة . وكان على رأسهم « لاله » أبو كلبه فأفسد تربيته ، وصار يهمس فى أذنه بين وقت وآخر بأن والده مات مسموما ولم يمت موتا طبيعيا ، حتى امتلأ قلب الصبى حقدا على ابراهيم ومحمد على .

وشب عباس عن الطوق فأراد جده أن يدربه على الاضطلاع بشئون الادارة ومهام الحكم ، فقلده منصب مدير الغربية ثم حاكم القاهرة ، فكانت تصرفاته تنم عن القسوة والبطش والتنكيل بالمواطنين . . . حدث أن بعض الفلاحين فروا من شدة ما حاق بهم

من ظلمه الى مديرية البحيرة ، فتلقاهم مديرها وأعادهم الى الغربية بعد أن شـفع لهم ، فما كان من عباس الا أن أوقفهم فى مكان ما وجعلهم هدفا لقذيفة مدفع وذبح بعضهم كما تذبح الانعام .

وكانت الحكومة تحتكر صناعة الغزل والنسيج ، ولكن بعض الافراد ممن كانوا يسعون الى أرزاقهم عكفوا على صنع الغزل خفية على أنوال يدوية فى منازلهم . فلما اتصل أمرهم بعباس جمعهم ولفهم فى القماش المضبوط على أنوالهم بعد أن لوثه بمادة القطران ، ثم أشعل النار فيهم عقابا لهم على مخالفة أوامر الحكومة .

وكذلك حدث أن ألحق عيسى أغا خباز محمد على بخدمة عباس فى مقره بطنطا ، فبعث بشكوى الى ولى نعمته يتظلم فيها من مسلك حفيده الذى لم يرقه الخبز فاستل سيفه وقتل مساعد الخباز . وأرسل محمد على الى وكيل مديرية الغربية يقول :

« لقد تأثرت من مضمون الشكوى ، وسبق أن أمرت حفيدى بعدم الغدر بالاهالى ثم يطلب الوالى أن يوقظ وكيل المديرية حفيده وأن يلقى عليه درسا ، والا فانه سوف يمحوهما ويزيلهما من الوجود معا » .

وظل محمد على طول حياته يلعن حفيده ويصفه بأنه متطبع بطباع الحيوانات المتوحشة .

وشرع عباس فى تشييد قصر له على حافة بركة الازبكية بجوار جامع الكخيا وجمع أعوانه من جماعة المقدمين الاتراك يحملون العصى والاسواط . يسومون بها العمال والصناع من النحاتين والبنائين والنجارين والفعلة الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب ، وبدأ العمل فشيدوا السور من الحجر الاحمر ، واتفق أن مر عمه ابراهيم يوما بالازبكية فصافح أذنيه من صياح العمال وجلبتهم ما أثار دهشته ، فلما سأل عن أمرهم ، قيل أنهم صناع وفعلة يعملون فى بناء قصر الامير عباس فسار صوب القصر وشاهد من أمر هؤلاء العمال وما يقاسونه من العذاب ما هاله ، وبعث فى الحال الى عباس من يطلب اليه ترك العمل وصرف العمال بالحسنى .

وكانت أمثال هذه التصرفات التى تنم عن القسوة والضراوة والاستبداد تصل الى سمع الوالى فينهى حفيده عنها ويحذره

عواقبها ، ولكن نفس عباس جبلت على الشر والاذى فلم يكن بحاجة الى زجر أو ردع .

وكان عباس يرى أنه أحق بالحكم من ابراهيم الذى ليس من صلب محمد على ، فلما ولى ابراهيم الحكم وأقيمت حفلة تلاوة فرمان التولية فى القلعة ، التفت ابراهيم الى من حوله وقال لهم : يبدو لنا أن عباس بلع حبة منجم ؟

وبعد أيام استدعاه وخاطبه فى سخرية لاذعة : ياعباس افندى . لقد سبق لك أن حججت ولكن على الطريقة الشامية !

فأدرك عباس من ذلك انه غير مرغوب فى وجوده ، وانه يجب عليه أن ينزح الى الاراضى الحجازية ، وكانت تحت الحكم المصرى ، واضطر الى اقتراض مبلغ من المال من شخص أرمنى اسمه يعقوب، بفوائد باهظة .

وكانت والدة عباس لا تفتأ تبكى وتولول عقب نفيه . الىأن لزمت الفراش ، فكان ابراهيم يواسيها بقوله : لا تتكدرى ، وسأعمل على احضاره قريبا ؟

وفى الحجاز اقترن عباس بكريمة أحد شيوخ نجد ، ثم اتصل به نبأ وفاة ابراهيم بعد أشهر قلائل ففرح عربان البادية وأقاموا له سلسلة من الحفلات والمآدب . ووصل الى القاهرة مع عروسه النجدية ، وأقاما فى قصر الحلمية ولكن طقس القاهرة لم يوافق مزاج زوجته ، فشيد لها قصرا أطلق عله اسم « الدار البيضاء » فى منتصف الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ، وكان هذا الحادث مثار تندر سكان القاهرة وموضع نكاتهم ، ووضعوا سلسلة من الاغانى الفاضحة عن غرام البدوية .

• ● •

كان من الطبيعى وقد ولى عباس الحكم أن ينفر من أعوانابراهيم، ومن الذين كان يعتمد عليهم فى ادارة دفة الحكم ودولاب العمل . ورجال ابراهيم هم بعينهم رجال محمد على ، وبعضهم منأصحاب الرأى والكفاية لا سيما الخبراء الاجانب . وأقصاهم عباس واختص نفسه بقوم من غير ذوى الكفاية . وسلم اليهم مقاليد الامور ، فعملوا لانفسهم على حساب الشعب ولم تلبث شئون البلاد أن ساءت واضطربت ، وتدهورت مرافقها فى كل ناحية .

وقد قضى عباس عى جميع أسباب الحضارة والعمران فأغلق المدارس ومعاهد العلم والمصانع ، ولكنه اضطر الى الاحتفاظ بالجيش تلبية لمطالب الباب العالى من ناحية وللدفاع عن نفسه مما كان يهدده من الاخطار التى صورها له المنجمون من ناحية أخرى .

والواقع أن عباس كان شخصية غامضة معقدة ، صورت له أوهامه أن أعداءه يحيطون به من كل ناحية ، واشتدت رغبته فى التعرف الى أحوال الناس والوقوف على أسرار البيوت فخصص لهذه الغاية عددا من الجواسيس ، يأتونه بالانباء المقلقة ليباعدوا بينه وبين الشعب ويصبحوا هم موضع ثقته ومرجع اعتماده .

وأطلق أيدى أعوانه يتجسسون على أفراد الشعب بالحق والباطل، فعمت الشرور واستشرى الفساد ، وأصيب الاخيار بالمصائب ، حتى أصبح خدم القصور جواسيس على أوليائهم . وكان الخادم مكلفا بأن يبلغ « شيخه » فى كل يوم أنباء البيت الذى يخدم فيه . وويل للسيد الذى يغضب عليه خادمه ، فقد كانت أقل وشاية من الخادم تكفى للقبض على رب البيت وتكبيله فى القيود الى حيث السجن والتعذيب ، وكم من أبرياء ذهبوا ضحايا أوهام عباس .

وحمله التطير والخوف على حياته الى الاكثار من شراء المماليك والاماء السود ، واقامة طوائف من الاتراك والالبانيين يحرسونه نهارا ، واخرين يسهرون ببابه ليلا ، وأطلق على هذه الفرقة اسم « الاورطة المفروزة » .

وكان على كثرة بطشه وقشوته يخاف من كل من يدنو منه ،فاذا سار بموكبه أحاط به حرسه الحديدى احاطة السوار بالمعصم ،فاذا رابهم من أحد فى الطريق غمامة شك مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط وربما فتكوا به .

وعطف على عربان قبيلة الهنادى فى الشرقية ، فكان يكثر من الاقامة فى مضاربهم ، وأولاهم ثقته وسلمهم ابنه الهامى لتنشئته على طباع أهل البادية ، وأغرت هذه الصلة ، عربان الهنادى بالاعتداء على السكان الامنين وسلب أقوات الفلاحين واثقال كواهلهم بالاتاوات .

وكان مولعا باقتناء الحيوانات الكاسرة وكرام الخيل ، ويميل الى مطاحنة الديوك والكباش ، وعندما يشخص الى الاسكندرية أو الى

كفر مجر يبعث فى طلبها فتشحن اليه فى النيل .
زاره يوم قنصل فرنسا ، وفيما هو جالس فى قاعة الاستقبال فى انتظار الاذن بالمقابلة ، اذ اقتحم القاعة أسد ، فجزع القنصل أشد الجزع ولم يجد وسيلة ما سوى أن يتسلق النافذة متشبثا بسجوفها ، ودخل الوالى القاعة وتطلع يمينا وشمالا دون أن يجد القنصل ، وأخيرا اهتدى الى مخبئه ، وقد سأله : ما باله . فأجابه بأنه يخشى الاسد . فقال له : ولكنه أليف لا يؤذى . فكان جواب القنصل : عفوا أيها الامير ، فما تعودت معاشرة الوحوش .

• • •

توغل عباس منذ صباه فى مطالعة مؤلفات السحر والتنجيم والشعوذة ، فصادفته يوما جملة ظنها امرا ادا ، وهى : « ويقتل عباس بالحديد » . ولما لم يفهمها على حقيقتها استدعى شخصا من حاشيته اسمه منتظر ، وكان كل شىء فى قصره ، وكانوا يدعونه « شيخ أفندى » سأله عن المعنى ، فأجابه :

ــ أجل يا مولاى ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، والسلاح يصنع من الحديد ، ومعنى « يقتل عباس بالحديد » أى أنه سيتولى الحكم ويحكم ... وهذه الاسرار يكتبها أصحابها بالرموز ولا يفصحون عنها ، والناس تقرأ كلمة « يقتل » بصيغة المجهول ولكن الحقيقة أنها تقرأ بصيغة المعلوم .

وتطرف الشيخ فى سرد حججه حتى انه طلب الى الوالى أن يكون على رأس حكومته شخص يبدأ اسمه بحرف السين ، فولى عباس من يدعى « سليم بك » وكيلا لديوان الكتخدا .
وجاءه أهل العرافة يوما وقالوا له :
ــ انا نخاف عليك من رجل طويل القامة ، أسمر اللون ، شكله كذا وكذا ...

وكانت هذه النبوءة كافية لاضطرابه وخوفه ، فأمر بالمنجمين وضراب الرمل وأصحاب اليازرجة والدجالين ليجمعوا فى صعيد واحد وأقلتهم مركب فى النيل الى أقاصى الجنوب .
وكان يبغض النصارى ، فأخرج منهم من كان يتولى منصبا حكوميا ونالهم أذى واضطهاد شديد . ولما ثار غضبه عليهم أصدر

أمرا باخـراج جميـع المسيحيين من الاراضى المصرية ونفيهم الى السودان . فجاءه الباجورى شيخ الجامع الازهر ، وكانت تربطه به صلة سابقة اذ كان عباس يشهد دروسه فى الازهر ويستمع اليها برغم انه لا يعرف العربية . وقال له الشيخ :

ـ الحمد الله الذى لم يطرأ على ذمة الاسلام طارىء ، ولم يستول عليه خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته الى اليوم الاخر ... فلماذا هذا الامر الذى أصدرته بنفيهم ... واذا كنت تعنى النصارى من الافرنج النازلين بلادنا فانى أخاف ان فعلت بهم شرا أن يحل ببلادنا ما حل بالجزائر على أيدى الفرنسيين .

فغضب عباس وقال لاتباعه : خذوه عنى ...

فقال الشيخ وهو ينهض : أى ويعلم الله ... أى ويعلم الله !!

واستدعى مرة الشيخ محمد العباس المهدى مفتى الديار المصرية ، وأراد أن يحمله على اصدار فتوى يملك بموجبها ما فى أيدى أسرة محمد على ، قائلا : ان جدى قـدم الى مصر لا يملك شيئا ، فكل ما خلفه لذراريه انما هو من مال الشعب ويجب استرداده ووضعه فى يد أمينه المتولى شئونه .

فلم يوافقه المفتى وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده الى أن طلبـه بعد أسابيع الى بنها ، فسافر الى هنـاك وهو موقن بالهـلاك ، وكان يرافقه فى هذه السفرة زميـله الشيخ ابو العـلاء الخلفاوى . فلما وصلا قصر بنها ، راجعه عباس فى الفتوى فأصر على رأيه الاول ، وهنا أمر عباس بانزاله الى مركب تقله الى قلعة ابى قير ، واعترى الشيخ زحار كاد يقضى عليه .

وسلط عباس شروره على أفراد أسرته واغتصاب ما فى أيديهم . وكانت زهرة ابنة محمد على وزوجة محمد الدفتردار هدف نقمته اذ كان يبغض قرينها منذ حداثته ، فدبر مؤامرة لاغتيالها ، غير أن بعض جوارى قصرها يسرن لها مهمة الهرب عن طريق سرداب ثم غادرت مصر خفية الى استامبول للاستيطان بها .

• ● •

وكان عباس كما بينا ضعيف الرأى ، كثير الاوهام ، جاهلا ، يكره العلم ويمقت المتعلمين ويزدرى بهم ، فكان من شأن هذه الصفات

أن تجمع ببابه أصحاب السعاية والوشاية والنميمة ، فيأخذبأقوالهم ويعمل بمشورتهم .

وعندما ولى الحكم أخذ المنافقون يبلغونه أسماء الذين حزنوا على موت ابراهيم والذين كانوا يصرخون فى الجنازة صائحين : « تيتمنا يا أفندينا » فأمر باقصائهم عن مناصبهم .

ومن شذوذه أنه أطلق على نفسه لقب «عباس خير الناس» وكان يوقع بهذا اللقب على المراسلات الرسمية ، ثم حاول ان يتخذ لنفسه لقب « الآصفى » بدلا من « الوالى » لان اللقب الاول مأخوذ من الفارسية بمعنى « حاكم مستقل » .

وكثيرا ما كان يغضب لاتفه الاسباب ويسترد ما وهبه من أرض وعقار . ويضع المسلوب فى زى السياس ويذله بالخدمة فى الاسطبل الى أن يضطر المغضوب عليه الى الانتحار . وكان اذا عاد وعفا عنه وقربه اليه فهذا معناه تجدد المحن وسرعة انقلابه ... غضب مرة على ابراهيم أغا كتخداه فعاقبه بخمسمائة سوط ثم عفا عنه بعد حين فمنحه قصرا يقدر بستة آلاف كيس ... وقرب اليه احمد جركس فزوجه جارية من جواريه ووهبه قصرا كان لابيه طوسون وعينه مديرا للبحيرة وكلفه بالتجسس على عمه سعيد ...وكانت الخصومة بين عباس وسعيد على أشدها الى أن حاصر سعيد مرة مديرية البحيرة ، ولكن جند الوالى تغلبوا عليه واضطروه الى الانسحاب ، فاتهم عباس احمد جركس بالتواطؤ مع سعيد ونفاه الى أسوان بحجة انه « حيوان فى صورة انسان » واستعاد منه القصر الموهوب ... ثم استولى على عدة قصور ومنها قصر احمد عصمت باشا بالازبكية ، وقصر احمد مختار فى شبرا ، وقصرمحمود طلعت فى العتبة الخضراء .

وشرع مرة فى اقامة حفلة ختان لولده الهامى استمرت ١٥ يوما وانفق عليها زهاء مائة الف جنيه فاجتمع اللاعبون من القاهرة ووفد غيرهم من استامبول لعرض ألعابهم فى ساحة القصر . وقد حدث أن نهض لاعب وطلب فئرانا تدير ساقية صغيرة الحجم ، فخابر رجال الحاشية الضبطية للتنبيه علىمشايخ الحارات بجمع عدد من الفئران ، بيد أن اللاعب استصغر حجمها ، فجمع عددا آخر أكبر حجما .

وأخذ نساء القاهرة يقلدن فى البيوت فئران عباس بحركات كلها استهزاء وسخرية ، وسبحت النكات فى جو القاهرة من هذا الحادث الفريد فى بابه ، وعلم عباس من جواسيسه بما وقع فى المدينة من سخرية به ، فنكل بكل بيت وشى فى حقه وأمر بقص شوراب أربابه.

وبلغ من سوء أدبه أن بعث بكتاب الى طلاب البعثة فى معاهد أوربا يقول فيه : .. ان طباعكم هى طباع الخونة من الفلاحين ، وسوف أعيدكم الى قراكم وألبسكم ملابس الفلاحين .

وعهد الى جماعة من الاتراك أن يسوقوا طائفة من سكان القاهرة وضواحيها للعمل فى السخرة ، حيث يتولون عملية انشاء وتعبيد الطريق الصحراوى من باب الحسينية الى السويس ، لخدمة المصالح البريطانية ، وانتهز الاتراك هذه الفرصة فساموا العمال صنوفا من العذاب والهوان .

وكان من شأن هذه المظالم وعبث الحاكم بحقوق المواطنين أن أخذ فريق منهم يفكر فى طريقة الخلاص من الوالى ، فهم أحد أبناء البلد بالاعتداء عليه فى شارع محمد على لولا ان فتك به الحراس قبل أن يصل الى مركبة الوالى .

• ● •

عندما ارتقى ذلك الوالى المأفون العرش قال لوفد العلماء والوجوه الذين قدموا لتهنئته :

ـ ان جدى محمد على كان يزعم بانه أوتوقراطى ، وفى الحقيقة انه كان أوتوقراطيا على رعيته وأولاده فقط . وأما قناصل الدول الاجنبية فقد كان بمنزلة النعل لهم .

والواقع أن عباس كان يمثل الارستقراطية العثمانية فى أضيق حدودها ومعانيها ، فطرابيش الموظفين وازياؤهم ينبغى أن تكون على انماط ما يرتديه الموظفون فى الدولة العلية . وعليهم ان يرسلوا لحاهم كما « هو الجارى فى دار السعادة » . ثم يعز عليه أن يرى « الاولاد الاتراك » يتسكعون فى طرق العاصمة فيأمر بجمعهم فى المدرسة الخاصة التى أنشأها لابنه الهامى . أما صفوة الطبقة الحاكمة من العثمانيين فيلحقهم «بمدرسة المفروزة» ليكونوا ضباطا وقادة فى المستقبل . وأسماء أبناء الفلاحين فى المدارس الاخرى يجب أن تمحى

من سجل الوجود وتستبدل بها أسماء تركية .

ويمرض جوادان من جياده فيصب جام غضبه على الاطباء البيطريين الذين فى خدمة الحكومة فيطردهم منها ثم يعمد الى مدرسة الطب البيطرى فيغلقها ويقول فى كتاب له الى كتخداه :

« ان المتخرجين فى مدرسة الطب البيطرى والمعينين فى تفاتيش الحكومة لاصلاح جنس الحيوانات ومداواتها قد تسببوا فى خسارات عظيمة وتلفيات جسيمة من الحيوانات المعدة تحت أمانتهم . وفضلا عن ذلك فقد تسببوا فى تلف الجوادين الكريمين السقلاوى والاحمرانى الواردين هدية من طرف حضرة شريف مكة لابننا الكبير ، كما أنهم تسببوا أيضا فى مرض الجواد عسيان الاحمر المقدم لنا من طرف فيصل بمرض السقاوى ، وظهر حقيقة هذا بمشاهدتنا الجواد المذكور ، فبناء عليه ثبت ان كل التعب والمشقة والمصاريف الوافرة التى صرفت لهؤلاء الاطباء البيطرين من صغر سنهم الى اليوم ذهبت هباء فاستخدامهم اليوم مضر بالجهتين ، مضر بالخزينة نظرا للمرتبات التى يتقاضونها ، وبحيوانات التفاتيش بالنسبة لعدم مبالاتهم وعنايتهم . فعندما يصل أمرى اليكم أن تبطلوا وتلغوا مدرسة الطب البيطرى وتنزعوا رتب ونياشين الاطباء البيطرين المستخدمين فى الحكومة ، كبيرا كان أو صغيرا ومن ضمنهم عشماوى افندى وأفصلوهم وأطردوهم من سلك الوظائف الاميرية » .

ويختبر فى رحلة له الى الصعيد المهندسين المتخرجين فى مدرسة الهندسة ، فيظهر له أنهم لا يعرفون عمليات الحساب بالطريقة التى يفهمها هو فيأمر بفصلهم ، ثم يشرد صفوة العلماء ، فينقل رفاعة الطهطاوى الى الخرطوم ناظرا لمدرسة ابتدائية بها ، ومعه محمد بيومى أكبر عالم فى الرياضيات وأحد خريجى جامعة باريس .

وقد لفت أنظار شارلس اغسطس مرى القنصل البريطانى فى القاهرة صفات عباس المرذولة واهواؤه المتقلبة ، وبغضه للفرنسيين بصفة خاصة ، وكان أن استغل هذه الصفات ، وما زال به حتى أغراه بالقضاء على وسائل العمران التى انشئت فى عصر جده ، فأبطل فى يوم واحد جميع مصانع الغزل والنسيج ، وكانت ميادين عمل للالوف ، ومصدر حركة فى الصناعة والتجارة ، ودفع بمصر الى

شراء ما تحتاجه من الاقمشة القطنية والصوفية من مصانع لنكشير وحدها وبأثمان مرتفعة .

وفى أعقاب ذلك أغلق الكثير من المدارس ومعاهد التعليم وصحيفة « الوقائع المصرية » وكل ما يمت الى الثقافة بصلة ، وطردالاساتذة والخبراء الاجانب فقضى على منابع العلم .

وكان الباب العالى قد أصدر « قانون التنظيمات » أو مايعرف باسم «خط الكلخانة الشريف» وهو ينص على احترام الملكية الفردية ، ومنع المصادرة والجلد والسخرة والنفى ، وتعيين فترة زمنية محددة للخدمة العسكرية . فتردد عباس فى قبول هذه الاصلاحات التى تحد من سلطانه وطغيانه ، فاستعان بالقنصل البريطانى الذى أصبح بمثابة مستشار سياسى له لكى يحمل الباب العالى على تغيير سياسته نحو مصر .

ولم يشأ القدر أن يترك هذا الوالى المجنون يموت ميتة طبيعية بل قضى نحبه فى أحوال شاذة كما كانت حياته شاذة . . .

فقد كان لعباس حاشية خاصة من الخدم يعرفون باسم « أيج أغاسية » وكان كبيرهم خليل درويش بك برتبة « قائمقام » برغم حداثة سنه . وأساء هذا الرئيس معاملة مساعديه فأطالوا ألسنتهم عليه وصاروا كلما مر بهم قذفوه بألفاظ بذيئة وبكلمات مستهجنة وعايروه بأنه ليس كامل الرجولة . فشكاهم الى ولى نعمته الذى أمر مملوكه بجلدهم ثم تجريدهم من أوسمتهم ورتبهم والبسهم لبدا وزعابيط وأرسلهم لخدمةخيولهفىالاسطبلوكبرت تلكالاهانةعلى مصطفى باشا خازنداره فسعى جهده فى العفو عنهم غير أنه لم يفز بطائل ، فترك الامر ليكن باشا وكانت له دالة على الوالى فأجابه الى ملتمسه .

وتوجه المماليك المعفو عنهم الى قصر الوالى فى بنها ليرفعوا اليه فروض الشكر ولكنهم أضمروا له السوء لما حاق بهم من اذلال ومهانة وظلوا يدبرون مؤامرة القضاء عليه ، وأخيرا تواطأوا معغلام من خدم القصر يدعى عمر وصفى وأشركوه معهم فى المؤامرة .

وكان من عادة عباس عند نومه أن يقيم على حراسته اثنين من هؤلاء الغلمان،وفى ليلة ١٤ يوليو ١٨٥٤ عاودتعباس نوبةمننوبات هوسه

فأخذ منذ الغروب يسب خدمه ويقسم الايمان التى اعتادها بأنه اذا ما أسفر الصبح فسينكل بهم على نحو لم يألفوه . فلما سمعوا تهديده ، وكانت النية مبيتة على الغدر به ، أقبلوا فى جوف الليل ، وكان القائم بالحراسة شاكر حسين وعمر وصفى ، ففتحا للمتآمرين باب المخدع ، وداهموا جميعا الوالى فى فراشه وهو مستغرق فى نومه ، وعندما هموا بالفتك به استيقظ مذعوراوأرادمزايلة الفراش فحال عمر وصفى بينه وبين بغيته وتكاثروا عليه وقتلوه شر قتلة بالخناجر . وخرج الغلمان يوهمون حرس القصر انهم بسبيلهم الى العاصمة فى أمر أشار به مولاهم ، فأعدوا لهم الخيول حيث أسرعوا بالفرار الى القاهرة ومنها الى تركيا .

واتفق أن مر ببنها فى اليوم التالى احمد يكن باشا فى طريقه الى ضيعته فى الدقهلية ، فلما علم بوجود الوالى فى قصره هبط بها لتحيته . ولكن قيل له أنه لا يزل نائما . وانتظره الى العصر فلم يستيقظ فطلب أن يدلوه على مخدعه وطرق الباب فلم يجبه أحد وهنا خامرته الشكوك واقتحم الباب فاذا بالوالى مسجى فى فراشه، غارقا فى دمه .

وأشار يكن باشا بكتمان النبأ واستدعى خصيان القصر وقال لهم : افندينا أمر بسفر الحريم الى القاهرة فى الحال . فامتثل الجميع للامر وغادر القصر النساء والجوارى والخدم ولم يبق سوى الباشا مع نفر من الاخصاء . وألبسوا الوالى ملابسه الرسمية ، ثم أعدت مركبته فى مدخل القصر وحمل اليها بمساعدة رئيس الخصيان .

وكان الفى محافظ العاصمة قد دعى على عجل الى قصر بنها . فلما وقف على حقيقة المأساة ذهل ، ثم أجلسوا الوالى فى المركبة وأمامه المحافظ كما جرت العادة . ومضت المركبة بسرعتها يحف بها الحرس الى أن وصلت الى قصر الحلمية دون أن يدرى أحد حقيقة ما وقع .

وكان من عادة عباس اذا اخترق بموكبه شوارع العاصمة أن لا يلتفت يمينا أو يسارا ليرد التحية . لذلك لم يفطن أفراد الشعب الى أن المركبة تقل واليا قضى نحبه وليس بحى .

واجتمع أعوان عباس من الضباط الارناؤود والجراكسة والاتراك

برياسة المحافظ ونصبوا المدافع فى القلعة ونادوا بالهامى واليا على مصر ، وكان الهامى لا يزال فى طريقه الى انجلترا للسعى فى تنصيبه وليا للعهد بدلا من سعيد .

وشاع نبأ مصرع عباس وتناقله المواطنون بين مكذب ومصدق ، ثم تشاغل الناس عن جنازته فلم يدفن الا بعد الظهر ، وكان يوما قائظا ، فسارت الجنازة فى نفر قليل من خواصه وبعض الجند والفقهاء .

وكتب أعوان عباس الى اسماعيل سليم باشا محافظ الاسكندرية بما استقر عليه الرأى من جعل الهامى واليا وأوصوه باليقظة والسهر على الثغر الى أن يقدم الهامى .

وكان شريف باشا الكبير وقتئذ فى الاسكندرية ، فى انتظار أن يبحر منها الى أوربا للعلاج ، فلما مضى اليه المحافظ يكاشفه بالامر صاح فى وجهه :

ـ من العبث أن نضع رقابنا فى قبضة الهامى بعد الخلاص من أبيه ... ان سعيد والى مصر فى « القبارى » وليس فى انجلترا .

ومضى وفد الى سعيد يبلغه الامر فابتهج فى قرارة نفسه لخلاص أسرته من عباس . وبعد أن شكر أعضاء الوفد مضى الى قصر رأس التين وأعلن ولايته بين قصف المدافع وهتاف الجند . ثم سافر الى العاصمة يصحبه من أفراد أسرته : اسماعيل وعبد الحليم ومصطفى فاضل واحمد رفعت . الا أنهم وجدوا القلعة موصدة فى وجوههم ، وطوائف العسكرية من الارناؤود والجراكسة والاتراك معتصمة بها وعلى رأسها الاميرالاى محمد شكيب أحد مماليك عباس . وبلغ من خوف سعيد على حياته انه اعتصم بدوره بقصر الامير عبدالحليم بشبرا لا يبرحه مدى أيام أربعة .

وفى غضون ذلك دارت المفاوضات بين الامير رفعت وبين الاميرالاى شكيب وحذره الامير سوء العاقبة لتمرده ومخالفته الفرمان الذى يحصر الولاية فى سعيد بوصفه أرشد افراد الاسرة سنا . واخيرا فتحت أبواب القلعة وصعد سعيد اليها ، وتمت مراسيم التولية ، وبلغ من ذعر الاميرالاى محمد شكيب أن فاضت روحه على أثر سماعه طلقات المدافع باعلان الولاية .

وقال سعيد عقب ذلك فى معرض السخرية والتنديد بالهامى :

« لم تبق ثمة حاجـة الى سياحة ولى العهد فى انجلترا » . وأمر باعادته محاولا التنكيل به والانتقـام منه فى شخص أبيه ، بيد أن الهامى اتجه الى استامبول ووجد من السلطان عبد المجيد صـدرا رحبا ، وأصبح بمأمن من اعتداء سعيد عليه وبطشه به ومصادرة ثروته ،ثم صاهر السلطان فتوثقت الاواصر بينه وبين دوائر المابين.

هكذا كانت نهاية السفاح الطاغية عباس الاول ، الوالى المجنون المتعطش الى الدماء ، الذى حكم مصر نحو سنوات ست بالحـديد والنـار ، فكانت هذه السنون من أظـلم الفترات التى مرت بوادى النيل .

قيود العبودية

نشأة سعيد وأخلاقه ـ المنافسة بين انجلترا وفرنسا ـ وثيقة العار ـ آثار الدمار في السودان ـ ارتباك الحالة المالية ـ مصر مقاطعة فرنسية ـ زحف الاجانب على وادى النيل .

كان محمد على يعد ابنه الصغير سعيد لفنون الحكم ، والتدريب على شئون البحرية ، فعهد بتربيته وتنشئته الى نفر من الافرنج وفى مقدمتهم المستشرق كوينج ، والضابط البحرى هوسار ، ثم دفع به الى فردينان دى لسبس ليكون رائدا له ومدربه على الرياضة وركوب الخيل .

وكان سعيد منذ صباه مفرطا فى البدانة الى حد خشى معها أبوه أن تؤثر البدانة فى تكوينه الذهنى والجثمانى ، فكان فى جملة التمرينات الرياضية التى درب عليها : تسلق صوارى المراكب والقفز منها سباحة فى الماء ، والسير والعدو أشواطا بعيدة ، وركوب الخيل ، ووضع غذاء له لتنقيص وزن جسمه ..

وولى سعيد الحكم بعد أن كتب له الوجوه والاعيان والمشايخ بالطاعة ، فكان أول ما اتجه اليه نظره الاستيلاء على ثروة سلفه الذى يبغضه من أعماق قلبه ، ومحاربة ولده الهامى وبقية أفراد الاسرة . ومد يده الى الخزانة العامة فالفاها خاوية الوفاض ، فطلب الى مصطفى باشا خازندار عباس أن يقرضه خمسين الف جنيه فأبى وقال : اننى أمين على هذه الاموال ، وصاحبها الهامى فى الخارج ، وليس من حقى أن اتصرف فيها دون اذنه .

بيد ان بعض الامراء ممن يشايعون سعيد تدخلوا فى الامر حتى رضى الخازندار باقراضه المال المطلوب بشرط أن يوقع على صك ، ولما قدم الهامى سلمه الصك وهو يقول : هذا المال أخذه عم أبيك ، فان شئت طالبته به وان شئت تجاوزت له عنه .

وكانت سلطة الحكام والمديرين مطلقة لا يحدها الا حق الوالى فى الاعدام أو العفو ، وكان جميع هؤلاء الحكام من الاغراب ، القساة الفاسدين ، وكان نشاطهم موجها الى الاحتفاظ برضاء الوالى واخفاء عيوب الادارة ، والاثراء اثراء فاحشا على حساب المجموع ، وتقديم

الرجال لاعمال السخرة ، وارهاق الفلاحين بالضرائب دون العناية براحتهم وأمنهم وتعليمهم وتوفير وسائل العلاج لهم .

ونهج سعيد نهج من سبقوه من حيث الحكم المطلق والاستبداد بالمواطنين ، واستطاع ان يجمع فى قبضته السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وكان متقلب الاهواء ، ضعيف الارادة، كثير التردد ، يثق بالاجانب ثقة عمياء ويخضع لارائهم ويغره ثناؤهم الكاذب ، ويتأثر بمناوراتهم الاستغلالية فينفذها دون ترو ولا دراسة ، ويميز الفرنسيين الذى ربى فى أحضانهم على سواهم ، فيغدق عليهم الامتيازات. ولقد زينوا له يوما انشاء جيش عرمرم ، يترك مقاليده فى ايدى قواد فرنسيين ، فانصاع لهم ، ولكن هذا الجيش أثقل كاهل الخزانة العامة ، فاضطر مرغما الى تسريحه وهدم القلاع التى بناها .

ومن ابرز الشواهد على تقلب أهوائه ، انه كان ينشىء الدواوين والمصالح الحكومية ، وقبل أن ينتظم العمل فيها يصدر أوامر بالغائها. وينعم على كبار رجال الدولة والجيش بالاوسمة و «الانعامات» ثم يسلبهم اياها بعد حين ، ويعزل ويعين لاتفه الاسباب . ثم يعمد الى ترقية الجنود الجراكسة والاتراك ممن لا يلمون بمبادىء القراءة والكتابة الى مرتبة الضباط حتى ثارت الفتنة بينهم وبين الضباط المصريين الذين نالوا قسطا وافرا من التعليم ، وتخرجوا فى الكليات العسكرية المختلفة .

وشاد فى العام التالى لولايته « القلعة السعيدية » على مقربة من القناطر الخيرية واقام لنفسه مقبرة بداخلها واستورد كميات من الحديد والنحاس من انجلترا لها ، الا أنه سرعان ما أبدل رأيه وأشار بهدم المقبرة وظل حديدها ومهماتها فى زوايا الاهمال الى أن علاه الصدأ .

وكان سعيد من انصار النخاسة والسخرة ، ففرضها على الوف المصريين ، وشن حملات تأديبية على قبائل البدو فى الفيوم والشرقية — وبالاخص قبيلة الهنادى — وأخضعهم بطرق وحشية ، وكانت مدافعه وأسلحته الفتاكة تحصدهم حصدا ، وقاد مشايخهم الى القلعة السعيدية يسجنون فى غياهبها .

وانقاد سعيد الى اغراء فردينان دى لسبس ومنحه امتياز مشروع قناة السويس وفتح له خزانة الدولة يغترف منها ما يشاء

للدعاية للمشروع والانفاق عليه ، وما كادت تفصيلات المشروع تصل الى أيدى ساسة انجلترا حتى بلغ منهم الاستياء حدا جعلهم يوعزون الى سفير بريطانيا فى استامبول بمناهضته ودبروا مع الباب العالى مكيدة لخلع سعيد بأن يستدرجوه الى مدينة بيروت ثم يلقى القبض عليه بتهمة تمرده وخروجه على طاعة السلطان فلما لم تتم هذه المكيدة ارسلت بريطانيا قطعا من الاسطول الى سواحل الاسكندرية بقصد التهديد والوعيد .

وفزع سعيد من تآمر بريطانيا والباب العالى عليه واضطربت افكاره وساورته الهموم لا سيما بعد ان دخل المشروع فى دور سياسى دولى وبدأت المناقشات العنيفة تدور حوله فى المنتديات السياسية وعلى صفحات الصحف فى اوروبا . وأراد دى لسبس أن يرفه عن سيده وان ينأى به عن هذه الاجواء لئلا يتأثر وينهزم أمام التهديد وينفض يده من المشروع فزين له القيام بسياحة الى جنوب الوادى قائلا له : لماذا لا نبعد عن الثقلاء فنقوم برحلة الى السودان ، وهناك يخلو الجو لنا ونتحدث مليا فى مشروعنا بعيدين عن العيون والارصاد .

فأجابه سعيد الى طلبه ، واستقلا المركب فى النيل .. فما ان بلغ مدينة بربر فى يناير ١٨٥٧ وشاهد آثار الدمار والخراب الذى أنزله محمد الدفتردار وابراهيم بالشعب الشقيق حتى اغرورقت عيناه بالدموع وانخرط فى البكاء والنحيب ، فلما حاول دى لسبس مواساته وسؤاله عن بواعث حزنه أجابه فى مرارة :

ـ أبكى على تعاسة هؤلاء السودانيين وعلى ما أنزله أفراد أسرتى بهم وببلادهم من الوان الخراب والدمار .. ان الوف العرائض ترد الى من كل ناحية وهى تفيض بالشكوى من المظالم .. أنظر الى القرى التى أحرقها الدفتردار ، انهم لم يعيدوا بناءها بعد .. ان هذا هو البؤس بعينه ، ولا مفر لنا من التكفير عن ذلك الا بانسحابنا وترك السودان لاهله .

فثبط دى لسبس من عزيمته وقال له :

ـ ان هذا لن يكون .. ان واجبك كوال متعلم يحتم عليك الاحتفاظ بالسودان وان تهتم بشئونه !!

• ● •

وكان سعيد كسولا ، سهل القياد ، متلافا للمال بذىء اللسان ،

لا يرى فى داخل قصره الا حافى القدمين حاسر الرأس ، وكان على كل من يود التزلف اليه من أصحاب المطامع أن يحمل اليه أنباء كاذبة ، ويتملقه بكلام رقيق ، ويتبسط معه فى رواية النوادر والنكات التى تنعشه ، وكان يأتى بالمستغربات التى لا يعمد اليها سوى المأفونين وأصحاب العقول الضيقة . قيل له يوما ان صحف أوربا تعيره بالجبن ، فأراد أن يظهر شجاعته وأمر بأن تملأ جوانب احد الشوارع بالبارود وان يجعل سمكه قدما فى الطريق ، حتى اذا تم ذلك جعل يتمشى على مهل فوق البارود وهو يدخن الشبق ومن خلفه بطانته وفى أيديهم الشبق أيضا ، متوعدا كل من يتخلف عن ذلك بالعقاب .

وارتبكت الحالة المالية فى عهده، فعقد اول قرض دولى فى تاريخ مصر وكان يضن بالانفاق على المدارس لمواصلة رسالتها العلمية ، فاضطرت الى غلق أبوابها الواحدة تلو الاخرى ، وكانت حجته فى حرمان أفراد الشعب التعليم والتثقيف ان الامة الجاهلة أسلس قيادا من الامة المتعلمة ، وجعل مرحلة التعليم الثانوى وقفا على أبناء الذوات وحدهم

ومن الغريب ان سعيد الذى كان يضن بالمال على شئون التعليم كان يغدق المال جزافا وبلا حساب على المدارس الاجنبية لا لشىء الا ليذاع اسمه على ألسنة الافرنج . وكانت البعوث العلمية التى ارسلت الى جامعات الغرب ليس بين أفرادها من المصريين سوى النذر اليسير ، اما الباقون فمن الاجانب الذين لا يمتون بصلة الى مصر سوى صلة الاقامة بها واستغلالها .

وقد سبق لسعيد أن دفع الى دى لسبس مائة الف جنيه على الرغم من ان موظفيه كانوا يشكون عدم دفع مرتباتهم عدة شهور ، ثم أعطاهم أذونات على الخزانة وصار الموظفون بدورهم يسلمون هذه الاذونات الى البقال والجزار والخباز ، وكم كان مضحكا ان يجتمع هؤلاء جميعا أمام دار وزارة المالية للمطالبة بصرف اذونات بلغت فى جملتها اربعة ملايين من الجنيهات .

ولجأ الى حيل أخرى للتخلص من صرف المرتبات المتأخرة ، فكان يمنح الموظفين مهمات من مخازن الحكومة بقيمة الاذونات التى يحملونها ، ويوزع عليهم أرضا من أملاك الدولة بدل معاش ، ووهب عبد الرحمن رشدى مدير الوابورات الاميرية مطبعة بولاق للتخلص من نفقاتها ،

وأخيرا باع المصانع وسرح الجند ورهن مجوهرات وتحف ليحصل على أموال يسدد منها ديونه .

• ● •

وعلى الرغم من هذه الارتباكات المالية التى كانت تعانيها مصر ، فقد اضمحلت قواها البحرية وأصاب سفن الاسطول التلف فأمر سعيد بتكسيرها وبيع أخشابها .

واشترك طوعا لاوامر الباب العالى فى حرب القرم ، وارسل نحو عشرين الف جندى الى الاصقاع الباردة والثلوج حيث لقوا حتفهم .

وشجعت ميول سعيدالفرنسية أن يطلب اليه نابليون‌الثالث امداده بحملة عسكرية تقاتل فى حروب فرنسا ضد المكسيك على أن يكون أفراد هذه الحملة من أبناء السودان، فأذعن‌سعيد لمطالب الامبراطور، وبادر الى تنفيذ رغبته بارساله فرقة سودانية بقيادة البكباشى جبره محمد ، وأبحرت من ميناء الاسكندرية على بارجة فرنسية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢ .

وقد جرت العادة ان الباب العالى كان يطلب الى مصر نجدته بمدد من الجند فى حروبه وذلك باسم‌السيادة والتبعية، ولكن لم‌تجر العادة ان تستعين دولة أجنبية لا تربطها بمصر صلة بارسال فرقة تحارب فى بلد لا تهم مصر مطلقا ولم يسمع عنها أحد من المصريين فى ذلك العصر .

• ● •

وكان لميول سعيد للاجانب تأثير عميق فى تشجيع حثالتهم ومن ضاقت بهم أوطانهم للهجرة الى أرض النيل . يدفعهم الى ذلك سخاء الوالى وتبذيره وتيسيره سبل العيش لهم سواء باسناد مناصب الدولة اليهم مع حرمان ابناء البلد منها ، أو مساعدتهم على استغلال مرافقها الحيوية .

وفى معرض تبذير سعيد واسفافه ، روى أن أحد المقاولين الايطاليين قام بترميم بعض قصوره ، ثم طالبه بقرابة مائة الف ليرة ايطالية ، ولكن سعيد أبى الا أن يكتب على الفاتورة « تصرف القيمة بالليرات الانجليزية ! » . فهل كان هذا الوالى المتلاف لا يدرك بأن

الليرة الانجليزية تساوى خمسا وعشرين مرة الليرة الايطالية فى ذلك الوقت .

وكان من نتيجة ضعفه وتهيبه أمام قناصل الدول ان عبر هو بلسانه يوما عن ذلك فقال : انى لاخشى ان ينظر جوادى شذرا الى أحد الاجانب وهو يعبر شوارع الاسكندرية ، فيفد قنصله ويطالبنى بتعويض عن اهانة لحقته !

وكان للاجانب مناورات وحيل معه لابتزاز أمواله . كانوا يزعمون بأنهم قاموا بتوريد مهمات لمخازن الحكومة ويقدمون فواتير وهمية فيأمر هو بصرف قيمتها فى الحال ، وكانوا يعمدون الى مطالبته بتعويضات ضخمة فى مقابل خدمات خيالية أدوها للدولة ،فيسخو عليهم ليسكتهم .

حدث أن طلب زيزنيا قنصل بلجيكا تعويضا قدره ثلاثة ملايين فرنك لعدم تحقيق وعد شفوى بمنحه التزام الترانسيت .. وتأخر القطار مرة عن موعده بين السويس والقاهرة لسبب ما فطالبه الدكتور كاستيلانى بتعويض قدره سبعمائة الف فرنك لما لحقه من أضرار بسبب هذا التعطيل .

وفى عهد سعيد قامت شركات الاستغلال والاحتكار ، وضمن لها تعويضات سخية فيما لو أصابتها خسائر مادية . ومن بين هذه الشركات : سكة حديد الرمل ومياه الاسكندرية والمطاحن وبنك اوف ايجبت وغيرها من الشركات ذات رءوس الاموال الاجنبية .

لذلك كان الاجانب يوم وفاة سعيد يندبون حظهم ويصرخون قائلين : لقد تبخر بحر المال وتحول الى سراب . وآلت مواردنا الى الخراب .

هكذا ختم سعيد وثيقة حكمه على مصر بالذل والعار ، وحول بلادنا العزيزة الى اقطاعية فرنسية يرعى أبناء السين فيها . وهكذا كان سعيد أول حاكم فى مصر مد يده الى المرابين الاجانب يقترض منهم بفوائد باهظة . وهذه القروض هى المعول الاول الذى دك صرح استقلالنا وقوميتنا . فقد شجع بعمله هذا خلفه اسماعيل على ان يورط مصر فى ديون قضت على سمعتها، واتاحت الفرصة للمستعمرين لان ينشروا ظلهم الاسود على أطرافها ، وان ينشبوا مخالبهم فى جسدها وينهشوه نهشا .

الخديو الخليع

عقلية اسماعيل وصفاته ـ افراطه فى الانانية وسلبه حقوق المواطنين ـ فراره من مصر بسبب وباء الكوليرا ـ الحياة الداخليـــة فى قصوره ـ أفندينا فى مباذله ـ الامتيازات التى حصل عليهـــا من الباب العالى ـ أشهر لص فى التاريخ ـ عزله وطرده من مصر

ورث اسماعيل الحكم بعقلية الشاب الطائش المستهتر الذى يرث ضـــيعة عن أبيه ، فكان يتطلع الى مصر على أنها اقطاعيـــة يستغلها لمنفعته ، وتعود ثمارها بالخير على أفراد أسرته ومن يلوذون به من أبناء جلدته ، ونظر الى الفلاحين الذين يعملون فى مزارعه نظرته الى الاجراء ورقيق الارض الذين يفلحون الارض بالسخرة لقاء لقيمات يتبلغون بها .

وهذا الحاكم هو شر مثال للرجل المبذر الخليع الذى يعصى خيال مؤلفى الروايات عن أن يرسموا صورة منه ، وكان اندفاعه فى طريق الخراب والاسراف يفوق سرعة الصوت ، ففى فترة حكمه استدان أكثر من تسعين مليونا من الجنيهات أى بمعدل ستة ملايين جنيه فى السنة، عدا أموال الضرائب العامة التى كان يسطو عليها وتقدر بمائتى وخمسين مليونا من الجنيهات ، وخيرات الاوقاف ، وما تدره عليه أملاكه الواســعة الاطراف ، فحب الترف والاغراق فى الشـــهوات والمطامع ، والشغف بالمظاهر الكاذبة ، وحياة المجون ، كانت بمثابة مثله العليا فى الحكم .

قبل أن يوارى جثمـــان ســلفه ـ الوالى ســعيد ـ فى مقبرته بالاسكندرية ، كان اسماعيل فى القـــاهرة يتلقى التهـــانى ويقيم الحفلات ويولم الولائم ، وكانت والدته خوشيار تنثر النضار ذات اليمين وذات اليسار على المهنئات والمهنئين .

وسار اسماعيل على سنة من سبقوه من الحكام ، أى من الانفراد بالحكم المطلق والاستئثار بكل كبيرة وصغيرة فى شـــئون الدولة ، والتصرف فى أرواح المصريين وممتلكاتهم ، وكان وزراؤه لايملكون الا سلطات وهمية ، يدل على ذلك القروض التى استدانها فقدكانت

من الاسرار العليا المحجوبة عن الانظار ، بل كان هؤلاء الوزراء بمثابة موظفين فى دائرته ، فهو يوليهم ويعزلهم كيفما يشاء .

وكان اسماعيل بدوره من اشهر لصوص التاريخ ، اختلس لنفسه من الاراضى الزراعية خمسمائة الف فدان ، ومثلها لافراد أسرته ، أى ربع مساحة الاراضى المنزرعة فى الدلتا والصعيد ،وكانت هذه الارض معفاة من أية ضريبة ، وكان يعمد الى تسخير الفلاحين فى زراعتها بدلا من أن يؤجرها الى الذين انتزعت منهم .

ولم يكن يفرق بين أمواله وبين أموال الدولة ، فهى جميعا ملك يمينه يتصرف فيها دون رقيب أو حسيب ، فكان يغترف الملايين لا لينفقها على المرافق الحيوية للبلاد ولا الى ما يعود بالنفع على دافعى الضرائب ،بل ليشبع نزواته وينفقها على طغمة من حثالة الاجانب الملتفين حول عرشه ، وعلى أصحاب الصحف الافرنجية التى تحرق البخور ثناء على حكمه الفاسد ، وعلى رجال الباب العالى ليطلقوا يده فى موارد البلاد واذلال الشعب .

وكان فى الوسع أن ينشأ بهذه الملايين التى بددها فى مباذله :

ستة الاف مدرسة ، وجامعتان وثلاثمائة مكتبة شعبية ، وستمائة مزرعة نموذجية ، وعشرات الملاجىء والمستشفيات ودور الحضانة للاطفال ثم يبقى بعد ذلك مال وفير .

كان اسماعيل اذا فجر وعربد لم يترك لفاجر بعده مجالا ، واذا قدم رشوة أغدق حتى يغرق ، واذا أراد البناء فانه يهدم حيا بأكمله ليشيد عليه ما يريد،ويستغل الوف الايدى فى البناء بالسخرة، يعملون على ضوء الشمس نهارا ، وتضاء لهم المشاعل ليلا ، وعلى هذا المنوال قامت قصوره التى شيدها لحفلات المجون ، ووسعت الشوارع بهدم دورها ومنشئاتها ومساجدها لمرور موكبه ،وأقيمت المسارح والمراقص والملاهى ودور الميسر ليرفه فيها عن نفسه وعن ضيوفه ومحظياته .

وكان فوق هذا وذاك محبا لذاته ، مفرطا فى الاثرة والانانية ، رقيقا فى الظاهر وقاسيا عاتيا فى الباطن ، يقدم مصلحته الخاصة على مصلحة الشعب ، ويترك النافع الضرورى ليشتغل بالكماليات . .

أصيبت مصر بوباء الكوليرا فى بداية عهده بالحكم ، وحصد الوباء أرواح الالوف من المواطنين ، فبدلا من أن يعمل هذا الحاكم الفاسق على

تدبير الوقاية وتخفيف ويلات الوباء عن الشعب الذى يستنزف آخر قطرة من دمه ، تركه يسوده الذعر ويستبد به الخوف ، وفر الى عواصم أوربا وملاهيها ، يواصل حياة المجون ويقرضه المرابون ما يطلب من مال بفوائد باهظة ، وهذه القروض هى التى لانزال ندفعها الى اليوم من كدنا وعرقنا .

وأقام لمناسبة افتتاح قناة السويس حفلات جنونية لم يرو التاريخ لها مثيلا فى الاسراف والتبذير ، فانفق مليونى جنيه ، واقام لضيوفه الاجانب المراقص والملاهى ومد الولائم وموائد الميسر ، واستقدم فرقا تمثيلية وأخرى راقصة من عواصم الغرب ، وشيد قصورا خاصة ودارا للاوبرا ، ومد جسرا مؤقتا على النيل امام سراى الجزيرة كلفه ألوف الجنيهات ليتسنى لضيوفه عبور النيل بمركباتهم لشهود حفلة راقصة ، وبينما ضيوفه الاجانب يرفلون فى مباذلهم بفضل أموال الضرائب العامة التى تغدق عليهم ، والموائد التى لا ينقطع مدها لهم ليل نهار ، والخمر التى تسيل كالانهار ... كان هناك شعب فى أقصى الصعيد يعانى مجاعة نتيجة فيضان النيل ، واتلاف محصولات الزراعة ، فتحصد الارواح حصدا ، ويعيش بقية الضحايا على حثالة القصب ويتغذون بالجيفة والاعشاب البرية ، ويلبسون العرى والخرق البالية .

وبينما تزداد البلاد فقرا على فقر ، وشقاء على شقاء ، ويعيش فلاحوها كالجرذان والضفادع فى الجحور والاكواخ ، كان اسماعيل على الرغم من الامراض الخبيثة التى أصابته ، غارقا فى مباذله ، لا يبرح الكأس الا الى أحضان الساقطات ، وتلك كانت أخلاق أسرته جميعا من أمه الى أبنائه وحفدته .

وكان وزراؤه من نوبار الى اسماعيل المفتش الى رياض على شاكلته ، لا يأنفون من تقليد سيدهم فى قبول الرشاوى والنهب والسلب ، واستغلال النفوذ فى عقد الصفقات المريبة ، والعمليات التجارية المخزية ، لتفيض جيوبهم بالمال .

حدث أن حضر الامير فردريك ولى عهد المانيا حفلات افتتاح قناة السويس ، وعرج فى طريق عودته الى بلاده على استامبول لزيارة السلطان عبد العزيز ، فلما استقر به المقام فى برلين سأله صديقه « كفكن » عن رأيه فى حكام البلاد الشرقية ، فأجابه :

ـ رأيت السلطان عبد العزيز ، فوجدته حسن المعاشرة ، ويظهر على سيماه الاصل الطيب والنجابة ، وتدل أحواله على انه سليل أسرة عظيمة ، الا أن فيه شيئا من التكبر ، ويظهر أن هذا ناشيء من قلة اختلاطه أو عدم وقوفه على أحوال العالم ... أما اسماعيل خديو مصر ، فيظهر أن الدهان المصبوغ به تاج سيادته لم يجف بعد ، وهو يشبه حاكما افريقيا أو بنكيرا أتته الثروة فيما بعد ، وهذا هو الفارق بين الرجلين .

• ● •

أما الحياة الداخلية فى قصوره فكانت أحلاما فى مخيلة التاريخ .. شيد ثلاثين قصرا متناثرة ما بين القاهرة والاسكندرية والجيزة والصعيد والوجه البحرى ليجعل منها أوكارا للسمر العابث ،ومنتدى للرقص الخليع والموسيقى الصاخبة وما يصحب ذلك من شراب وتفنن فى الشهوات . وأنفق على هذه القصور ملايين الجنيهات فى سبيل تأثيثها وتجميلها بالنقوش والزخارف والتحف والاثاث ، وأحاطها بالحدائق والبساتين وحمامات السباحة ، وملأها بالمحظيات والراقصات والمغنيات والجوارى والعبيد والخصيان ، الى حد أن سكان هذه القصور قدر عددهم عند عزله بعشرة الآف شخص ما بين رجل وامرأة ، فكم كانوا يكلفون دافعى الضرائب من طعام وشراب ولباس ؟

وشيد قصر عابدين ليجعله مقرا لحكمه بدلا من القلعة ، وكذلك قصر الجزيرة لضيافة الامبراطورة أوجينى،وقصر القبة لولى عهده. وبنى فى مدينة الاسماعيلية قصرا شاهقا ليحى فيه مرقصا ، وأقام على ضفاف البوسفور قصر « ميركون ـ أى ـ سيد الشمس » وجمله بأنفس صنوف الرياش ليدعو فيه البادیشاه عبد العزيز ، واستخدمت فى المأدبة أوان وصحاف من الذهب المرصع باليواقيت والاحجار الكريمة ، وعقب المأدبة بعث بالاوانى والصحاف هدية الى السلطان فى قصره .

وكانت موائده تمتاز بالاطعمة الفاخرة ، والشراب المعتق ، وكان اسماعيل وهو الوالى المسلم لا يأنف من تقديم الخمور على موائده لمدعويه ، وقد حدث أن دعا ضباط جيشه الى مأدبة ، فراعتهم

الكؤوس المصــفوفة وقوارير الخمر المعتقة ، فأنفوا من مشــاركته معاقرة الخمر .

وكانت والدته خوشيار تعيش فى قصر « الزعفران » بالعباسية حياة كلها لهو وإثم وفجور . كانت لديها فرقة موسيقية مكونة من أربعين عازفة يرتدين السروال ، وجاكيته ذات أزرار ذهبيــة ، ويضعن على رءوسهن الطرابيش ، وكانت عميدتهن برتبة «أميرالاى» فى الجيش ، عدا فرق أخرى من المطربات والراقصات والممثلات يرفهن عنها وعن مدعواتها .

وكم من روايات شاذة أذيعت عن « الزعفران » ومنها اقتناص أغوات القصر ليلا لشبان أقوياء البنية عنــد مشارف العباسـية ، ووضعهم داخل مركبات مسدلة عليها السجوف ، والسير بهم الى مداخل القصر حيث تنقطع أنباؤهم ولا يسمع أحد عنهم بعد ذلك شيئا ، والشائع انهم كانوا يلقون فى جب بعد أيام معدودات ، وبعد أن يطلب اليهم تأدية مهام خاصة .

وكان اسماعيل اذا ما أراد أن يخفف الضغط عن الحريم ، عمد الى تزويج « الجوارى الخديويات » برجال من الحاشية أو الضباط أو كبار موظفى الدولة ، بحجة أنه يريد تحسين النسل فى مصر . وكان لا يكتفى بامهار الجارية المال الوفير بل يقطعها أرضا تتراوح مساحتها بين المائة فدان والخمسمائة فدان حسب مقام زوجها ، ويتكفل بجهازها وملابسها وحليها ، وينعم عليها بقصر أو بمسكن فخـم ، ومركبة بجوادين ، ويرتب لها مصروفا شــهريا ، ويفضل زوجها على غيره فى الترقية الى المناصب العليا ويصبح من «محاسيب القصر » .

والغريب أن رجال الحاشية وكبار الموظفين كانوا يتنافسون على نيل هذا « الشرف » ومشاركة «ولى النعم » فى الاستمتاع بهؤلاء الجوارى اللواتى انتشرن ليحكمن مصر من وراء ستار .

والواقع إن الدولة كانت مسيرة للجوارى الفاتنات ، وكن يجلبن من أســواق الرقيق فى استامبول وغــيرها ، وكانت منهن النصرانيات والافرنجيات والشرقيات المسلمات . وكانت موارد الدولة والجهاز الحكومى تحت تصرفهن ، بفضــل ارتباطهن بالقصر ، وكان الوزير لا يمكنه أن يخيب طلبا لواحدة منهن ، ففضلا عن الانعامات والحظوة

فان ألوف الفلاحين كانوا يحملون الى أراضيهن الزراعية للعمل فيها بالسخرة .

وفى عام ١٨٧٦ أرسل الخديو أولاده الى عواصم أوربا ، وعول على اكتساب عطف فرنسا بجعل باريس مقرا لدراسة نجله حسين كامل ، ومن البديهى أن أى ملك يسر سرورا عظيما اذا ما رأى أن أحد الحكام الاجانب قد سلم اليه ابنه ليتلقى ثقافته فى مدارس بلاده وليتشبع بأخلاقها .

وقد اشترط اسماعيل أن تكون سكنى الامير فى قصر فخم يطل على الشانزليزيه ، وأن يؤثث القصر بأثاث ملكى ، وأن يعين رئيس خدم وعدد وافر من الخدم وثلاث مركبات « فيكتوريا وكوبيه ولاندو » وسبعة خيول ، ويمنح الامير مليون فرنك فى السنة لنفقاته الخاصة عدا ايجار القصر ونفقاته ومرتبات المربى والمدرسين وأجور الخدم ، وأن يسير فى دراسته على المنوال المتبع مع ولى عهد فرنسا فيذهب الاساتذة اليه فى القصر .

وبعث بابنه الثانى حسن الى انجلترا واشترط من حيث السكن والاشراف على المعيشة نفس الاشتراطات التى لابنه حسين . ومن الطريف أن الامبراطور نابليون احتج على أن الخديو أرسل أكبر أنجاله الى لندن دون باريس ، فقام نوبار بمهمة افهام الامبراطور بأن أكبر أنجال الخديو وهو توفيق لم يبرح مصر ، والثانى فى باريس والثالث فى لندن .

وتلك كانت مشاغل الملوك !!

• ● •

واجتاحت مصر فى ذلك العصر موجة من التفرنج وتقليد الغرب فى متعه وأسلوب حياته ... صرف اسماعيل همه الى قلب القاهرة بغية أن يجعل منها باريس صغرى ، فخطط الاحياء وأقام الجسور الجميلة على النيل وعبد الشوارع ونسقها وأنارها بغاز الاستصباح ومد مواسير المياه الى البيوت ، وشيد الملاهى ودور القصف والتمثيل وذلك فى الاحياء التى تقع فيها قصوره أو التى تقطنها الجاليات الأجنبية ، أما الاحياء الشعبية فظلت على ما هى عليه من حيث الاكتظاظ بالسكان واهمال مرافقها ، ثم نصب التماثيل فى الساحات العامة ولكن لأفراد أسرته . وأنشأ ميدانا لسباق الخيل ليرفه عن

نفسه وعن ضيــوفه ، ثم نهج نهجه الوزراء والاعيــان فى المراهنة والمنافسة فى معاقرة الخمر .

وكان اسماعيل يعيش كملك أوربى فى مظهره ومأكله ، ويحاكى البلاط الفرنسى فى مظاهر مجونه وعبثه ... وتهافت باشواته على تقليده ، فشملتهم بدعة التفرنج ، وأسرفوا فى المظاهر الاجتماعية وتقليد الغربيين فى المسكن والمأكل والملبس ، واحياء حفلات ماجنة تتخللها الموسيقى الصاخبة وألوان الغناء والرقص الخليع ، واعداد الموائد على الطريقة الافرنجية ، وجلب الراقصات والمغنيات والغوانى من أوربا . وظهرت بدعة قضاء فصل الصيف فى فيشى وكرلسباد وافيان ،واستيراد الاثاث والرياش والتحفمن باريس وروما ولندن، أى انهم اقتبسوا آفات أوربا وقشور حضارتها دون اللباب ، ولو اقتبسوا العقلية الاوربية كما نهجت بعض الدول الشرقية كاليابان لما انتكست مصر وحكمها هذا الطاغية حكما أوتوقراطيا فاسدا .

ووضع الخديو ثقته فى أبناء جلدته من العثمانيين ، فكانوا يأنفون من الاندماج فى أوساط الشعب ، والتفاهم بلغته ، وتلقين أولادهم اللغــة العربية ، وكانت حكومته خليطا من العثمانيين والجراكسة والارناؤود والارمن وحثالة الافرنج الذين ضاقت بهم سبل العيش فى أوطانهم ، ولم يكن بينهم من يتكلم بالعربية ، ومع ذلك كانوا يحكمون شعبا ويسوسون رعية . وكان على رأس حكومته شخص أرمنى هو نوبار يحذق التكلم والكتابة باحدى عشرة لغة دون أن يفكر فى تعلم لغة الشعب الذى يحكمه . وكذلك كان معظم الوزراء ورجال الحاشية وكبار القواد يسيطرون على مصائر شعب لا يتفاهمون بلغــة أهله ، وكانت مكاتبات الدولة الرسمية والقــوانين ومراسيم تشكيه الوزارة تجرى باللغــة الفرنسية ، كأن اللغــة العربية التى وسعت كلمات الله الكريم فى كتابه العزيز لا تفى بحاجات الدولة .

وهناك مصالح وادارات حكومية مثل الجمارك والسكك الحديدية والتلغرافات والمساحة والموانىء يديرها قوم من الاجانب ، ولكنها تعد نفسها مستقلة عن الجهــاز الحكومى ، وكان قادة جيشــه من الافرنج ، وهؤلاء القــواد هم الذين خانوا مصر فى حروبها وسلموا أسرارها الى أعدائها ، ففى حرب الحبشة مثلا كان الجنرال لورنج متصلا بالجواسيس الفرنسيين المنبثين فى أرجاء البلاد لاستطلاع

حالة الجيش الفاتح ، فسهل لهم القائد الاجنبى مهمتهم وأمدهم بالبيانات والارقام التى يتوقون الى الحصول عليها ، وكانت النتيجة أن أخذ جيش مصر على غرة وأفنيت فرق بأكملها وتكبدت مصر خسائر فادحة فى الارواح والاموال .

وكان هناك حزبان يتنافسان حول العرش ، أولهما الحزب التركى بزعامة محمد شريف ، وكان منقسما الى شعبتين : الجركسى والعثمانى ، وهم جميعا من سلالة العناصر التى وفدت على مصر طلبا للرزق ، فشغلوا المناصب الرفيعة فى الحكومة وفى الجيش ، وملكوا القصور والاراضى والسرارى والمحظيات ، وأصبحوا يتيهون خيلاء على المصريين ولا يتنازلون الى التكلم بالعربية ، أما الحزب الثانى وقوامه المصريون فكان بزعامة اسماعيل صديق المفتش ، وكان لا حول له ولا حيلة سوى الرضوخ لسطوة الحزب الاول .

• ● •

لا تزال مصر تدفع ثمن أخطاء اسماعيل وتعانى الارزاء والمحن التى جرها عليه طيشه ومجونه ، واستخفافه بحقوق المواطنين ، وكان للمال الذى يغدقه على رجال الباب العالى تأثيره النافذ فى تعيين وزراء الدولة العلية وعزلهم والحصول على امتيازات عادت عليه وحده بالنفع الشخصى .

وفى مقدمة المسائل التى كانت تشغل باله مسألة تغيير نظام وراثة العرش وحصره فى أكبر أبنائه ، وهى مسألة لم تكن تهم مصر فى قليل أو كثير بل هى من المسائل الشخصية المحضة .

وقد سبق لاسماعيل أن تخلص من منافسه على الولاية وهو الامير احمد حين دبر مع نوبار مدير السكك الحديدية فى ذلك الحين مؤامرة لاغراقه . فقد حدث أن أقام الوالى سعيد مأدبة فى قصره بالاسكندرية فى ١٥ مايو ١٨٥٨ دعا اليها الامراء ، وفى طريق عودتهم بالقطار ، لم يكن جسر كفر الزيات قد شيد بعد ، بل كانت مركبات القطار تعبر على ناقلة بخارية ما بين كفر العيس وكفر الزيات وتخلف اسماعيل عن ركوب القطار من محطة الاسكندرية بعد أن رسم الخطة مع نوبار وناظر محطة كفر الزيات اسماعيل الشيمى وهى أن يجعلوا القطار يسقط بمركباته فى النيل أثناء عبوره فوق

الناقلة البخارية ، وكان أخوه الامير احمد رفعت أرشد افـــراد العائلة سنا بعد سعيد ، فلما استقرت المركبات فوق الناقلة وسارت الى منتصف النهر نفذت المؤامرة بأن دفعت المركبات لتسقط فى الماء ؛ وبذلك لقى أخوه مصرعه ، وكان بدينا فلم يستطع أن يقفز من شـباك المركبة وغرق والسيجارة فى فمـه ، وأما الامـير حليم فاستطاع أن ينجو بنفسه ، وأخيرا آل العرش الى اسماعيل بوصفه أكبر أفراد الاسرة سنا .

وبعد أن تولى اسماعيل العرش صـار نهبا للمخاوف ، اذ كان ينافسه عمه الامير محمد عبد الحليم أصغر أبناء محمد على ، وكان يعيش فى قصر باذخ فى شبرا حياة كلها ترف ولهو لا تقل شأنا عن مجون الخديو . . . كان يخرج الى الصـيد فى أبهة وجلبة وحوله الكلاب السلوقية والبزاة والموسيقى ، مما يعيد الىالاذهان ذكـرى السلاطين المماليك حين خروجهم الى الصيد ، وكان ينظـر الى أنه أحق بالجلوس على العرش من اسماعيل نفسـه . اذ انه من صلب محمد على رأسا على حين أن اسماعيل هو ابن ابراهيم الذىاغتصب العرش حالة كونه ربيب محمد على . . . انعكست هذه الخواطر فى نفس اسماعيل فدبر مكيدة للخلاص من منافسـه واتهمه بالتآمرعلى سلامته ، واضطره الى التنازل عن ممتلكاته ومبارحة قصره حيث أجبر هو وأفراد أسرته على ركوب القطار من شبرا بعد أن وجهت اليهم الاهانات ونفوا من مصر .

وكان هناك منافس اخر على العرش هو أخوه مصطفى فاضل ، وليس بين مولديهما سوى ساعات ، فجرده اسماعيل من ممتلكاته ونفاه بدوره ، فاختار الاول استامبول والثانى باريس مقاما .

وانفق الخديو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى صورةهدايا ورشاوى الى الباب العالى حتى يحقق لنفسه نظام التوارثعلىالعرش يحصره فى أكبر أبنائه ، وصدر بذلك فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ ورفعتبمقتضاه الجزية السنوية الى الضعف .

وتلى ذلك عدة فرمانات استخدمت فى سبيل تحقيقها الوسائل سالفة الذكر ، أى الرشاوى والهدايا ، فحصل على فرمان ٨ يونيو عام ١٨٦٧ بتغيير لقبه لقاء مليونى جنيه ، وسعى فى بداية الامرالى اختيار لقب « العزيز » بدلا من « الوالى » فرفض السلطان اعتماد

ذلك اللقب لان اسمه « عبدالعزيز » وهذا معناه انه عبده . فضلا عن أن اسم العزيز من أسماء الله الحسنى ، وبعد مفاوضات وقع الاختيار على لقب «الخديو» وهى كلمة مشتقة من اللغة الفارسية بمعنى « الرب » . وكان غرض اسماعيل من ذلك الاختيال بهذا اللقب على بقيــة حكام الولايات العثمانية والتقرب الى القاب الملوك والسلاطين .

وصدر فرمان ٢٥ سبتمبر ١٨٧٢ الذى يخول له حق الاستدانة وعقد القروض دون تصديق الباب العالى . وأنفق فى هذا السبيل فيضا من الرشاوى والهدايا للسلطان ولوالدته ولرجال حاشيته .

ولما كانت العملة تضرب باسم السلطان ، وكذلك الرتب والاوسمة تمنح بموجب فرمانات شاهانية . وكان محرما على مصر أن تبرم معاهدات تجارية مع الدول الاخرى أو تعدل أنظمتها القضائية ، فقد سعى الخديو الى استمالة رجال الباب العالى بالحصول على « فرمان جامع » فى ٨ يونيو ١٨٧٣ يطلق يده فى عقد المعاهدات التجـارية والاتفاقات الجمركية وسن القوانين والانظمة وزيادة عــدد رجال الجيش والبحرية .

ولم يكتف اسماعيل بالهدايا والاموال يواصل بها السلطان ورجال المابين لحل مشاكله . بل لقد أتى ما هو أنكى من ذلك ، وكان لخبرته بالنساء تأثير فى حل الازمات التى تثار بين مصر والدولة العلية . حدث ان أوفد الى السلطان مرة غادة بديعة الجمال ، كان الباديشاه قد لمحها فى قصر اميركون وأعجب بها . وكان لهذه الوساطة تأثيرها فى نفس السلطان الذى سرعان ما أنهى خلافا كان قائما بين الخديو والباب العالى بجرة قلم .

وامتدت أطماع اسماعيل الى ما هو أبعد من هذا . . . كان الغرور يزين له أن ينادى بنفسه امبراطورا على افريقية تشبها بامبراطور فرنسا ، وكان نابليون الثالث يؤازره فى تحقيق أطماعه ، ومن ناحية أخرى سعى الى المنـاداة بنفسه خليفة على المسـلمين بمصاهرة السلطان عبدالعزيز ، وأوفد رسله وحوارييه الى استامبول وزودهم بالهدايا والاموال لاغداقها على رجال الحاشية ، ثم سافر فى اثرهم ومعه كريمته توحيدة وقدمها الى السلطان الذى كان على وشك

عقد قرانه عليها لولا تحذير الصدر الاعظم له من عواقب هذه الزيجة .

• • •

وكان اسماعيل يأخذه الغرور فيتعلق بالقشور الزائفة التى اقتبسها عن الغرب ويزعم بأن مصر لم تعد فى افريقية بل أنها أصبحت قطعة من أوربا . ولم يدر بخلده أن الاقدار ستسخر منه فتجعل من بلاده فعلا قطعة من أوربا ولكن تحت وصايتها واشرافها تستغلها على الوجه الذى يحقق أطماعها .

كان يسير فى ركاب السياسة البريطانية والفرنسية اللتين تتنازعان مصر ، فسلم مقاليد السلطة فى السودان وممتلكات مصر الشاسعة فى افريقية الاستوائية الى حكام من الانجليز يعملون جهرا وسرا لحساب الاستعمار البريطانى ، وباع أسهم قناة السويس الى حكومة بريطانيا التى نظرت الى الاسهم من الوجهة السياسية لا التجارية ، وبادرت الى دفع الثمن . وقبل دفع تعويض مالى الى شركة القنال التى أحالت المنطقة الى اقطاعية فرنسية ، وسمح للبعثات الاجنبية بالتنقيب فى دفاتر حسابات الحكومة وسجلاتها بحجة تنظيم الميزانية ورصد الديون . وأدخل وزيرين أوربيين أحدهما انجليزى والآخر فرنسى فى وزارة مصرية يرأسها أرمنى مسيحى معروف بميوله الانجليزية هو نوبار ، وجعل هذه الوزارة غير مسئولة ، لا أمامه ولا أمام الامة . وسمح لهذين الوزيرين الاجنبيين بحق المعارضة « الفيتو » فيما يصدره من قرارات لا توافق مشربيهما ، وضحى بوزير ماليته اسماعيل صديق على مذبح الاستعمار الاوربى بتأثير ممثلى السياسة البريطانية . وكان اسماعيل صديق زعيم حزب يقاوم النفوذ الاوربى ، وعقب مصرعه بأسبوع واحد تقدم عملاء الاستعمار بمشروع يهدف الى تأليف لجنة دولية تقوم بفحص المالية المصرية وهو مشروع ينم عن تدخل سافر ، على الرغم من أن مصر كانت دولة شبه مستقلة ، وتابعة اسميا للدولة العلية . وكان غرض هذه اللجنة الخفى اعلان افلاس الحكومة ، واخيرا شحن وظائف الدولة ومرافقها بمئات من الموظفين الاجانب الذين يتقاضون

مرتبات باهظة ، وكان العمل الذى يسند الى اربعة منهم ، فى وسع موظف واحد ان يقوم به .

ومهد السبيل للاستعباد الاقتصادى بسماحه للاجانب بتأسيس شركات برءوس أموال اجنبية تحميها الامتيازات والحصانات ولا تخضع لاى لون من الوان الضرائب ، وسهل للغرب تصريف منتجاته فى الاسواق المصرية ، والقضاء على الصناعة المحلية وهزيمتها فى ميدان المنافسة .

وعهد للاجانب بالشئون السياسية العليا للدولة ، والتفاوض باسمها فى المحافل الدولية ، والبت بآرائهم فى كل شأن من شئونها .

وكان يصرف لكبار الموظفين الاجانب مرتباتهم كاملة على الرغم من فداحتها . على حين كان الموظفون المصريون محرومين من مرتباتهم ، بل ان من بينهم من كان يسرح من الخدمة بحجة الوفر .. حدث مرة ان احد ضباط الجيش عجز عن دفع كراء مسكنه عدة أشهر ، فشكاه المالك الى وزارة الحربية التى نظرت الى الشكوى من زاوية أخرى وأنزلته رتبة بعد تكدير ، ولم تفكر فى ان الضابط تأخر عن الدفع لان مرتبه لم يدفع اليه والى مئات غيره نحو عشرين شهرا .

وكانت المحاكم المختلطة التى بذل اسماعيل جهده فى انشائها بقصد اقرار العدالة شرا عليه ، فأصدرت أحكاما ضده وضد أفراد أسرته ، فمن ذلك أن أحد محضرى محكمة مصر المختلطة توجه بناء على طلب أحد الدائنين وتنفيذا لحكم صادر ، الى قصر الخديو للحجز على أثاثه ومحتوياته ، فماطل الخديو وذكر بأن هذا الاثاث سبق له بيعه الى بعض أفراد أسرته ولم يعد ملكا خاصا به ، فأى خزى وأى عار !!

• ● •

وكان اسماعيل يعمد الى التخلص من خصومه بشتى الطرق ، ولا سيما كل من يجاهر برأى جديد أو ينقد فكرة عامة ، فهو يدعوه الى قصره ويقدم اليه فنجالا من « القهوة الخديوية » فلا يكاد الخصم يؤوب الى داره حتى يخر صريعا وقد تغلغل السم فى أحشائه .

وكان الحجز على حرية الرأى شائعا فى عصره ، فللمرة الاولى فى تاريخ مصر عطلت الاقلام وقبرت الكفايات والمواهب وأغلقت دور الصحف والاندية وشرد رجال الفكر وصودرت برقيات وكالات الانباء التى ترد من عواصم الغرب ، وحرم ترجمتها الى العربية ، وكانت

النتيجة ان غمرت البلاد سيول من المنشورات السرية تصور مظالم الحاكم وتطالب بالحد من سلطانه المطلق ورفع معالم العسف والجور.
وقد وصفه الشاعر صالح مجدى بقوله :

رمى بلادكم فى قعر هـــاوية
من الديون على مرغوب جوسبار
وأنفق المال لا بخلا ولا كرمـــا
على بغى وقـــواد وأشـــرار
والمرء يقنع فى الدنيا بواحـــدة
من النساء وهو لم يقنع بمليار
ويكتفى ببنـــاء واحـــد وله
تسعون قصرا بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتكم
من غفلة ألبستكم ملبس العار

ومن أحسن ما وصف به اسماعيل ما كتبه معاصره يعقوب صنوع عنه وهى قطعة من الادب الشعبى الرفيع فى الصحيفة التى كان يصدرها بباريس باسم « ابو نظارة » :

« دلوقت راحت السكرة ، واستيقظ الفلاح ، وجاءت له الفكرة ، ومن مدة كام يوم فاق وصحى من النوم ، وفهم ان رب العالمين خلق عباده حرين ، وجعل الملوك فى كل مكان على الرعايا كالرعيان ، يدلوهم على طريق الفضيلة ويعلموهم العلوم والفنون الجميلة ، موش زى « شيخ حارتنا » الظالم اللى ما يقدرش يشوف فى بلاده رجل عالم . الا وحالا يعميه ، وفى نهر النيل يرميه . تبقى عياله عليه مغمومة . وأسماك النيل تعمل عليه عزومة . انت نسيت اسماعيل صديق ، وما جرى له ، وذل حال حريماته وعياله . وكم من أولاد حارتنـــا ياناس ، نعل أبو خاشهم وأسقاهم كأس السم ، واحنا أنذال قاعدين ساكتين ، ولاوامر الظلم ممتثلين .

« كفاك ان « شيخ الحارة » لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، ولا يوجد فى وقت الصلاة الا جنبا ، وفى رمضـــان الا مفطرا ، نعم يصوم ولكن عن الخيرات ، ويستقبل الفجر ولكن فى أحضان الساقطات . فاجر يقتات بالكبائر ، ويتفكه بالصغائر ، ويروح الى مولاه شاكيا ، ولشيطانه شاكرا ، فكأنه عاهد ابليس فلم يخن له عهدا ، ووعده ان يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعدا ، ان ذكر الاتقياء والاخيار

قال : : احضروا لى الطبيب ، وان سمع بالاشقياء الاشرار قال : غننى بذكرهم يانديم . فرعون بالنسبة اليه حاكم عادل . وأبو جهل ان قيس به امام فاضل ، ويزيد لو ماثله لما اضطربت الاقوال فى جواز اللعنة عليه . والحجاج لو شاكله لما اختلفوا فى نسبة الكفر والطغيان اليه . ولكنهم جميعا ليسوا اكفاء له . فانه هتك أستارا ما هتكوها . وانتهك حرمات ما هتكوها . وظلم حتى أهل القبور ، وجار حتى على السمك فى البحور . فلو مسخه الله ذئبا لفتك بجميع أنواع الحيوان . أو حية لما بقى على وجه الارض انسان . وحسبك انه يحب المظالم حبه لاولاده واحبائه اللئام . ويبغض المراحم بغضه لاضداده واعدائه الكرام » .

• ● •

فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ وقع فى القاهرة حادث فريد لفت اليه الانظار ، اذ قام فريق من ضباط الجيش بمظاهرة احتجاجا على الحكومة . . كانت حالة هؤلاء الضباط سيئة من الوجهة المالية لتأخر صرف مرتباتهم نحو ١٨ شهرا ، وزاد نوبار والوزيران الاوربيان من آلامهم بان استدعوا فريقا من الضباط الانجليز فى جيش الهند للقيام بمسح الاراضى الزراعية فى الدلتا والصعيد ، ورأى الضباط المصريون ان هذا الامر لا يتفق مع مصلحتهم وانه اعتداء على كرامتهم ، لانهم أعرف بطبيعة بلادهم فوق ما هم فيه من ضنك ، فتجمهروا فى الطرقات والشوارع ، والتقى فريق منهم بنوبار رئيس الحكومة فى شارع محمد على فى طريقه الى مقر رياسة الوزارة ، فأحاط الضباط بمركبته وأوسعوه ضربا ومزقوا ملابسه وألقوا بطربوشه الى الارض ، وحالوا دون ذهابه الى مقر عمله . وكذلك فعلوا برياض وزير الداخلية اذ أوقعوه على الارض وهو يحاول صعود الدرج الى مكتبه ، واعتدى فريق آخر على ريفرس ولسن وزير المالية ووجهوا اليه اهانات بالغة . وظل الضباط يهتفون بنداءات مختلفة فى مبنى وزارة المالية ، الى أن قدم الخديو بنفسه يصحبه عبد القادر حلمى باشا ، واستدعى حرسه الخاص من عابدين وأخذ الجند يطلقون النار فى الهواء ، وخاف الخديو على مركزه فخاطب الضباط بقوله : بما أننى الحاكم الشرعى للبلاد فقد وجب عليكم طاعتى .

لم تقو الوزارة المختلطة على الصمود فى الحكم وفشلت فى اخماد

حركة التذمر فى صفوف الجيش ، فتخلت عن مهام الحكم وخلفتها وزارة برياسة الامير محمد توفيق ولى العهد ، ومن بين اعضائها الوزيران الاجنبيان اللذان كانا كل شيء فى الدولة . ودبر على الخديو أن يستل سلطته بعدان كانت مطلقة ، فأوعز الى فريق من اتباعه أطلقوا على أنفسهم اسم « الجمعية الوطنية » ومنهم : شاهين كنج باشا ، ومحمد شريف باشا ، وعلى البكرى ، وابراهيم المويلحى بكتابة عرض أعلنوا فيه انهم يضمنون بأموالهم ديون الخديو الى جانب ضمان « الدائرة السنية » ويطلبون عزل الوزيرين الاجنبيين ، والغاء الرقابة المالية اكتفاء بما يقدمون من ضمان للدين العام .

على ان جمال الدين الافغانى فضح هذه المناورة المكشوفة التى دبرها الخديو وقام على رأس وفد من الاحرار ، واتصلوا بقناصل الدول مطالبين بتخليص البلاد من الخديو وعزله .

ولم تستطع وزارة توفيق ان تقف وحدها فى وجه التيارات المعارضة ، فاستقالت وأعقبتها وزارة محمد شريف التى تولى شاهين كنج فيها وزارة الحربية . وأحس ريفرز ويلسن ودو بلنير حرج موقفيهما فبعثا باحتجاج الى الخديو حول الطلب المقدم من « الجمعية الوطنية » وذكرا بان العريضة ستحدث اضطرابا فى مصير الامور .

وفيما كان اسماعيل يفكر فى طريقة الرد على هذا الاحتجاج اذ وقع حادث فريد آخر ، فقد سرقت من محطة بولاق الدكرور ، وهى نهاية خط سكة حديد الصعيد ، متحصلات ضرائب الوجه القبلى وهى ٢٨٠ الف جنيه ، سرقت عند منتصف الليل . فقصد مسيو تريبو قنصل فرنسا الى قصر عابدين فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ودار بينهما حديث عنيف لاح من غضونه ان القنصل يتهم الخديو شخصيا بسرقة هذه الاموال التى هى جزء من سداد الدين . وهدده بأن فرنسا باتفاقها مع انجلترا وسائر الدول الغربية ستطلب الى الباب العالى عزله ، لان الحالة أصبحت لا تطاق . فجمع اسماعيل وزراءه وعرض الامر عليهم ، فكان من رأى شاهين كنج أن يرسل الخديو برقيتين احداهما الى الباب العالى يبلغه بان قنصل فرنسا أهان جلالة السلطان فى شخص ممثله ، ويطلب سحبه من مصر . والبرقية الثانية الى وزير خارجية فرنسا يطلب فيها بعد سرد ماحدث من القنصل سحبه فى الحال ويهدد بأن مصر فى حالة الرفض ستضطر الى قطع علاقتها الديبلوماسية بفرنسا .

ولكن اسماعيل تردد ثم تقهقر ، فكان من نتيجة ذلك ان بيتت الدول الغربية النية على عزله . فوجهت فرنسـا وانجلترا انذارا عنيف اللهجة فى ١٩ يونيو ١٨٧٩ جاء فيه : ان الحكومتين الفرنسية والبريطانية تشيران عليكم بالنزول عن العرش ومغادرة مصر . فاذا قبلتم المشورة تقررت مخصصات كافية لكم ولا يحدث خلل فى نظام توارث العرش ، كما ان رفضكم التنازل عن العرش سوف يحـل الحكومتين من وعدهما لكم بالمخصصات ، ومن المحافظة على العرش لمصلحة الامير توفيق » .

وأخيرا جاء أمر العزل من السلطان نفسه ، بتوصية الدول الغربية التى كان اسماعيل يستعين بها على قضاء مآربه واذلال الشعب ، فلم يتورع الخديو من أن يجمع الصاغة فى قصر عابدين يواصلون الليل بالنهار فى نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل عليه نقلها والتصرف فيها . وجرد القصر من الرياش والتحف والاوانى الذهبية المرصعة باللالى والماس واليواقيت ، والطنافس واللوحات . والثريات مما ملأ به قطار بضاعة سبقه الى ميناء الاسكندرية . ووضع يده على ماكان موجودا فى خزانة الدولة من نقود وأوراق مالية مما قدر بقرابة ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وسهل له ابنه توفيق عمليات السطو والاغارة ونقل هذه الكنوز الى الخارج ليحارب بها النهضة الوطنية من منفاه.

وقدرت لجان التصفية ممتلكاته الزراعية قبيل خلعه بنحو ستين مليونا من الجنيهات مع انها كانت قبل ان يلى الحكم لا تتجاوز بضعة مئات من الفدادين وكان ايراده السنوى لا يتجاوز الثلاثين الف جنيه سنويا .

وبعد أن وصل اسماعيل الى منفاه فى نابلى مشيعا بمظاهر السخط من الاحرار حاول أن يسطو على يخت المحروسة ، وهو من ممتلكات الدولة ، لولا أن هدده الدائنون الاجانب بمنع معاشه السنوى عنه ، فاكتفى بأن جرده من الرياش والاثاث والتحف وغنمها لنفسه وأعاده الى الاسكندرية خاويا .

ولم يلجأ اسماعيل وهو قابع فى منفاه الى العـزلة والاعتكاف والاستغفار عن ذنوبه ومآثمه ، بل ظل يوالى الدسائس ويساوم على مصر ، فيبعث بالرسل الى الساسة البارزين فى الغرب ، والى زعماء الحركة العرابية لعزل ولده الخديو توفيق واعادته هو الى العرش ، وأنفق فى هذه السبيل ما سلبه من الشعب ، ولم يتورع أيضا عن أن يعد البريطانيين وعدا صادقا بتأييد احتلالهم وادى النيل احتلالا شرعيا

الفلاح والارض الطيبة

الحياة الاجتماعية – الحيـاة الاقتصادية – الصراع من أجل الخبز – سياسة الاحتـكار فى الزراعة والصناعة والتجارة – الضرائب واللصوصية السافرة – خراب مصر المالى .

قبل التوسع فى عرض خصائص الحياة الاقتصادية ، يحمل بنا ان نلقى نظرة شاملة على حالة المجتمع فى ذلك العصر .. فقد كانت تحكم مصر حكومة من غير أهلها ، على رأسها وال عثمانى ، ويعاونه حكام من أجناس غريبة متنافرة ، لا تتخاطب باللغة العربية ، وقلما تستخدمها أو تقيم لها وزنا ، أو تتمسك بأهداب الدين والشرع ، ونظرا الى ان هؤلاء الحكام كانوا أغرابا عن الشعب الذى يحكمونه ، فقد جعلوا من مصر مسرحا للمطامع السياسية وميدانا للفتن والدسائس والمشاحنات .

وكانت مصر تنقسم الى طبقتين اجتماعيتين : طبقة السادة وتتكون من العثمانيين واشياعهم ، والمماليك ، وعدد هؤلاء جميعا لا يتجاوز الاثنى عشر الف نسمة ، والثانية طوائف الشعب ويناهز عددها الثلاثة ملايين نسمة .

فالعثمانيون يؤلف منهم ديوان الوالى وهيئة كبار الموظفين الذين كانوا يترفعون عن الاتصال بالمصريين ، ويصدفون عن النظر بعين الانصاف فى شئونهم ، ويسومونهم سوء العذاب لابتزاز الضرائب ، دون ان يراعوا حرمة قانون أو نظام .

وكان العثمانيون يسكنون القصور ويلبسون الديباج ، ويقتنون الجوارى والغلمان ، لا يشغلهم من شئون مصر سوى التماس الراحة والنعيم على الارائك الحريرية فى غرف الفسيفساء المموهة بالذهب ، وتحوط قصورهم حدائق غناء تزينها سرارى من بنات الكرج وممن يعرضن فى أسواق الرقيق .

ولم تكن لهؤلاء الاغراب دراية بالعلوم والفنون ، فوجهوا التفاتهم الى التدرب على أساليب القتال ورياضة الاجسام ، وبسطوا سلطانهم على الموارد الاقتصادية يبتزونها ، وعلى الدخل القومى يستنزفونه ،

اذ كانت ألوان الترف التى تجرى فى قصورهم تتطلب نفقات باهظة تعجز عنها مواردهم الخاصة .

اما المصريون فهم الذين يؤلفون الطبقات الكادحة التى تعمل وتنتج وتزرع وتدفع الضرائب فى صبر دون اكتراث لغير مشكلة تدبير الطعام والكساء ومكافحة الاوبئة والامراض التى تفتك بهم فتكا ذريعا، والتحايل على تجنب ألوان الاذى والتفنن فى رد المظالم التى تنزل بهم .

وقد احتفظ الفلاح وسط هذه العواصف والانواء والنزعات بالكثير من مظاهر سيادته القومية ، فبرزت من بين صفوفه طبقات العلماء ورجال الشرع والنقباء ، وخرج منها التجار والزراع والصناع والعمال ، ونشأت العصبيات الشعبية التى أرغمت الباب العالى على الاعتراف بقوة نفوذها فأشركت أقطابها فى عضوية المجلس الكبير الذى يعقد بديوان الوالى للفصل فى كبريات المسائل .

وكان مركز رب الاسرة فى القرية بمثابة مركز الزعيم فى القبيلة ، فهو يقيم مع اولاده وحفدته ونسائهم فى مسكن واحد يعرف احيانا باسم « البيت الكبير » ويتولى الانفاق عليهم جميعا ، ويتحمل المسئوليات أمام الغير ، وكان يباشر زراعة الارض ويبيع المحصول ، وله أن يستعين بأفراد الاسرة بما فيها النساء فى شئون الزراعة دون ان يدفع اليهم أجرا . وقد يقع اختياره على أحد ابنائه فيدفع به الى « الكتاب » ثم يبعث به الى الازهر ليغدو بركة تشمل الاسرة والقرية .

وكذلك كان بين المصريين الفقهاء والعرفاء، وفى أيديهم ادارة الاوقاف والاشراف على شئون المساجد والزوايا والاضرحة والمنشآت الخيرية ووجوه البر . وكانت معيشتهم غالبا فى ترف بالنسبة للمجموع ، وكانوا بصفة عامة يمثلون الارستقراطية الشعبية أحسن تمثيل .

وكانت جباية الضرائب موكولة الى فئتين من المصريين هما : الروزنامجية وفى ايديهم تقاويم الارض وسجلات الاملاك ، وكانوا يمتازون عن مجموع الشعب من حيث المحافظة على أنسابهم وعدم مصاهرتهم سوى طبقة معينة ، ثم الاقباط وكان عملهم مقصورا على ضبط الحسابات وجباية الضرائب ، وكان بين اليهود الصيارف والصياغ والمرابين فى المدن والعواصم .

اما الافرنج ومعظمهم من سكان حوض البحر الابيض المتوسط فكانوا من التجار وكانوا يقيمون فى العاصمة وثغور الاسكندرية

ودمياط ورشيد ، وكانوا يرتدون اللباس الشرقى ويتكلمون بالعربية ويصاهرون المسيحيين الشرقيين .

ومن الطبيعى ان الصورة البشعة التى كانت تحكم بها مصر تكفى لان تؤدى الى هبوط مستوى المعيشة ، والى نقص القوة الشرائيـة عند الافراد ، ثم الى انصراف الاذهان الى مقـاومة حركات الظلم ومناهضة الاستبداد والنظم القاسية المفروضة على المجموع بقصد اذلاله واستنزاف قواه المادية والروحية .

ولا نغالى اذا ما وصفنا حالة الشعب فى هذه الفترة الحالكة من اريخه بانه كان فى شبه غيبوبة ، فقد عمه الفقر والجهل ، وتفشى المرض والخمول والكسل بين أفراده . فانحطت قواه الذهنيـة والجثمانية ، واصيب بالكوارث الاخلاقية ، وسرت روح التهرب من المسئوليات والافتقار الى الشجاعة الادبية ، والاستخفاف بمطالب الحياة وعدم الحيطة للمستقبل .

أما الدين فقد شاعت فيه صـنوف من البدع والاضاليل التى أفسدت جوهره ، فانتشرت أساليب الدروشة ، وتعـددت الفرق الصوفية ، وصار قوامها الشعوذة والاباطيل ، واستمد الدراويش الكثير من تقاليدهم : كطرق السير ، والاعلام ، والكاسات ، والدرجات من مريد الى نقيب الى خليفة الى نائب من بقـايا نظم الجند عند الفاطميين .

ونظرا الى خوف طبقة العلماء من بطش الحكام وقسوتهم ،دبت فى نفوس أقلية منهم روح الرياء والمداهنة ، واضطروا الى تفسير آيات الكتاب الكريم وفق هوى الحكام وأخضعوا هذه التفاسير لنظريات القضاء والقدر ، وتخلوا عن الاضطلاع بالمسئوليات واهمال الحقوق السياسية والواجبات الاجتماعية .

وحرص نفر اخر من العلماء على الجمع بين وظيفته الدينية وبين القاب مشايخ الطرق ليستكملوا بذلك أسباب الزعامة الدينيـة . فكانوا الى جانب ذلك يتمتعون بنفوذ روحى بين الطبقات ، وكانت لهم منزلة رفيعة عند الخاصة ، ومكانة مرموقة عند العامة ، فطالما لجأ المواطنون اليهم عند وقوع الملمات والكوارث لرفع حيف عن مظلوم أو دفع أذى عن مكلوم باعتبارهم ممثليه الحقيقيين الذين يفهمـون روحه حق الفهم ، اذ كان جميع الحكام اغرابا عنه ليست بينهم وبين

المحكومين من صلة سوى صلة جمع الضرائب والاتاوات كلما شعروا بحاجتهم الى المال .

وكان « بيت العالم » حرما لا يعتدى عليـه مهما كانت البواعث الدافعة الى ذلك الى حـد ان بعض ابناء المماليك كانوا يهـربون من منافسيهم فيجدون فى دار العالم الامن والطمانينة والسلام .

والواقع أن المماليك كانوا أكثر الحكام الذين عرفتهم مصر اتصالا بأفراد الشعب ، فكانوا يشركونهم فى حفلاتهم وأفراحهم ، ويحرصون على تبادل الزيارة معهم فى الاعياد وفى المواسم الدينية ، مما جعـل الشعب يشعر نحوهم بعاطفة مشوبة بالود والتعظيم .

• ● •

منذ حقب موغلة فى القدم ، ونهر النيل يحمل ماءه وطميه الى الارض الطيبة والفلاح قائم على ضفتيه يحرث الحقل ويتعهد الزرع ويتجه بنظره الى السماء يدعو ربه ان يحرس محصوله وثمرة كده .

ولم تحو ذاكرة الفلاح ولم يتلق عن آبائه ان الطبيعة قست عليه ، أو ضنت عليه بخيراتها ، اما الحاكم المتجبر وأعوانه وسدنته ، فقد كانوا هم زبانية القدر الذين يخشى بأسهم ، ويخاف على قوته وقوت عياله ، من زياراتهم المفاجأة فى مواسم الحصاد وجنى المحصول .

بعد أن فتح السلطان سليم مصر أصبحت الارض ملكا له بحـق الفتح ، وذلك حسب نص الشريعة التى تقرر بأن الارض التى تغنم عنوة بحد السيف تكون حقا لفاتحها . على ان السلطان رأى ان توزع الارض على الفلاحين لزراعتها فى مقابل دفع الضريبة المقررة عليها ، وبذلك أصبحت الارض شبه ملك لطائفة من الذين يتولون خدمتها ولورثتهم من بعدهم ، واستثنى من هذا النظام : أرض الوسـيـة ، والوقف ، وأرض « الرزقة » وأعفيت أيضا من الضرائب .

وكان من عادة المصريين ان يقبلوا على وقف الارض خوفـا من مصادرتها أو الاستيلاء عليها ، ولان الاراضى الموقوفة كانت معفـاة نسبيا من الضريبة .

وتولى محمد على الحكم والفلاح يعيش فى سعة من الرزق ، اذ كانت مساحة الارض متعادلة تقريبا مع عدد السكان ، أى بنسـبة فدان تقريبا لكل مواطن . وعلى الرغم من ان نظام جباية الضرائب عن طريق الملتزمين كان يثقل كاهل الفلاحين ، الا انهم اتقنـوا على مر

الزمن الوسائل التى ينفذون بها حصة طيبة من انتاج الارض لانفسهم .

وبدأ محمد على يرسم خطة واسعة النطاق لكى يمكن نفسه ويمكن خلفاءه من بعده من السيطرة سيطرة مطلقة على البلاد . وكان فى طليعة ما تذرع به من وسائل للتحكم فى الاغلبيــة واذلال المصريين ، السيطرة على منابع الرزق سواء فى الارض أو الصناعة أو التجارة ، وبهذا استطاع ان يضع أسس حياة سياسية كانت تنحصر فى الاسرة وفى الفرد وهى توجهه الى الاتجاه الذى يريده الحــاكم وصاحب الارض .

ففى عام ١٨٠٩ أعلن نظام الالتزام واستولى على أرض الوســية التى كانت شبه احتكار للملتزم، وعمد الى الاستيلاء على عقود الالتزام واحراقها ، الى أن كان عام ١٨١٤ حيث أعلن بأن الاربعة مليون فدان التى تزرع هى ملكه وحده ، وشب الصراع عنيفا بينه وبين القائمين على شئون الارض ، فمنذ عشرات السنين وهم أصحاب هذه الارض يخدمونها ويورثونها لابنائهم ولحفدتهم من بعدهم . وسلط عليهم أمير الصعيد ابراهيم أن يفعل كل ما فى وسعه لتحطيم روح المقاومــة وانتزاع الارض بالقوة ، فكان القواصة يهبطون القرى ليلا بالسلاح وينصبون المشانق وأدوات التعذيب فى الاجران لارهاب كل من تحدثه نفسه بالدفاع عن أرضه والتمسك بها . وزاد ابراهيم على ذلك بأن انتزع معظم الاراضى الموقوفة على أعمـــال البر ، فنزح ألوف من الفلاحين الى العاصمة يشكون الى الوالى أعمال أمير الصعيد ، فأحالهم عليه . وعاد ابراهيم الى الريف ليحاسب الفلاحين على شكواهم بأن نصب أدوات التعذيب ، وسلط زبانيته ليذيقوا المدافعين عن الارض كؤوس الهوان .

هكذا انتصرت الدكتاتورية البربرية ... وألغيت ملكية الاراضى الزراعية واستبدلت بها ملكية عامة لجميع الاراضى التى صارت من حق الحكومة ، ولم تكن هناك فى الواقع تفرقة بين ملكية الحكومــة وبين ملكية الحاكم . فصارت الارض ملكا خاصا به وحده ، مدعيا التسلط عليها بحق الفتح أحيانا وبحجة انه النائب عن الخليفة فى أحيان أخرى .

وبديهى ان هذا النظام لم يدع مجالا لافراد الشعب حتى تنمـو ثرواتهم الشخصية وبذلك ضمن محمد على عدم قيام طبقـــة من المصريين يؤهلها مركزها الاقتصادى لبناء مركز سياسى يهدد سلطة

الاسرة الحاكمة ، ثم أسندت المناصب العليا فى الدولة الى الغرباء الذين لا خوف منهم على العرش . فخلق هذا النظام هوة فسيحة بين الشعب وبين حكامه الغرباء الذين كانوا لا يفهمون روحه ولا يحسون الامه وامانيه .

وبعد أن ملك محمد على الارض أخذ يصادر ما عليها من انسان ودابة وأدوات للحرث والحصاد ، وهنا ضاقت الارض بسكانها ، فهرب ألوف الفلاحين ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأخذوا يهيمون على وجوههم فى العراء ، ومنهم من اتجه الى ناحية المشرق حيث استقر فى حمى عبد الله الجزار حاكم جنوب الشام .

ورأى محمد على ان يحيط نفسه بطبقة من صغار « أولياء النعم » فأخذ يقطع المقربين اليه مساحات شاسعة من الارض ، ويسوق الفلاحين اليها وهم مصفدون فى الاغلال يشقون الترع والمصارف اليها ويزرعونها لحساب الملاك الجدد ، وبلغت مساحة هذه « الابعاديات » التى وزعها على هؤلاء المحظوظين نحو ربع مليون فدان. وكان من بين هؤلاء المحظوظين أفراد بطانته ومن يلوذ بهم من النوكى، وطبقة من الافرنج على الرغم من ان القانون العثمانى كان يحرم على الاجنبى تملك الارض فى بلاد تخفق فوقها الراية العثمانية .

ولم ينس بطبيعة الحال أفراد أسرته ومن فى حكمهم من الاصهار فأقطعهم بدورهم مساحات أخرى شاسعة من الاراضى ، تفوق فى مساحتها «الابعاديات» واطلق عليها اسم «الشفالك» .

وبعد أن ركز القوة الاقتصادية فى قبضة يده وأيدى أفراد أسرته وبطانته ، رسم خطة ثابتة لاحتكار محصول الارض ، مؤداها ان توزع الارض على الفلاحين بمعدل ثلاثة الى خمسة أفدنة لكل فرد ، وكان الفلاح يخدم هذه المساحة الصغيرة من الارض بوصفه مستأجرا ، ويسقط حقه فى فلاحتها اذا ما عجز عن دفع الضريبة، ويعطى البذور والمواشى وآلات الحرث على أن يؤدى ثمنها عند جنى المحصول .

وكان على الفلاح أن يزرع ما تفرضه الحكومة من أنواع المحصولات مثل القطن والكتان والدخان والقرطم والحمص والنيلة ، ويعاقب كل من يخالف تنفيذ هذه السياسة أو يحيد عنها بان يضرب خمسين سوطا أو تصلم أذنه ، وفيما عدا الاكراه البدنى فهناك عقوبة السجن والاعدام .

ولم يكن من حق الفلاح أن يتصرف فى أى جزء من المحصول ، وانما

عليه أن يورده الى مخازن الحكومة ، فيوزن أو يكال ، ويقـرر لكل وحدة السعر الذى يحدده الحاكم ويخصـم من الثمن : سدس المحصول بصفة مكافأة للفلاح ، ثم الضريبة وثمن المواشى والبـذور والسماد وأدوات الحرث ، واذا صادف أن احتاج الفلاح الى جزء من محصول الارض لاستهلاكه الشخصى فعليه فى هذه الحالة ان يبتاع حاجته من مخازن الحكومة وبالسعر الذى تفرضه ، كما كان عليه أيضا شراء منتجات مصانع الحكومة . مثال ذلك كان سـعر شراء الاردب من القمح ٢٧ قرشا ، فاذا سمح للفلاح باسترداد شىء منه كان سعر البيع ٥٦ قرشا . وكان سعر الاردب من الارز ٩٠ قرشا ، وسعر البيع للفلاح ١٤٠ قرشا ...

ولم يكن للفلاح أن يقبض قيمة سدس المحصول نقدا وانما يعطى صكوك على خزانة الدولة ، ولم تكن هناك قيمة ما لهذه الصكوك ، فقد كانت بمثابة دين فى ذمة الدولة. وكان الموظفون يماطلون الفلاحين فى دفع القيمة ، فيزعمون فى كل مرة بانه لا توجد نقود فى الخزانة ، وأخيرا يضطر الفلاح الى بيعها الى ملتزمين بنقص يبلغ أحيانا أربعين فى المائة . ويجمع الملتزمون هذه الصكوك وفى ختام السنة يساومون الخزانة العامة على مبلغ من المال يدفع اليهم .

وقد حدث فى حفلة ختان سعيد بن محمد على أن قدمت فرقة من « خيال الظل » بعض ألعابها ، واتخذت موضوع « الصكوك » مـادة للتنادر ، فكان الحوار التالى يدور بين « الخيال » و « طيفه » :

ــ انى افلست

ــ يجب ان تستدين

ــ واذا حل موعد الدفع فان الدائن يطالب بحقه

ــ اذا لم تدفع المبلغ فى المحكمة فان القاضى لا يحكم بافلاسـك وهناك ٩١١ بابا لرشوة القاضى .

ــ ان الذى يدخل سجن القلعة يظل فيه الى ان تخور قواه فيكون مقامه الاخير فى القبر .

ــ آه ... انك بفضل أفكارك « الحمارية » ستموت جوعا ! ولماذا الذهاب الى المحكمة فسجن القلعة ؟ اذا حل الموعد حول الدين على.

ــ وأنت ؟

ــ أحوله عليك

ــ وأنا ؟

ـ تحوله على

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شيء ! تبلى الورقة فى يد الدائن مثل الحوالات والصكوك المصرية تماما .

وكان أمير الصعيد يشهد هذا العرض التمثيلى فمال على اذن بوغوص وكيل الشئون الخارجية والتجارية وقال له :

ـ ان هؤلاء الناس يتندرون علينا ولم تبق لنا من حيلة سوى الغاء طريقة الصكوك على خزانة الدولة .

وزوى ادوارد لين ، المؤلف الانجليزى الذى زار مصر ابان تلك الحقبة :

« ان أحد الاتراك ـ وهو سليمان اغا السلحدار ـ وكان مديرا للغربية واشتهرت عنه القسوة وغلظة القلب ، مضى ذات ليلة الى شونة الحكومة فى طنطا والتقى بفلاحى الشونة نائمين هناك ، فسألهما من يكونا وما شأنهما فى هذا المكان ، فأجاب أحدهما بانه أحضر الى الشونة ١٣٠ أردبا من القمح من احدى قرى الناحية ، وأجاب الثانى بانه أحضر ٦٠ اردبا من محصول الارض . وعندئذ صاح المدير فى وجه الثانى قائلا : تبا لك أيها الوغد . ان هذا الرجل قد أحضر ١٣٠ اردبا من أراضى قرية صغيرة وانت لم تحضر الا ستين أردبا من أرض فى أرباض طنطا . فاجاب فلاح طنطا بقوله : ان هذا الرجل يجىء بهذا القمح مرة فى الاسبوع اما أنا فأحضره كل يوم . فانفعل المدير صائحا : صه . وأشار بيده الى شجرة قريبة وأمر أحدحراس الشونة بشنق الفلاح على أحد فروعها . ونفذ الامر فى الحال وعاد المدير الى منزله . وفى الصباح رجع المدير الى الشونة وأبصر برجل يحمل كمية وفيرة من القمح . وعند ما سأل عنه أجابه جلاد الليلة الماضية :

ـ انه يا مولاى الرجل الذى أمرتنى بشنقه فى الليلة الماضية ، وقد أحضر اليوم ١٦٠ أردبا .

وصاح المدير فى دهشة :

ـ ماذا تقول ، هل دبت الحياة فيه .

فاجابه الجلاد :

ـ لا يا مولاى . . . لقد شنقته بحيث لمست أصابعه سطح الارض ، وعند ما رحلت حللت وثاقه ، اذ انك لم تأمرنى بقتله .

فزمجر المدير التركى قائلا :

ـ آه ... الشنق والقتل شيئان مختلفان عندكم فى اللغة العربية، حقا انها لغة غنية . فى المرة القادمة سآمر بالقتل ... ولكن احذر غضب ابى داوود .

•●•

وما ان خفت قبضة محمد على عن الفلاحين باختفاء شبحه من أريكة الحكم ، حتى تزايد هرب الفلاحين من الارض التى ولدوا فيها وعاش فيها وعليها أجدادهم ... وهال عباس الاول هذه الهجـرة الجماعية والمقاومة السلبية الصامتة ، فرأى أن يتبع سياسة جديدة بأن يحتفظ بالشفالك وبالتفاتيش الخاصة لافراد أسرته ، وان يترك بقية الاراضى حرة .

وفى عام ١٨٤٦ أصدر قانونا يمهد به لتغيير نظام بدأ يضمحل فعلا، ويتلخص هذا القانون فى النقاط التالية :

١ ـ يجوز لمستغلى الاراضى ان يتصرفوا فيها بالرهن أو التنازل للغير عن حق الانتفاع على أن يثبت ذلك بحجة تكتب أمام الشهود .

٢ ـ يعود حق الانتفاع بالارض للحكومة اذا أهمل الزارع زراعتها وهجرها ، ولكن للزارع حق استرداد أرضه عند أوبته .

٣ ـ يحرم الزارع من حق الانتفاع بالارض اذا توقف عن دفـع الخراج المفروض عليها .

ولكن هذا القرار لم يتبع بنصه بل قاومته الرجعية الجشعة . الى أن ولى سـعيد الحكم ، ورأى الحقـول تغطيها طبقات من التراب ، والخزانة العامة خالية من المال لعدم دفع الخراج وبسبب قلة الانتاج الزراعى ، فأخذ يوزع الارض على الفلاحين لاستثمارها فى مقابل دفع الضريبة ، وأن تحرر عقود شرعية بذلك تثبت فى سـجلات المحاكم الشرعية ، وأن يورث الفلاح أبناءه وحفدته أرضه سواء أكانوا من الذكور أم الاناث وفق أحكام الميراث الشرعى ، وبهذا حصل من كانت فى حوزتهم أراض من الفلاحين على ما بأيديهم ، واشترط دفع رسم للتسجيل لا يتجاوز ٢٤ قرشا عن الفدان الواحد .

ولم تختتم هذه المرحلة من الشاقة من الكفاح لاسترداد الارض بهذا النص وحده ، ولكن أعفى الفلاحون من دفع المتأخـرات التى كانت عليهم ، والتى كان محمد على يطاردهم من أجلها مطاردة لا هوادة

فيها ، وقدرت هذه المتأخرات بقرابة المليون جنيه .

ولم يكد الفلاح يطمئن الى أن الارض أصبحت فى حوزته حتى أطل شبح حاكم ماجن ، من أشهر لصوص التاريخ هو الخديو اسماعيل ، فأخذ يبث أعوانه فى القرى يتخيرون له الاراضى الجيدة التربة ، الخصبة الطينة ، القريبة من موارد المياه . فأغاروا على الارض بغية انتزاعها من أربابها . وكانت عقود البيع تتم فى أشكال صورية ... كانوا يشترون الفدان الذى يساوى ثمانين جنيها بسبعة أو ثمانية جنيهات دون أن يدفعوا الثمن نقدا ، بل يخصم الثمن من ضرائب وهمية مقررة على الارض ، ثم يعمدون الى تأجير الارض ذاتها لملاكها السابقين أو لاغراب عن القرية بسعر الفدان سبعة جنيهات فى السنة .

وبهذه الطريقة تمكن الخديو من أن يستحوذ على خمس مساحة الاراضى الصالحة للزراعة ليطلق عليها اسم « الدائرة السنية » ، وان يركز فى أيدى بقية أفراد أسرته الخمس الاخر .

وكانت الدائرة السنية تتكون من ٥١ دائرة منبثة فى جميع انحاء البلاد ، تشرف كل منها على مزرعة أومزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين الالفى والمائة الف فدان وتسيطر على ٩٥٠ الف فدان .

وكذلك كانت عبارة عن وزارة للزراعة قائمة بذاتها ، بل الاصح دويلة داخل الدولة . مقسمة الى تفاتيش ، وكان المفتشون القائمون على العمل لهم سلطة مطلقة على موظفى الدولة ونفوذواسع النطاق ، وكان للدائرة معاصر للقصب ومعامل للسكر ومجموعة خطوط حديدية ضيقة وخدمة تلغرافية وتليفونية خاصة بها .

ولم يقتصر اسماعيل على ان يحوز لنفسه هذا القدر الهائل من الارض ويخص أفراد أسرته بأضعافه ، ولكنه استأنف سياسة جده من انتزاع الارض من أيدى الفلاحين ليمنحها فى صورة هبة أو احسان الى أصحاب الحظوة عنده ، وقدرت هذه الهبات وحدها بنحو ٨٧٦ر٨٦٣ فدانا .

وظل الفلاح كما كان فى العصور المظلمة ، مشدودا الى الارض يفلحها من شروق الشمس الى غروبها . مضطرا الى العمل الشاق فيها والتفانى فى خدمتها ، وكانت ثمار كده وتعبه تؤول الى الاغراب دون ان يتبقى له منها غير ما يمكنه من معيشة الكفاف ، فيقطن كوخا مشيدا بالطين لا يمكنه أن يبيت بداخله ، فهو ينام وأهله ببابه أو

فوق سطحه ، وهو خال من الاثاث عدا صندوق خشبى به بعض الثياب ، وفى الحائط خزانة عبارة عن قدر من الفخار يحتفظ فيها ببعض القروش .

وتكاثرت الخطوب على الفلاح دون ان يجرؤ على المجاهرة بالشكوى، وظل مسخرا بين عبوديتين : عبوديته لحاكم متفرنج هو اسماعيل حمله وحده نتائج ارتباكه المالى واسرافه وتبذيره . وعبوديته للدائنين الاجانب الذين يهبطون القرية ويعطونه الجنيه بفائدة ثلاثين فى المائة ، ثم يحررون له سندا يوقع عليه بخاتمه ، آمنا ، جاهلا ما يخبئه له القدر ، فاذا حل موعد السداد ولم يدفع طرد من حقله .

وساد الذعر طبقات الفلاحين بسبب الكوارث المالية وانتشار ألوان البؤس والفاقة ، ثم عم القحط على أثر هبوط النيل « عام ١٨٧٧ » ثم فيضانه فى السنة التالية بشكل مروع . وكأن عقاب الطبيعة لم يكفه ، فسلط عليه وزير المالية الاوربى الذى لجأ الى أقسى الوسائل فى جباية الضرائب منه لتوفية أقساط الدين العام ، والزم الحكام بان من لم يدفع الضرائب فى الحال يباع محصوله ومواشيه .

لقد ظل الفلاح عهدا طويلا يمقت استبداد الاتراك وأسلوب حكمهم ولكنه أضاف اليهم العنصر الاوربى الذى جاء يشجع الحكام الاغراب على ابتزاز مورد رزقه ، وارهاقه بمختلف ألوان السخرة ، وفى الاجمال فقد كانوا سواسية فى نظره ، أى أغرابا عن قومه وعشيرته وأرضه .

والواقع ان الاحداث تعاقبت على الفلاح ، يحصد الموت أطفاله ومواشيه دون أن توجه عناية صحية اليه ، ويقتات أردأ أنواع القوت، ويشرب الماء الملوث، ويكتسى بالاطمار البالية،ويوصم بالجهل .

وبعد أن صدر الفرمان السلطانى بجواز حيازة الاجانب الاراضى والعقار داخل الدولة العثمانية ، تكونت شركات عقارية برءوس أموال ضخمة ، وأمكنها الحصول على مساحات واسعة من الاراضى، بعضها منزرع والاخر من الاراضى البور القابلة للاستصلاح ثم تقسيمها الى قطع لبيعها للزراع ، وأدى هذا النظام الى أن الاجانب اصبحوا يملكون حوالى عشر الاراضى الزراعية فى مصر .

• ● •

بيد ان الامر لم يقتصر على احتكار الزراعة وتقييد حرية الفلاح،

بل تعداه الى الصناعة . فقامت الحكومة بانشاء مصانع فخمة قضت بها على الصناعات الصغرى . وبعد ان كانت الحرف وراثية فى الاسرة الواحدة تخضع لنظام الطوائف التى تعمل على حماية الانتاج ومراقبة حقوق العامل تدخلت الحكومة فى حقوق الطوائف فأهدرتها. وطبقت على المصانع الفردية نظام الاحتكار ، فكان على أصحابها ان يقوموا بالعمل فى مصانعهم الصغيرة لحساب الدولة، ويتقاضون أجورا تافهة. ومع أن الحكومة احتكرت زراعة القطن وغزله ونسجه ، ومع خفض أجور العمال فى المصـــانع ، فان أسعار المنسوجات القطنيـــة كانت مرتفعة عن مثيلاتها التى ترد من انجلترا أو من أى بلد فى الخارج ، وذلك بسبب سوء الادارة .

وحاول محمد على الذى قضى صدر شبابه يتعاطى تجارة الدخان فى قولة ، أن يطبق معلوماته السطحية فى التجارة على الدولة التى يحكمها ، فسعى الى تركيز التجـارة الخارجية فى يده ، واحتكـر محصول القطن والقمح والافيون ، وكان وهو الحاكم المسلم ونائب الخليفة فى مصر يسهم فى تجارة الخمور ، واحتكار صناعتى العرقى والدخان . وعمد الى تنقيص كمية الذهب من العملة مع ابقائها على قيمتها فى التداول ، كما خص أمير الصعيد باحتكار صناعة السكر وبيعه على ذمته .

وأعدت تسعيرة لانواع التموين غير المحتكر ، مثل اللحم والسمن والجبن ، وهى أسعار مخفضة جدا لا تعود على الفلاح بربح يذكر ، وهددت الحكومة التجار بالتنكيل والشنق وخزم الانوف ، فارتفعت الاسعار فى السوق السوداء وأصبح وقت تداول هذه الاصناف فى جوف الليل سرا، اما الحكام فكانوا يحصلون على ما يريدونه بالتسعيرة أو بدون سعر على الاطلاق .

هكذا صار محمد على الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجـر الوحيد فى أرض الكنانة ، وقضى بسياسته هذه على عنصر المنافسة، وعلى مجهودات التجار المصريين وأغلق بيوتهم ومصانعهم . وأدت هذه السياسة الخرقاء الى انعدام وسائل الابتكار والنشاط والقضاء على المجهود الفردى فى الصناعة واندثار المصانع الصغيرة .

وأقدم عباس الاول على فتح الباب على مصراعيه للسلع الاجنبية التى غزت الاسواق ، ثم عمد الى غلق المصانع بناء على نصـــيحة مستشاره السياسى مستر مرى ، فسرح ألوف العمـــال وانتشرت

البطالة وأصيبت التجارة بالكساد .

أما سعيد الذى كان صديقا للاجانب فقد بدأ يشجع الشركات الاجنبية على استغلال رءوس أموالها فى مصر مع ضمان الحكومة لخسائرها ، ولم تستفد الصناعة أو التجارة بشىء يذكر من جراء قيام هذه الشركات اذ كانت فى الواقع شركات احتكار لاستثمار بعض المرافق العامة واستغلالها .

وسيطر الاجانب على الحياة الاقتصادية فى عهد اسماعيل ، واصبحت مصر حكومة وشعبا مستغلة لنفوذهم القوى ، فتأسست الشركات والمصارف المالية والبيوت التجارية وغيرها من المؤسسات التى زاحمت ما تبقى فى أيدى المصريين من صناعة أو تجارة وقهرتهم فى ميدان المنافسة بطرق وأساليب غير شريفة .

• ● •

وكانت الضريبة العقارية من الموارد الرئيسية للدولة ، يشرف على جباياتها الدفتردار ، ويعاونه الروزنامجية والسناجق والكشاف ، وكانت هذه الضريبة . تدفع اما نقدا أو عينا ، فتؤدى منها الجزية ومرتبات الحامية العثمانية ، وينفق منها على اقامة الجسور لوقاية البلاد من غوائل فيضان النيل .

وكانت هناك مكوس الضرائب ، وضرائب النفوس والحرف والمنسوجات وهذه تجبى بوساطة الموظفين ومشايخ الطوائف وتورد الى بيت المال . وكانت مرصودة على دفع مخصصاتالوالى ومرتبات الحكام ، وترسل منها أموال « الصرة » للانفاق منها على صيانة الحرمين الشريفين ومساعدة فقراء مكة والمدينة .

كان المصريون يبغضون من أعماق قلوبهم سياسة الضرائب التى يسلكها معهم الحكام ، فأضافت حكومة محمد على اليهاضرائب أخرى زادت من مقتهم وسخطهم ... كانت هناك الضرائب العشورية ، وضرائب النخيل ، والماشية ، من أبقار وجاموس وجمال ونعاج ، وعوائد الدخولية ، ورسوم التركات ، وعوائد الوكائل والاسواق ، ورسوم الصيد فى الترع والبحيرات ، وعوائد الراقصات والموسيقيين والحواة .

وكانت جميع القرى متضامنة فى أداء الضرائب ، بحيث اذا عجزت احداها أجبرت جاراتها على الدفع عنها . وقد نجم عن هذه الطريقة

المنافية لابسط المبادىء الاقتصادية أن تحملت بعض القرى أثقالا باهظة ، ونجم أيضا أن أخصب الاراضى الزراعية كانت لا تستطيع ان تسدد الضرائب المتراكمة فتعمد الحكومة الى ترحيلها من عام الى اخر .

فعلى عاتق الفلاح وحده كان يقع العبء الاكبر من الضرائب ، وفى أصغر القرى لم يعف متجر من اتاوة يؤديها ، حتى غذاء الفلاح وكسائه . وكانت تفرض ألوان أخرى من الضرائب تحمل أشكالا متعددة كرسم الجهاد أو اعانة الحرب ، ورسم الاشغال العامة .

ولقد حدث مرة أن كان هناك سد قائم فى أطراف احدى القرى وكان سكانها يصطادون السمك منه ، ففرضت على السد ضريبة .. وبعد سنوات أزيل السد وردمت الترعة ، ولكن الضريبة ظلت باقية مدى ربع قرن وموزعة على أربع قرى تتحمله بالتضامن .

وقد عبر الجبرتى أصدق تعبير عندما وصف سوء الحال الاقتصادية فى العاصمة بقوله: « أقبل عيد الفطر – ١٢٣٠ هـ – وكان عديم البهجة ، ولم يغير أحد ملبوسه ولا فصل ثيابا مطلقا ولا شيئا جديدا ، ومن تقدم له ثوب وقطعه وفصله فى شعبان تأخر عند الخياط مرهونا على مصاريفه ولوازمه لتعطل الاسباب من بطانة وعقادة ، واذا مات شخص لم يدرك أهله كفنه الا بمشقة عظيمة ، وكسدت السوق فلا كعك ولا شريك ولا سمك مملح ولا نقل .. » هذا فى الوقت الذى أرسل فيه الباشا الى دار السلطنة هدايا من الخيول والمهارى والسروج المكللة بالذهب واللؤلؤ والاقمشة الهندية المنوعة من الكشمير والمقصبات والتحف ، ومن الذهب المضروب أربعة قناطير ، ومن الفضة الثقيلة الوزن والعيار عدة قناطير ، ومن السكر المكرر والشراب ... الخ » .

وقال أيضا فى أنباء سنة ١٢٢٢ هـ :

« فى التاسع من شعبان طلب محمد على الضرائب المختلفة من تحصيل أربع سنوات مضت . وفى اليوم التالى ، طلب الضرائب المقررة على السنة المقبلة ... وان لم يجد المعينون للطلب شيئا من الدراهم عند الفلاحين ، أخذوا مواشيهم وأبقارهم ليأتى أربابها ، ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، أو يتركوها للجوع والعطش . فعند ذلك يبيعونها للجزارين ويرمونها عليهم قهرا بأقصى القيمة ،

ويلزمونهم بأحضار ، الثمن فان تراخوا وعجزوا شددوا عليهم بالحبس والضرب » .

وروى بوجولا فى كتابه «رحلة الى آسيا الصغرى ومصر والعراق» حكاية مغابلته للخواجة ميخائيل سرور قنصل فخرى فرنسا فى دمياط ، وكيف جاءه أحد الشيوخ وأخذ يندد بسياسة محمد على الضرائبية ويقول : لعنه الله فى كل كتاب ، ان الكرباج يستخدم فى ارغام الفلاحين على دفع المتأخرمن الضرائب، وعلى غرس البذور ، وان الكرباج هو وسيلته الوحيدة لابتزاز القروش التى يحصل عليها الفلاح لتحويلها الى دار السلطنة . وأن الوالى لم يكفه ثقل وطأة الضرائب الفادحة على الفلاحين فحرمهم ثمار غرسهم وغلال حقولهم .» .

وقص أيضا قصة صاحب مصنع كبير للحرير فى منوف وكيف اضطهده الوالى وفرض عليه دفع ألوف الاكياس بصفة كلفة مما دفع الرجل الى غلق مصنعه . ومغادرة البلاد . وكيف فرض على تجار الصابون ان يقوموا بتقديم ما يلزم لقصوره بدون مقابل .

وكانت لابراهيم أساليب بربرية فى جمع الضرائب .. حدث ان سافر الى القليوبية والمنوفية والغربية لقبض الخراج عن مدة سنة، والمطالبة بمتأخرات السنوات الماضية وهى سبع سنوات ، فصار يطالب الفلاحين بسداد هذه الضرائب فى الحال . وحدد مهلة لا تزيد على ثلاثة أيام ، ففزع الفلاحون ومشايخ القرى وتركوا محصول القمح فى الاجران وخرجوا من القرى هائمين على وجوههم فى العراء فترصد بهم الحراس وصاروا يلقون القبض على كل من يصادفونه فى الطريق ويشدونه الى الات التعذيب .

وسمع محمد على ذات مرة ان مدينة دسوق تتمتع بخيرات مما تنتجه أرضها الخصبة ، فبعث برسله الى المدينة يستدعون شيخها لابتزاز المال منها ، فاستقبلهم الشيخ ببشاشة وقدم اليهم القهوة والطعام ، ثم سألهم عن حاجتهم ، فأجابوه : لا لشىء .. ان الباشا فى معسكره على مقربة من هنا ونطلب اليك ان تخرج معنا لمقابلته .. فامتعض شيخ البلد وقال لهم : أن كنتم تطلبون ضريبة أو غلالا أو ماشية فاطلبوها ، واما مقابلتى للباشا فانها ليست بذات بال .. واذا اراد الباشا ان يلقانى فليحضر الى دارى وسوف أرحب بوفادته فأقدم اليه القهوة والطعام . اننى لست فى حاجة اليه ولكن على

مما يبدو لى انه هو المحتاج الى .

وظللت دسوق سحابة سوداء قاتمة ، وتجمع الفلاحون حول شيخهم يستطلعون هذه الانباء التى تنذر بعاصفة من الطغيان ، الا ان الشيخ أجابهم :

— لن أقول لكم شيئا .. ان حريتكم فى أيديكم وفى وسعكم أن تدافعوا عنها وان تحموا ذماركم بسلاحكم .

وتجمع مئات الشباب والرجال والسلاح فى ايديهم ولا حديث لهم سوى الجهاد والدفاع عن الحريات . وجاءت رسل الباشا لتؤدب سكان المدينة الذين لم يرضخوا لارادة الطاغية ، ونشب القتال بين الفريقين وكان مريرا قاسيا الى ان تغلب الغزاة ودخلوا المدينة يسبون نساءها ويأسرون فتيانها ويستبيحون دورها، وكان فريق من السكان قد لاذوا بمسجد السيد ابراهيم الدسوقى فلم يرع الجند حرمة المسجد بل اقتحموه بخيولهم واسلحتهم وأعملوا السيوف فى رقاب الفقراء الذين ذبوا عن حريتهم وانسانيتهم ، وتحولت دسوق الى ضيعة يملكها الباشا واتباعه ويعمل فلاحوها أقنانا فى الارض .

• ● •

والواقع أن محمد على لم ينس حرفته القديمة عندما كان شابا فى قوله يسطو على المراكب ويجردها مما تحمله من سلع ، فكان يعمد الى سلب التجار والموسرين أموالهم ولعل أبلغ شاهد على ذلك مصادرته أموال نفيسة زوجة مراد بك حاكم مصر أيام المماليك واغتصاب ما تملكه ، ثم سطوه على أموال وممتلكات الامراء المماليك الذين غدر بهم فى مذبحة القلعة ، وفرضه الاتاوات على التجار والقوافل .

ومن آفات حكم هؤلاء الاغراب طريقتهم فى تحصيل الضرائب التى كانت تجرى دون قاعدة أو قانون أو مواعيد محددة ، بل كانت لا تختلف فى صورها عما كان يشيعه امراء الاقطاع فى القرون الوسطى .

فقد كان اسماعيل كلما احتاج الى المال يأمر وزيره بتحصيله فى صورة ضرائب وهذا يوعز الى المديرين بجمعه وهؤلاء الى المأمورين فمشايخ القرى ، وأخيرا يوزع المال المطلوب على المراكز والقرى دون عدل أو انصاف . فاذا ما شرع جباة الضرائب فى تحصيله تبعهم جيش جرار من المرابين لاقراض الفلاحين المال المطلوب منهم بضمان المحصول أو رهن الارض . فاذا لم يستطع الفلاح توفية الدين

وفوائده الباهظة استدان مبلغا آخر وهكذا ، الى ان يحجز على الارض ، وبعد اسابيع يفد على القرية محضر من المحكمة المختلطة حاملا صورة حكم محرر باللغة الفرنسية فلا يفهم الفلاح أو أحد سكان القرية مضمونه وبعد حين لا يشعر الفلاح الا وارضه منتزعة منه حيث يستولى المرابى الاجنبى عليها .

وكان المال الذى يجمع من الضرائب قلما يصل نصفه الى خزانة الدولة ، فان المأمور يستولى على جزء منه ، وكذلك المدير فوزير المالية فرجال الحاشية ، وعلى الرغم من هذه اللصوصية السافرة كان اسماعيل صديق المفتش يفخر بانه يحصل من الفلاحين مليونى جنيه سنويا زيادة على مقدار الضريبة المطلوبة منهم !!

وتفنن اسماعيل فى فرض الضرائب ، فكانت هناك ضرائب على الارض وعلى المبانى والمواشى والمصانع والعربات والمواد الاولية للصناعة وصكوك الزواج وشهادات الوفاة ، ثم تفنن فى الاحتيال على البسطاء لسلبهم أموالهم . . حدث ان قصد الى مدينة طنطا وأولم وليمة دعا اليها الوجوه والعمد والمشايخ ، وكان قد أحضر معه ثوبين من الجوخ أحدهما أحمر اللون والاخر أخضر فأعملوا فيهما المقص واخرجوا منها قطعا فى استدارة الريال الفضى ، وفى نهاية المأدبة خطب الخديو معلنا انه يريد « ان يحكم مع أمته » وانه فى سبيل هذه الرغبة سيجعل مجلس شورى النواب مجلسا نيابيا يشترك مع الحكومة فى ادارة شئون البلاد . وهم الخديو بالانصراف وهرع المدعوون لتوديعه فوجدوا بالباب محمد ثابت باشا ومن خلفه خادم يحمل صينية عليها قطع الجوخ الاخضر ، ومحمد طلعت باشا وراءه خادم يحمل صينية عليها قطع الجوخ الاحمر ، واخبرا الوجوه والعمد والمشايخ بأن الحصول على قطع الجوخ «شرف» وذكرى لحظوة دعوتهم الى وليمة الخديو الاعظم ! وان من يحصل على جوخة خضراء يدفع عنها عشرة جنيهات ، ومن يحصل على جوخة حمراء يدفع خمسة جنيهات ، وتمكن الخديو بطريقة الاحتيال هذه ان يسلب القوم بضعة الوف من الجنيهات !

ومن الاساليب البربرية التى كانت متبعة فى تحصيل الضرائب ، ان التقى جباة الضرائب ومعهم الجند فى ذات يوم بجنازة فى الطريق فأمروا بانزال النعش من فوق اكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الفقيد . . ودفعت الشهامة أحد المشيعين

فدفع المبلغ وبذلك أخلى الجند سبيل الميت !

وروى عبد الله نديم فى مذكراته : كانت طرق تحصيل الضرائب تقشعر لها الابدان ، قوامها الاذلال والاهانة والايلام . فاذا هبط المأمور أو المدير قرية ما لتحصيل الضرائب طلب سكانها واحدا بعد واحد فمن دفع نجا من عذاب أليم . ومن قصرت يداه ألقاه القواصة الى الارض وقطعوا اهابه بالسياط فاذا نجا من الموت أودع ظلمات السجن .

وقال : ورأيت امرأة فر زوجها من السجن فطلبها وكيل مديرية الدقهلية وأمر بأن تضرب على كفيها ثمانين كرباجا ثم سئلت عن مقر زوجها فأجابت بانها لا تعلم . ثم ألقيت على الارض وضربت على سحرها ثلاثين كرباجا ثم سئلت عن زوجها فأكدت بانها لا تعرف له مقرا ، فأمر بضربها على موضع العفة منها فماتت بين أيديهم . وأخيرا سألت الصراف عن المبلغ المطلوب من زوجها فأجابنى بأنه ٦٠ قرشا .

وقال أيضا : شاهدت رجلا يبيع الكسب فوق حماره ، فطلبوا اليه ان يدفع ٤٥ قرشا عوائد الحمار فقال انه لا يساوى عشرين قرشا وانا متنازل عنه فخذوه . فلم يقبلوا وأحضروه الى الحاكم خلف الله باشا فأمر ببيع الحمار ثم ثياب الرجل فوصل الثمن الى خمسة عشر قرشا ثم احيل الرجل الى مركز البوليس ليضرب ويحبس بالباقى .

وكان يحدث ان يتفق الحاكم مع شيخ البلد على أن يدفع أحد تجار الافرنج المستحق على القرية من ضريبة ، على أن يحصلها ابان موسم الحصاد وجنى القطن ليستولى على جميع ما ينتج من زراعة الفلاح ويقدر ثمن قنطار القطن بمبلغ بخس ثم يكون للشيخ حصة وللمأمور حصة من ربح التاجر . ويقف شيخ البلد على الميزان أو المكيال فينقص المقدار ليكون الزائد ربحا له مع التاجر .

وكان هذا العذاب قاصرا على الفلاحين والكادحين من الضعفاء الذين لا شوكة لهم . أما من ينتمون الى الخديو من أفراد أسرته وبطانته والوزراء والاقطاعيين والاجانب فكانوا لا يدفعون أى نوع من الضرائب .

وقد صدق مراسل التيمس فى القاهرة حين وصف هذه الكوارث فى رسالته بتاريخ ٥ ديسمبر عام ١٨٧٨ اذ قال : ان الحقيقة المرة التى لا يكاد العقل يصدقها هى ان الفلاحين الذين أخرجهم الفيضان من بيوتهم وأهلك دوابهم واكتسح الاتهم وحطم ديارهم هم أنفسهم

الذين كانوا يقاضون أمام المحاكم ويعذبون لعـــدم أدائهم الضرائب المتأخرة عليهم ، وأن مصر لم تخسر مالها فقط وهو يمثـــل عرق الكادحين مدى أجيال بل بدأت تخسر أرضــها ، ذلك بأن الضرائب الثقيلة المنوعة التى بلغت ٣٣ نوعا ألقت بالفلاحين البؤساء فى أحضان المرابين والممولين وألقت بجزء كبير من الارض فى أيدى الاجانب وكانت النتيجة أن تحول معظم ملاك الارض المصريين أجراء للاجانب » .

وذكر تيودور روذتشتين فى كتابه «المسألة المصرية ـ خـــراب مصر » ان مصر صارت أشبه بضيعة كبيرة يديرها الدائنون الاجانب ولكن مع هذا الفارق الكبير وهو ان الدائنين عادة يفهمون انه لا بد من انماء موارد الضيعة حتى يحصلوا على أموالهم . اما فى مصر فلا يفكر المرء الا فى تسليم واغتصاب الاموال ناســيا انه على مر الايام يستحيل عليه ان يحصد حيث لم يزرع . ان الاحكام الصادرة على الحكومة باقية لم تنفذ ، والموظفون يقاسون الام البؤس والشــقاء بسبب عدم دفع مرتباتهم اليهم منذ شهور ، وكل عمل منتج نافع معطل ، ودولاب الادارة واقف . ومعظم الفلاحين لا يملكون الاراضى التى يزرعونها بل ان طبقة المرابين تملك تسعة أعشار هذه الاراضى » .

السخرة والكرباج

السخرة مقام الخدمة العسكرية الاجبارية - الهجرة الجماعية من الارض - معارضة الباب العالى - المصريون يحفرون القناة ويدفنون تحت الرمال - اسماعيل يبطل النخاسة ويبيح استعباد المصريين .

السخرة هى اكراه المواطن على العمل بدون أجر فى حفر الترع والقنوات وتطهيرها من الطمى الذى يتراكم فيها ، وتقوية الجسور وحراستها درءا لغوائل الفيضان . ومد الطرق وتعبيدها ، واقامة القناطر وتشييد المبانى الحكومية والمنشآت الضخمة ، وكانت هذه السخرة تقوم مقام الخدمة العسكرية الاجبارية .

والى جانب هذه السخرة العامة ، كانت هناك سخرة خاصة حيث يستخدم الحاكم وأفراد أسرته وبطانته وكبار موظفى حكومته ، المزارعين فى فلاحة الارض بأشخاصهم ومواشيهم ، وارغامهم على أن يحملوا معهم طعامهم وأدوات العمل من فؤوس ومقاطف وغذاء للماشية ، فيعملون فى حدة القيظ وزمهرير الشتاء دون ان يراعى صاحب الارض حفظ أبدانهم أو يدفع اليهم ما يقوم بأودهم وشئون أسراتهم .

ومن توابع السخرة أن يكلف الفلاحون بتقديم الدواب من الحمير والبغال والابل الى الدوائر الحكومية ، كما يقدمونها الى الاقطاعيين من أصحاب الارض . وكانت الدواب المطلوبة توزع على القرى كل منها بنسبة معينة ، فالقرية التى يكون زمامها ألف فدان تكلف بتقديم عشرة جمال وستة حمير ، والقرية التى يزيد زمامها على ذلك ترفع تكاليفها من الدواب والمواشى .

وكان الكرباج هو الاداة الوحيدة لهذا اللون البشع من الاستغلال ، يلهب ظهور المواطنين الذين يعاملون معاملة العبيد ، اذا ما توانوا عن العمل .

فالسخرة اذن لا تختلف فى شىء عن طبيعة عمل الارقاء ، وهى أثر من آثار حقوق السيادة فى العصر الاقطاعى ، عرفتها مصر الفرعونية

حين شيدت الاهرام والمعابد والمسلات والمقابر ، وعرفتها اوربا فى القرون المظلمة ، فكان السادة يبيعون صكوك الاعتاق لاحلاس الارض. وكان هؤلاء الاحلاس يؤدون لسادتهم ثلاثة أنواع من الضرائب : منها اثنان نقديان والثالث هو السخرة ، أى العمل بالمجان فى الارض ، أو قرع مياه المستنقعات آناء الليل بالعصا لاسكات الضفادع التى تقلق رقاد سيدهم .

جاء الاسلام فنهى عن السخرة ، وقال عمر « ض » متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . وشبت الثورة الفرنسية فكان فى طليعة ما نادت به وأقرته الغاء السخرة باعتبارها آخر حجر فى صرح النظام الاقطاعى .

وكانت مصر تحت حكم محمد على ثم أولاده وحفدته عبارة عن ضيعة كبيرة فى أنظارهم . بل انه فى الواقع لم يكن سوى سيد اقطاعى يدير مستغلا واسع النطاق ، ويستخدم فيه أفراد الشعب جميعا ، كما كان السادة الاقطاعيون يستخدمون الاقنان وأحلاس الارض . ومن هنا كانت السخرة ، وكان تجنيد الالوف من حفر الترع وتشييد القناطر واقامة الجسور باسم «تعمير منافع عمومية» . . كانوا يخطفون من قراهم مع أسرهم الى الاماكن النائية، يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، ويخوضون المياه والاوحال . فاذا حانت ساعة الغذاء ألزموا بتناول الطعام وقوفا دون أن يؤذن لهم بالجلوس أو الراحة . واذا جن الليل أدخلوا الى ساحة واسعة تحيط بها الاسوار أو الاسلاك ، ولم يكن لها سقف ، فكانت السماء تصب عليهم مطرا أو طلا . وقبيل طلوع الفجر يهبون من رقادهم فزعين مذعورين على نداء الناظر أو سوط الخولى . و فى اثناء ساعات العمل يمر بهم القواص على جواده ، معلنا بأن الحاكم أو الكشاف سيفاجئهم ليتفقد سير العمل ، فيهرع الاتباع الى قطع الاغصان الغليظة من الاشجار ، وينزلون بها على هذه الجسوم العارية ، فلا تسمع سوى البكاء والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه الاجساد الملطخة بالطين سوى مواضع السوط .

وقد ورد فى احصائية رسمية فى عام ١٨٣١ ان عدد الرجال الذين يعملون فى السخرة ثمانمائة الف نسمة ، فاذا أضفنا الى هذا الرقم النساء والاولاد لتجاوز عددهم المليون أى ثلث سكان مصر .

وكان شيخ البلد وهو الموكل اليه بتوريد الرجال والشبان الذين

يصلحون للسخرة يخضع هذه العملية لهواه ، ورائده بطبيعة الحال أما الانتقام من خصومه أو جمع ثروة يسيرة على حساب هؤلاء المظلومين .

وأثبت المؤرخ مانجان عن حفر ترعة المحمودية ، أن عدد من مات فى حفر الترعة التى بدأ العمل فيها عام ١٨١٧ اثنا عشر الفا ، دفنوا على ضفتى الترعة تحت أكداس التراب والطين الذى يرفعونه من قاعها . وترجع معظم الوفيات الى قلة الزاد والارهاق فى العمل والقسوةفى المعاملة ، وبلغ عدد الذين عملوا فى حفرها ٣١٣ الفا من الفلاحين سيقوا من مديريات الوجه البحرى والجيزة .

وروى الجبرتى ان الفلاحين سخروا فى حفر ترعة الاشرفية ، وكان اذا دنا موعد الحصاد رد الفلاحون الى الارض لجمع المحصول، فاذا جاء شهر « أبيب » ونودى بوفاء النيل أمر محمد على حكام الجهات « بجمع الفلاحين للعمل » فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب ، وتعطلوا عن زراعة الدراوى الذى هو قوتهم ، وقاسوا الشدة عقب عودتهم من المرة الاولى ، وهلك الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ولو فيه رمق من الحياة ، ولما عادوا الى بلادهم للحصاد طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح فول وأخذما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر . ثم لا يلبثون ان يطلبوا العودة الى العمل فى الترعة ، وحمل المياه التى لا ينقطع نبعها من الارض وهى فى غاية الملوحة . الى ان يقول الجبرتى : ان المرة الاولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر مع قلة المياه العذبة فينقلوها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة وتأخر رى الاسكندرية» .

وكتب فرنسوا شارل رو فى كتابة « انجلترا والحملة الفرنسية فى مصر » : بلغت أعمال الحفر من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨٤٠ قدرا يقرب من ١٠٤٫٥٠٠٫٠٠٠ متر مكعب ، وكان المتوسط السنوى لاعمال الحفر والاتربة ٤٠ مليونا ونصف مليون متر مكعب . وأشغال البناء لاكمال مجموعة الترع المحفورة ثلاثة ملايين من الامتار المكعبة، وقامت هذه الاعمال جميعا بسواعد الالوف من الفلاحين المسخرين وبتضحية عدد كبير منهم .

• ● •

وبعد أن استولى محمد على على الارض وصادر ما عليها من حرث

ونسل حشد لها الفلاحين من كل صوب لخدمتها وزراعتها ، واستصلاح ابعاديات أولياء النعم الصغار من الاعوان وأركان الحكم .

كان الفلاحون يساقون وهم مكبلون فى القيود والاصفاد ، وكان صوت الكرباج وأنات الالم هى النغمات الوحيدة التى تنبعث من الحقول .

وضاق الفلاحون ذرعا بهذا اللون من السخرة ، ولم يكن بين أيديهم من وسائل المقاومة سوى الهرب والهجرة الجماعية من الارض التى ولدوا فيها وشب عليها آباؤهم وأجدادهم ، فنزحوا الى الجسور وجوانب الطرق يقيمون فيها مع نسائهم وأطفالهم أياما وأسابيع ، ومنهم من أعتصم بالصحراء واتجه الى الشرق أو هاجر الى الاراضى الحجازية .

وأحس محمد على بوادر الخطر من هذه المقاومة الصامتة فأذاع تعليمات مشددة « بمنع انسحاب الاهالى للفرار من الزراعة » . وأجبر كل من غادر قريته خلال سنوات خمس بضرورة العودة اليها فورا ، وتوعده بالعقاب الصارم اذا خالف الامر . كما قرر مجلس المشورة بأن كل من يهرب من الفلاحين ويكون عليه دين يؤخذ دينه من ابنه أو أخيه أو أحد أقاربه . فاذا كان الهارب من المشايخ يؤدب أولا ، وان هرب يرسل الى ميناء الاسكندرية مدة شهرين للشغل وان هرب ثالثا يعزل ويعذب . واذا كان الهارب من الفلاحين يؤدب ويحصل من شيخ القرية التى كان بها ، المطلوب منه ، ولا يقبل دخول أى شخص الى أية قرية الا اذا كان يحمل بطاقة تثبت شخصيته .

وفى ذات يوم عزم محمد على ، على زيارة الاقاليم لتفقد حالة الزراعة ، وأذاع بهذه المناسبة تعليماته على مأمورى الاقسام ومشايخ البلاد بأن الفلاحين الذين يتوانون فى خدمة الارض وجنى المحصول يجمعون وسط الحقل وتحفر حفرة عميقة ويدفنوا أحياء على رءوس الاشهاد !! وتوعد المأمورين والمشايخ بأن من يتساهل منهم فى تنفيذ هذه التعليمات سيؤدب تأديبا صارما قد يصل الى حد هدر الدماء .

ولقد حدث أن قدم اليه بعض سكان صهرجت مركز ميت غمر تظلما ذكروا فيه بانهم ينحدرون من سلالة السلطان برقوق ، وان شيخ البلد والقواص يسخرانهم فى حفر الترع واقامة الجسور وحرث أرض الشفالك ، بعد أن يصرفا لهم المقاطف والفؤوس ، وانهم لايملكون

ما يثبتون به انهم من سلالة ذلك السلطان العظيم ولا ما يتميزون به سوى كتاب وقف . فما كان من محمد على الا أن كتب الى عامله مدير الدقهلية يأمره بأن يحفر القبور على جوانب الطرق ارهابا لهؤلاء الفلاحين لانهم « قوم خليعو العذار » وان اصلاحهم لن يكون الا اذا دفنوا كما كن « يفعل قرقوش مع أبائهم » .

ومما يحسن سرده على سبيل التفكهة ان محمد على أصدر أمرا الى حسن الانجير كويلى باشا ليتولى منصب حاكم عام السودان ، فامتنع الرجل لجهله باللغة العربية وقال : كيف يمكننى ان أتولى أمور قوم لا أعرف حرفا واحدا من لغتهم !

فأجابه الوالى : ليست معرفة اللغة مما تقتضيه ولاية الاحكام ولا هى لازمة للحكم يختل بفقدها ، وما عليك فى منصبك الا أن تكتفى بكلمتين اثنتين من العربية يجرى بهما لسانك : فلوس ... كرباج !!

وهال الباب العالى ألوان القسوة التى يلقاها الفلاحون ـ وهم من رعايا السلطان خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ـ من جراء السخرة ، فوجه نظر الوالى الى ضرورة تنفيذ قانون التنظيمات الذى تضمنه « خط الكلخانة الشريف» ومنه ابطال السخرة ومنع الجلد والكرباج ، فتردد الوالى حينا واخيرا اضطر الى أن يستخدم «الجنود الامدادية» والبحارة دون الفلاحين فى تنفيذ الاعمال الانشائية ، ثم جاءت المادة ١١٠ من قانون « الجزاء العثمانى » فحرمت تحريما باتا سوق الرعية الى السخرة .

• ● •

وكان فردينان دى لسبس يعلم بأن القناة لا يتسنى حفرها الا بسواعد المصريين ، ابناء ذلك الشعب المجيد الذى شاد صروح العمران بفضل كده وجهده . وكان يدرك الى جانب هذا أن صديقه الوالى سعيد من أنصار النخاسة والسخرة التى فرضها على الوف المصريين وانه لا يتوانى عن ان يمده بما يحتاجه حفر القناة من سواعد مفتولة ، بأجور طفيفة أو بدون أجر . وكان أبرز شاهد لديه ما لمسه حين أعيد حفر ترعة المحمودية بسبب تراكم الطمى فيها ، وكيف ان الوالى حشد زهاء مائة الف فلاح وزعوا على جوانب الترعة البالغ طولها ثمانين كيلو مترا ، وانشاء طريق زراعى على ضفتيها

بعرض عشرة أمتار . فاستطاع دى لسبس أن يحصل على اتفاق تتعهد الحكومة المصرية بموجبه بتقديم أربعة أخماس العمال للحفر، وان تبذل مساعداتها للشركة ، وتكليف جميع موظفيها ومستخدميها وعمالها فى جميع الدوائر بأن يكونوا رهن تصرف الشركة .

وجاء فى البند الثانى من اتفاقية ٢٠ يوليو ١٨٥٦ أن أجر العمال وغذاءهم تدفعه الشركة بمعدل قرشين ونصف قرش الى ثلاثة قروش فى اليوم الواحد مع وجبة غذاء ونفقات العلاج .

على أن الحقيقة هى أن الشركة كثيرا ما كانت تماطل فى دفع الاجر المستحق ، وكان العمال يعانون مشقة فى الحصول على مياه الشرب حيث يجلب اليهم على الابل من دمياط ، وكان نصيب العامل ثلاث جرعات فقط فى اليوم .

وانتشرت أوبئة التيفويد والتيفوس بين العمال ، وسرت العدوى من منطقة القناة الى صميم الريف ، فكان المئات يقعون صرعى فلا تتكلف الشركة مؤونة حملهم وتجهيزهم ودفنهم بل تهيل التراب وتودع أجداثهم تحت أكداس الحفر وأكوام الطين .

والواقع أن المصريين عانوا من المتاعب والاهوال فى حفر القناة .. كانت الحكومة تجلبهم من قراهم النائية سيرا على الاقدام الى هذه البقاع المقفرة الجرداء ، حيث يواصلون الليل بالنهار فى الحفر ورفع الاتربة . وفى غضون شهر رمضان تضاء المشاعل لهم للعمل ، وكان مجموع الذين يسخرون فى هذه العمليات ستين الفا فى كل شهر ، عشرون الفا يقومون بالعمل فعلا ، وعشرون الفا فى الطريق ليحلوا محلهم ، وعشرون الفا بصفة احتياطى . اما الذين هلكوا تحت رمال الصحراء نتيجة المرض أو الجوع أو العطش أو الارهاق فى العمل أو ضربة الشمس فى فترة سنوات عشر ، فيبلغ عددهم سبعة وعشرين ألف عامل .

ولم يظفر هؤلاء الابطال المجهولون والشهداء الابرار الذين شقوا هذا الطريق البحرى العالمى بأى تقدير أو ثناء سوى الكلمة التى خصهم بها المونسنيور بوير فى خطبته التى ألقاها فى حفلة افتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ اذ قال : أولئك الذين قضوا نحبهم شهداء لانكبابهم على العمل ، فوارتهم الرمال التى كانت بالامس صحراء محرقة وأصبحت بفضل جهودهم ربوعا غناء ...

وكانت السخرة التى أعلن الخديو اسماعيل يوم جلوســـه على العرش عزمه على ابطالها حبرا على ورق وذرا للرماد فى العيــون ، فظلت السخرة فى القناة سائرة على ما هى عليه لولا أن حفزته انجلترا الى مناهضة المشروع وناشدته باسم الانسانية ومحاربة الـرق ان يسعى الى الغاء السخرة فى حفر القناة ، وتذرعت فى طلبها بأن جلب هذا العدد الكبير من العمال اقرار فعلى بالسخرة وأمر لا يتفق مع قوانين الدولة العلية .

ووجه وزير خارجية الباب العالى مذكرة فى ٦ ابريل ١٨٦٤ الى ممثليه فى باريس ولندن قال فيها : على الرغم من ابطال السخرة فى الدولة العثمانية فان أعمال الحفر فى قناة السويس تجرى بطـريق السخرة ، وان الباب العالى يشترط لموافقته على انشاء القناة الغاء السخرة ، وانقاص عدد العمال الذين تقــدمهم الحكومة المصرية من عشرين الفا الى ستة الاف شهريا .

وردد اســماعيل كالببغاء ارادة الباب العالى ونصـــيحة حكومة بريطانيا فطلب الى الشركة تخفيف شروط الامتياز وانقاص عـدد الفعلة ، فرفضت الشركة هذا العرض ، ونشب نزاع بين الطـرفين تدخل فيه الامبراطور نابليون الثالث وقضى باعفاء الحكومة المصرية من تقديم العمال مقابل تعويض تؤديه للشركة ، قدره مليون ونصفه مليون جنيه ، واستند نابليون فى حكمه الى أن الحكومة المصرية بقبولها تقديم العمال فى عقد الاتفاق قطعت على نفسها عهدا الزاميا تقابله من جانب الشركة عهود أخرى .

وعمد الخديو اسماعيل الى احلال الجند الاحتياطى محل رجال السخرة ، فكانت الحكومة تفرز من بين المجندين عددا يتكون منهم احتياطى لاستخدامهم فى الاشغال العامة . غير ان السخرة لم تلبث ان أعيدت بصفة رسمية وشملت جميع المواطنين . ومنح المسخرون حق تقديم بدل عنهم أو دفع « ضريبة بدل الســخرة » يؤديها من ينشد اعفاءه من العمل بدون اجر ، فكان الحكام يستولون على «البدل» ولا يتورعون عن تجنيد المسخرين على الرغم منهم .

وكان ضرب العمد والاعيان بالكرباج شائعا ، وكذلك حشر الفلاحين لشق الطرق والمصارف واقامة القناطر وتقوية الجسور ومد الخطوط الحديدية والتلغرافية وزراعة أراضى « الدائرة السنية » .

فالخديو الذى أبطل النخاسة والسخرة بين العبيد فى قلب القارة

الافريقية أباحها فى شمالها على زعم انها من « المنافع العمومية » . وفى الوقت الذى كان يبذر فيه المال جزافا ، كان يبخل على الفلاح بشراء بعض الالات الحديثة لتنظيف الترع والاقنية وابطال السخرة فكان الالوف يساقون قسرا الى الخدمة فى مزارعه الواسعة ويتحركون كالحيوانات بالارادة فى حفر الترع وتطهير المساقى وردم الجسور الخاصة بتفاتيشه واذا جاء أوان جنى القطن وتنقيته أو حصاد القمح هوت الاسواط على أجساد الصبيان والبنات .

وكان الفلاحون الذين يسخرون فى أراضى « افندينا » يضطرون الى ترك زراعتهم وهى فى حاجة طبعا الى السقى والحرث والحصاد.

وقد عبر عبد الله نديم حين وصف اسماعيل بانه كان يتلذذ بأنين المظلومين وتضرعهم ويبتهج بآلامهم ، وقال عن حكومته انها كانت أشبه « بليمان » أعد للمذنبين ، وان اسماعيل باشاعته ضروب السخرة والسلب أصبح يملك ربع الاراضى المنزرعة فى المساحة وخمسيها فى الزمام .

بين أنياب الاستعمار

الوادى هدف الاستعمار منذ أقدم العصور ـ على بك الكبير يعلن استقلال مصر ـ معاهدات مع المماليك لحماية تجارة الغرب ـ فرنسا وانجلترا تفرقان كلمة الزعماء ـ فرنسا تحتضن محمد على وانجلترا تؤازر محمد الالفى ـ اخفاق حملة فريزر ـ معاهدة لندن ـ انضمام عباس الى السياسة البريطانية وسعيد الى السياسة الفرنسية ـ موقف الدول الاوربية من مصر .

كانت مصر منذ فجر التاريخ محط أنظار ذوى المطامع والاغراض، وموطن ضراع بين الدول الاستعمارية ، وحجر الزاوية فى كل ما مر بالشرق من عواصف وأزمات . وقد أخذ هذا الصراع على مر العصور أشكالا وصورا واضحة المعالم بين كل من فرنسا وانجلترا ، فكل منهما تنافس الاخرى للتدخل فى شئون مصر السياسية ، والحصول على امتيازات اقتصادية أو ثقافية أو دينية أو حرية مرور السلع والبضائع ، وهذا التدخل ليس الا صفحة من سجل الحروب الصليبية والمسألة الشرقية .

واستطاعت كل من الدولتين ان تنفذ أغراضها خفية فى عهود كانت الكنانة تحكم فى خلالها بحكام أغراب ، لا هم لهم سوى استعباد شعبها والتكالب على ابتزاز الدخل القومى بمختلف السبل دون أن يبذلوا أيةمحاولةلتحسين الحالةاجتماعيا واقتصادياوصحيا وثقافيا. ولذلك نجح الاستعمار فى بلوغ أهدافه ، ووجد فى وادى النيل لقمة سائغة ، يسهل عليه التهامها وهضمها بتأثير هؤلاء الحكام الاغراب .

ومنذ أن تمرد على بك الكبير على الدولة العلية ورفض السيادة الاسمية للباب العالى ، أعلن فى عام ١٧٦٩ استقلال مصر ، وسك العملة باسمه ، وامتنع عن دفع الجزية ، وحارب الاتراك فى الشام وسجل انتصارات رائعة ، واستولى على مكة ... وقد وعدته البندقية بصداقتها ، وأظهر قائد الاسطول الروسى تأييده له، اما هو فقد عكف على تشجيع التبادل التجارى بين الغرب والشرق ، ودعم الامن والاستقرار فى الداخل ، الى أن سقط صريعا فى عام ١٧٧٣ ضحية مؤامرة دبرها خصومه ، وما لبث الفوضى أن سادت أرجاء البلاد وعادت مصر الى نفوذ الباب العالى .

وسرعان ماصارت أرض الكنانة ميدانا للمنافسة الدولية للسيطرة على طريق المواصلات الى الشرق ، وبدأت فكرة استخدام مصر كطريق برى لتبادل نقل السلع والبضائع بين الغرب والشرق . فأسرع جيمس بروس قنصل انجلترا فى الجزائر بعقد معاهدة باسم دولته فى عام ١٧٧٥ مع محمد بك أبى الذهب الغرض منها رفع الحجر عن تجارة الافرنج فى البحر الاحمر ، واباحة نقل البضائع والبريد والسماح للسفن الانجليزية بأن تمخر عباب البحر الاحمر الذى كان الى ذلك الحين بحيرة اسلامية لا يسمح بمرور البواخر الاجنبية فيه شمال جدة .

وعقد جورج بلدوين معاهدة أخرى مع ابراهيم بك ومراد بك للحصول على امتيازات أخرى خاصة بالمواصلات وحرية مرور التجارة والبريد بالاراضى المصرية .

وعقدت فرنسا بدورها معاهدات أخرى الغرض منها حماية تجارتها وسلامة مرورها بالاراضى المصرية . الا أن فرنسا اتهمت بعد حين ابراهيم ومراد بأنهما أساءا التصرف مع الافرنج وتهجما على التجار الفرنسيين ورفعا الرسوم على البضائع المارة ، وأهانا العلم الفرنسى ، ولم يستطع القنصل الفرنسى الصبر على هذه الاهانات فشخص بنفسه الى باريس ليبسط شكاوى رعايا دولته على حكومة الدير كتوار .

وعلى ضوء هذه الحقائق أخذت فرنسا تعيد دراسة موقفها مع مصر وترنو الى امتلاكها لرد هذا العدوان ، والقضاء على المماليك الذين ارتبطوا بأمتن الروابط مع أعدائها الانجليز لعرقلة تجارتها

والواقع أن المسألة المصرية تحددت أوضاعها منذ أن استقرت بريطانيا فى الهند وغزت بتجارتها وانتاج مصانعها بلاد الشرق ، واحتلت بريم وباب المندب وعقدت معاهدة مع سلطان لحج . ولم تكن حملة نابليون بونابرت أول محاولة من نوعها لغزو مصر بل لقد سبقتها محاولات أخرى باءت بالفشل ، ومنها محاولة لويس التاسع التى انتهت بهزيمته وأسره فى المنصورة . ومشروع الفيلسوف ليبنتز الذى عرضه على لويس الرابع عشر بقصد احتلال مصر للسيطرة على تجارة الهند وبسط سلطان فرنسا وسيادتها على الشرق . وتصريح تيير الذى قال فيه : اذا أريد تقويض أركان الامبراطورية البريطانية فى الهند فلا مفر من احتلال وادى النيل . وتقارير الرحالة

الفرنسيين الذين كانوا يتجولون فى الشرق بين وقت وآخر ويحرضون دولتهم على غزو مصر لتكون ذات منفعة عظيمة لهم وتمنحهم تجارة الهنـــد .

وعندما أسندت قيادة الحملة الفرنســية الى نابليون بونابرت أصــدر بيانا أشار فى مقــدمته الى البواعث الحقيقية لغزو مصر واحتلال أراضيها ، فقال : ان الحكومة الفرنسية لما رأته من أن البكوات المماليك الذين استولوا على مصر ، قد اتصلوا بأمتن الروابط مع الانجليز ، وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين .. واذا كانت الطريقة المنطوية على الغدر التى استولت بها انجلترا على طريق رأس الرجاء الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية الى الهند محفوفا بالمصاعب فى الطريق المعتادة . فمن المهم فتح طريق جديدة لقوات الجمهورية فى سبيل الوصول الى الهند .

وعلقت حكومة الديركتوار على أن المحرك الاول للحملة هو الوصول الى الهند ، وعهدت فى قرارها الى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية الى مصر والاستيلاء عليها ، وطرد الانجليز من بلاد الشرق وهدم المراكز التجارية التى لهم فى البحر الاحمر ، والعمل على حفر برزخ السويس ، واتخــاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية حق امتلاك البحر الاحمر » .

• ● •

كسرت شوكت الامراء المماليك بعد الجــلاء الفرنسى وصاروا فى الصف الثانى من الاشتغال بالشئون السياسية العليــا . وقــد حاولوا أن ينهضــوا من كبوتهم أكثر من مرة ولكن يقظة القوميــة المصرية فوتت عليهم أغراضهم ، فقــد ظهر المصريون على مسرح السياسة وأحسوا أن قيادة الامور قد ألقيت على عواتقهم ، وبلغ من قوتهم انهم جرأوا على المناهضة والتمرد والثورة وصاروا ينشدون الاستقلال ويفرضون ارادتهم على الباب العالى للموافقة على خلع الوالى وتولية بدله .

وفى غضــون هذه الفترة العصيبة أخذت كل من انجلترا وفرنسا تؤلب الامراء المالك وتضرب بعضهم بالآخر لتتخذ من الاقوى تكئة تنفذ عن طريقها مصالحها فى وادى النيل . فحمى الانجليز المماليك بسبب انهم خصوم طبيعيين للفرنسيين منذ أن قهروهم فى معركة الاهرام وطردوهم من الحكم . وانشأ الانجليز يوزعون المال بدون

حساب ويحتضنون محمد بك الالفى أقوى الامراء نفوذا ، فاستمالوه اليهم ودعوه الى زيارة عاصمة بلادهم ـ لندن ـ واحتفوا بمقدمه ، وعقدوا معه محالفة سرية ،وزودوه بالهدايا والاموال التى ينفقها فى شراء الانصار وتجميع قوى الاتباع ليغدو « شيخ البلد ».

أما فرنسا التى كانت تدرك خفايا السياسة المصرية أكثر من انجلترا نفسها بحكم بقائها فى مصر أعواما ثلاثة وخبرتها بمختلف الطوائف فيها ، فقد استقر رأيها على ضوء التقرير الذى قدمته بعثة سيبستيانى التى زارت مصر فى سبتمبر ١٨٠٢ ان دولة المماليك وشيكة الزوال ولكنها لم تنفض يدها من أمرائها نهائيا ، كان ماتيو دى لسبس يحول دار القنصلية الى حان ، فيدعو المماليك الى موائد الخمر ويبسطها لهم ، وينصحهم بترك محالفة الانجليز .

وكان لابد من ظهور رجل مخاطر جسور وسط هذه الفوضى الضاربة أطنابها ، فتقدم محمد على الصفوف ومن ورائه قنصل فرنسا دى لسبس وسفير فرنسا لدى الباب العالى الجنرال سيبستيانى يصطفيانه ويشدان أزره،ويأخذان عليه العهود والمواثيق لتنفيذ مطالب فرنسا فى مصر والشرق .

وبعد أن نجح محمد على فى الظفر بالولاية لم تفتأ انجلترا تبث له الدسائس بين الصفوف ، وتتحين الفرص ، على الرغم من شواغلها السياسية ، لاذلال مصر ، الى ان كانت سنة ١٨٠٧ فبادرت بارسال قطع من أسطولها لمساعدة حلفائها المماليك واحتلال مصر . وما كادت الحملة العسكرية بقيادة فريزر تصل الى شواطىء الاسكندرية حتى استولت عليها بسهولة بتأثير خيانة حاكمها التركى ، ثم واصلت الزحف الى رشيد ، ولكن المصريين والبدو وحامية المدينة الصغيرة ، تصدوا لها وأبادوها عن آخرها ، وأمر شيخ الازهر الطلاب بترك الدروس والانخراط فى سلك المجاهدين ، وجمع السيد عمر مكرم الف كيس لنفقات الدفاع ، ودعا بنى قومه الى التطوع فى الصفوف .

ولو وجدت هذه الحملة استخذاء من الشعب أو معاونة فعالة من المماليك لما انهزمت ونكصت على أعقابها .. ومن ناحية أخرى كانت انجلترا منصرفة الى تأليب دول أوربا على نابليون بونابرت بعد عقد معاهدة تيلسيت وقد اضطرتها هذه السياسة الى مصانعة روسيا وتأجيل المسألة الشرقية ، والتدخل فى شئون مصر ،فطلبت الى الحملة العسكرية الانسحاب من الاراضى المصرية ، لتتفرغ هى لمناهضة نابليون الذى كان قد وجه قواته لسحق بريطانيا .

ومنذ ذلك الحين أصبح محمد على يخطب ود انجلترا ويهاب سطوتها ، فحاول فى عام ١٨٠٨ ان يعقد معاهدة تحالف معها ، ولكن انجلترا اعتذرت برفض مقترحاته لارتباطها مع السلطان العثمانى بمحالفة .

وسهل محمد على لانجلترا تحقيق مطامعها بابقاء طريق المواصلات الى الشرق مفتوحة ومأمونة أمامها فرخص للضابط البحرى توماس واجهورن بالحصول على امتياز بتنظيم قوافل تجارية تعبر الاراضى المصرية ، واحتكار « الترانسيت » ، واستخدمه فى انشاء الطريق البرى الذى يصل القاهرة بالسويس لنقل الركاب والبضائع والبريد الى الهند . ومنح انجلترا مفتاح التدخل الاقتصادى بزراعة القطن وتصريف محصوله فى الاسواق الانجليزية ، فاحتكرته انجلترا وحولت تصميمات مغازلها فى لنكشير وفق تيلة القطن المصرى .

وعرض الخطط الحربية التى رسمها لغزو جنوب جزيرة العرب على قائد بريطانى ندبه فريزر بعد أن غادر الاسكندرية ليكون فى خدمة الوالى .

وأباح لمهندس قصوره ت. جالواى أن يفاوض البيوت المالية فى لندن لتمويل انشاء خط حديدى يربط الاسكندرية بالسويس ، وفعلا حصل جالواى على المعونة المنشودة وابتاع المهمات والمعدات التى وصلت ميناء الاسكندرية ولكنها ظلت متروكة على الشاطىء الى أن علاها الصدأ بسبب معارضة الفرنسيين للمشروع .

وكان من الطبيعى أن ينشد محمد على معونة أولياء نعمته الفرنسيين ، فاستخدم مئات الخبراء والمهندسين والعسكريين والاطباء والمدرسين الذين سيطروا على الادارة والجيش، وظلت مصر شديدة الاتصال بفرنسا لا سيما من الناحية الثقافية ، ونال أبناء السين امتيازات ومغانم وحقوق استغلال واحتكار .

وبلغ من قوة التحالف بينهما أن كلفته فرنسا بغزو دول المغرب لحسابها ، وكان محمد على على استعداد لان يرسل جيشا يغزو به شمال افريقية فى مقابل أن يمده الملك شارل العاشر بأربع سفن وثمانين مدفعا وقرض مقداره أربعة مليون ريال . وفى الوقت ذاته أراد أن يعجم عود انجلترا ويجاملها فعرض عليها تفصيلات المشروع سرا فعارضت فى ارسال هذه الحملة . ومن هنا أخذ يسوف ويماطل ويقترح أن تتولى فرنسا غزو الجزائر ويفتح هو تونس فى مقابل منحه معونة حربية قدرها عشرة ملايين من الريالات .

وانتهت المسألة بأن حول دفة الغزو والفتح على الشام فعاونته فرنسا سرا ولعبت فى الخفاء دورا خطيرا لتثبت أقدامها خفية فى الشرق .

احتلت جيوش محمد على الشام وأخذت تتوغل فى بطاح الاناضول تعاونها هيئة أركان حرب فرنسية برياسة الكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوى » وفى ٢٢ فبراير ١٨٣٣ وصل الجيش المصرى الى بروسة العاصمة القديمة لآل عثمان . فاستنجد الخليفة العثمانى بدول أوربا لوقف هذا الزحف الذى يهدد عرشه . فهرعت روسيا تمد له يد المعونة ودخل أسطولها المياه الاقليمية التركية ، وعسكر خمسة عشر الف جندى روسى فى استامبول . وهنا بادرت انجلترا بالتدخل خوفا من نزول الاسطول الروسى الى مياه البحر الابيض المتوسط . واتفقت مع روسيا والنمسا والمانيا على توجيه انذار لمصر لاخلاء الشام فأحدث هذا الانذار دويا فى باريس ، ولم تستطع فرنسا مساعدة محمد على مساعدة سافرة لانها كانت غير مستعدة للدخول فى حرب دولية مرضاة له .

وأخذت انجلترا تحقن « رجل أوربا المريض » بالمقويات لينهض من فراشه ، وحرضت سكان الشام على اعلان الثورة على مصر ، وأقدمت فرنسا على خطوة ديبلوماسية لمصلحة محمد على ، فتعهدت للباب العالى بأن يخفض جيشه البرى والبحرى ، وأن تضمنه فى مقابل ذلك بأن يتمتع مدى الحياة بولاية مصر ولذريته من بعده تحت سيادة الباب العالى ، وان تزداد الجزية السنوية التى يدفعها .

وفى ١٥ يوليو ١٨٤٠ عقدت فى لندن اتفاقية دولية بين حكومات بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا من جهة ، والباب العالى من جهة أخرى « لاقرار السلام فى الشرق » منح محمد على بمقتضاها :

١ — حكم « باشاليك » مصر له ولذريته من الذكور .

٢ — باشوية عكا وتولية قلعتها ، وحكم جنوب الشام أبان حياته .

٣ — سحب جيوشه من جزيرة العرب ومن الحرمين واطنه وجزيرة كريت .

وأعطيت له مهلة عشرة أيام لقبول هذه القرارات ، فاذا انقضى الموعد دون أن يجيب ، نزعت منه باشوية عكا ، وبعد عشرة أيام أخرى تمر من غير اجابة تعرض لفقد حكم مصر ، وتقطع المواصلات برا وبحرا بين مصر وسورية ويمنع ارسال الجند والاسلحة والخيل

والذخائر .. وقال بالمرستون معلقا على هذا القرار : بأن محمدعلى كان يحارب لنفسه وليس من ورائه شعب يؤيده .

جن جنون محمد على عندما أبلغت اليه قرارات مؤتمر لندن ، ولم يلبث أن ركبه الغرور فهدد باعلان الحرب على دول أوربا قاطبة، وبهدم الدولة العلية رأسا على عقب ، وبدفن نفسه تحت أنقاضهما .

وتلقى فى اغسطس ١٨٤٠ كتابا من ابراهيم ، فى معسكره بالشام يقول فيه : فى حالة وقوع حرب ، فان فرنسا ستقدم الى مصر بحريتها ودبلوماسيتها على سبيل المعونة .

وفى ٢ نوفمبر تقدمت قطع من الاساطيل البريطانية والنمسوية والتركية أمام عكا وأطلقت النار عليها ، فأحدث الضرب ذعرا بين السكان ودمر نصف المدينة واضطر الجيش المصرى الى الجلاء عنها. وعمد أميرال البحرية البريطانية الى الاستيلاء على اثنتى عشرة قطعة بحرية مصرية فى ميناء بيروت ، وأذاع نداء بين السكان ناشدهم فيه اعلان الثورة .

وعرض على مصر بعد ذلك الانسحاب من الشام على الفور دون قيد أو شرط . وهدد الاسطول البريطانى بضرب الاسكندرية . فأذعن محمد على للقوة وأصدر الاوامر بوجوب الانسحاب من الشام مكتفيا بالغنيمة الكبرى وهى أن يجعل حكم مصر وقفا عليه وعلى أفراد أسرته من بعده .

وعلى ذلك صدر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ «الخط الشريف الهمايونى» من السلطان الى محمد على ونصه :

« لما رأينا بسرور ماعرضتموه من البراهين على خضوعكم ، وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ، ولمصلحة بابنا العالى ، قررنا ما يلى :

١ — متى خلا منصب الولاية المصرية ، تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا العلية من أولادكم الذكور . واذا انقرضت ذريتكم المذكورة ، لا يكون لاولاد نساء عائلتكم حق أيا كان فى الولاية وارثها .

ومن يقع عليه الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم ، يجب عليه الحضور الى استامبول لتقليده الولاية المذكورة .

٢ — جميع أحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر فى كلخانة ، وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها تتبع فى مصر ، كما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب ، يجرى تحصيله

باسمنا . ولكى لا يكون أهالى مصر ، وهم من رعايا بابنا العـــالى ، معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية ، فينبغى أن تنظم تلك الاموال والضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى ســائر الولايات العثمانية . وربع الرســوم الجمركية ، وباقى الضرائب ، يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ، ويؤدى الى خزانة بابنا العالى العامر . والثلاثة أرباع الباقية لولايتكم ، لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المــدنية والجهادية ، ومصاريف الوالى ، وأثمان الغلال المرسلة الى الحرمين .

ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية مدة خمس سنوات ابتداء من ١٢ فبراير ١٨٤١ .

٣ — لما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود . اقتضت ارادتى السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية باسمنا الشاهانى ، معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة باستامبول ، سواء من جهة عيارها أو من قبيل هيئتها وطرازها .

٤ — يكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية البلاد ، ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العــدد . ولكن حيث أن قوات مصر معــدة لخدمة الباب العالى ، فيسوغ أن يزداد هذا الرقم فى زمن الحرب .

٥ — يجب ألا تختلف هيئة الملابس والشارات العسكرية والرايات عن مثلها فى الجيش العثمانى .

وللحكومة المصرية أن تعين ضــباطا بريين وبحريين حتى رتبــة الملازم . أما من كان أعلى من هذه الرتبة ، فالتعيين راجع لارادتنا الشاهانية .

٦ — ان حالة الامتياز الممنوح بوراثة ولاية مصر ، خاضع للشروط الموضحة أعــلاه . وفى حالة عــدم تنفيذ أحد هذه الشروط يبطل الامتياز ويلغى فى الحال .

وعليكم أن تقدروا أنتم وأولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعنون باتمام الشروط المقــررة وتحمون أهالى مصر من كل فعــل اكراهى وتكفلون أمنهم وسعادتهم .

• ● •

كان موت محمد على فرصــة طيبــة لانجلترا التى لم تتوان عن توطيد علاقاتها بالوالى عباس الاول وعرض خدماتها عليــه بغيــة

الحصول على امتيازات وفى مقدمتها مد طريق حديدى يصل البحر الابيض بالبحر الاحمر ، وتقويض سياسة فرنسا فى مصر مع الحيلولة دون تنفيذ مشروع حفر القناة .

وكان لكفاية مستر مرى القنصل البريطانى دخل فى الموضوع .. كان هناك شبه فتور بين عباس الاول وبين الباب العالى . وقد حاول رجال الدولة العلية أن يطبقوا على مصر « قانون التنظيمات » فكان عباس لنزعته الاستبدادية يحاول التملص منه . ثم استعان بصديقه القنصل البريطانى الذى وسط سير ستراتفورد السفير باستامبول لكى يحمل رجال الباب العالى على تغيير سياسته نحو مصر ومنع رجال الدولة العلية من التدخل فى شئونها الخاصة . فلما نجح القنصل فى مهمته انتهز هذه الفرصة وأخذ يزين للوالى مد الخطوط الحديدية المقترحة ، على أن تستغلها الحكومة المصرية وتستولى على ايرادها ، وقدم اليه جون بيرى أحد مديرى شركة الملاحة الشرقية اقتراحا بمنح شركته امتيازا للترانسيت وآخر بانشاء الخط الحديدى ، وبذلك وضحت نيات بريطانيا فى التدخل فى شئون مصر .

ولم يكن عباس الاول واسع المعرفة ولا كثير الادراك ، وكان يميل بطبيعته الى كراهية الاجانب واحتقارهم بما فى الوسع لا سيما الفرنسيين الذين أقصاهم عن دوائر الحكومة . وبدأت السيطرة الانجليزية تتحكم فى سياسة مصر بنفوذ القنصل البريطانى الذى أصبح بمثابة مستشار سياسى للوالى يدير شئونه .

الا أن عباس الاول كان يخشى سطوة فرنسا ، فأراد أن يعجم عودها أولا ، وكلف مسيو ليموان أن يوجه اليها خطابا باسمه يسألها فيه عن نوع المساعدة التى يمكن أن تقدمها اليه فى حالة انشاء خطوط حديدية .

وكانت المباحثات بين الوالى وبين القنصل تجرى سرا فى الليل فى قصر « الدار البيضاء » على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ، وكان لا يشهد هذه المباحثات سوى ريكاردوس المترجم بالقنصلية ، وكان شخصا فضوليا عجيب الشأن ، اعتنق الاسلام فيما بعد وتسمى باسم الحاج عبد الله أغا الانجليزى ، وظفر بثقة عباس حتى وهبه قصرا والف كيس ، وعينه فيما بعد مديرا عاما للسكك الحديدية وأنعم عليه برتبة الاميرالاى .

تقدمت المباحثات بين الوالى وبين القنصل وانتهت بوضع المشروع فى صيغته النهائية ، ثم وفد على مصر روبرت ستيفنسن فى اكتوبر ١٨٥٠ بقصد النزهة والسياحة ، أما فى الباطن فلتقديم مشورته الفنية وتوقيع عقد الاتفاق ، وكان هذا المهندس العالمى عضو مجلس العموم البريطانى قد زار مصر قبل ذلك لدراسة مشروع حفر برزخ السويس الا انه عارضه فى النهاية وأشار بضرورة مد خط حديدى تموله انجلترا وتحتكره .

على أن أقدام عباس على الرضوخ لارادة انجلترا قد أغضب الباب العالى ، فاستاء مر الاستياء . واعترض على انه برهن على عدم احترامه نصوص الفرمان الممنوح اليه . وان نتيجة ارتباطه مع شركة انجليزية لا يوافق مصلحة مصر فى المستقبل . الى أن وجه اليه انذارا فى ٤ سبتمبر ١٨٥١ يقول فيه : « اننا نؤمل كل الامل بأنكم تعترفون بوجوب طلب الاذن رسميا فى هذه المسألة وبوجوب تأكيد ذلك لنا » .

وتخوف عباس من تهديد الباب العالى لا سيما أن الصدارة العظمى قد أثارت فى جلستين متعاقبتين مسألة خلعه ، فأوفد نوبار الى استامبول ليكرر مسعاه لدى السفارة البريطانية تارة والباب العالى تارة أخرى ، محاولا اقناع ولاة الامور بفوائد هذا المشروع الذى لا يقصد منه سوى خدمة التجارة والبريد .

ولقى المشروع مناهضة فرنسا وثارت الصحافة ثورة صاخبة ، لان مد خط حديدى يصل البحرين الابيض بالاحمر معناه القضاء على نيتها المبيتة فى حفر برزخ السويس والسيطرة على طريق المواصلات بين الغرب والشرق ، وان انجلترا بهذا العمل سترفع علمها فوق أرض الفراعنة بعد أن طردت منها مرتين .. وهتف المحامى باروش قائلا : ان هذه الخطوط سوف تكون بمثابة سيوف نارية فى احشاء فرنسا ، وان المحطات والورش ستكون بمثابة مستعمرات بريطانية وخلايا للجاسوسية فى منطقة الشرق الاوسط .

وردد قنصل فرنسا للوالى بأن المشروع معناه وضع عنق مصر تحت أقدام انجلترا التى سوف تطالب فى المستقبل بتمرير جيوشها عبر الدلتا فضلا عن أن المؤسسات التى ستصحب تنفيذ المشروع ستكون انجليزية بحتة . فأكد له الوالى بأن ادارة السكك الحديدية ستكون مصرية بحتة . ولن تمتد اليها الايدى الانجليزية الا فى الاعمال

الفنية ، وان الترانسيت والبريد لن يعطى امتيازهما لدولة أجنبية.

استخذى عباس لمشيئة انجلترا ويسر لها سبيل احتكار طريق المواصلات الى الشرق والسيطرة عليه ، وأغلق مصانع الغزل والنسيج لتجد مصر حاجتها من الاقمشة من الاسواق الانجليزية ، وأوصد باب المدارس لينشر الجهل رواقه ، وعادى فرنسا ، مجاملة لانجلترا واغترارا بوعودها الجوفاء لتعترف بابنه الهامى وليا للعهد وتسعى الى حمل الدول — وبالاخص الباب العالى — على أن تنهج نهجها .

وركب الوهم عباس فأوفد رجالا رسميين سرا وعلانية الى استامبول والى عواصم الغرب للسعى فى تحقيق حلمه بتنصيب الهامى وليا للعهد ، ومنهم نوبار الذى زوده بالهدايا والعطايا الى رجال المابين والى رئيس الدولة الفرنسية والى ملكة بريطانيا ، ومنهم عبد الله أغا الانجليزى الذى أوفده فى سفارة سياسية مع ولده الهامى الى لندن للسعى فى الاعتراف به وليا للعهد ،ولو أضاع فى سبيل ذلك مصالح مصر الحيوية وفتح الباب على مصراعيه للاستعمار .

وجاء سعيد فأذعن لمشورة فرنسا وسار فى ركابها . ولا يخفى ان فرنسا عاونت سعيد معاونة فعالة فى ارتقائه العرش . فانه لما قدم الى القاهرة عقب مصرع ابن أخيه عباس وجد القلعة موصدة الابواب فى وجهه ، فما كان من قنصل فرنسا الا أن أبلغ محافظ القاهرة المتمرد وقادة الجند بأن دولته لن تعترف بالهامى ، فحفظ سعيد لفرنسا حسن صنيعها ، وفضلا عن هذا وذاك فقد كانت نشأة سعيد وتربيته فرنسية محضة . وبتأثير ذلك منح امتياز قناة السويس دون رضاء انجلترا . فكانت النتيجة أن ألبت عليه الباب العالى الذى حاول أن يخلعه وان يستدرجه الى ميناء بيروت للقبض عليه والتشهير به لخروجه عن طاعة السلطان ، وهددته انجلترا بارسال قطع حربية من أسطولها للقيام بمظاهرة بحرية أمام الشواطىء المصرية .

• ● •

ولم تكسب التسوية التى أجريت مع محمد على مصر شخصية دولية وانما ظلت ولاية عثمانية ، يدل على ذلك أن السلطان كان يصف نفسه فى الاوامر الشاهانية بأنه « سيد مصر » وبأن المصريين « رعايا » . وكان العلم العثمانى هو علم مصر ، وجيشها جزء من الجيش العثمانى ، والضرائب تجبى باسم السلطان ،والعملة

تسك برسمه ، ومع ذلك كانت الحكومة المصرية تتمتع ببعض مظاهر الشخصية الدولية لا سيما فى عهد اسماعيل ، مثل عقد القروض الخارجية ، والاتفاقات الجمركية ، والمعاهدات التجارية ، وتنظيم شئون الاجانب وقيام وزارة خارجية بها ، والاتصال رأسا بالدول الاجنبية .

وكانت سياسة أوربا عامة فى غضون الفترة التى سبقت عهد اسماعيل ، هى المحافظة على وضع مصر السياسى بموجب اتفاقية لندن . على أن فرنسا وانجلترا كانتا تتدخلان من حين الى آخر لدى الباب العالى للاستزادة من حقوق مصر أو الانتقاص منها حسبما تمليه الاهواء والمآرب . وقد رأينا كيف انه عندما أقدم عباس على السماح لشركة انجليزية بمد خطوط حديدية فى قلب الدلتا احتجت فرنسا وأوعزت الى الباب العالى بالاعتراض على ذلك . وعندما رخص سعيد لفرنسا بحفر برزخ السويس ناهضته انجلترا واستعانت بالباب العالى لعرقلة المشروع . فالمسألة اذن كانت سباق بين الدولتين الاستعماريتين لتحقيق مطامعهما فى وادى النيل .

وأخيرا وجدت انجلترا أن أوربا لا تقف موقف المعارضة لسياستها فى مصر بعد أن كسرت شوكة فرنسا فى موقعة سيدان وانكمش صوتها فى المحافل الدولية . فان المانيا بزعامة بسمارك دعت كلا من انجلترا وفرنسا الى تغلغل نفوذهما على حساب ممتلكات تركيا سواء فى شمال افريقية أو فى وادى النيل ، وتقسيم تركة « رجل أوربا المريض » . وكان بسمارك يفكر جديا فى أن تكون مصر من نصيب انجلترا كتعويض لها فى حالة امتداد مطامع روسيا الى بحر مرمرة . وبعد مؤتمر برلين اتفقت انجلترا وفرنسا على أن يتساوى نفوذهما فى وادى النيل وعلى منع أية دولة من أن تشاركهما هذا النفوذ .

والآن ما هو موقف اسماعيل فى هذا الجو الدولى الملبد بالغيوم .

كان اسماعيل يسعى الى التخلص من سيطرة الباب العالى والانفصال عن الدولة العلية لا ليصل الى مرتبة الملوك كما كان ينشد ولكن ليقع تحت وصاية الدول الاوربية . وكانت وسيلته فى الاولى لتحقيق هدفه الرشاوى والهدايا للاستزادة من الحقوق والمزايا . اما فى الثانية فكانت وسيلته القروض واستخدام كبار الموظفين والقادة الافرنج ، وفتح أبواب البلاد للافاقين من الغرباء الذين ينشرون بغيهم تحت ظلال الامتيازات الاجنبية وحمايته لهم .

وقد ظهر ميل اسماعيل الى فرنسا بحكم نشأته الباريسية ، واعجابه بقشور الحضارة ، وميله الى تقليد البلاط الفرنسي في مظاهر مجونه وعبثه ، واستخذائه لنصائح المستشارين الفرنسيين الذين استخدمهم فى دوائر الحكومة .

عندما ارتقى اسماعيل العرش طلب الى قنصل فرنسا فى الاسكندرية تأييد دولته وقال له : « اننا نذكر ما ندين به لمعاونة فرنسا وما خصتنا به دائما من رعايتها » . وفى الاسبوع الاول من ارتقائه العرش تعرض ثلاثة من بقايا الجند الارناؤود لاحد الرعايا الفرنسيين فى مدينة الاسكندرية وانهالوا عليه ضربا ، وطوقوا رقبته بحبل وسحبوه فى شوارع المدينة محاولين قتله . فهب قنصل فرنسا يحتج لدى الحكومة على هذا العمل . وخشى اسماعيل أن تضيع صداقة فرنسا منه فحكم بنفى المعتدين بعد تجريدهم من رتبهم العسكرية ، وأوفد شرذمة من الجند الى دار القنصلية وتقديم التحية العسكرية الى العلم الفرنسى ، فكانت هذه الخطوة من جانبه لارضاء فرنسا على هذا النحو موضع نقد وتجريح .

وجاءت مشكلة قناة السويس . فقابل اسماعيل فردينان دىلسبس وقال له على مسمعمن وزرائه ورجال بلاطه «اننى قناليا أكثر منك » وكان يرمى بهذا الى المضى فى تنفيذ المشروع لولا أن لوحت له انجلترا بالمعارضة وحرضت الباب العالى على أن يؤازرها فى مطلبها . وعندما ثار الخلاف بين الخديو وبين الشركة ارتضى تحكيم امبراطور فرنسا وسحب القضية من المحاكم ، ولا يخفى مقدار الغبن الذى لحق بمصر جراء قبولها نصوص التحكيم .

أما موقف انجلترا من مصر ، فقد مهد لها اسماعيل تحقيق مآربها ، بالتدخل وبسط نفوذها منذ أن قبل مشورتها فى مشكلة القناة ، فسمح بتعيين حكام انجليز فى جنوب الوادى ، ومنهم صمويل بيكر حكمدار خط الاستواء ،وجوردون حاكم عامالسودان، وتخويلهما سلطات واسعة النطاق مكنتهما من دق اسفين لمصر فى القارة الافريقية .

وبعد أن افتتحت القناة للملاحة،واستحوذتبريطانيا على الاسهم التى باعها اسماعيل لدزرائيلى صارتانجلترا أكثر تطلعا لمصربوصفها مفتاح الهند ، وخوفها من أن تقوم على ضفاف النيل دولة قوية

تحول بينها وبين مستعمراتها فى الشرق ، وتم احتلال مصر فعلا عقب افتتاح القناة باثنى عشر عاما ، وبسبعة أعوام بعد حصولها على الاسهم .

وبدأت هذه المؤامرة المحبوكة الاطراف بالوصاية على شئون مصر المالية بحجة حماية أموال المرابين الاجانب ، مع أن القروض التى ماطلت الدول الاوربية المفلسة فى سدادها عند نهاية القرن التاسع عشر كانت أكثر من اربعمائة مليون جنيه ، ومع ذلك لم تتخذ دولة ما القوة ذريعة للتدخل فى شئون الدولة المفلسة .

استهلت انجلترا خطتها بتحويل ديون اسماعيل التى عقدها بصفته الشخصية الى قرض باسم الحكومة لاضعاف مركز مصر المالى وارباك ميزانيتها ، ثم أوعزت الى سفيرها فى استامبول هنرى اليوت ، أن يقنع الباب العالى باصدار فرمان يطلق به يد اسماعيل فى جميع الشئون بما فيها عقد القروض .

وأقدمت فى عام ١٨٧٥ على أمر يعد بمثابة مرحلة انتقال جديدة للتدخل بصفة رسمية فى شئون مصر ، فعقب شراء أسهم قناة السويس ، تطفلت تطفلا غريبا فى بابه بارسالها لجنة مالية برياسة كيف لانقاذ الخديو من ورطته المالية ، أما فى الباطن فكان لبسط حماية مقنعة على الوادى .

وتقدم بعض المولين الفرنسيين بعرض لانشاء مصرف وطنى يديروه مندوبون دوليون ، وينظمون مسألة وفاء الخديو بالتزاماته من دفع الاقساط والفوائد ، الا أن انجلترا رأت أن ذلك العمل سيدعو الى انقاذ مصر من ورطتها المالية ، ويترتب عليه نبذ مقترحات اللجنة البريطانية ، التى تتولى الاشراف على الشئون المالية ، فعارضت فى ذلك ، وبعد أن عكفت اللجنة على البحث والاستقصاء والتنقيب فى سجلات الحكومة وجمعت ما شاءت من المعلومات . ووعدت بأن يكون تقريرها ومقترحاتها سرا مطويا ، فاجأ لورد دربى الرأى العام بنشر تقرير اللجنة للقضاء على سمعة مصر المالية .

ورأى اسماعيل اذعانا لنصائح انجلترا التخلص من وزير ماليته اسماعيل صديق المفتش لمعارضته فى وجود اللجنة المالية الثانية برياسة جوشن ، فقتل الرجل غيلة وغدرا . وبعد أسبوع واحد أعلن اسماعيل قبوله مشروع جوشن ، وتأليف لجنة دولية تفحص المالية المصرية لتعمل على التوفيق بين مصلحة حملة السندات

ومصلحة الحكومة ، وبذلك استطاعت بريطانيا أن تبسط وصايتها على مصر بصورة مكشوفة .

وكانت الخطة الثانية التى وضعها الاستعمار لتنفيذ مآربه ، هى قيام وزارة أوربية — أو مختلطة — لحكم البلاد ، وقد سماها المؤرخون المزورون بالوزارة المسئولة على أنها فى الواقع لم تكن مسئولة لا أمام الخديو ولا أمام الامة ، ولم يحدث فى أى بلد من بلاد العالم — ولو كان محتلا — أن يلى وزارته أجانب يتمتعون بسلطات مطلقة للتصرف والتحكم فى شئونه .

وبدأت تظهر مشكلة توزيع الاسلاب والغنائم ، فبريطانيا رشحت ريفرز ولسن وزيرا للمالية، فلما اتصل ذلك بفرنسا عدت مسعى انجلترا للاستئثار بادارة مصر أمرا غاية فى الوقاحة ، وطالبت بأن يكون لها وزير الاشغال الذى عين فيه دوبلينير ووسعت دائرة اختصاصه بأن أضيفت الى الوزارة مصالح السكك الحديدية والبريد والموانىء والمنائر ، وجاءت النمسا فطالبت بوزارة العدل ، وايطاليا بوزارة المعارف ولو تحققت هذه الرغبات لكان الامر مهزلة .

وبعد أن تولى ولسون — أوفلسن — وزارة المالية ببضعة أشهر حرم فى خلالها على الخديو حضور جلسات مجلس الوزراء ومنح نفسه حق الفيتو فيما يصدره المجلس من قرارات ، وبعد أن نهب أموال الخزانة العامة باليمين وبالشمال ، وأرهق الفلاح بمختلف الضرائب ، أعلن فى النهاية افلاس مصر ووجوب مقاضاتها كما يقاضى المفلسون .

وكانت هذه الوزارة الاوربية بمثابة آخر مسمار فى نعش اسماعيل، فبعد أن أسقط الخديو هذه الوزارة أخذت كل من انجلترا وفرنسا تسعيان لدى الباب العالى الى عزله ، فوافق الباب العالى على أن يكون الامير عبد الحليم خلفا له على العرش ، ولكن الدولتين تمسكتا بتوفيق ولى العهد ، لما لمستا فيه من خنوع وخضوع لرغباتهما .

قنـــاة السويس

نبذة عن ترعة السويس قديما ـ خطط فرنسا فى الشرق ـ فردينان دى لسبس وصداقته للوالى سعيد ـ الحرب الباردة بين انجلترا وفرنسا ـ عقد الامتياز مصر تكتتب فى نصف رأس مال الشركة ـ الخلاف بين الحكومة والشركة ـ تحكيم نابليون الثالث ـ حفلات افتتاح القناة ـ خسائر مصر فى القناة

أن فكرة زواج البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ، أو بالاحرى وصل النيل بالبحر الاحمر لاختزال شقة السفر بين الشرق والغرب وبالعكس ، هى فكرة قديمة كل القـدم ، حاول تنفيذها الفراعنة والبطالسة والرومان والعرب .

ففى عهد الاسرة السادسة شرع الملك مريرع فى شق قناة تمتد من فرع النيل عند بوبسطة وتصل الى البحر الاحمر ، وهى القناة التى عرفت فيما بعـد باسـم « سيزوستريس » واستخدمت فى الملاحة زمنا ، ثم هجرت وطمرتها الرمال والاتربة ، الى أن تجددت فى عهد الملك نيخاؤ .

وعندما احتل الفرس أرض النيل عمد الملك دارا الاول الى اعادة حفر هـذه الترعة وتعميقها لانها تساعد على تيسير الاتصـال بين فارس ومصر .

وفى أثناء الفتح العربى أراد عمرو بن العاص حفر ترعة من الفرما الى السويس ، الا أن الخليفة عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك بحجة أن وجودها يفتح طريقا لمراكب الروم ، تهدد بها الحرمين الشريفين . فعدل عمرو عن ذلك الى فكرة أخرى ترمى الى اعادة حفر الترعة القديمة وأطلق عليها اسم « خليج أمير المؤمنين » ، وظلت هذه الترعة تستخدم فى شئون الملاحة وفى نقل الغلال الى الحرمين الى أوائل حكم العباسيين ، الى أن أمر ابو جعفر المنصور بردمها سنة ٧٧٠ م ليحول دون نقل القمح والمؤن الى الثائرين عليه فى الحجاز .

واستعيض عن هذا الطريق المائى بطرق برية للقوافل تربط أوربا بالشرق ومن أهمها : طريق قنا ـ القصير ، وأسوان ـ عيذاب ، وعين شمس ـ السويس .

وهذه الطرق كانت تعبرها القوافل حاملة تجارة الهند والشرق الاقصى من أقمشة وأفاوية وتوابل وطيوب الى الغـرب ، وترسل أوربا عن طريقها بضائعها الى الشرق .

وعنـدما وصل نابليون بونابرت الى مصر كان يحمل فى ذهنه مشروع وصـل البحرين الابيض بالاحمـر ، فقـد أظهرت خطط فرنسا أن طريق رأس الرجاء الصالح لم يعد يلائم الظروف والملابسات الدولية ، وان مصر وهى بمثابة الجسر بين البحرين الابيض والاحمر ذات مركز خطير ، اذا قبض عليه عدو لانجلترا . وكانت تصحب الحملة الفرنسية بعثة علمية من أقطاب الفكر والعلم والهندسة ، فسافر نابليون برفقتهم الى برزخ السويس لمعاينة مشروع حفر القناة ، الا انه اضطر الى العدول عن تنفيذه بسبب جسامة النفقات من ناحية ، والى أن المهندس لابير من ناحيـة أخرى بنى تقـديره على أساس غير سليم ، اذ قرر أن البحرين لا يستويان وان سطح البحر الاحمر يعلو على الابيض بقرابة تسعة أمتار .

وعرضت فكرة حفر القناة على محمد على فكان يتلون لها تبعا للظروف السياسية ، قيل انه كان يخاف على مصر من شقها بسبب عبور السـفن الدولية الاراضى المصرية ، وروى انه كان يخشى أن تتحول التجارة عن الاسكندرية وتؤثر فى محيط الدخل القومى اذ أن البواخر كانت تنزل مشحوناتها فى ميناء الاسكندرية ثم تحمل البضائع فى النيـل عن طريق العطف الى ميـناء بولاق ومنها تعبر الصـحراء على الابل الى السويس الى أن تشحن على مراكب الى الشرق ، وبطبيعة الحال كانت مصر تستفيد من مرور هذه البضائع بأراضيها .

وجاء فى تعليمات بعث بها الوالى الى سر عسكر ابراهيم أثنـاء رحلته الى أوربا فى غضون عام ١٨٤٥ :

« اذا سافرتم الى فرنسا والتقيتم بوزرائها وساستها وسألوكم عن أحوال مصر فقولوا : ان والدى يدرك منذ ن ولى الحكم درجة محبة الفرنسيين له ، وانهم لم يضنوا عليه بتقديم المساعدات ، وانه لا يفتأ يقدم فروض الشكر فى كل مناسبة ولا يألو جهدا فى توصية أفراد أسرته واتباعه وقرابته بأن يقـدروا قيمـة حسن معـاملة الفرنسيين لمصر .

واذا فاتحوكم فى مسألة قناة السويس فقولوا لهم انه ليست هناك صعوبة فى حفرها . وقد اضطررنا الى تأجيل شقها الى الوقت المرهون ونحن نرغب فى حفـرها من كل جانب . ومتى تم انشـاء القناطر الخيرية فلا ضير على مصر لتقوم بحفرها » .

ويتبين من هذا انه مناقض تماما لما أثبته المؤرخون من أن محمد على كان يعارض فرنسا فى شق برزخ السويس . وعلى كل حال فمن المقطوع به أن محمد على جمع مستشاريه ومهندسى حكومته من الفرنسيين وفى طليعتهم لينان دى بلفون ووجهم الى منطقة السويس لمعاينة مناسيب المياه فى البحرين ، فخرجت هذه اللجنة من دراساتها بتصحيح الخطأ الذى وقع فيه لوبير وهو أن منسوب المياه لا يزيد على ٣٢ س.م

وفى غضون عام ١٨٣٣ كان لينان قد فرغ من وضع تقريره الشامل عن مشروع القناة ، وقدم صورا منه الى : قنصل فرنسا فى القاهرة ، والى شركة الملاحة الشرقية ، P. & O. والى حكومة الهند ، والى حكومة باريس . وعلى أثر ذلك اهتمت أوربا قاطبة بأبحاث لينان . فقدمت الى مصر بعثة من الرهبان العلماء ، من طائفة السيمونيين ، وكان أفرادها من دعاة المشروع ، وبعد أن قضت فترة طويلة من الزمن فى منطقة القناة عكفت فى خلالها على دراسة المشروع على الطبيعة ، تقدمت الى محمد على لتحصل منه على حقوق الامتياز .

وتكونت لجان عالمية من خيرة المهندسين والفنيين . وسعت الى منطقة القناة وقتلت المشروع بحثا وتمحيصا ، ومنها بعثة روبرت ستيفنسن الذى اقترح الاستعاضة عن حفر القناة بمد خط حديدى يصل الاسكندرية بالسويس ، الا أن عهد محمد على كان قد أوشك على الافول ، وبدأ النفوذ البريطانى يتغلغل فى أرجاء وادى النيل فى عهد حفيده عباس الاول، فحاربت انجلترا مشروع القناة لتحل محله مشروعا تحتكره هى لربط البحرين بالخط الحديدى المقترح . وفعلا حصل ستيفنسون على ترخيص من الوالى بذلك وبدأ العمل فعلا ، وفى الوقت ذاته رصف الطريق الصحراوى بين عين شمس والسويس وهو الطريق الذى تسلكه مركبات الامنيبوس والبريد والقوافل التجارية .

• ● •

خدم عباس الاول بريطانيا بأن سهل لها مد خطوط حديدية فى قلب الدلتا وذلك فى سبيل سعيها الى حمل الباب العالى على الاعتراف بابنه الهامى وارثا للعرش ، وكذلك خدم سعيد فرنسا بسماحه لها بشق برزخ السويس فى سبيل الاعتراف بابنه طوسون وليا للعهد ، فقد كان الهامى كما كان طوسون معبود أبيه ، وقد نشأ كلاهما مدللا ،

منعما ، وقد أقـدم كل من عباس وسـعيد على خـدمة المصالح الاستعمارية لكى يضمنا تأييد الرأى العام الاوربى ويهىء كل منهما لولده وراثة حكم مصر .

وأراد عباس أن يصادر ممتلكات أفراد أسرته لا لشىء الا ليجعلها وقفا على الهامى ، وأوصى له بثروته المنقولة وكانت قرابة مليونى جنيه. أما سعيد فمنح ولده طوسون اقطاعيات واسعة النطاق الى حد أن ثروته كانت تفوق ممتلكات أسرة محمـد على مجتمعـة ؛ فالمسألة اذن كانت سباق وتنافس وتكالب على جمع الثروة بالطرق المشروعة وغير المشروعة . ثم ضياع استقلال البلاد .

وكان فى جملة أصدقاء سعيد فردينان دى لسبس .. كان أبوه ماتيو قنصل فرنسا فى مصر واليه يرجع الفضل فى اسناد الولاية الى محمد على بحمل الباب العالى على الموافقة على قرار الزعماء والعلماء ورجال الشرع،أما فردينان فقد استهل حياته فى السلك الديبلوماسى وكان فى وقت ما نائبا عن القنصل الفرنسى فى الاسكندرية ،واستطاع فى غضون هذه الفترة أن يظفر بثقة الوالى ووطد علاقته به . فعهد اليه بأن يكون رائدا ومدربا لولده سعيد الذى كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما وكان فردينانـد محدثا لبقا ، ووصوليا من الطراز الاول ، وزير نساء ، فاستطاع سعيد أن يجد فى صحبته ما يرضى نزواته وشهواته ، وكان يجد فى داره الطعـام المطهو على الطريقة الباريسية وأنواع الانبذة وألوان النساء التى يهفو اليها شاب فى مثل سنه ، وفى عام ١٨٤٨ فر سعيد من مصر بسبب اضطهاد عباس له ولجأ الى باريس وهناك التقى بصديق الصبا وقضى معه أياما كلها لهو وفراغ ومفسدة .

وكان فردينان قد طالع أشتاتا عما كتب عن مشروع حفر برزخ السويس،وبالاخص ما ورد عنه فى الموسوعة المعروفة باسم « وصف مصر » التى اشترك فى وضعها علماء الحملة الفرنسية ، وجمع طائفة أخرى من المعلومات والتقارير وفى طليعتها تقارير : لوبير وموجيل وجمـاعة السيمونيين ، واستهوته بصفة خاصة أبحاث لينان دى بلفون . وفى ذات يوم من أيام شهر سبتمبر ١٨٥٤ طالع مصادفة فى احدى صحف باريس . وكان مقيما اذ ذاك فى الريف الفرنسى ، نبأ مصرع الوالى عباس واسناد الولاية الى سعيد . وكانت غبطته عظيمة وهو يطالع هذا النبأ فقفزت الى ذهنه فى الحال فكرة مشروع حفر برزخ السويس ، ووجدها فرصة مواتية لاستغلال صداقته

القديمة لسعيد وحمله على تنفيذه، وبادر لتوه بأن كتب الى سعيد مهنئا ومبديا رغبته فى القدوم الى مصر ، فرد عليه الوالى يدعوه الى زيارته ومشاطرته فرحته وحدد له موعدا أوائل نوفمبر ثم طوى الرسالة على حوالة بريدية بخمسين الف فرنك .

زايل فردينان فرنسا الى الاسكندرية حيث وصلها فى الاسبوع الثانى من نوفمبر ووجد فى استقباله فى الميناء مندوبا من قبل الوالى واحدى المركبات الفاخرة ، فارتدى ملابسه الرسمية ووضع أوسمته على صدره حيث أقلته المركبة الى قصر القبارى وهناك أكرم سعيد وفادة صديقه وخصه بالكثير من التفاته ورعايته .

واتفق أن قام الوالى فى اليوم التالى برحلة الى الصحراء الغربية ، مصطحبا الجيش كعادته بأسلحته وعتاده الى أن حطوا الرحال فى بقعة متاخمة لمريوط . وكان فردينان مغرما منذ حداثته بالجياد العربية ، ماهرا فى العدو والقفز بها ، فبعد ظهر أحد الايام امتطى صهوة جواد أصيل وصار يعدو به فى الصحراء ويقفز ويتخطى الحواجز على مشهد من الضباط ورجال الحاشية الذين أعجبوا ببراعة وفروسية صديق ولى نعمتهم .

وأقام سعيد مسابقة فى الرماية باطلاق النار على هدف معين ، فأخطأ الضباط اصابة المرمى ، الا أن فردينان تناول احدى البنادق وأصاب الهدف اصابة موفقة ظفر من أجلها بهالات الاعجاب ، وعلت أسارير سعيد الفرحة من مهارة صديقه فقبض على يديه مهنئا ثم اختلى به فى خيمته يتذاكران أيام الصبا وليالى باريس .

كان فردينان كما بينا وصوليا من الطراز الاول ومغامرا جسورا ، فانتهز فرصة اعجاب الضباط ورجال الحاشية بمهارته ، واستغل حسن الوفادة التى لقيها من الوالى ، وفى هذه الخلوة بالخيمة ، فاتح سعيد فى الموضوع الذى يشغل باله وهو حفر قناة تصل البحرين الابيض بالاحمر ، وبسط له الموضوع دون أن يدخل فى التفاصيل ، واستطاع أن يقنعه بالفوائد التى تنجم عن تنفيذه وكيف انه سيتوج اسمه فى ثبت التاريخ ، وتكون القناة مفخرة لمصر وللملاحة البحرية .

ومع أن هذا الديبلوماسى الماكر لم يكن مهندسا ولا يدرى شيئا عن الملاحة البحرية الا أن صداقته للوالى غيرت مجرى التاريخ ، وكانت بمثابة نقطة تحول فى السياسة المصرية بل العالمية .

وانقاد سعيد الى اغراء صفيه فاستدعى قواده وبسط الفكرة لهم ، وكانت عقلية هؤلاء القـادة لا تختلف فى شىء عن عقليـة ولى نعمتهم ، وسرعان ما وافقوا بالاجماع دون تمحيص او دراسة أو نظر فى العواقب ، ودون أن يكون لهم سابق المام بالمشروع أو تقدير خطـورته ، بل كانوا لا يزالون متأثرين ببراعـة ذلك الفرنسى فى الفروسية ، وحكموا من الظواهر على انه رجل ممتاز لا يحمل بين جنبيه سوى الخير لمصر .

ولما كان سعيد متقلب الاهواء فقد خشى فردينان أن يرجع الوالى عن الوعد الذى قطعه على نفسه ، فعرض عليه وهو لا يزال فى مخيمه فى الصحراء ، التخطيط الاول لمشروع اتفاقية القناة ، فطمأنه سعيد بقوله : انه موضوع مفروغ منه وفى وسعك الاعتماد على .

واتجه الوالى بجيشه الى العاصمة الى أن وصلها فى ٢٤ نوفمبر ، واستضاف صـديقه فى « قصر المسافرين » ومن غرائب الاتفـاق أن هذا القصر كان مخصصا أيام الحملة الفرنسية لاجتماع أعضـاء لجنة بحث مشروع حفر برزخ السويس برياسة لبير .

وفى الغداة وفد قناصل الدول بملابسهم الرسمية على ديوان القلعة لتهنئة الوالى بوصوله العاصمة ، ولنترك دى لسبس يقص علينا نبأ هذا الاجتماع التاريخى من مفكرته فى ٢٥ نوفمبر اذ قال :

« لم يكد قناصل الدول يجلسون على أرائك الديوان ويقضون واجب التحيات حتى فاجأهم عزيز مصر وفاجأنى أنا أيضا باعلانهم انه قد عزم على شق برزخ السويس وحفر قناة بحرية للملاحة ، وعلى انه يفوض الى تكوين شركة من ممولى جميـع الامـم بمنحها امتيازا بتنفيذ هذا المشروع واستغلاله ، ثم التفت الى وقال : أليس هذا ما سنفعله ؟ فألقيت عندئذ كلمة موجزة أوضحت فيها ماذكره الوالى وعزوت اليه فضل ابتكار هذا المشروع والعناية بتنفيذه مجتنبا فى قولى كل ما يحرك شجنا فى نفوس ممثلى الدول الاجنبية ، وكان يبدو على القنصل البريطانى شىء من الارتباك » .

وفى أقل من أسبوع كان عقد الامتياز الابتدائى فى جيب دى لسبس

ووضع الوالى تحت تصرفه لجنة من خيرة مهندسى الحكومة وفى طليعتهم موجيل ولينان دى بلفون ، وسافر برفقتهم فى ٢٣ ديسمبر الى السويس لوضع التصميمات والخطوات التمهيدية .

وبعـد أن قطعت اللجنة شوطا بعيـدا فى دراساتها ، استقدم دى لسبس لجنة دولية ، يصحبها مهندسون من البحرية الفرنسية

لوضع التفصيلات الفنية الدقيقة ، وكان دى لسبس خالى الوفاض فدفع اليه سعيد كل ما فى خزانة الدولة من مال للانفاق منه على الدراسات التمهيدية وعلى المهندسين والمحامين والكتاب والصحفيين الذين جندهم للدعاية للمشروع ، وكان هذا المال قرابة خمسمائة الف ريال ، وخص دى لسبس براتب شهرى قدره ثلاثين الف فرنك .

وما أن فرغت اللجنة الدولية من مهمتها ووافقت على المشروع حتى أصدر الوالى وثيقة فى ٢٥ يناير ١٨٥٦ صدق بها على الامتياز السابق ، وجاء فى البند الاول منها : أن تقوم الشركة المؤسسة بمعرفة صديقنا مسيو فردينان دى لسبس بناء على عقد الامتياز الممنوح له فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ على نفقتها الخاصة وتحت مسئوليتها وحدها بجميع ما يلزم لاجل حفر قناة ملاحية بين السويس وخليج بيلوز ، وحفر ترعة للرى والملاحة النهرية تربط النيل بالقناة ، وانشاء فرعين من هذه الترعة للرى ولتوصيل المياه العذبة الى السويس والى بيلوز ، ويجب اتمام هذه الاعمال فى مدة لا تتجاوز ست سنوات .

وجاء فى البند الثانى أن للشركة الحق فى تنفيذ الاعمال المنوطة بها بمعرفتها أو بوساطة مقاولين ، وفى كل هذه الحالات يكون أربعة أخماس العمال من المصريين .

وفى البند الثالث أن عمق القناة الملاحية وعرضها يجب أن يكون مطابقا لبيانات اللجنة الدولية ونص البند السادس علي تحويل بحيرة التمساح الى ميناء صالحة لرسو أكبر السفن البحرية حمولة ، ويجوز للشركة انشاء ميناء عند مدخل القناة فى بيلوز ، وتحسين ميناء وحوض السويس الحاليين وان تكون صيانة القناة والموانىء والترع على مصاريف الشركة .

وجاء فى البند العاشر أن الحكومة تمنح الشركة بدون مقابل وبدون ضرائب كل الاراضى اللازمة لانشاء الترع والقناة وكذلك جميع الاراضى الصحراوية القابلة للاستصلاح الزراعى على ألا تحصل ضريبة عنها لمدة عشر سنوات ، وبعد انتهاء مدة عقد الامتياز يحق للشركة أو لممثليها الاحتفاظ بهذه الاراضى مع حق أخذ المياه اللازمة لريها مقابل حصول الحكومة على ١٥ ٪ من قيمة الأرباح الصافية

للشركة ، وان تسلم الحكومة للشركة الاراضى المملوكة للغير والتى تلزم لتنفيذ المشروع على شرط أن تدفع الشركة للاهالى التعويض اللازم عن أملاكهم .

ونص البند الثانى عشر على أن تمنح الحكومة الشركة الحق فى استغلال المناجم والمحاجر بدون ثمن أو أية ضريبة أو أى تعويض لاستخراج المواد اللازمة لاعمال المبانى وصيانة المنشآت ، وان تعفى الشركة من الضرائب الجمركية المقررة على جميع الآلات والمهمات التى تستحضرها .

ونص البند الرابع عشر بأن القناة والموانىء الخاصة بها مفتوحة دائما وقت السلم وكذلك فى وقت الحرب كممر دولى محايد لكل المراكب التجارية .

أما مدة عقد الامتياز فهى ٩٩ سنة واشترط الوالى تعليق اعتماد العقد على موافقة السلطان .

• ● •

هكذا عرف دى لسبس كيف يستغل صداقته للوالى الضعيف المغرور ، وان يظفر منه بامتياز أعظم مشروع هندسى ، ووقع سعيد على العقد دون أن يتروى أو يفحص شروطه ومحتوياته أو يستشير أحدا بشأنه .

وكان عقد الامتياز فضيحة له ووثيقة عار تنازلت الحكومة بموجبه عن حقوقها فى السيادة ، وكان هذا التنازل شؤما على الكنانة وخطرا على كيانها واستقلالها ، وفتح الباب على مصراعيه للاستعمار الاوربى وللاستعباد الاقتصادى، فقد نص فيه على أن تتنازل الحكومة عن ملكية الاراضى الشاسعة التى تستصلحها الشركة للزراعة ، وان تعفى هذه الاراضى من أية ضريبة لمدة عشر سنوات وان تقوم الشركة ببيع مياه النيل من الترعة التى تحفرها لابناء النيل ، وان تعفى من دفع اية رسوم جمركيه ، وان تخول حق الانتفاع بما تحويه المناجم التى قد تكتشفها ، وان يوضع جهاز الدولة بأكمله تحت تصرف الشركة ، وان يكون أربعة أخماس العمال — مهما بلغ عددهم — فى خدمة الشركة تسخرهم فى أعمالها بمعرفتها وتحت ادارتها وفى أية صورة تشاء .

وكان الحصول على عقد الامتياز بمثابة ضربة لانجلترا ومصدر قلق لها ، فعملت على احباط المشروع وناصبته العداء ، فقد خشيت

أن يزداد نفوذ فرنسا فى مصر وتهدد الاستعمار البريطانى فى الهند والشرق الاقصى وتقضى على أسواقها التجارية هناك . ثم ان انجلترا كانت تنشد الاستئثار بالسيادة البحرية ولا تحب لغيرها التقدم ، مع أنها تملك أهم المواقع البحرية فى العالم كجبل طارق ومالطةوجزر الارخبيل وعدن وسنغافورة .

ولم يهدأ بال انجلترا فألبت الباب العالى على المشروع لعرقلة تنفيذه ، وانذرت السلطان العثمانى بأنه فى حالة الموافقة عليه فانها تنفض يدها من مد يد المساعدة للمحافظة على امبراطوريته ، ولكن فرنسا استطاعت أن تحصل على موافقة روسيا والنمسا وبذلك تركت انجلترا وحدها فى الميدان تصول فيه وتجول .

وبدأ دور الكفاح السياسى فسافر دى لسبس الى استامبول فى فبراير ١٨٥٥ ووجد دوائر الباب العالى تنظر بعين الريبة الى المشروع وتحاول أن تتملص منه ، وتبين له أن سير ستراتفورد دى رد كليف سفير بريطانيا هو صاحب الكلمة المسموعة وانه يستمد معارضته للمشروع من لورد بلمرستون وزير الخارجية ، فراح يقرع باب السفير الذى لقيه فى جفاء ودارت بينهما مناقشة شديدة اللهجة حول الخطر الذى تلوح به فرنسا لتطويق المشرق ، فرد عليه دى لسبس بأن أوربا بأسرها ستفرض تنفيذ المشروع فى المستقبل .

وأخيرا أيقن دى لسبس بأن لندن هى المرجع الحقيقى وأن القضية هى قضية سياسية لها علاقة بنفوذ انجلترا فى الشرق ، وما كاد يصل الى لندن حتى وجد أن انجلترا تستند فى معارضتها المشروع على أسس خمسة :

١ ــ انه مشروع خيالى لا سبيل الى تحقيقه .

٢ ــ ان نفقات المحافظة على القناة وصيانتها تزيد على كل الارباح المنتظرة .

٣ ــ ان القناة ستفصل مصر عن الدولة العلية وتمكن مصر من اعلان استقلالها .

٤ ــ ان فى القناة تهديد مباشر لطريق المواصلات الى الهند والخطر على مصالح بريطانيا السياسية والتجارية .

٥ ــ ان تحقيق المشروع خطر على مصر نفسها ، اذ قد يجبر انجلترا على احتلالها على حين أنها لا تريد ذلك ولا يهمها من مصر الا أن تكون طريقا تجتازه نحو ممتلكاتها الى الشرق .

وراح دى لسبس يدحض هذه المزاعم ويفندهذه الحجج ، ويحاول أن يكسب الرأى العام الى صفه عن طريق الخطابة والصحافة وتوزيع النشرات والاتصال بشركات الملاحة والصناعة والغرف التجارية وأعضاء البرلمان مبينا الفوائدالتى ستعود على الامبراطورية من جراء تنفيذ المشروع .

وكان سعيد يشد أزر صديقه ولا يبخل عليه بالمال الذى ينفقه فى الدعاية للمشروع ، وكذلك كان الامبراطور نابليون الثالث يعطف عليه بسبب علاقته بسمعة فرنسا ومصالحها فى الشرق ، وكانت تربط دى لسبس بالامبراطورة أوجينى صلة قرابة ، وقيل بانه كان خطيبها قبل أن تزف الى نابليون .

وأصر الساسة الانجليز على مقاومة المشروع بحجة انه خيالى محض ولا يمكن تنفيذه وعلى فرض نجاحه فان ذلك لا يتم الا بعد بذل المال الوفير الذى لا يتناسب والدخل المنتظر الحصول عليه ، فالمشروع من الوجهة المالية خيالى بحت ، وعلى ذلك فان غرض فرنسا الحقيقى منه هو سياسى محض .

ولم تكن هذه الحجة الا جوابا ظاهرا ينطوى على مقاومة لدعاية دى لسبس التى أخذ يبثها فى كل ركن من أركان الجزيرة البريطانية ومحاولة لجذب الرأى العام الى صفه ، أما الدافع الحقيقى فهو لان القائمين على المشروع فرنسيون وبخاصة انه مقدمة لتبسط فرنسا نفوذها على وادى النيل .

وفى خلال هذه الحرب الباردة القائمة بين الدولتين ثبت لدى الانجليز أن المشروع يمكن تنفيذه ، ففى عام ١٨٥٧ نشبت ثورة فى الهند أزهقت فيها أرواح الالوف من البريطانيين ، واستعانت انجلترا بالوالى سعيد الذى سمح بمرور خمسة الاف جندى بريطانى بضباطهم عبر الاراضى المصرية بطريق السكة الحديدية من الاسكندرية الى السويس لاخماد الثورة ، وحاول دى لسبس أن يستغل ذلك للدعاية لمشروعه قائلا : لو كانت القناة قائمة لاسرعت القوات البريطانية بالوصول الى الهند بدلا من انفاق الوقت والجهد والمال للمرور عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ولكن الانجليز أصروا على موقفهم ونبتت لديهم فكرة استخدام طريق الفرات البرى للوصول الى الهند والشرق الاقصى مع مقاومة فرنسا فى حالة نجاح مشروعها وقبضها على مصر .

وفى ٥ نوفمبر ١٨٥٨ تألف الشركة الدولية لقناة السويس وجعل مقرها فى بادىء الامر مدينة الاسكندرية . ثم طرحت الاسهم وعددها ٤٠٠ الف سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك للاكتتاب العام أى أن رأس المال ٨ مليون جنيه .

فاكتتبت فرنسا فى ٢٠٧ر١١١ سهما ، واسبانيا ٤٠٤٦ وهولندا ٢٦١٥ وبلجيكا ٣٢٤ والدنيمرك ٧ ونابلى ٧ وروما ٥٤ والبرتغال ٥ وبروسيا ١٥ وتونس ١٧١٤ وبيمونت ١٣٥٣ وسويسرا ٤٦٠ وتوسكانيا ١٧٦ وتركيا ٩٦٥١٧ ،واحتفظ دىلسبس بنحو ٨٥٥٠٦ سهما لبيعها لا نجلترا وامريكا فلما أخفق فى ذلك أوعز الى سعيد بابتياعها وحمله تبعة الفشل فى تصريفها ، وبذلك أصبحت مصر تملك ٤٤ ٪ من الاسهم أى قرابة نصف رأس المال ، واضطر سعيد الى التورط فى عقد قرض ليعاون صديقه معاونة فعالة فى شراء نصف الأسهم ، وكان من جراء عقد هذا القرض أن ارتبكت مالية البلاد .

وأخذت صحافة لندن تناهض المشروع وتتناوله بالتسخيف ، واتهمت دىلسبس بالدجل وأطلقت عليه لقب «سيزوستريس القرن التاسع عشر » وتهكمت على عملية الاكتتاب وذكرت بأن البوابين وخدم المقاهى والقسس والسذج هم الذين أقبلوا على شراء الاسهم بسبب أنهم خدعوا بالدعاية الجوفاء .

وخطب كبير وزراء بريطانيا فى البرلمان وقال ان الاكتتاب فى أسهم الشركة هو أكبر عملية نصب يرويها التاريخ .

وتوترت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا الى حد انه لما تقدمت سيدة فرنسية للاكتتاب سألها الموظف المختص : هل تعرفين فيم تكتتبين ؟

فقالت : فى أسهم حفر نفق فى سويسرا .

فقال لها : ان المشروع ليس لحفر نفق بل لحفر قناة فى السويس وليس فى سويسرا . فأجابته :

— لا يهمنى أن يكون فى سويسرا أو السويس مادام المشروع يغيظ الانجليز .

وفى صبيحة ٢٥ ابريل ١٨٥٩ وقف دى لسبس فى خليج بيلوز — مكانه بور سعيد الان — ومعه أعضاء مجلس ادارة الشركة والمهندسون وخمسون بحارا وبعض العمال وضرب المعول الاول فى حفل عام فجرى العمل فى الحال لحفر الخندق الاول .

وجن جنون انجلترا من هذا التحدى السافر فأوعزت الى الباب العالى أن يصدر أى أمر الى والى مصر بوقف العمل فى الحفر الى أن تصل الموافقة من السلطان ، وحاربت المشروع هذه المرة باسم السخرة مع أن مشروع مد الخط الحديدى من الاسكندرية الى السويس استخدمت فيه السخرة ولكن انجلترا لم تهاجمه لانه يخدم مصالحها فى الشرق .

واضطر سعيد بسبب مخاوفه الى وقف العمل فى ٩ يونيو فبعث شريف وزير الخارجية باحتجاج الى دى لسبس يقول فيه أن الوالى أذن له باجراء مباحثات تمهيدية وليس الشروع فى حفر القناة وانه يجب عليه أولا الحصول على الموافقة النهائية من الباب العالى ، فهدد دى لسبس بأنه سوف يقاضى الوالى ويطالب بتعويض المساهمين ، ثم قرر أن يرجع الى الامبراطور لحمله على التدخل فى الموضوع ، وتمكن توفنيل السفير باستامبول من أن يقنع الباب العالى بضرورة استئناف عمليات الحفر اذ أن الامر يمس مصالح فرنسا بالذات ، الا أن الباب ظل كعادته يسوف ويماطل ، فلجأ دى لسبس مرة أخرى الى الامبراطور الذى كتب الى سعيد فى ٧ فبراير ١٨٦٠ يقول : « يمكنك الاعتماد على حكومة فرنسا فلا تخشى ملاما ، ولا تظهر أى تردد » .

وعلى ذلك استؤنف العمل ، فثارت ثائرة حكومة لندن واستمرت الحرب الباردة قائمة بين انجلترا وفرنسا دون هوادة ، وصار مشروع القناة موضع مناقشات فى مجلس العموم ، ودافع بعض الاعضاء واستشهدوا باضطرار الحكومة الى ارسال الجنود عن طريق السويس لاخماد ثورة الهند ، ولكن الحكومة ظلت على موقفها من المعارضة ، ولم يعبأ دى لسبس بالخطب التى ألقيت فى مجلس العموم ولا بكلمات الاحتجاج التى صدرت عن الوزراء ، وسار فى طريقه ، وجرت عمليات الحفر دون اذن الباب العالى أو الوالى بل فى ظل الامتيازات الاجنبية وجعل الجميع أمام الامر الواقع ، الى أن وصلت مياه البحر الابيض الى بحيرة التمساح فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ ، وأصدر دى لسبس صحيفة « برزخ السويس » وصار يذيع على صفحاتها جميع أوجه النشاط فى عمليات الانشاء والتعمير .

وحين ارتقى اسماعيل العرش كانت مشكلة القناة لا تزال على حدتها ، ومعارضة انجلترا قائمة ، وتمثل فى خاطر الخديو كيف

حاول الباب العالى خلع سلفه باستدراجه الى زيارة بيروت للقبض عليه بعد أن يشهر بتمرده وعصيانه ، وكيف بعثت انجلترا بأسطولها الى الاسكندرية لتهديد سعيد والاقلاع عن المضى فى تنفيذمشروعه. مرت بذهن اسماعيل هذه الصور فخاف على العرش أن يفلت من بين يديه وشيكا ، ووقف الى جانب انجلترا بل انه صار آلة طيعة فى يد بالمرستون يحركه كيفما شاء .

والواقع ان انجلترا هى التى دفعت اسماعيل الى محاربة المشروع منذ البداية ، ومعاداة فرنسا ، على الرغم من أن الخديو كان يود من صميم فؤاده أن يتم المشروع على يديه وقد سبق له أن صارح دى لسبس بقوله : اننى قناليا أكثر منك .

ووصلت الى اسماعيل ثلاثة مطالب من الباب العالى ان لم ينفذها هدد بالعزل ، وهذه الشروط هى :

١ ـ جعل الملاحة فى القناة للاغراض التجارية فقط ومنع مرور البوارج الحربية أو اقامة استحكامات على الضفتين .

٢ ـ منع الشركة من الاستيلاء على الاراضى الواقعة على ضفتى القنـــاة .

٣ ـ منع استخدام السخرة .

وقامت معارضة اسماعيل للمشروع على المسائل الشكلية ومنها : ابطال العمل بالسخرة،وان يكون شق الترعة العذبةعلى جانب الحكومة وليس على حساب الشركة ، ثم الغاء ملكية الشركة للاراضى الزراعية التى تنوى استصلاحها دون دفع تعويض وذلك ارتكازا الى أن القانون العثمانى لا يبيح التنازل لاجنبىعن ملكية الاراضى المشمولة برعاية السلطان الا بموجب فرمان .

ووقف العمل فى حفر القناة ووقع اسماعيل فى مشاكل قضائية مع الشركة انتقلت الى محكمة السين ، وانقسمت الصحافة والرأى العام فى أوربا الى معسكرين أحدهما يحبذ المشروع والاخر يعارضه.

وخشى اسماعيل سطوة فرنسا فطلب تحكيم نابليون الثالث للفصل فى موضوع النزاع ، مع علمه بأن الامبراطور لا يمكن أن يكون الا الى جانب هذه الشركة الفرنسية .

وأصدر نابليون الثالث أمره بأن تنفذ الشركة طلبات الخديو بشرط أن يدفع لها تعويضا عن :

١ ـ عدم الزام الحكومة المصرية بتقديم الفعلة بطريق السخرة.

٢ ـ عدم احتكار الشركة حفر ترعة المياه العذبة .

٣ ـ اعادة ستة الاف فدان من الارض التى استولت عليهاالشركة بوضع اليد .

وكان فى عزم دى لسبس أو يحول ١٤ر٣٠٠ فدانا من التى استولت الشركة عليها الى مستعمرة فرنسية وتنصيب الامير عبد القادر الجزائرى حاكما عليها .

٤ ـ الزام مصر بأن تدفع ٨٤ مليون فرنك بصفة تعويض .

أى أن مصر دفعت ٣ر٣٦٠ر٠٠٠ جنيها مع أن رأس مال الشركة هو ثمانية مليون من الجنيهات . على أن الرقم الحقيقى لخسارة مصر بلغت أضعاف هذا المبلغ ، فقد قدر مجموع ما دفعته مصر فى القناة بسبعة عشر مليونا من الجنيهات ، ويشمل هذا الرقم مبلغ التعويض سالف الذكر ونفقات التحكيم ومقاضاة الشركة ، وشق الترعة الحلوة ، وحفلات الافتتاح ، ثم ثمن الاسهم التى باعها الخديو .

وعلى ذلك استأنفت الشركة العمل فى حفر القناة وحصلت على « فرمان » من الباب العالى بالموافقة على قانونها . وفى غضون عام ١٨٦٨ اختلطت مياه البحرين وعزم الخديو على أن يحتفل بافتتاح القناة احتفالا فريدا فى نوعه ، فشخص بنفسه الى أوربا يدعو ملوكها وأمرائها وعظمائها للقدوم الى مصر لمشاركته فى هذا الاحتفال .

وأذيع فى أنحاء العالم بأن القناة ستفتح للملاحة الدولية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وأرسلت الوف من بطاقات الدعوة الى أنحاء الغرب كافة ، ولبى الدعوة لفيف من العظماء وعلى رأسهم : امبراطورة فرنسا أوجينى ، وامبراطور النمسا فرنسوا جوزيف ، وولى عهد بروسيا ، وأمير هولندا وأميرتها ، فضلا عن الوزراء والساسة والسفراء ورجال الملاحة ، ونخبة من الكتاب والصحفيين ، وبلغ عدد المدعوين الرسميين ستة الاف شخص ، وجىء من الخارج بالف خادم وخمسمائة طباخ ، وتألف الاسطول الذى اجتاز القناة من مائة باخرة من بينها ٥٠ سفينة حربية ومئات من الزوارق الصغيرة ورفعت على ضفتى القناة أعلام جميع الدول ، ودخل جزء من السفن من الشمال ومن الجنوب والتقت السفن فى بحيرة التمساح .

ونزل المدعوون فى الاسماعيلية وفى المساء أقام الخديو مرقصا فى قصره شيده خصيصا فى المدينة الجديدة التى تحمل اسمه ، ثم استأنف المدعوون السفر فى القناة الى السويس ومنها قدموا الى القاهرة بالقطار حيث أقاموا بها أياما فى ضيافة الحكومة .

وتغير موقف انجلترا فجأة وبدأت تعطف على المشروع بعد أن كانت تعارض فيه ، فبعث وزير خارجيتها برسالة تهنئة باسم حكومة الملكة الى دى لسبس يقول فيها : من حسن طالعى أن أتقدم اليكم بالنيابة عن الحكومة البريطانية بآيات التهانى على ذلك المشروع الجليل الذى ربط الشرق بالغرب والذى سيكون له نتائج سياسية وتجارية ذات شأن .

وأهدته الملكة فيكتوريا وسام الاستحقاق مع نجمة الهند ووهبت له حرية مدينة لندن .

افتتحت القناة للملاحة الدولية رسميا ولكن السنوات التى تلت فترة الافتتاح كانت سنوات قلق واضطراب وأوشكت الشركة على الافلاس . فالسفن البخارية كانت قليلة العدد ، والشراعية تواصل رحلاتها الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ودعت هذه الحال الشركة الى اصدار سندات لانقاذ ميزانيتها من التدهور .

وفى نوفمبر ١٨٧٥ أراد الخديو أن يبيع الاسهم التى تملكها الحكومة المصرية ومقدارها ١٧٧٦٤٢ سهما وحاول دى لسبس أن يحمل حكومته على شرائها ففشل ، وعلم صحفى بريطانى هو فردريك جرينوود محرر « البال مال جازيت » بأن أزمات الديون قد الجأت الخديو الى المساومة فى بيع ما تملكه الحكومة من أسهم القناة . فبادر الى الاتصال بدزرائيلى رئيس الوزارة الذى نظر الى الصفقة من الوجهة السياسية قبل الناحية التجارية ، ودفع فيها أربعة ملايين من الجنيهات ولم ينتظر عرض الموضوع على البرلمان والحصول على موافقته ، اذ كانت الدورة البرلمانية مؤجلة بسبب عطلة الخريف ، وتحمل المسئولية وحده ، وبذلك صار لانجلترا الحق فى الاشراف على القناة وزاد عدد الانجليز فى مجلس ادارة الشركة الى الثلث ، وعدت انجلتر هذه الصفقة فوزا عظيما لها وهزيمة ساحقة لفرنسا فى الشرق وتصدعا لهيبة مصر المالية ، وأضاع اسماعيل رأس مال عظيم القيمة وجعل استقلال مصر هدفا للمخاطر .

وكان فى عقد الامتياز نص يبيح للحكومة حق الاستيلاء على ١٥ ٪ من صافى أرباح الشركة ولكن هذا الحق رهنته الحكومة فى مقابل دين اقترضته ، ثم ابتاعته شركة فرنسية فيما بعد ، كما خسرت مصر أرباح الاسهم التى باعتها ، وصارت هدفا لاطماع الدول اذ أن من يحتل مصر يسيطر على القناة ، شريان المواصلات الحيوى الى الشرق .

خراب مصر المـالى

اسماعيل الثانى — ارتباك الحالة المالية — التدخل الاجنبى — محاولة يائسة لمواجهة العاصفة ـ بعثة كييف — القبض على المفتش — اعدامه دون محاكمة ـ مصادرة ثروته — صندوق الدين — بعثة جوشن — لجنة التحقيق الاوربية .

ابتليت مصر فى عصر واحد باسماعيليين ، أحدهما الخديو والآخر اسماعيل صديق المفتش ناظر ماليته والامين على خزائنه . .

لم يكد اسـماعيل الاول يتولى العرش حتى ألفى نفسـه أمام التزامات مالية ، منها : توفية الديون التى خلفها سلفه سعيد ، ودفع المرتبات المتأخرة للموظفين ، ودفع أقساط الجزية الى الباب العالى ، والانفاق على الحملات العسكرية لمساعدة الدولة العلية ، هذا الى ما اشتهر عنه من الانفاق والبذخ ودواعى الترف .

راعته هذه الالتزامات وأضرابها . . وفيما هو فى حيرته يضرب أخماسا لاسداس اذ همس اسـماعيل المفتش فى أذنه : أذهب الى روتشيلد وهو يريحك !!

وكان اسماعيل صديق المفتش يتمتع بحظوه عند الخديو دونها مكانة جعفر البرمكى عند الرشيد . . كان صاحب الكلمة المسموعة ، والرأى النافذ ، الى حد أن أفراد الشعب كانوا يخلطون بينه وبين حاكم البلاد ، فكلاهما أخ للآخر فى الرضـاعة ، وصنوه فى الخلاعة وفى الشهوات ، وقد ظل المفتش أمينا على خزائن مصر يتصرف فيها نحو سنوات ثمان ، وهى السنوات العجاف التى جرت الخراب المالى ومهدت السبيل الى الاحتلال والاستعمار ، وأخيرا دنت نهايته ، وكانت لا تختلف فى شىء عن خاتمة الوزير البرمكى .

وقد ولد اسماعيل صديق من أبوين فقيرين ، وكانت أمه مرضعة للخديو اسماعيل ، وبعـد أن تلقى تعليما بسيطا وظف فى تفتيش اسـماعيل وظفر بعطف ولى نعمته ، الى أن أسـند اليـه منصب مفتش عام الدائرة السنية ، ثم منحه الخديو رتبة الباشوية ووكل اليه منصب مفتش عام الاقاليم وهو منصب يوازى مركز « الدفتردار » ومن هنا غلب عليه اسم « المفتش » ثم ولى وزارة المالية ، ولم يكن قد درس أصول المـالية ولا الاقتصاد أو تحضير الميزانية ، ولكنه عرف كيف يستعين بخبرة نخبة من الاخصائيين الاجانب .

وعرف عن المفتش بأنه كان يناوىء الوزراء جميعا ، ويستأثر بالسلطة دونهم ، ويعمل مستقلا فى الرأى لحظوته فى نفس مولاه . وكان أفراد الشعب يطلقون عليه « اسماعيل الثانى » ويلقبه الاجانب « بالخديو الصغير » ومع أن الامير محمد توفيق كان فى فترة ما وزيرا للداخلية فقد كان المفتش فى الواقع هو وزير الداخلية ،يولى الحكام والمديرين وكبار الموظفين ويعزل منهم من يشاء ، وكانوا يفرغون المال فى جيوبه ، ويملأون قصوره بمختلف أنواع الهدايا .

وكانت ثروته تلى ثروة الخديو مباشرة ، فاستطاع عن طريق استغلال النفوذ أن يجتلب الجاه والثراء العريض ، ويحوط نفسه بمظاهر العظمة وألوان الترف والنعيم الى حد أنه كان موضع حسد الامراء أنفسهم ، وكانت قصوره معارض للجمال الجركسي والحبشى والسودانى ، تقيم فى كل قصر منها حوالى خمسين محظية ما بين راقصة وعازفة ، ولكل منهن مجوهراتها وأموالها وحليها وحشمها ، وكانت قصور الاسماعيليين مفتوحة الابواب لكل منهما ،يفد عليها فى أي وقت يشاء ، ويتلذذ بما فيها وبمن يهواه دون رقيب أوحسيب، وكانت النتيجة أن تبارى الرجلان فى افلاس مصر .

وكان المفتش هو المرجع الاول والاخير فى جميع القروض التى حفرت الهاوية تحت أقدام مصر ، وكان ذهنه يتفتق عن حيل غريبة لاستخلاص المال من مخابئه ، ولكن هل كان هذا المال ينفق على المرافق العامة وصالح المجموع ؟ هذا ما سوف نرى .

أما الخديو نفسه فكان آية فى التبذير والاسراف ، لا يقدر للمال قيمته ، وحين ينشط الى الاستدانة يلقى صدورا رحبة من المرابين الذين يغرونه بشروط سهلة فى الظاهر ، فلا يناقشهم فى مقدار الفائدة ، بل كان همه منصرفا الى الحصول على المال ، ولم يكن يفرق بين دخله الخاص وبين ايراد الخزانة العامة ، بل يغترف المال من أى طريق ، ويمد يده الى الاوقاف الخيرية ويضعها فى جيبه ،ويحرم منها جهات البر والارامل واليتامى وبيوت الله لينفقها على الغوانى والمحظيات .

وكان من المألوف أن يجد المرء مكاتب الوزراء غاصة بالدائنين الذين قدموا بوسائل مغرية لكى يقدموا الى الخديو ملايين الجنيهات بفوائد باهظة تحرمها قوانين العقوبات فى بلادهم .

والواقع ان الديون التى اقترضها الخديو لم تكن مصر بحاجة اليها ، ولم تعد بالخير والمنفعة عليها ، بل أنفقها فى عواصم الغرب

وعلى ضفاف البسفور وعلى بناء القصور واقامة الحفلات والولائم وتقديم الهدايا والرشاوى فى سبيل تحقيق مطامعه ، وقد عقدها بصفته الشخصية وباسمه وليس باسم الدولة ، ولكن الاستعمار الاوربى الذى كان يسعى الى اضعاف مركز مصر المالى ، استطاع بتآمره مع الخديو أن يحول هذه القروض باسم الحكومة المصرية ، وقد شرح سفير انجلترا فى استامبول لحكومته فى تقرير رسمى كيف يمكن اغراء الخديو بالاقتراض فقال : ان ما ناله الخديو اسماعيل من حرية مطلقة فى شئون مصر الداخلية لا قيمة له اذا لم تطلق له حرية الاقتراض من الاسواق الاجنبية للحصول على الاموال التى يحتاج اليها فى المشروعات النافعة لتنمية موارد بلاده .

ومن الغريب ان اسماعيل الذى استهل حكمه بالتندر على سلفه سعيد واسرافه واستدانته لم يتورع عن استدانة قرابة مائة مليون جنيه ، وكان أول قرض عقده تحت ستار دفع ديون سلفه والنهوض بالوعى الصحى فى البلاد ، بيد أن هذه الحجة كانت ذرا للرماد فى العيون ، فلا هو سدد ديون سعيد ولا الحال الصحية ارتقت عما كانت عليه ، بل ازدادت سوءا وظلت الاوبئة تحصد أرواح أفراد الشعب وتفتك بمواشى الفلاحين فتكا ذريعا ، دون أن يمد اليهم يد المساعدة حتى انه تبرع مرة بمائة الف فرنك لمساعدة منكوبى المجاعة فى كريت عام ١٨٦٩ دون أن يفكر فى دفع غوائل الجوع عن أبناء الصعيد الذين نزل بهم القحط نتيجة فيضان النيل .

واذا كانت الرعية على دين ملوكها فقد أسرف بقية أفراد أسرته فى مضمار الاقتراض والمنافسة والتبذير ، وكان اذا سمع أحد رجاله عن مدفع جديد أخرجته مصانع الغرب فانه لا يطلب واحدا منه بصفة عينة ليجربه وانما يطلب عشرين أو ثلاثين . وكانت زوجات الخديو وسراريه يسرفن عن سعة فى اقتناء المجوهرات والحلى والملابس ، وقد دفعت مرة زوجته الثانية ١٥٠ الف فرنك ثمنا لفستان ابتاعته من احدى خياطات باريس ، وأقامت احدى سراريه حوضا للسباحة لم تملأه بالمياه وانما بالطيوب والعطور ، وغرست على حوافيه شتى أنواع الزهور .

وأنفق هو ملايين من الجنيهات فى حفلات قران أنجاله التى استمرت أربعين يوما وليلة متوالية ، وعلى حفلات افتتاح قناة السويس .

بعد أن لقى عباس الاول مصرعه ، وكان يمقت الاجانب ولاسيما الافرنج ، هرع الوف من الاجانب ، ولا سيما اليونانيين الذين كانوا قد طردوا من مصر ، ليعيشوا فى كنف خلفه ، ويعرضون عليه مشروعات وهمية بقصد ابتزاز أموال الدولة ، وكان سعيد متلافا ، مبذرا ، ينفق عن سعة على مجونه وملاذه ويسلس القياد لحاشيته ، وكانت فرنسا تحبوه بعطفها لتضمن تأييده لمشروع القناة وتغريه بعقد قروض مع المبيوت المالية فى فرنسا لتوطد بذلك أقدامها فى مصر .

ففى يونيو ١٨٦٠ أوفد الوالى أحد رجال حاشيته وهو باولينو الى باريس ليقترض باسمه ٢٨ مليونا من الفرنكات فعقد أول قرض مالى فى تاريخ مصر مع شارل لافييت وضمنت الحكومة الفرنسية هذا القرض على ان يسدد فى باريس بفائدة ٩ ٪

وفى يوليو ١٨٦١ عقد قرضا آخر مع المصرف نفسه بفائدة ١٢ ٪ بخلاف سمسرة الوسطاء وقدرها ٦ ٪ وبضمان ايراد الجمارك وممتلكاته الخاصة .

وفى العام التالى عقد قرضا ثالثا مع مصرف فى مرسيليا بفائدة ٨ ٪ لكى يفى بالتزاماته قبل شركة قناة السويس ورهن لهذا المصرف ضرائب الاطيان فى مديريات الدلتا .

وفى ١٨ مارس ١٨٦٢ عقد قرضا مع بنك أوبنهايم ، وهو مصرف مالى بروسى الاصل ، بمبلغ ٢٫٠٤٠٫٠٠٠ جنيه بفائدة ٩ ٪

وبلغ مجموع هذه الديون ١١ مليونا من الجنيهات ، منها الدين السائر ومقداره ٧٫٧٦٨٫٠٠٠ جنيه ، ثم الدين الثابت وهو ثلاثة مليون جنيه . وكان سعيد يخفى أمر هذه القروض لان شروط الولاية كانت تمنعه من عقد أية قروض لا باسمه ولا باسم الحكومة ولذلك عقدها بصفته الشخصية وأخفى أمرها عن الحكومة وعن الباب العالى .

ثم جاء اسماعيل وأوفد نوبار فى يونيو ١٨٦٤ الى عواصم الغرب للبحث عن ممول نقرضه بضعة ملايين من الجنيهات ليبتاع منها قصرا على ضفاف البسفور ويشيد مجموعة من القصور فى القاهرة والجيزة ، فاتجه نوبار أولا الى انجلترا يفاوضها فى عقد قرض حتى يضمن تأييدها لولى نعمته وأن تسنده عند الباب العالى ، وأخيرا وفق الى عقد أول قرض مع مصرف فروهلنج وجوشن بلندن ومقداره ٥٫٧٠٤٫٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ تدفع على ١٥ قسطا بضمان ايرادات مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة .

وفى اكتوبر ١٨٦٦ عقد قرضا مع مصرف أوبنهايم بثلاثة ملايين جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ بضمان ايرادات السكك الحديدية . وفى عام ١٨٦٨ كان الخديو فى حاجة الى المال ليدفع منه هبات وهدايا الى رجال الباب العالى للحد من تدخلهم فى شئون مصر ، ولانشاء مضمار لسباق الخيل فى القاهرة ، وتشييد قصور : عابدين والقبة والزعفران والاسكندرية واثاثيثها وزخرفتها والانفاق على حملة صمويل بيكر الى السودان والاستعداد لحفلات افتتاح القناة ، وقد رفضت المصارف فى أوربا اقراضه ما يطلبه من المال ، الا انه تساهل معها فى الشروط ، فعقد قرضا مع مصرف أوبنهايم مقداره ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ بضمان ايرادات الجمارك وعوائد الكبارى والملح ومصائد الاسماك .

وهناك القرض الكبير مع مصرف أوبنهايم أيضا بمبلغ ٣٢ مليون جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ وبضمان ايرادات السكك الحديدية والضرائب غير المقررة ، ولم يصل من هذا الرقم الى الخزانة العامة سوى مبلغ ٢٠ مليون وثلاثة أرباع المليون جنيه . وقد ظل وسطاء الخديو يجوبون أطراف أوربا من يونيو ١٨٧٣ الى مايو ١٨٧٤ يبحثون عن ممولين الى ان استطاعوا الحصول على القرض المطلوب وضاع منه ١٢ مليون جنيه انفقت على الوسطاء ورشوة السماسرة وكذلك الارباح المستترة .

وأخيرا قرض سنة ١٨٧٤ مع مصرف الانجلو اجبشيان بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه انجليزى وبفائدة ١٤ ٪

هذه هى القروض التى عرضت موارد الدولة ضمانا لسدادها . أما القروض التى ضمنتها أملاك الدائرة السنية فهى :

قرض عام ١٨٦٥ من مصرف الانجلو اجبشيان بمبلغ ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٧ ٪

وقرض عام ١٨٦٧ مع المصرف العثمانى بمبلغ ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٩ ٪

وقرض عام ١٨٧٠ مع مصرف بيشو فشيم بمبلغ ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٧ ٪

ولم يكتف اسماعيل بهذه القروض بل لجأ الى وسائل قاسية لابتزاز الاموال من مختلف طوائف الشعب ، فعندما رفضت المصارف الاجنبية فى عام ١٨٦٨ اقراضه ، أوعز الى ناظر ماليته اسماعيل صديق المفتش بعرض الامر على مجلس شورى النواب

الذى اقترح العدول عن القروض الخارجية بعقد قرض داخلى مقداره ثلاثة ملايين من الجنيهات بفائدة ١٠ ٪ تسدد فى مدى سنوات ثلاث ، ولكن هذه الفكرة فشلت وعدل عنها باصدار ضريبة اضافية على الاراضى الزراعية بلغت حصيلتها مليونى جنيه .

وافتتح الخديو دورة مجلس شورى النواب فى ٨ يناير ١٨٦٩ بخطاب وضعه المفتش كله معلومات مضللة شرح فيه حالة مصر المالية ، فذكر الخديو بأن عمه سعيد خلف عند وفاته دينا مقداره ٢٢ مليون جنيه « الحقيقة ١١ مليونا فقط » وان الدين المصرى الى السنة الماضية لا يتجاوز ١٧ مليون جنيه « الحقيقة انه كان ٣٠ مليونا » وان الحكومة أنفقت هذه المبالغ فى سبيل العمران كانشاء الطرق والسكك الحديدية وتوسيع نطاق التجارة والزراعة والغاء السخرة واصلاح شئون القضاء،ثم خرج من ذلك الى التقدم باقتراح الى الحكومة بأن تعين مرتبا ثابتا لنفقاته الشخصية .

ولم تمض بضعة أسابيع على القاء هذا الخطاب حتى وجد خزائن وزارة المالية خاوية ، فما كان منه الا أن طرح فى السوق بيع خمسمائة الف أردب بذرة قطن تملكها الحكومة وتسلم بعد خمسة أشهر — وكان المحصول لا يزال فى باطن الارض — فتربص المشترون ريثما تنقضى أشهر المهلة . وكم كانت دهشتهم بالغة اذ وجدوا أن شون الحكومة خالية من البذرة والقطن . واتضح بأن وزير المالية باع المحصول مرتين . ولما ضيقوا عليه الخناق وأراد هو الخروج من المأزق تحايل على الدائنين بأن أعطاهم صكوكا على الخزانة بفائدة سنوية مقدارها ١٨ فى المائة .

ووصلت أنباء هذا التحايل المالى الى رجال الدولة العلية ، فأصدر الباب العالى قرارا فى نوفمبر ١٨٦٩ يحظر فيه على الخديو عقد قرض جديد لمدة خمس سنوات . ولكن المفتش لم يستسلم الى اليأس فاقترح عقد قرض برهن ممتلكات الدائرة السنية ، ثم أذاع بأن من يدفع للحكومة مبلغا من المال يعادل قيمة ما يدفعه من الضريبة العقارية ست مرات سواء كان دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة لمدة ست سنوات علاوة على الضريبة السنوية المقررة فانه يتمتع بالحصول على سند تمليك أرضه ملكية مطلقة ، وعرفت هذه الضريبة باسم « ضريبة المقابلة » وبمقتضاها استطاع الخديو أن يحصل على مبلغ ٢٣٫٥ مليون جنيه . ولجأت الحكومة فى تحصيل هذه الضريبة الى وسائل الضغط والاكراه .

وأصبحت الدوائر المـالية تتوقع من حين لآخر شـهر افلاس الحكومة ، فقد كانت القروض تعقـد ثم يحل موعد دفع الاقساط والفوائد فلا تجد الحكومة فى خزانتها شيئا من المال .

وأخيرا أصغى الخـديو الى نصيحة قنصل بريطانيا فطلب الى دولته ايفاد خبراء يدرسون شئون المالية ويتقدمون اليه بالمشورة التى تسير الدولة على هديها .

وفى ديسمبر ١٨٧٥ وصلت الى القاهرة بعثة مالية على رأسها ستيفنسون كيف عضو مجلس العموم ومن الاخصائيين فى شئون المال والاقتصاد ، وأقبلت البعثة تغربل حسابات الحكومة ودوائر الخديو للوقوف على صورة صحيحة من الدخل والمنصرف والديون المستحقة ، وبعد مضى شهرين استطاعت البعثـة أن تضع تقريرا مفصـلا لم ينشر فى مصر بل رفع توا الى الحكومـة البريطانية ، واقترحت فيه عدة حلول لاصلاح المالية ومنها : انشاء ادارة للرقابة على الايرادات . تخصيص حصيلة قرض المقابلة لتسديد القروض القصيرة الاجل التى عقدت فى سنوات : ١٨٦٤ و ٨٦٥ او ١٨٦٧ . وتحويل القروض الطويلة الاجل الى قرض موحد قدره ٧٥ مليون جنيه لمدة خمس سنين بفائدة سبعة فى المائة ،والا تعقد الحكومة قرضا جـديدا انقاذا للموقف ، وقدم اقتراح آخر مؤداه أن تأخذ الحكومة البريطانية على عاتقها توحيد القروض وتتولى هى السداد فى مقابل أن تتنازل مصر عن سككها الحديدية ومينائى الاسكندرية والسويس .

وفى غضون هذه الفترة العصيبة كان اسماعيل صـديق المفتش يتفنن ويتحايل على المرابين لاخراج النقود من خزائنهم ، فاهتدى الى طريقة اصدار أذونات على بياض بفائدة عشرين فى المائة سنويا . فوقع فى هذا الشرك كثير من الافاقين المـاليين وتمكن الوزير بهذه الطريقة من دفع أقساط شـهر مارس من الدين العـام ، وتمادى المفتش فى اصدار الاذونات على بياض وهو بذلك يحفر هاوية تحت الخزانة المصرية .

وفى ابريل ١٨٧٦ توقفت الحكومـة تماما بل عجـزت عن دفع الاقساط المستحقة عليها وبلغ مجموع الدين ٧٦٫٧٤٦٫٨١٢ جنيها ، وأوصدت الابواب المالية جميعا فى وجه الخديو .

وبدأ هياج الخواطر فى دوائر البورصة ، وألقيت خطب ذهبت احداها الى وجوب خلع الخديو ، وعلقت اعلانات كبيرة الحجم على

حوائط الاسكندرية تحمل هذا المعنى ، وانتزعت صورة الخديو المعلقة فى صدر البورصة من موضعها ، وأصبح الدائنون يهددون الحكومة والخديو بنفس الوقاحة التى نعهدها فى الدائنين اذا أفلس مدينهم .

وفى ٢ مايو ١٨٧٦ تأسس « صندوق الدين » باشراف وعضوية لجنة من الاجانب وخصص لدفع أقساط الدين ايراد بعض المديريات وعوائد الدخولية ورسم الدخان والملح ومصائد الاسماك ودخل الجمارك والدائرة السنية .

ووحدت الديون القصيرة منها والطويلة وصارت دينا موحدا قدر بواحد وتسعين مليونا من الجنيهات وبفائدة قدرها سبعة فى المائة .

• • •

على أن الخواطر كانت لا تزال مضطربة والنفوس هائجة ، والحكومة تتوقع شهر افلاسها المالى بين وقت وآخر . ولما كانت انجلترا تطمع فى التدخل بأية صورة من الصور فى شئون مصر والوصاية عليها ، ولم يرضها بأى حال نظام انشاء صندوق الدين ، فقد أوفدت بعثة مالية أخرى برياسة جورج جوشن ، وبعثة فرنسية برياسة جوبير ، ووصلت البعثتان الى القاهرة فى اكتوبر ١٨٧٦ ، بيد أن اسماعيل صديق المفتش وضع العراقيل فى سبيلهما ، وأوعز الى موظفيه بألا يعرضوا عليها البيانات الصحيحة ، وتحفز أفراد الاسرة الخديوية لمناصبة وزير المالية العداء ومصارحة الخديو بأن بقاء المفتش فى منصبه ضار بمصالح الدولة وبالخديو نفسه .

والتف خصوم المفتش الذين يتمنون زوال نعمته حول جوشن وأمدوه بالبيانات والارقام الصحيحة التى تدك نفوذ الوزير المكروه ، وهنا اشتد النزاع بين جوشن وبين المفتش وأخذ كل منهما يحاول التغلب على الآخر .

ما هو موقف الخديو أمام المعسكرين المتطاحنين ؟

لقد طلب الى وزير ماليته أن يصارحه بحقيقة تصرفاته ، فاضطر المفتش الى أن يعترف بالحقائق كلها فيما يتعلق بالميزانية والديون ، وأوقف ولى نعمته على أسرار ادارته . فما كان من اسماعيل الا أن أشار عليه بأن يسلس القياد لجوشن ريثما تمر العاصفة وتجد البعثة حلولا وسطى لورطة الحكومة . بيد أن المفتش أخذ يكابر ويحتج بأنه ليس من مصلحة الخديو أن يقف أعداء مصر على الحقيقة المرة المذاق ، لان مآلها تقييد سلطة الخديو واذلاله .

وفى اليــوم التالى لهذه المقــابلة دعى مجلس خاص من المديرين والحكام الى الانعقاد بعابدين برياسة الخــديو ، وأبدى المجتمعون رأيهم بصراحة وهو وجوب الوقوف فى صف جوشن . ولكن المفتش لم يتحول عن رأيه ، بل راح يهدد ويثور ويزعم بأن سلطة الخديو سوف تكون مقيدة ويده مغلولة الى عنقــه ، وأن مصر فى النهــاية ستضع رقبتها تحت أقــدام الدائنين الاجانب أو بالاحرى الحكومة البريطانية .

وتقدم أنجال اسماعيل : توفيق وحسين وحسن واحتجوا على تصريح وزير المــالية فما كان منــه الا أن ســخر من احتجاجهم بقوله : انكم لا تزالون « عيــالا » وليس فى وسعكم أن تحكموا على الامور حكما صحيحا .

وهنا نهض الامير حسين كامل غاضبا وصفع المفتش على وجهه صفعة لوت سلك منظاره . ولم يثر الوزير أو يحتج بل راح يهذب سلك منظاره فى هدوء وقال :

ــ أنا أتكلم فى سبيل المصلحة العامة ولو كانت المسألة شخصية لقدمت استقالتى على الفــور . وأن قناصـــل الدول وكذلك رجال البعثة يتدخلون لمصــلحة الدائنين الافاقين وتقرير جوشن يذهب الى الغاء وزارة المــالية بوصفها وزارة مصرية خالصة .

وانفض المجلس بأن وضــع المفتش استقالته بين يدى الخــديو الذى تردد فى قبولها ثم أشيع بأن الامير حسين كامل هــو المرشح لوزارة المــالية .

وفى مساء اليوم التالى دعى المفتش الى مقابلة الخــديو فى قصر عابدين ، فاستقبله فى بشاشة وأمر بألا يدخل أحد عليهما ثم سأله :

ــ ماذا أنت فاعل غدا ؟ .. اننى أطلب اليك استفسارا لا بوصفك وزيرا بل صديقا وأخا فى الرضاعة .

فأجابه المفتش بقوله :

ــ ليسمح لى مولاى أولا بأن أصارحه بأن التاريخ لم يرو أن ملكا ضحى بوزيره لينقذ نفسه ، وأن انقاذ البلاد من الورطة المــالية لن يتأتى الا ببقائنا متحدين . فكما انه ليس بوسعى أن أنجو بدونكم فان مولاى ليس فى استطاعته أن يخرج من المــأزق بدونى .. ولا ينسى مولاى اننى أحمل رتبة « المشيرية » وان محاكمتى لن تكون الا أمام دوائر الباب العالى ، فتصور مقدار الفضيحة التى تنتظركم فيما لو جرت محاكمتى هناك .

وأدرك اسماعيل بأن وزيره يلعب بآخر ورقة فى يده وانه يلوح بتهديده من طريق خفى فأجابه :

ـ اننا لم نبلغ هذه الحالة بعد ، ومع ذلك فهل لديك وسيلة ناجحة للخروج من المأزق ؟

ـ يعلم مولاى أن كتاب الله الكريم ينهى عن الربا وينذر المتعاملين به بعقاب شديد . فماذا لو أذعنا فتوى شرعية بأن الضرائب والاتاوات التى يدفعها أفراد الشعب تؤول الى جيوب الاجانب بوصفها ربا للاموال والقروض التى قدموها الينا من تلقاء أنفسهم وبذلك نقضى على جشع الدائنين فيسعون هم الى تخفيض الديون والفوائد المستحقة عليها .

وبادر الخديو بأن دعا اليه علماء الازهر ورجال الدين ومنهم المفتى وقاضى القضاة وشرح لهم فكرة وزير ماليته ، وأشار من طريق خفى الى أن الغرض منها هو اهاجة الرأى العام وبث الفتنة والفرقة بين الصفوف .

وكان أن تقدم أحد العلماء الذين رسمت لهم خطة موضوعة وقال :

ـ نحن نعلم بأن الافرنج أصدقاء مخلصون لسموكم وأن الاموال هى أموال سموكم ، واننا جميعا بأموالنا ونسائنا وأولادنا عبيد لكم . والعبد وما ملكت يداه لمولاه . ولكن اسماعيل صديق وقد تخلت عنه النعمة ، أصبح من الخونة وانه بغرضه هذا يرمى الى تحريك الفتن فى البلاد ، والفتنة أشد من القتل .

فابتهج الخديو فى قرارة نفسه من هذا المنطق الذى جاء وفق الخطة المرسومة وقال :

ـ اذا كانت هذه أفكاركم جميعا فأريد كتابة بها منكم .

فجهزوا له فى الحال الفتوى المطلوبة ومهروها بتوقيعاتهم فتناولها منهم وصرفهم .

وعند الصباح بعث الخديو الى المفتش يدعوه الى مقابلته ، بعد أن قضى ليلته مؤرقا يدبر مؤامرة للقبض عليه ومحاكمته والتخلص منه بالقتل ، وسنده فى ذلك الفتوى الشرعية التى بين يديه . وكان المفتش بدوره قد قضى ليلته مؤرقا مضطربا يفترض أسوأ الظنون ، فلما واتته دعوة ولى نعمته هدأت أعصابه وزالت مخاوفه وأيقن بأن النصر فى جانبه ... وتلقاه أخوه فى الرضاعة بالبشاشة وأجلسه الى جانبه ثم قال له :

ـ لقد تأكدت بعد انعام النظر والتروى بأن الآراء التى أبديتها هى فى الواقع آراء سديدة . بيد اننى أشعر الساعة بصداع طفيف اثر السهاد ، فهلم بنا نخرج الى النزهة سويا .

وغمرت الفرحة أسارير المفتش وشكر لولى نعمته هذه الثقة الغالية ، وتصور الناس وهم يرونه يمرق الشوارع الى جانب الخديو وقد أخذ الحنق نفس جوشن . وعرجت بهما المركبة على قصر المفتش وطلب الخديو رؤية أبنائه كأنما يريد أن يتملى المفتش بنظرات الوداع لفلذات كبده قبل أن يلقى مصيره . وبعد ساعة استأنفت المركبة سيرها الى قصر الاسماعيلية ، وما أن ترجل الخديو منها حتى أشار الى الحراس بالقبض على ضيفه .

وحسب المفتش أن الامر لا يعدو أن يكون مداعبة من مولاه ، ولكن الحراس نفذوا الامر فى صرامة ، فأمسك الجند بتلابيب المفتش وهو يصرخ : يا افندينا .. انهم يقبضون على وأنا ضيفك .

وانتشرت الشائعات فى أنحاء العاصمة وفى الاقاليم . وحملت الصحف نبأ القبض على وزير المالية لتآمره على ولى نعمته ونوهت بأنه سيقدم الى المحاكمة قريبا ... ووردت ألوف البرقيات المصطنعة تؤيد الخديو فى موقفه وتندد بخيانة المفتش ، وأبرق القنصل البريطانى الى وزارة الخارجية فى لندن يقول : وقعت البارحة حادثة فاجعة من الحوادث الخاصة بالحياة وبالتاريخ الشرقيين ، فقد ألقى القبض على وزير المالية وسجن بتهمة اثارة فتنة فى الرأى العام وتدبير مؤامرة ضد الخديو وتصويره فى صورة الحاكم المسئول عن نكبة مصر المالية » .

واجتمع المجلس المخصوص برياسة الخديو وعرضت عليه فتوى العلماء واقتنع الاعضاء بأدانة المفتش وثبوت تهمة الخيانة عليه وحكم عليه المجلس غيابيا بالنفى الى أعالى النيل .

ونشرت صحيفة الوقائع المصرية البيان الرسمى التالى : « ان اسماعيل صديق باشا ، وزير المالية السابق ، سعى الى تدبير مؤامرة ضد سمو الخديو ، باثارة عواطف الاهالى الدينية ضد المشروع الذى اقترحه المستر جوشن والمسيو جوبير . فاتهم الخديو ببيع مصر الى الاجانب ، وأقام نفسه مقام المدافع عن الدين ومصلحة البلد . فأبلغ مفتشو الاقاليم العموميون ورجال البوليس سر هذه المساعى . وأيدتها عدة عبارات وردت فى كتاب أرسله صديق باشا عينه الى سمو الخديو يرفع به استقالته . فلدى تلقى

الخديو أنباء خطيرة كهذه طرح الامر على مجلسه الخصوصي ليرى رأيه فيه ، فحكم المجلس على اسماعيل صديق باشا بالنفى الى دنقله ، وسجنه هناك سجنا سحيقا » .

وبعث الخديو بقرار المجلس الى دوائر الباب العالى ، ولكن القرار لم يصل الا بعد أسبوع أو أكثر ، فأبرق الباب العالى بضرورة ارسال المفتش الى استامبول ليحاكم هناك . ولكن الخديو لم يرد على هذا الامر الا بعد أسبوعين أى بعد تنفيذ مؤامرته ، وقال ان المفتش لقى حتفه فى دنقله من فرط انهماكه فى احتساء الخمر .

أما هذه المؤامرة فقد نفذت على مراحل .. فانه عقب القاءالقبض على المفتش بنحو ساعة ، دعى ضابط جركسي من ياوران الخديو اسمه اسحق،كان معروفابقوته البدنية الخارقةالى الفرفةالتىاعتقل فيها المفتش بقصر الاسماعيلية . ثم قاد الوزير الى المركب « طير البحر » فما كاد المفتش يهبط اليه حتى مر بذاكرته حادث مصرع المعلم غالى فى مركب والقاء جثته فى النيل ، وكان المعلم غالى يشغل منصبا يعادل منصبه ، وتذكر أيضا مصرع احمد الخازندار بك وكيف لقى حتفه فى المركب نفسها لاتهامه بوجود علاقة عاطفية بينه وبين احدى نساء اسماعيل .

وظل المفتش سجينا فى المركب الى أن وفد عليه بعد يومين مصطفى فهمى باشا محافظ العاصمة ، وأبلغه حكم المجلس المخصوص فاحتج أمامه بأن الحكم صدر غيابيا وكان فى الوسع استدعاؤه ليدافع عن نفسه ، ثم أنه يحمل رتبة المشيرية ولا تجوز محاكمته الا أمام الباب العالى ، ثم طلب ورقا وحبرا ليحرر صيغة احتجاج الى السلطان . الا أن المحافظ أفهمه بلباقة بأن السلطان بعيد وان الخديو قريب ، فأين يد جلالته التى تحميك من يد سموه . فأجهش فى البكاء وصرخ فى ثورة عاطفية : أين حرمة الضمانات الممنوحة لمنصبى ، ان ما يجرى على سوف يجرى عليكم غدا . هل من المعقول أن أتآمر على الخديو ؟ ثم ثروتى وأملاكى ، اننى لم أحصل عليها باستغلال سلطة منصبى أو الاختلاس أو الرشوة ، وانما بمضاربات خاصة ، واذا كان هناك اختلاس فى أموال الدولة فلست أنا اللص ، وانما اللص غيرى والخديو يعلم ذلك حق العلم ... والله على ما أقول شهيد .

وما كاد المحافظ يغادره حتى وقع المفتش فى هم لم يفرجه عنه الا طلبه الطعام وزجاجة من الخمر وبعد أن ثمل اقتحم غرفته

الضابط اسحق وكمم فمه بيده اليسرى ثم حاول أن يغتاله بأن يسحق خصيتيه بيده اليمنى ، فقاوم المفتش مقاومة عنيفة وتمكن من أن يعض ابهام يد الضابط الايسر عضة قوية بترته . فاستنجد الضابط بالحرس فأقبل الجند ووضعوا الحبل فى عنق المفتش وخنقوه ثم وضعوا جثمانه فى غرارة وضمت اليها المثقلات،وطرحت الجثة فى النيل قبالة جزيرة الروضة أى فى الموضع نفسه الذى طرحت فيه جثة احمد الخازندار بك منذ أعوام . ووقف « طير البحر » عند مرسى مصر القديمة وهبط منه المحافظ والضابط اسحق ثم واصل السير الى الشلال ، وهنا نشرت « الوقائع المصرية » فى عددها الصادر فى ٤ ديسمبر ١٨٧٦ تقول : ان وزير المالية السابق لقى حتفه فى منفاه بدنقله على أثر افراطه فى تناول الخمر .

وعقب اذاعة هذا النبأ المختلق أشار الخديو بالقاء القبض على خدم المفتش وحشمه وعددهم مائة شخص ونفوا الى مصوع غير أن أنباءهم انقطعت وهم فى الطريق ، ثم صودرت أملاكه ومنها: ثلاثين الف فدان ، ثلاثة قصور فخمة فى القاهرة وهى التى تشغلها الآن وزارات المالية والعدل والداخلية ، وقصر على ضفاف المحمودية فى الاسكندرية . ومجوهرات وتحف ومصوغات قدرت قيمتها بستمائة وخمسين الف جنيه ، وأسهم وسندات وأوراق مالية بنصف مليون جنيه ، وعدد من السرارى والجوارى اختير أجملهن للخديو والامراء وأهدى البعض منهن الى كبار رجال الحاشية .

وأقيم مزاد فى قصور المفتش لبيع الرياش والمجوهرات والاوانى الذهبية والفضية والسجوف والسجاجيد والرياش المصنوع على الطراز الفرنسى واستمر المزاد بضعة أسابيع ،وكان الارقاء يتجولون بين جمهور المشترين بصوانى صفت عليها هذه المجوهرات واللآلىء والتحف .

• ● •

أما لجنة جوشن فقد واصلت عملها وعكفت على دراسة الازمة المالية من شتى نواحيها وخرجت من هذه الدارسة بعدة حلول منها : جعل الدين العام ٩٥ مليون جنيه انجليزى بدلا من الدين الموحد وقدره ٩١ مليون ، وفصل دين الدائرة السنية وقدره تسعة مليون جنيه عن دين الحكومة وفصل الديون القصيرة الاجل

وتسديدها من حصيلة المقابلة . واصدار قرض جديد مقداره ١٧ مليون جنيه بضمان ايراد السكك الحديدية وميناء الاسكندرية على أن يعهد بادارة مصلحة السكك الحديدية والميناء الى هيئة وصاية أجنبية .

وفى أواخر عام ١٨٧٧ تدهورت الحالة المالية تدهورا ينذر بالخطر، فأصدر الخديو أمرا فى ٢٧ يناير ١٨٧٨ بتأليف لجنة تحقيق عليا مكونة من فردينان دى لسبس رئيسا وعضوية : ريفرز ولسن ومصطفى رياض ودو بلنيير وبارنج وفون كريمر وبارافللى وجعل مهمتها معالجة الازمة المالية بالطريقة التى تقرها ، وبذلك سلم الخديو مقاليد الامور فى البلاد الى الاجانب . فكان أول ثمرة للجنة التحقيق هو اقامة الحجة على فساد حكم اسماعيل وطالبته بالتخلى عن سلطته المطلقة لا لنواب الشعب ولكن لوزارة يرأسها فى الظاهر مصرى هو نوبار المعروف بميوله الانجليزية . ويحتل الوزارات الهامة فيها أجانب ، أى وزارة غير مسئولة لا أمام الامة ولا أمام الخديو نفسه .

ووافق اسماعيل فى ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ على تشكيل هذه الوزارة الفريدة فى نوعها ، وكانت أول ضربة سددتها الوزارة المختلطة الى الخديو أن قضت بتنازله هو وأفراد أسرته عن ممتلكاتهم الزراعية الى الحكومة . واصدار قرض مالى قيمته ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه بفائدة ٥ ٪ لتسوية بعض المشاكل والديون الصغيرة

وفى ٣٠ يونيو ١٨٧٩ استقل الخديو القطار بعد أن أجبر على التنازل عن العرش ، وكان فى وداعه فى محطة القاهرة نجله الخديو توفيق وأفراد أسرته والوزراء والقناصل وكبار موظفى الدولة . وكان الموقف مؤثرا بالنسبة لهم فلم يتمالك اسماعيل نفسه من أن يذرف دموع التماسيح ، واذا بمجموعة زغاريد تموج فى الافق ، وعبارات تهكم وسخرية تودع الخديو المخلوع ... كانت هذه الزغاريد وأصوات الشماتة صادرة عن نساء وسرارى اسماعيل صديق المفتش اللواتى أردن الانتقام من الخديو المخلوع .

الوعى الدستورى

اشراك الشعب فى الحكم بوساطة نوابه فى ديوان الوالى ـ الفرنسيون يدعون الى مبادىء الثورة ـ الديوان العالى ومجلس المشورة ـ مجلس شورى القوانين ـ نمو روح المعارضة بين النواب ـ الجلسة التاريخية التى رفض فيها وكلاء الشعب فض المجلس ـ الدستور الاول لمصر ـ تعطيل المجلس .

يخطىء من يظن أن الشعب المصرى كان منحى عن التدخل فى الشئون السياسية العليا فى فترة الحكم العثمانى . والواقع انه كان فى ابان تلك الحقبة ممثلا تمثيلا واقعيا فى الاشتراك فى الحكم والاضطلاع باعباء الحياة النيابية عن طريق نخبة من العلماء وحملة الشريعة والوجوه والتجار فى «الديوان الكبير» الذى كان يعقد بين يوم وآخر للنظر فى تسيير دفة الحكم واقرار المسائل العامة .

كان هناك ديوانان : الديوان الصغير ومقره القلعة ويؤلف من مندوبين عن الوحدات العسكرية ومن كبار الموظفين وكان بمثابة مجلس وزراء مصغر .

والديوان الكبير ومقره القلعة أيضا ويؤلف من رؤساء الحامية العسكرية وبعض كبار الموظفين وقاضى القضاة ورؤساء المذاهب الاربعة ، والعلماء والاشراف ، للنظر فى الشئون الرئيسية للدولة ويعقد يوميا تقريبا .

وكان الشعب عند ما تشتد وطأة الحكم عليه يتحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته ، فيلجأ الى وكلائه أعضاء الديوان يبثه آلامه ويطالبه بالذياد عن هذه الحقوق .. فمثلا نسمع أن التجار أصابهم غبن بسبب تزييف النقد فعقدوا اجتماعا وانطلقوا الى الازهر وشكوا أمرهم الى العلماء والزموهم بالذهاب معهم الديوان . فأمر الوالى بعقد الديوان للتشاور ووضع خطة حازمة تحفظ مصلحة المجموع .

وعندما اشتد النضال بين الامراء المماليك وبين الوالى فى أواخر القرن الثامن عشر بسبب حملة عسكرية أراد الباب العالى توجيهها الى مصر ، جمع الباشا أعضاء الديوان للنظر فى وسائل الدفاع عن العاصمة فاستشاط الشيخ العروسى غضبا وصاح : لا يهمنا أن يكون الحاكم هذا الامير أو ذاك وانما الذى يهم الشعب من يرعى مصالحه وييسر حاله .

والواقع أن الشعب كان ممثلا فى « الديوان » الذى كان بمثابة برلمان مصغر ، وكان صوت وكلائه واضحا مجلجلا ، وهؤلاء الوكلاء هم العلماء وحملة الشريعة أى الطبقة المستنيرة ، وكان الحكام من المماليك على شدة بأسهم وقوتهم لا يستطيعون مقاومة الشعب أو الوقوف فى وجهه ، فكثيرا ما حرص أعضاء الديوان على تلبية نداء الواجب ، والدفاع عن مصلحة المجموع دفاعا حارا ، وهددوا الحكام باسم الشعب ، اذ كان هؤلاء الحكام يخشون الشعب خشية كبيرة ، ولا يسمحون للامور بأن تتأزم وتتفاقم بل يعالجونها أولا بأول ،ومن أجل ذلك لم تنشب فى عهود المماليك ثورات دامية .

وفى أيام الحملة الفرنسية حل نابليون محل الوالى وشيخ البلد وأصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد وخالف سنة العزلة التى اتبعها العثمانيون فراح يشهد حفلات الشعب الدينية ويشاركه أفراحه وأتراحه ويختلط بالطبقات الشعبية ويصغى الى شكاواها، وعمد بعض العلماء من رجاله للدعوة الى المبادىء التى قامت عليها الثورة الفرنسية وحقوق الانسان ، فتنبه المصريون الى حقوقهم المهضومة وسعوا للحصول عليها فيما بعد بل أنهم ثاروا ضد الفرنسيين أنفسهم عندما أدركوا أن الغرض من احتلالهم هو غرض استعمارى بحت .

وكانت « الدواوين » التى أنشأها الفرنسيون « لتعويد الاهالى على مبادىء الحياة النيابية » تتألف من « الديوان الخصوصى » وقوامه تسعة من العلماء والاعيان برياسة الشيخ عبدالله الشرقاوى ويجتمع كل يوم تقريبا ويؤخذ رأيه فى كثير من الشئون ، وقد أفصح نابليون مرة عن الغرض من انشائه بقوله : هؤلاء المصريون لا بد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، ولا بد أن نقيم رؤساء عليهم والا أقاموا هم رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء وفقهاء الشريعة فى عضوية الديوان لانهم بطبيعتهم رؤساء ، ولان للعلماء خلقا لينا ، وأكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يمتطون جوادا ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب » .

وألف الفرنسيون « الديوان العام » فى القاهرة والاسكندرية والاقاليم وقوامه العلماء والوجوه والتجار ، بقصد الوقوف على آراء أعضائه بشأن الانظمة الادارية والتشريعية والملكية وضبط المواريث ثم عدل نظام الديوان العام فيما بعد فصار يتألف من ٢٥ عضوا منهم

٩ عن القاهرة وعضو عن كل مديرية أو محافظة على أن يكون الثلث من العلماء والثلث من الاعيان والثلث الباقى من التجار ، ومن بين أعضاء الديوان العام ينتخب أعضاء الديوان الخصوصى .

ولم تكن هذه حياة نيابية بالمعنى المعروف ، ولكن الفرنسيين حددوا مهمة هذه الدواوين بأنها لتنفيذ أوامرهم تحت مراقبة مندوبيهم ، وكانت التعليمات الصادرة الى الحكام توحى بانتخاب — أو بالاحرى تعيين — أعضاء الديوان من بين الوجوه والعلماء الذين يتمتعون بنفوذ قوى بين السكان مع ملاحظة ميولهم للفرنسيين . مما يدل دلالة واضحة على أن الغرض الاصلى من وراء هذه التشكيلات والتنظيمات هو الافادة من سلطان هؤلاء النواب على الشعب لتنفيذ مآرب الفرنسيين بعد التأكد من خضوعهم للادارة الفرنسية .

• ● •

وقد جمع محمد على كل السلطات فى قبضته بسبب ميوله الدكتاتورية وكان شعار حكمه : الطاعة العمياء ، ولكنه أنشأ الى جانب ذلك مجالس خاصة كا نرأيها استشاريا محضا ، فالفمجلس « الديوان العالى » ومقره القلعة برياسة الكتخدا للتداول فى شئون الدولة قبل تنفيذها وكان هذا المجلس أشبه بمجلس الوزراء ، ثم قامت دواوين مماثلة منها ديوان الجهادية وديوان البحر وديوان المدارس وديوان التجارة ... الخ .

وفى عام ١٨٢٩ أنشىء «مجلس المشورة» من كبار موظفى الحكومة والعلماء والاعيان برياسة أمير الصعيد ومقره « القصر العالى » وعددهم ١٥٦ عضوا . ثم أنشىء بعد ذلك بسنوات خمس « المجلس العالى » من مديرى المصالح الحكومية واثنين من مشايخ الازهر واثنين من التجار واثنين من الاعيان عن كل مديرية . وكانت سلطته استشارية محضة ومشورته مقصورة على المسائل الادارية وكانت لغة التداول والمناقشة هى التركية .

على أن هذه الهيئات والمجالس كانت بعيدة كل البعد عن الانظمة الدستورية ، ولم يقصد بتكوينها الا أن تكون اداة للمشاورة فقط ، وقد عطلت هذه المجالس فى أيام عباس وسعيد ، وحكما حكما مباشرا ظاهره الرجعية وباطنه الاستبداد .

• ● •

ولم يكن مجلس شورى النواب الذى شكله اسماعيل فى بداية حكمه وافتتح فى ١٩ نوفمبر ١٨٦٦ خليقا بأن يحمل هذا الاسم ، بل كان صورة ممسوخة ومظهرا من مظاهر التقليد للانظمة الاوربية ، ولم يكن لاعضائه من الحقوق والسلطان ما يجعلهم يمارسون حقوقهم ويؤدون رسالتهم على وجه صحيح بوصفهم « وكلاء الشعب » .. كان محرما عليهم المناقشة أو الادلاء برأى فى سياسة الدولة أو الادلاء برأى فى شئونها المالية أو قروضها أو محاسبة الوزراء عن تصرفاتهم ، وفيما عدا ذلك كانت قرارات الاعضاء بمثابة « رغبات » ترفع الى الخديو للموافقة عليها أو وضعها على الرف .

والحق أن هذا المجلس لم يخرج عن كونه « منحة » من الحاكم المطلق اذ لم يظفر به الشعب نتيجة حركة كفاح دستورية وقد نصت لائحته التأسيسية على انه « مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية . والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس تصير المذاكرة واعطاء الرأى عنها وعرض جميع ذلك على الحضرة الخديوية » .

كان المجلس يتكون من ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم العمد والمشايخ فى الاقاليم ، والاعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، ثم يجتمع المجلس شهرين من كل سنة ، وجلساته سرية ، ونص فى لائحته الداخلية على « وجوب الاصغاء للرئيس وحضور الاعضاء الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة ، وجلوسهم بهيئة الادب » .

ولم يشترط فى الاعضاء الالمام بالقراءة والكتابة ولم تكن لهم أية مزايا بل أن هذا المجلس الذى خلا من الطبقة المفكرة والصفوة الممتازة لم يخرج عن كونه مجلسا للاعيان والعمد ومشايخ القرى والدساكر . وللدلالة على انه لم تكن له قيمة أدبية أو معنوية أنه فى الوقت الذى كان فيه اسماعيل يلهب ظهور رعاياه بالسياط ويستنزف أموالهم وثمرة كدهم ويعقد القروض التى كبل بها مصر ويحفر تحت أقدامها هاوية الخراب والافلاس المالى . لم يتقدم نائب واحد بتوجيه سؤال عن حالة مصر المالية أو اعترض على فرض ضريبة أو غرم ، بل كان النواب يقابلون هذه التصرفات المشينة بالهتاف صائحين : فليحى الخديو المعظم وأنجاله الكرام ولتحى الحرية فى ظل رعايته وحمايته .

أما الاقتراحات التى كان يتناولها أعضاء المجلس المناقشة فهى : التخفيف من وطأة نظام السخرة . تقسيط الضريبة المفروضة على الاراضى الزراعية . انشاء مدرسة ابتدائية فى عاصمة كل مديرية . منع مجازاة العمد بالضرب ، تحسين وسائل الرى .. وكانت الحكومة تجيب على هذه المسائل بأنها « موضع نظر ولى النعم » .

وأصاب التعطيل المجلس فى غضون عامى ٧٤ — ١٨٧٥ دون مسوغ ، فقد كان اسماعيل غارقا فى الارتباكات المالية ، وما جرته تصرفاته على مصر ، ولو كانت نزعته شورية ، غير استبدادية لدعا ممثلى الامة الى التشاور معهم فى النكبات والكوارث التى حلت بالبلاد بدلا من استئثاره وحده بالامر .. وزاد هذا التعطيل من ايمان المصريين بضرورة المناداة بحياة نيابية صحيحة مبرأة من العيوب لتكون أساسا للحكم .

ثم دعى المجلس الى معاودة الانعقاد فى عام ١٨٧٦ وظل يتابع عقد دوراته الى عام ١٨٧٨ وامتازت هذه الحقبة من حياته بظهور روح المعارضة تسرى بين أعضائه والشعور بنمو روح القومية ، وكان اتجاه المعارضة ايذانا بتكوين الرأى العام واقبال الصحف على معالجة الشئون السياسية والمالية التى تشغل الاذهان وظلت الفكرة القومية تنمو بين الصفوف بنمو حركة المعارضة وهكذا أخذ هذا المجلس المحدود الاختصاص يوسع من سلطته ويثبت وجوده . وبمرور الزمن انقلب الى برلمان يشعر الاعضاء بواجبهم ويقدسون الرسالة الملقاة على عاتهم ، مسترشدين بالمبادىء الدستورية السليمة ، وأصبح شعار النواب « مصر للمصريين » .

جاءت الوزارة المختلطة ، وتبرم الشعب بمسلكها فى الحكم ، وكان من الطبيعى أن يتجاوب صدى التبرم والسخط فى نفوس النواب ، فحمل أعضاء المجلس على الوزارة حملات شعواء ، وتداولوا الرأى فى الاحداث الجسام التى تمر بالبلاد ، ردوا على خطاب العرش بقولهم : نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، المطالبون لمصلحتها .

وأخذت الوزارة تتهرب من عرض المسائل المالية على مجلس النواب . فوقف النائب محمود العطار وهاجم رئيس الحكومة نوبار بقوله : كيف يخفى على دولتو رئيس النظار أن للامة المصرية نوابا ، كيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيها نيل كمال حريتها وغاية حقوقها ،..ان كل دولة تقدمت كان أساس تقدمها اشتراك النواب فى أمثال ذلك ...

وكانت هذه الحملات تجد استجابة فى نفس الخديو ، فهو ينظر الى المسألة من زاوية أخرى ، زاوية شخصية محضة ، هى التخلص من الوزارة المختلطة التى قيدت سلطته وغلت يده عن التصرف فى أموال الدولة والضرائب العامة ، وأراد أن يتملق الرأى العام فكتب الى وزيره الاول يقول : أريد عوضا عن الانفراد بالامر ، سلطة يكون لها ادارةعامة على المصالح بمعنى أنى أروم القيام بالامر من الان فصاعدا باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه .

ولو أن هذا التنازل كان صوريا الا انه وضح انه كان نتيجة من نتائج كفاح الاحرار ويقظة الفكرة القومية وتغلغلها فى نفوس المواطنين ، وان الدولة لا يجب أن تظل مؤلفة من رعية مصرية « فلاحين » وراع عثمانى ، بل من هيئتين متضامنتين فى الحكم هما : مجلس الوزراء ومجلس النواب .

وخلفت الوزارة المختلطة ، وزارة محمد توفيق ، ولى العهد ، فأدرك الخديو أن سلطة النواب قد جاوزت حدها ، وأن « وكلاء الشعب » باتوا خطرا عليه ، وخشى وزير داخليته رياض من ناحية أخرى أن يؤدى الوعى الدستورى فى البلاد الى حدوث أزمة ، فمضى فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ الى مجلس النواب يبغى فضه ، فأبى النواب على الحكومة أن تبطش بهم وتعبث بالدستور ، وانبروا يتنافسون فى اظهار الادلة على حيويتهم واستقلالهم والمحافظة على كرامتهم . وصعد عبد السلام المويلحى على منبر الخطابة يعارض ممثل الحكومة الوزير رياض . وسرعان ماهب النواب يلتفون حوله ويؤازرونه فى موقفه كما سبق لنواب الشعب الفرنسى ان التفوا حول خطيبهم ميرابو يؤيدونه فى موقفه فى يوم فرساى .

ونظرا الى أن هذه الجلسة البرلمانية تعد من الاحداث الخطيرة فى تاريخ الحياة النيابية فى مصر ، وهى صفعة للمؤرخين الذين حاولوا النيل من قوة الرأى العام ورميه بالغفلة ، ننقل ما دار فيها من مناقشات للدلالة على نمو الوعى الدستورى منذ ثمانين عاما :

احمد رشيد رئيس المجلس : عطوفتلو افندم رياض باشا ناظر الداخلية شرف الجلسة حاملا أمرا عاليا سيتفضل بتلاوته عليكم .

رياض باشا : قبل أن أتلو على حضراتكم الامر العالى الصادر من مولاى ومولاكم أقدم لحضراتكم جزيل تشكرات الحكومة على ماأبداه المجلس من النشاط فى نظر المسائل التى عرضت عليه وانى أتلو على حضراتكم الامر المشار اليه وهو يقضى بفض المجلس .

عبد السلام المويلحى بك : لا أرى معنى لتشكرات الحكومة لنا فاننا لم نقم بعمل الى الان يكون له ولو شبه فائدة قد عادت أو ستعود على البلاد . فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس .

رياض : مستحيل ... ينفض المجلس ، ماذا تقول حضرتك ؟ مستحيل فض المجلس . كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم . هل حضرتك فاهم جيدا قيمة مسئولية ما تقوله الان ؟

عبد السلام المويلحى بك : نعم أنا فاهم وفاهم جيدا جدا ما قلته، ومقدر مسئولية ما أقوله تماما .

رياض : هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط ، وهل اخوانك يوافقونك على هذا الكلام ، ما أظن ان حضراتهم يوافقونك على ذلك مطلقا .

محمود العطار بك : موافقون البك المويلحى على ما قاله .

عثمان غزالى : أنا والله موافق المويلحى بك بجوارحى على أقواله

عبد الشهيد بطرس : أوافق عبد السلام المويلحى بك على ما قاله وما سيقوله مقدما .

رياض : اذ أن أنتم جميعا عصاة .

عبد السلام المويلحى : حلمك يا باشا لا تغضب سريعا ، والان الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة اخوانى لأقوالى وهم يعرفون كلهم مقدار المسئولية التى قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق قدرها . فاعلم يا عطوفة الناظر أن من الغريب أن تحمل لنا أمرا عاليا اليوم يقضي بفض المجلس وهذا الامر العالى مبنى على غلطة جوهرية فاضحة لانها فى الواقع مغالطة رمزية من الحكومة السنية لمجلس نواب أمتها . وهى كيف جاز للحكومة أن تبنى الامر العالى بفض المجلس على أن مدة انعقاده وهى ثلاث سنوات قد انقضت . ومع أن الحكومة تعلم والنواب يعلمون جميعا أن تاريخ الديكريتو الذى صدر بانعقاد هذا المجلس وبتعيين سعادة احمد رشيد باشا رئيسا هو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ فلم يمض اذن على دورة المجلس سوى سنة وثلاثة أشهر ، فكيف أصبحت هذه المدة على حساب الحكومة ثلاث سنوات .

رياض : أما حساب عجيب وغريب يا حضرة النائب . . . ان مدة انعقاد المجلس هى بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا

الخديو المعظم فى حفلة طنطا ، فاحسب حضرتك تجد أن المدة فاتت وزيادة .

عبد السلام المويلحى : ما هذا الكلام يا عطوفة الباشا .. حفلة طنطا ؟ وما هى حفلة طنطا ؟ وما لنا وحفلة طنطا الان ؟ وما هو مقدار رسمية حفلة طنطا ... وما قيل من الخطب ردا على ما فاه به سمو الخديو المحبوب فى تلك العزومة لحضرات المدعوين اليها ، ان الغريب والعجيب هو حساب الحكومة لا حسابنا .. عزومة شرفها سمو الجناب العالى وتناول الطعام مع المدعوين اليها ، وقيل فيها كلام أو خطب من سموه ومن المدعوين ولم يدون منها حرف واحد على الاطلاق لا بطريقة رسمية ولا شبه رسمية ، تفيد أن كلام سموه فيها كان أمرا عاليا له قيمة القانون ويؤثر فى مدة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة . أليس اذن هذا الكلام عجيبا وغريبا من عطوفتكم لأمتنا .

ابراهيم الوكيل : عجيب جدا ... بالله اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها وخلوا على رأى المثل العامى « زكايب الهم مقفولة » .

رياض : يعنى حضراتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم .. والا يعنى حضراتكم الان بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوربا وامريكا .

احمد على العويسى بك : يا باشا انت الان شتمتنا .. ما هذا الكلام ؟ يعنى عطوفتك شتمت نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية .

عبد الشهيد بطرس : انا اعتبر هذه العبارة اهانة من ناظر الداخلية للمجلس واطلب اثباتها فى المحضر ، وأقول لعطوفتك أن كلامك هذا وقاحة وان المجلس لا يقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها اليه .

شيخ العرب احمد الصوفانى : أوافق حضرة العضو على رد هذه الاهانة للناظر واطلب من المجلس أن ينظرها فيما بعد ليحاسب عطوفته ، أن فى البلاد أمة حية ولها نواب أحياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم .

عبد السلام المويلحى : أسمعت يا باشا ؟ أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك بالكلام وعدم ضبطك لعواطفك كما قلت فى أول كلامى .. يا باشا ، أعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الامة التى أنابتهم عنها .

واعلم يا باشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعورا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الامم الاخرى التى هى فى الواقع أقل منا كثيرا فى المكانة المالية والعمرانية كصربيا وبلغاريا وغيرهما ، ثم ثق أن كنت تعتقد أن مصر لم تتمخض ولم تلد سوى عطوفتك من عهد رمسيس الى الان ... انك غلطان جدا والف غلطان يا باشا . ألم يكن من العيب الكبير وانت وزير فى وزارة يزاملك فيهـا وزير انجليزى وآخر فرنسى وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة، ثم تجمع أمس مساء أمام هذين الوزيرين الاجنبيين أصحاب الجرائد وهم ميخائيل عبد السيد وتقلا وأديب اسـحق وسـليم النقاش وغيرهم وتقول لهم ان الحكومة عزمت على فض مجلس شـورى النواب غدا فالحذر كل الحذر من ان تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لانهم أناس جهلاء وهمج .. تقول ذلك يا باشا عن نواب بلادك مصر العزيزة ولا تزن قولك قبل صدوره منك ، ولا تتألم فى نجواك من صدوره عنك ثم تكرره أمامنا اليوم . يا باشا اننا جميعـا درسنا فى الازهـر الشريف وفى غيره ، درسنا المعقول جميعه من علوم البلاغة والادب والفلسفة والاصول والمنطق، وكذلك قرأنا المنقول من تفسير وحديث وفقه وتوحيد ، ولكن خبرنى بالله عطوفتك ما الذى قــرأته وتعلمته أنت من كل ذلك ، وأين كنت تدرسه وتتعلمه ؟

الشيخ الصباحى : تعلم ودرس فى أورطة المفروزة(١) ؟ !

رياض : هذه وقاحة ، هذه اهانة لا أقبلها ولا أسمح بها لاحد .

حسن عبد الرازق : ان ما قاله حضرة عبدالسلام المويلحى بك هو اعراب عن أفكارنا ومطابق مطابقة تامة لآرائنا ، ولا يشذ عنه أى فرد منا . وكلنا متحملون مسئولية هذه الاقوال مهما عظمت ، أليس كذلك يا اخوانى ؟

الاعضاء جميعا وفى صوت واحد : نعم ... نعم ... نوافق على جميع ما قيل من اخواننا النواب فى هذه الجلسة .

رياض : اذن أنا منسحب ، انتم عصاة ... انتم ثوار .

عبد السلام المويلحى : يا مصطفى باشا وهبى ، بصفتك سكرتير عام المجلس ، لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى كتابة المحضر حتى

---

(١) يقصد الكتيبة التى أنشأها الوالى عباس الاول باسم «المفروزة» وكان رياض برتبة ملازم أول فى موسيقاها .

اذا نقلته جرائد اليوم علمت الامـة والناس جميعا من هم الهمج ، النظار أم النواب ؟

ثم طلب عبد السلام المويلحى الى هيئة المجلس قرارا باستمرار الجلسة منعقدة ليـل نهار . فوافق الاعضـاء بالاجماع ، واستمر وجود الاعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع ، واتفقوا على أن يكون ثلث الاعضـاء بالتناوب ، ليبقى فى المجلس ليلا ويبيت به ويحضر بالنهار سائر الاعضاء ، وتستمر الجلسة منعقدة ، وكذلك اتفقوا على احضار طعام العشاء ليلا لمن يكون عليهم الدور من زملائهم فى المبيت.

ومن الطريف أن نسجل هنا مارواه يعقوب صنوع على صفحات جريدته الهزلية « ابو نظارة » بأسـلوبه التهكمى اللاذع ، عن هذه الجلسة التاريخية تحت عنوان : البارلمنتو المصرى ، اذ قال : « صار فتح البارلمنتو اللى هو مجلس النواب وتليت فيـه مقالتين(١) طز فش ، واحدة من شيخ الحارة والثانية بصفة جواب لها من رئيس المجلس ، وكلمتين من أحد الاعضاء علموهم له قبل دخول المجلس ، أما أغلب الاعضاء فهم جدعان أحرار لا يباعوا ولا يشتروا ، والظاهر أنهم اتفقوا على رأى واحد ، بالتكلم بغاية الحرية فى المجلس موش زى زمان اللى كانوا دائما يقولوا : أى نعم . أى نعـم رأى سعادة الرئيس فى محله وما أشبه . واليك ما دار فى الجلسة الاخيرة :

الرئيس : « يوجه نظر الاعضـاء وينف ويبزق ويقول » سعادة ناظر المالية أرسل لنا افادة رسمية باللغة الانجليزية لاجل الضرائب الميرية لسداد الديون المصرية ، وتحصيل الاموال المتاخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية ، ودفع المتأخر من المـاهية ، والذى يتأخـر عن السـداد بالطريقة الحسبية يعامل بالقـوة الجبرية وتباع أطيـانه وموجوداته ، بمعرفة المديرية ، وافندينا أقر هذه القضية ، فكل منكم يبدى رأيه بالحرية للمداولة ولا تخافوا من شىء بالكلية .

ابو جموس : ان كانت المادة نفاق فاحنا نقر بالوفاق وان كانت حرية نبدى أفكارنا القلبية .

الرئيس : شوف ياشيخ عبدالعال ، أنا لا أعرف النفاق ولا المحال ، وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية وسلامة طوية .

ابو جموس : المادة ليست حاوجة مداولة ولا كثرة محاولة ، احنا

---

(١) المقالة ــ خطبة العرش

قبلنا كل النوايب اللى مرت علينا مع جميع المصايب ، وبعنا ماورانا وما قدامنا ، ولا بقاش حاجة أمامنا ، ده احنا كان عشمنا من سى فلسن(١) والجماعة الاورباوية أن يخلصونا من العبودية ،وسمعنا أنهم ناس طيبين يكرهوا الظلم المبين ، ولكن بسلامتهم ما فلحوش ، ربنا يغنينا بفرجه العميم ويولى علينا رجل كريم حليم(٢) ، ويعتقنا من جور «شيخ الحارة» اللعين ، اللى سخمط وش الحمارة طين .. وانا وحياة رأسك مفيش فى بيتى ولا كيلة غلة ، ولا جاموسة ولا عجلة ، ولا قرص جلة ، فيكفانا ظلم وخساير ، والله أعلم بما فى الضماير ، وما تنطوى عليه السراير .

الرئيس : وانت قولك يا شيخ محمد ؟

الشيخ محمد : احنا لا نعرف مدير مالية ولا ناظر خارجية ،دول ناس ملاعين ، يرطنوا بلسانهم الاعوج ، وهم لا بسين بتوع طوال اسمها برانيط ، راخيين شعورهم زى الـ ... ويدردعوا نبيذكثير ويتغدوا بلحم الخنزير . واما احنا ناس هوارة ، نفرق طيب فى قناية الغرس والحمارة ... واعرف سعادتك اننا ما نقبلش زيادة ضرايب ولا كثرة مصايب ، وعاوزين تخفف المربوط ولا تسأل عن دبلنيير ولا مربوط . والا ان كان القصد بحضورنا الآن يضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنين ، وان كان عاوزين النياشين بتوعكم خذوها ، والفلاحين أهى قدامكم كلوهم ، لان بلدنا وحياة رأسك بعد ما كانت حايزة كمال اللطافة ، أصبحت من كثرة المظالم كوم شقافة ، والله يجازى ابن الحرام .

وهكذا يمضى الصحفى البارع فى تصوير خلجات النواب وهى صدى لما كان يعتمل فى صدور أبناء الشعب ، ثم يمضى فى سردمظالم الحكومة ومصائبها بطريقة فيها شيءمنالتورية أحيانا ،ومن الصراحة فى مواقف أخرى .

• ● •

لم يجد رياض مناصا أزاء اصرار النواب على عدم مبارحة دار المجلس الا أن يعرض الامر على الخديو ، وان يضع تحت نظره رسالة بعث بها النواب اليه يطالبون فيهاباطلاق حرية القولوالخطابة

---

(١) مستر ولسن وزير المالية وتغيير الاسم فيه تورية .
(٢) يقصد الامير محمد عبد الحليم المنافس على العرش .

وفرض الضرائب على الاجانب أسوة بالمصريين ، والاحتجاج على مسلك الوزارة من امتهانها حقوق النواب والاستخفاف بكرامتهم ، ثم ذكروا فى الرسالة بأن المشروع المالى الذى أعدته الوزارة يعد بمثابة شهر افلاس الحكومة .

وأخيرا اضطرت وزارة محمد توفيق الى الاستقالة ، واتجهت الانظار الى محمد شريف ليقود السفينة ويخلص البلاد من الورطة التى أوقعها فيها الخديو ، فقبل شريف الحكم على أساس الابقاء على مجلس شورى النواب ومنحه سلطة معترف بها كالمجالس النيابية .

والواقع أن مصر كانت تجتاز فى غضون هذه الحقبة العصيبة من حياتها ، فترة حالكة مظلمة ، وكانت البوادر تدل على أن هذه الفترة هى التى تسبق عادة كل تطور سياسى وتهيىء الشعب للانتقال الى عهد جديد ...

كان الشعب يرزح تحت أثقال القروض ونير الوصاية الاجنبية ، وكانت اداة الحكم تسير من سىء الى أسوأ ، فانطلقت الالسن من عقالها تردد صيحات مكبوتة وأشرق فى النفوس فجر الاصلاح .

لم تعد مصر هذا الشخص المريض الذى يتفنن الاجانب فى اهانته واذلاله ، بل نهضت تطالب بما لها من حقوق ، وتكافح الظلم الذى ران عليها منذ ابادة زعامتها الشعبية ، وهبت تطالب بوجوب اشراكها فى الحكم لتدفع النير عن نفسها بوساطة ممثليها فى مجلس النواب قبل أن تقع فريسة للاهواء والمطامع . ورأى الخديو أن هناك اعتبارات قد تحول دون تحقيق هذه المطالب :

فهناك تركيا وعلى رأسها حاكم مستبد هو السلطان عبدالحميد ، وقد سبق أن أعلن الحرب على كل حركة تقدمية ونكل بمدحت باشا الذى قام يطالب بالدستور .

وهناك الدول الاجنبية التى أعلنت وصايتها على البلاد لاستيفاء ديونها المالية ومن الطبيعى أن تحارب أى نظام نيابى صحيح يقوم فيها .

وكان على الخديو أن يختار بين أمرين :

اما اجابة مطالب الشعب وتأسيس مجلس نواب حر يدعمه دستور صحيح وبذا يغضب تركيا ويستهدف لنقمة الاوصياء الاجانب ، فضلا عن أن عرشه سيصبح مزعزعا نتيجة رقابة نواب الشعب على أداة الحكم .

واما أن يرفض مطالب الشعب فتشب الثورة ، كما شبت من قبل فى أرجاء العالم معلنة مبدأ : الامة مصدر السلطات .

وعهد الى محمد شريف بمعالجة الازمة على أساس حل وسط يرضى الجميع ، فأخذ الوزير الاول على عاتقه الاعتراف بمجلس شورى النواب واستمرار انعقاده ثم اعتبار هذا المجلس بمثابة جمعية تأسيسية يقدم اليها نصوص الدستور .

وهنا تبدو لنا عبقرية هذا السياسى المحنك كحاكم من الطراز الاول . كان فى وسع أمثاله من حكام القرن التاسع عشر أن يستغلوا سلطانهم وان يشبعوا ميولهم الاستبدادية الى أقصى حد . ولكن الرجل كان واسع الافق ، بعيد النظر ، يعتقد بأن الحكم تقليد لا تخليد ، ووسيلة لا غاية ، ولم يكن من الذين تسكرهم خمر المناصب فيدوسون بأقدامهم على كل شيء فى طريقهم ولو كان حقوق الوطن وكرامته . كان الحكم فى نظره أداة لتحقيق آمال الامة وحمايتها من المطامع الاجنبية ، فما أن تقلد الحكم حتى شرع فى وضع نصوص الدستور .

واجتمع مجلس شورى النواب فى ١٠ ابريل ١٨٧٩ ثم قدم اليه محمد شريف فى جلسة ١٧ مايو : نصوص الدستور ولائحة الانتخابات ولائحة المجلس للمناقشة فيها وتعديلها أو اقرارها بعد أن ذكر للنواب بأنهم بمثابة جمعية تأسيسية .

وقد جاءت هذه التشريعات الثلاثة مماثلة للتشريعات المعمول بها عند الدول الراقية ، ونص فيها الى جانب المسئولية الوزارية حق الخديو فى حل المجلس ، وخول للشعب السودانى حق انتخاب ممثلين عنه فى المجلس ، شأنه شأن سكان الوادى جميعا ، وجاء هذا برهانا ساطعا على أن مصر تنظر الى السودان كقطعة من أرض الوطن ، وحدد عدد النواب بما لا يزيد على مائة وعشرين من بينهم نواب الجنوب .

وخلع اسماعيل عن العرش فى ٢٦ يونيو ، ولم يكن الوقت قد اتسع أمام النواب للنظر والمناقشة فى مواد الدستور ، وجاءت جلسة ٦ يوليو ١٨٧٩ وفيها فض الخديو توفيق دورة المجلس ، أو بالاحرى عطله الى أجل غير مسمى .

الحياة العقلية

القاهرة ترث بغداد – مظاهر الثقافة – رسالة الازهر – التأثير الفكرى للحملة الفرنسية – تنظيم صلة مصر بالغرب – النهضة التعليمية – البعوث الترجمة – رفاعة الطهطاوى ومدرسته – دور الازهر فى النهضة – على مبارك واعلام الفكر فى عصره – الطباعة – الصحافة .

كانت القاهرة التى احتلت مكانة بغداد العلمية بعد أن خربها التتار وأحرقوا مكتباتها قد صارت قاعدة الحياة العقلية فى الشرق وكعبة للعلماء وملجأ لأئمة الفلسفة والفقه وأحرار الفكر من الذين فروا أمام غزوات المغول فى العراق وايران وسورية وخراسان .

وكان الشعور الدينى قد دفع هؤلاء العلماء النازحين الى حاضرة الاسلام الى اعادة التراث العلمى الذى كانت تزخر به خزائن بغداد فنشطوا الى قطف ثمار العلم ، وتفرغوا للتأليف ، يساعدهم فى مهمتهم عطف السلاطين البحرية والبرجية ووجود جامعة اسلامية عظيمة ممثلة فى الازهر .

لكن هذه الشعلة المقدسة خبت فى العصر العثمانى وركدت سوق الادب وانصرف الناس عن تحصيل العلم فانحط معيار الثقافة ونهبت خزائن الكتب ، وانفضت صناعة الوراقين والنساخين نتيجة فتور الهمم عن التأليف والتدوين ، ثم استبدلت بالعربية اللغة التركية وفرضت على المكاتبات الرسمية ، وغزت اللغة العربية الكثير من الكلمات الدخيلة والتعابير الاعجمية والتراكيب الركيكة ، فانحط أسلوب الكتابة وصار أقرب الى العامية وفشى بين الادباء طابع الصناعة وسلكوا فى كتاباتهم مسلكا شاذا من حيث التكلف والاستعارة والتلاعب بالالفاظ البراقة المنمقة واختفى جيل العلماء الاعلام الذين حفلت بهم مصرفى عصورها السالفة .

وكان فى القاهرة ديوان يعرف باسم « ديوان الانشاء » يرجع تأسيسه الى أيام احمد بن طولون ، وكان هذا الديوان من جملة البواعث التى ساعدت على انهاض اللغة ، وانعاش الحركة الفكرية ، وكانت مهمته صياغة المكاتبات والولايات والمنشورات والنظر فيما يعود بالنفع على العلم .

ولقد عاشت اللغة العربية فى بعض الاوساط وبقيت تناضل وتكافح فى الوقت الذى اندثرت فيه معالم الادب ، وكانت أرقى الاساليب

التى عرفت منحصرة فى فئة من كتبة الدواوين ، ولكن حظهم من النبوغ والابتكار فى الكتابة كان ضئيلا ولم تتخط أسماؤهم حدود أسوار الدواوين . ونال بعض هؤلاء الكتبة شهرة ضيقة النطاق بفضل ملكة الكتابة التى مرنوا عليها وبتأثير اطلاعهم على ما كتبه الاقدمون . أما الاقبال على مطالعة الكتب وتقليب الذهن فى محتوياتها فكان مقصورا على طبقة محدودة من الخاصة ، وكانت الطباعة العربية التى عرفت فى ذلك العصر فى سورية والاستانة ومالطة وروما وفى الدوائر العلمية فى أوربا لا تزال مصر محرومة منها بسبب عزلتها وقلة احتفال حكامها بجلب أمثال هذه الكتب .

كانت الكتب اذن نادرة الوجود ، قليلة الانتشار وهى من المخطوطات النفيسة الباهظة الثمن ، وقد ظهر افتقار مصر الى الكتب العلمية بوضوح وجلاء لاسيما بعد أن جرد العثمانيون مكتبات القاهرة من محتوياتها العلمية ونقلوها الى دار الخلافة .

وكذلك كانت المعارف ضئيلة الاثر ، ووسائل تحصيلها شبه معدومة فلم تكن هناك سوى مجموعة من الكتاتيب الملحقة بالزوايا وأفنية المساجد يتلقى الصغار فيها مبادىء القراءة والكتابة وقشورا من علوم الدين .

وكانت مصاطب الكتبة الاقباط ومراكز طائفة القبانية بمثابة مدارس للناشئة من الذين يرغبون فى تلقى أصول الحساب . كما أن معظم الكنائس كان ملحقا بها كتاتيب يتلقى النشء فيها أصول دينهم ومبادىء الكتابة والحساب . وكانت هناك مدارس أخرى للاقباط مقامة فى الاحياء النائية أو أقبية المنازل ولا تختلف طريقة التعليم فيها عند المسلمين . وكانت الاديرة مصدر ثقافة خاصة بالاقباط وكانت خزائنها حافلة بالمؤلفات وبالموسوعات التى تتناول تاريخ الكنيسة أو الطقوس الدينية .

وكان الاثرياء يستقدمون الى دورهم مدرسين سبق أن درسوا فى الازهر لتربية أولادهم وأقاربهم ، أما غلمان المماليك فكانوا يثقفون فى قصور الامراء ثقافة خاصة تغلب عليها الصبغة العسكرية مع تلقينهم مبادىء الفلسفة والفقه والعلوم ، وكانت دورهم مزودة بخزائن كتب نهبت محتوياتها من مساجد الشام .

وزالت أمجاد معاهد التعليم والمدارس التى كانت فى وقت ما مهبط العلم والعرفان منذ عصر الايوبيين وأهمل شأنها متأثرة بما

أصاب مصر من تفكك وانقسام ، ثم طمع الحكام فيما بعد فى أوقافها التى استولوا عليها .

ولم يبق قائما من المعاهد العلمية التى كانت منتشرة فى العواصم والمدن سوى الازهر فقد كان للازهر من أوقافه التى حبسها عليه الخيرون ومن الارزاق التى تجرى عليه ما يغنيه عن مد يد السؤال الى الحكام فاستمر موضعا للتقديس ومركزا للثقافة الدينية وملاذا لعلوم الفقه واللغة .

حمل الازهر عبء المعارف القديمة على مر العصور وظل قائما على حفظ التراث الاسلامى وصيانة آداب العرب ، وكان نور العلم يشع من رحابه الى ارجاء العالم الاسلامى فيجذب اليه نوابغ العلماء والطلاب الذين ينقطعون بين جدرانه للدرس والعكوف على التحصيل .

وكان للازهر تأثير دينى فى محيط التثقيف الشعبى ، فطالما جلس علماء الدين فى رحابه ، يعقدون المجالس ، ويتعهدون العامة بالموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، ويشرحون لهم المسائل الدينية ويتبسطون معهم فى الحديث عما أغلق عليهم فهمه من شئون المعاملات الدنيوية . وكانوا اذا ما لمسوا اعوجاجا فى سير أحد الحكام ، ولو كان من ذوى البطش والقوة ، دسوا بين دروسهم النقد اللاذع لاسلوب حكمه وساقوا معانى العدل والمساواة وواجبات الحكام حيال المحكومين .

والواقع أن المسجد لم يكن مكانا للعبادة فحسب ، وانما ظل الى جانب ذلك بمثابة حلقة للدرس وينبوع روحى لتفقيه المسلمين شئون الدين والدنيا .

• ● •

ثم قدمت الحملة الفرنسية الى مصر . . تظاهر نابليون بونابرت بأن هذه الحملة لم تهبط ثرى الكنانة لتغزوها بسلاح الحرب وحده وانما بأسلحة من العلم واستقامة الفهم ، اذ كان يرى فى هذه الحملة تألق نجمه ليس من الوجهة العسكرية فحسب بل من الوجهة العلمية أيضا بغية اكتساب عطف علماء أوربا ومفكريها ، فصحب الحملة هيئة موقرة من ١٤٦ عالما من أقطاب الفكر والعلم والفن ليرصدوا جهودهم للكشف عن معالم مصر التى كادت تطمس تحت رمال الزمن .

وكان مما جهزت به الحملة مطبعة حروف عربية هى أول مطبعة قامت فى مصر بطبع الكتب والصحف ، ثم أضيف اليها كافة الكتب والمراجع عن مصر مما عثر عليه فى فرنسا وايطاليا وكون بها مكتبة زاخرة بنفائس الكتب ، وبعد ما استتب الامر لنابليون كان فى جملة المشروعات العلمية التى فكر فيها تأسيس « مجمع علمى فى القاهرة » على غرار المجمع العلمى الفرنسى بباريس ففى ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ أصدر أمرا بتأسيس « المجمع العلمى المصرى » وجعل شعاره : التقدم والاتحاد . أى العمل على تقدم البحوث العلمية الخاصة بمصر كالتنقيب عن الآثار ودراسة طبيعة الارض ومجرى النيل والتطور الاجتماعى وترقية الحياة الاقتصادية والسعى الى ادماج الثقافة الشرقية فى الثقافة اللاتينية .

استوطن المجمع دار حسن كاشف فى الناصرية ، ثم الحقت بالمجمع القصور والدور المحيطة به وأعدت لسكنى الاعضاء ، وعين العالم مونج رئيسا للمجمع واكتفى نابليون بأن يكون وكيله ، وافتتح المجمع فى حفلة حوت كل مظاهر العظمة واشتركت فيها وحدات من الجيش ، وحددت المسائل التى يتناولها الاعضاء بالدراسة والبحث وهى : الرياضة والطب والعلوم الاقتصادية والسياسية والفنون والاداب والموسيقى وكل ما يتعلق بتاريخ مصر .

واشترط أن ينشر المجمع أبحاثه مرة كل ثلاثة أشهر وتشمل مذكرات الاعضاء وتقارير اللجان وان تمنح جوائز للابحاث المتعلقة بتقدم الحضارة والمدنية فى وادى النيل . وسعى المجمع الى تأليف لجنتين للتنقيب عن الآثار والبحث عن مخلفات الحضارة الفرعونية ورسم هذه الاثار ودراستها . فشخص أعضاء اللجنتين الى الوجه القبلى وبذلوا جهودا فى البحث والتنقيب وكشف الستار عن عظمة مصر القديمة ، على حين جاب فريق آخر من العلماء المدن والقرى لدراسة طبائع الحيوان والنبات وقياس أعماق النيل ودراسة طميه وتحليل التربة وتخطيط المدن ، ودراسة المناخ وترقية وسائل التجارة ونموها وانتشارها .

وكانت الصبغة الغالبة على أعمال المجمع هى الصبغة العلمية . أما الجانب اللغوى فكان يتبع فى الاهمية القسم العلمى ، وكان يضم علماء بارزين اشتهروا بتفوقهم فى اللغات الشرقية ، وكانت أعمالهم منحصرة فى ترجمة منشورات وأوامر القيادة العسكرية واستغل

البعض منهم أوقات فراغه فى ترجمة المؤلفات العربية ودواوين الشعراء وفى الاجمال كان هذا المجمع على حد قول مؤرخ عاصر الحملة : عادت الفنون الى الظهور فى وطنها الاصلى ومنبتها القديم واعتلى رواد العلم والادب منابرهم فى مدرسة البطالسة .

وأسس المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب التى جلبوها من أوربا أو التى حصلوا عليها من المساجد وبيوت المماليك ، وكانت المكتبة تفتح أبوابها يوميا لاستقبال طلاب العلم ويعرضون عليهم ما تحويه من ذخائر أدبية وعلمية ، وأفردوا قاعة خاصة للمطالعة يجتمع فيها هواة البحث والمراجعة ، وقاعة يجرون فيها بعض التفاعلات الكيماوية أمام المتعلمين .

وكانت الطباعة شيئا غريبا لم يألفه المصريون وان كان البعض منهم قد سمعوا عنها أو شاهدوها فى استامبول ، فتقاطر على دار « المطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة » مشايخ الازهر واعضاء الديوان وتطلعوا بشغف الى عمليات الطباعة التى أجريت أمامهم وأخذوا يمطرون رؤساءها بالاسئلة عن آثار الطباعة فى مدنية الشعوب وعن جهد فرنسا فى نشر هذه الصناعة بين ربوع الغرب ، وتمنوا انتشارها فى بلادهم ليعم نفعها بين العامة والخاصة .

وكما كانت المطبعة شيئا جديدا بالنسبة للمصريين ، كذلك كانت الصحافة ، ولم تكن رواية الخبر المطبوع واذاعته قد عرف بعد فى البلدان الشرقية ، وقد جرت العادة أن الحكام اذا رأوا اذاعة نبأ ما تولى مهمة تبليغه الى الجمهور : المؤذنون من شواهق المآذن ، والمنادون يطلقونهم فى الشوارع والاسواق ، وكذلك مشايخ القرى ولكن نابليون أضاف الى هذه التقاليد المتبعة طريقة طريفة لم تكن مألوفة من قبل وهى لصق أوراق مطبوعة فى مفارق الطرق وبأبواب المساجد ورءوس الشوارع . ثم تطورت الفكرة الى انشاء صحيفة شبه رسمية تكون بمثابة لسان حال القيادة هى « رائد مصر » . والى اصدار مجلة تنشر على صفحاتها خلاصة أبحاث ودراسات أعضاء المجمع العلمى هى « العشرية المصرية » وكان فى النية اصدار جريدة باللغة العربية باسم « التنبيه » يسند تحريرها الى الشاعر اسماعيل الخشاب ولكنها لم تصدر .

وفى غضون السنوات الثلاث التى قضاها الفرنسيون فى مصر ، احتك رجال الحملة بالمصريين واختلطوا بصفوة مفكريهم وبطائفة من

كبرائهم ، وظهرت الجهـود العلمية لرجال البعثة فى أثرين بارزين أولهما كتاب « وصف مصر » الذى يعد أعظم موسوعة علمية عن تخطيط مصر ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وقد حوت هذهالمجموعة كل ما يتعلق بمصر من تاريخ وعلم وفن ونصوص جغرافيةورسوم أثرية ، ويتمثل ثانيهما فى تمهيدهم السبيل الى حـل رموز الخط الهيروغليفى الذى يعد بمثابة مفتاح الحضارة المصرية القديمة .

وتأثر بالفرنسيين صفوة من المفكرين والعلماء الذين اختلطوا بهم ونفعوهم بعلمهم ومنهم : الجبرتى ، نقولا الترك ، العطار ، الخشاب، فقـد برزوا فى وقت ركدت فيه النهضة العلمية ركودا تاما ولعبوا دورا هاما فى حياة مصر السياسية والعلمية .

فأولهم عرف بلقب « مؤرخ عصره » وقد اتصل بالفرنسـيين وعاشرهموأفاد منهم فى الحصول على الوثائق والاسانيدوالاحصاءات التى ضمنها كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » ولكنه برغم هذا حمل بقوة وعنف على الفرنسيين وعلى أسلوب حكمهم . حمل عليهم لجورهم فى جمع المـــال والتدخل فى حياة المواطنين وشهر بأساليب قادتهم للتقرب من المصريين ومحاولتهم ارضـائهم ، ولم يخدع بمنشورات نابليون التى كان يمالىء بها المصريين ويتملقهم ، ولم يخدع بالديوان الذى أنشأه بدعوى اشراك المصريين فى الحكم . وكذلك حمل على الحكم الفرنسى لما نشره جنود الاحتلال من ألوان الخلاعة والمجون وسريان هذه العدوى الى أولاد البلد .

ومع ذلك فان الجبرتى منصـف ، لم تمنعـه كراهيته للحـكم الفرنسى من اعجابه بتفوق الفرنسيين فى علومهم ، فاختلط بطائفة من علمائهم ، وبدا اعجابه بما حمـله الفرنسيون الى بلده من ألوان الثقافة وضروب التمدين ، فوصف دار الكتب التى أسسوها وأتى على ما تزخر به من صنوف المخطوطات والمعاجم والمؤلفات العربية المنقولة الى لغتهم ، ثم عرج على دار الكيمياء وعطف على رسـوم الآثار والحيوان ومناظر الثورة الفرنسية وصور الشيوخ من أعضاء الديوان ودقق النظر فى وصف كل ذلك وصفا صادقا .

وثانيهم كاتب سورى نزح الى مصر للعمل بصفة مترجم فىالحملة فخالط أهلهـا وعاشر أدباءها ، وخلف من آثاره كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والديار الشامية » وكذلك عدة قصائد سجل فيها الاحداث السياسية التى عاصرها .

وثالثهم عالم تثقف ثقافة أزهرية ، ولكنه برع فى الفنون الادبية واشتهر بالنظم حتى لقب « بشاعر عصره » . وقد اتصل بدوره بالفرنسيين وأفاد منهم فائدة علمية فى مقابل تدريسه أدب اللغة العربية للمستشرقين . وظهر التأثير الفرنسى فى تفكيره فكان يتحمس ويقول : « لا بد أن تتغير أحوال مصر ويتجدد ما بها من المعارف » . ثم يعجب بما وصلت اليه الامة الفرنسية من انتشار العلوم وضروب الثقافة ووفرة الكتب والمراجع وطريقة تأليفها وتقريبها الى الاذهان ، وأنشأ الشيخ العطار فى داره مكتبة على النمط الفرنسى زودها بكل ما وقع له من كتب حصل عليها من مصر أو من سياحاته فى ربوع الشام والاناضول .

ورابعهم شاعر كان يتكسب من صناعة الشعر فاستخدمه الفرنسيون كاتبا فى الديوان وعاون المستشرق مارسيل فى طبع ونشر عدة مؤلفات ومخطوطات مثل « تاريخ مصر من الفتح العربى الى الحملة الفرنسية » و « وصايا لقمان الحكيم » و « متنوعات من من الادب الشرقى » و « حكايات الشيخ المهدى » الذى كتبه على نمط « الف ليلة وليلة » .

وهناك طائفة أخرى نشأت فى كنف الفرنسويين وتحت رعايتهم وقد استعان بهم علماء الحملة على تفهم أسرار اللغة العربية وعلى تنقيح بعض المؤلفات التى وضعوها فى أصول هذه اللغة وآدابها .

وصفوة القول أن مصر أفادت من الناحية العلمية فائدة لا تنكر وفى الامثلة التى قدمناها ما يعطينا فكرة عامة عن بعض العوامل التى أحدثت أثرا مباشرا أو غير مباشر من ناحية الانتفاع بثمرات الحضارة المدنية وتقدير قيمة تحصيل العلم .

• ● •

بعد أن تم التخلص من بقايا المماليك فى مذبحة القلعة وانفرد محمد على بالحكم ، قدمت اليه فرنسا طائفة من الخبراء والاخصائيين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى ادخال النظم الادارية والعسكرية والثقافية الى مصر ، والنظر فى تنفيذ ما يمكن تنفيذه من المقترحات التى خلفها علماء الحملة الفرنسية للنهوض بمستوى الحياة العامة واستغلال الموارد الاقتصادية وتحسين طرق النقل والمواصلات والعمل على نمو الصناعة وتنظيم التجارة بين مصر وموانىء البحرين الابيض والاحمر وافتتاح سلسلة من المعاهد العلمية .

ونبتت فكرة تكوين جيش نظامى موحد قوامه الفلاحون بدلا من الجنود المرتزقة والعناصر الدخيلة الذين طالما تشابكت مصالحهم وتعقدت مشاكلهم وجاهروا بالتمرد والعصيان ، وكان لابد لهذا الجيش من ضباط وأطباء وبيطريين ومهندسين وموظفين مدنيين. فوقع الاختيار على خمسمائة من أبناء المماليك وأرسلوا الى أسوان حيث أسس لهم أول معهد عسكرى فى سنة ١٨٢٠ يتلقون فيه تعليمهم على أيدى مدربين أوربيين .

على أن مدير المعهد — الكولونيل سيف — لقى صعابا وعقبات فى تدريب أولئك الشبان الساخطين على الاساليب العسكرية الحديثة التى تفرض الطاعة والامتثال والنظام . فالمماليك منذ نشأتهم فطروا على الاعتداد بالنفس وقضوا حياتهم فى أجواء من الصخب والجلبة ولم يألفوا من فنون القتال سوى حركات الكر والفر والفروسية ، هذا الى أنهم وجدوا فى تعليمهم على أيدى ضباط من الافرنج حطة لشأنهم واحتقارا لماضيهم العسكرى ولمنبتهم الاصلى الذى خرج منه فحول القواد العسكريين الذين سيطروا على العالم كجنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو ، لذلك بادروا بالتمرد والعصيان وامتنعوا عن تلقى الدروس وكادوا يفتكون بمدير المعهد غيلة وغدرا .

وكان هذا الحادث سببا فى التفكير فى افتتاح سلسلة من المدارس والمعاهد العسكرية التى تلقن الطلاب فنون الحرب وما يتصل بها من مواد الرياضيات والهندسة واللغات وتدريبهم على الانظمة العسكرية واعدادهم لتولى مقاليد الجيش الحديث . فكانت أولى المدارس العسكرية التى أنشئت لهذا الفرض — بعد معهد أسوان — مدرسة اعدادية فى قصر العينى تؤهل طلابها للالتحاق بالمدارس العسكرية والبحرية « ١٨٢٥ » ثم تبعها تأسيس مدرستى المشاة وأركان الحرب فى الخانقاه ، فمدرسة الفرسان فى الجيزة ، فمدرسة المدفعية فى طره ، فمدرسة الموسيقى العسكرية ، فالمدرسة البحرية ومدارس الاسطول فى الاسكندرية .

وعلى الرغم مما لاقته حركة تجنيد المصريين من نفور وسخط بين الطبقات ، ومع لجوء الحكومة الى القبض على الفلاحين فى القرى بأساليب بشعة وسوقهم قسرا الى المعسكرات فى المدن ، فقد أثمرت هذه الحركة فيما بعد ، ولم يلبث أن ألف المصريون حياة الجندية لما تحمله فى طواياها من مظهر خلاب وحياة رغدة .

وكما أن مصر سبقت البلدان الاسلامية الى تأسيس جامعة لعلوم الفقه والدين ودراسة أدبيات اللغة العربية ممثلة فى الازهر ، كذلك سبقتها الى انشاء طائفة من المعاهد العلمية والمدارس الراقية المؤسسة على الطراز الغربى ، وتحت الاشراف الاوربى المباشر ، فكانت هذه المدارس تسير فى نظمها وفى مناهجها وفق الأساليب العصرية .

كانت أولى هذه المعاهد مدرسة الهندسة « الدرسخانة » التى فتحت أبوابها للطلاب فى غضون عام ١٨١٦ ، وكان الغرض منها اعداد طبقة من الشبان المتعلمين للقيام بتنفيذ مشروعات الرى ومرافق العمران وتغذية دور الصناعة بعنصر صالح يتلقى معلومات وفق المبادىء العلمية .

وفى عام ١٨٢٧ خطت نهضة التعليم خطوة موفقة بانشاء مدرسة الطب التى وكل أمرها الى الدكتور كلوت بك الفرنسى . وكان الغرض من انشاء هذه المدرسة سد حاجة الجيش من أطباء وجراحين ، وكانت أهم عقبة اعترضت مدير المدرسة جهل الاساتذة — وكانوا من الفرنسيين والايطاليين — باللغة العربية ، أما الطلاب الذين وقع الاختيار عليهم فكانوا من بين طلاب الازهر وكانوا يجهلون أية لغة أخرى سوى العربية . لذلك استعان كلوت بك بطائفة من المترجمين ليكونوا واسطة بين الأستاذ والتلميذ ، فيتلقون عن الاستاذ الدروس والمحاضرات بالفرنسية أو الايطالية ثم ينقلونها بدورهم الى الطلاب بالعربية .

وكان المترجمون خليطا من السوريين والارمن والمتمصرين ، وقد عانوا الكثير من الجهد والمصاعب للاضطلاع بمهمتهم ، نظرا الى انه لم تكن لهم دراية سابقة بالعلوم التى يعهد اليهم بنقلها الى العربية ، وأخيرا رئى أن يعاونهم فريق من علماء الازهر ، فكانوا يقومون بتصحيح الدروس من الوجهة اللغوية ويمدون المترجمين بخبرتهم فيما يشكل عليهم استيعابه وما يغلق عليهم فهمه من المفردات والمصطلحات . وكان جل اعتماد هؤلاء المحررين على مفردات ابن البيطار والقانون لابن سينا وكليات بن رشد وتذكرة داوود ، وعلى طائفة أخرى من الكتب العلمية فى عصر العباسيين ، لاستخلاص المصطلحات الطبية والعلاجية . وليس من شك فى أن هؤلاء المترجمين وأولئك المحررين لم يقتصر عملهم على الوساطة بين الاساتذة والطلاب ، بل انهم تعاونوا معا على أحياء المصطلحات العربية

القديمة ، ووضعوا مرادفات أخرى مشتقة من الالفاظ الافرنجية ، ثم تكونت فيما بعد لجنة من بينهم أخذت على عاتقها تسهيل ترجمة المؤلفات الطبية ووضعت معجما يربو عدد كلماته على ستة الاف كلمة ، بل أن بعضهم قاموا بترجمة طائفة من المؤلفات فى الطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والرياضة وذهب بعضهم الى أبعد من هذا فقام بتأليف الكتب العلمية والتدريس بها .

وفى فترات متباينة ، أنشأت الحكومة طائفة من المعاهد العلمية مثل « مدرسة المارستان » لاعداد طلاب يصلحون للالتحاق بمدرسة الطب ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة البيطرة ، ومدرسة الادارة ، ومدرسة الالسن ، ومجموعة من المدارس الفنية والزراعية والصناعية ، ثم مدرسة الولادة التى ألحق بها فى بادىء الامر عدد من الجوارى الحبشيات والخصيان ثم تهافتت على دخولها طائفة من الفتيات المصريات .

أما المدارس الابتدائية فكان عددها يتراوح ما بين ٤٥ و ٥٠ مدرسة منتشرة فى المدن وعواصم الاقاليم ، وكانت هناك مدرستان ثانويتان فى كل من القاهرة والاسكندرية ، وعشرات من المدارس الاولية التى قامت فى القرى والدساكر لنشر ألوان العلم بين الصبيان وتهيئة المبرزين منهم للالتحاق بالمعاهد العالية .

وكانت الحكومة تجرى على سياسة جمع الطلاب لمدارسها بالطريقة نفسها التى تعبىء بها الجنود لتكوين القوات العسكرية .. كان الجيش فى نظر الشعب يمثل الغربة والبعد عن الاهل ويصور حياة الاذلال والطاعة العمياء . وكذلك المدارس ، كانت الحكومة تجمع الطلاب لها ، فتخصص لكل أقليم تقديم عدد معين من الطلاب وتعهد الى رجال الادارة جمعهم ونزعهم من أحضان ذويهم ثم تدخلهم الى المدارس قسرا وتخضعهم لنفس النظام الذى تعامل به جنودها ، فتتولى طعامهم وكسائهم والاشراف على صحتهم ، وتدريبهم على النظم العسكرية ، وتمنحهم مرتبات شهرية وتميز المبرزين منهم بالشارات والالقاب العسكرية . ومن هنا كان فريق من المصريين يحجمون عن الحاق أبنائهم بالمدارس ، ولم يتقدموا الى التعليم الحديث عن رغبة وطواعية الا حين أدركوا أن الغرض منه هو تولى المناصب وكسب الجاه والزهو بالمعرفة .

فنهضة التعليم اذن كانت نهضة قومية بحتة ، قامت على عاتق الشعب ، وكانت ترمى الى ترقية المدارك وتوسيع آفاق الفكر ونشر ضروب الثقافة .

وقد أزالت النهضة التعليمية الفوارق بين الطبقات وعممت روح المساواة ، فقد كان أبناء الاثرياء يتلقون دروسهم الى جانب أبناء الفقراء ، وكان المسيحيون والمتمصرون يتعلمون مع المسلمين والمصريين ، والذين انحدروا من بيئات عثمانية أو ارستقراطية لا يأنفون من الجلوس الى جانب غيرهم من الفلاحين .

وبعد ان كانت شئون التعليم تتبع « ديوان الجهادية » فى القلعة نظرا الى أن الباعث الاول على انشاء المدارس كان حربيا بحتا ، كما أن الصبغة الغالبة عليه هى الصبغة العسكرية . صار التعليم يتبع ادارة جديدة مستقلة هى « ديوان المدارس » بقصر الدفتردار بالازبكية ، ونيط بهذا الادارة الجديدة مهمة نشر ألوان العلم ووضع لوائح التعليم وتحديد خطط الدراسة ومكافحة الامية وتعيين الاماكن للطلاب والاشراف على الامتحانات .

وعلى أثر ابرام معاهدة لندن وتحديد مركز الدولى وانقاص عدد الجيش أغلق الكثير من المعاهد العلمية وتضاءل عدد المدارس الى حد لم يصبح فيه سوى مدرسة ابتدائية واحدة ومدرسة ثانوية ، والمدرسة الحربية فى القلعة ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة ومدرسة بحرية فى الاسكندرية وكانت جميعها فى حالة من الفوضى والاهمال . وما لبثت الرجعية أن نشبت أظافرها فى النهضة التعليمية ووجدت مرتعا خصيبا لنفث سمومها اذ أنها عدوة الجهل ، حليفة الجهل والجمود .

وكان لرواج الحالة الاقتصادية وتدفق الثروة نتيجة ارتفاع أسعار القطن على أثر نشوب الحرب الامريكية الاهلية واستيطان الجاليات الاجنبية وادى النيل أثرها فى اعادة افتتاح دور العلم والتوسع فيها وخلق بيئة صالحة من صفوة المتعلمين . فخطت نهضة التعليم خطوة موفقة وتناولت جميع المظاهر من من التعليم الدينى الى التعليم العصرى فى مدارس الحكومة والاوقاف وقامت الجمعيات والافراد بتأسيس مدراس للبنين والبنات على نسق ماأنشأته الحكومة منها ، وعنيت الطوائف الدينية والارساليات التبشيرية والجاليات الاجنبية بتأسيس مدارس لها فى أنحاء البلاد كافة .

على انه كان للاضطرابات المالية التى رزئت بها مصر تأثير سلبى فى نشر أنواع التعليم اذ تضاءلت الاعتمادات المرصودة على هذه الغاية ، وبعد أن كانت ميزانية التعليم نحو ٨٢ الف جنيه أخذ النقص يتسرب اليها حتى هبطت فى بعض السنوات الى نصف هذا المبلغ ، وكان من بواعث هذا النقص انصراف الحكومة عن الاهتمام بشئون التعليم .

وقد أنشئت مدرسة للغات القديمة ـ أو ـ اللسان المصرى ، فى عام ١٨٦٩ لتعليم اللغات المصرية القديمة والحبشية ، والكتابة الهيروغليفية والحضارة القديمة . وكان مقرها سراى الشرقاوى ببولاق ، ودعى لفيف من جهابذة علماء المصرولوجية للتدريس بها وعلى رأسهم هنرى بروختشن الالمانى ، وكان من أساتذتها المعلم ميخائيل القبطى مدرس اللغة الحبشية ، وقد تخرج فى هذه المدرسة طائفة من نوابغ الاثريين الذين كشفوا النقاب عن مصر القديمة وفى طليعتهم احمد نجيب واحمد كمال من علماء الآثار .

وكذلك أنشأ على مبارك مدرسة دار العلوم « ١٨٧٢ » لرفع مستوى تعليم اللغة العربية وتخريج فئة من المدرسين المتشبعين بمبادىء التدريس على النمط الحديث ، وروعى أن يختار طلبتها من بين المتقدمين فى الازهر ، وان يزودوا فى دراستهم بالعلوم العربية والشرعية والعلوم الحديثة كالرياضات والتاريخ والجغرافية مع التوسع فى دراسة علوم الازهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه ليجمعوا بذلك بين قديم العلم وحديثه .

ويعد انشاء هذه الدار من الخدمات الجليلة التى أسداها على مبارك لاحياء اللغة العربية وآدابها ، فقد أنبث خريجوها فى المدارس يلقنون النشء مبادىء اللغة وأدبياتها وانتشروا فى المنتديات والمدارس ودور الصحف ، يعلمون ويكتبون ويخطبون وينظمون الشعر ، وعلى أيديهم تخرج مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتبة الدواوين ، وما من كاتب أو شاعر أو خطيب الا وهو غرس ثمارهم ونتاج جهودهم ونشاطهم ودأبهم .

• ● •

وكان للبعوث العلمية مظهر سام وصفة منظمة فى تاريخ مصر الحديث ، وفى الوسع أن نتبين مدى أهميتها فى تكوين أصول الثقافة

اذا رجعنا الى الرسائل التى قدمها شباب العلماء الى الجامعات لا سيما الفرنسية منها ، واذا ألقينا نظرة فاحصة على جهود نخبة الأطباء والمهندسين والمعلمين والضباط الذين عادوا من ربوع الغرب وتوفروا على ترجمة المؤلفات القيمة فى مختلف العلوم والفنون والآداب .

كان الباعث الذى حدا بالحكومة الى ايفاد الطلاب الى جامعات الغرب ماظهر من عقم الطريقة التى اتبعت فىمدارس الطب والهندسة والمحاسبة وغيرها من المعاهد العالية ، أى الاستعانة بمترجمين يتولون نقل محاضرات الاساتذة ودروسهم الى الطلاب ، فقد كان يعتور شروح هؤلاء المترجمين اخطاء وعيوب فنية لجهلهم المادة التى يترجمون دروسها ، وكان الاستعانة بمصححين من الازهر من الأمور التى لم يحمد عقباها نظرا للتفاوت بين الافكار . ومن الطبيعى أن مثل هذه الحالة لم تؤد الى الغاية المنشودة من التعليم لفقد الصلة العقلية بين الاساتذة والطلاب .

لذلك رأت الحكومة بناء على مشورة العلامة جومار الفرنسى ضرورة ايفاد بعثات الى الجامعات الاوربية ، تتلقى مبادىء العلوم وتتزود من ثقافة الغرب وتحذق فنونه ومعارفه وتتجانس عقلية أفرادها مع عقلية المتعلمين الاوربيين ، ثم تعود الى مصر لتحل محل المدرسين الاجانب وتشترك فى توجيه جهاز الدولة وتسهم بنصيب فى النهضة الثقافية .

وكان أول ما اتجه اليه التفكير ايفاد بعثة من طلاب الازهر ومن أبناء المماليك والمتمصرين الى ايطاليا ، فقد كانت الثقافة الايطالية متفشية فى مصر ، وكان للايطاليين مناطق نفوذ فى الشرق منذ عصر جمهورية البندقية ، وكانت اللغة الايطالية تدرس فى بضعة معاهد عالية فى القاهرة وتتداولها ألسنة الطلاب ، وكان أساتذة الرياضة والعلوم والفنون فى هذه المعاهد من عنصر ايطالى . بل أن الادارة الصحية والمدربين العسكريين فى الجيش المصرى كانوا من ايطاليا ، هذا الى أن المؤلفات الايطالية كانت فى مقدمة ما نقل الى العربية فى ذلك العصر .

لهذه الاسباب ولغيرها أوفدت البعثة المصرية الاولى الى ميلانو « ١٨١٣ » وكان من أبرز أعضائها نقولا مسابكى ومعه ثلاثة آخرون مارسوا دراسة فن الطباعة علميا وعمليا ثم عادوا الى مصر بعد سنوات أربع ومعهم آلات طباعة وقوالب حروف عربية .

ولكن الفرنسيين لم يلبثوا أن تغلبوا على الايطاليين واحتلوا المركز الثقافى الذى يشغلونه ، وسرعان ما انكمش النفوذ الايطالى وتقلص ظل الثقافة الايطالية ، وحلت محلها الثقافة الفرنسية وجعلت اللغة الفرنسية من المواد الاساسية فى برامج التعليم وتحولت ميول الجيل الجديد الى التزود من معين هذه الثقافة ، وزاد من شأنها أن مصر كانت مقبلة على اقتباس الكثير من النظم السياسية والادارية والاقتصادية عن فرنسا .

وعلى هذا الاساس أوفدت البعثة الثالثة الى فرنسا وهى تعد أخطر البعثات العلمية شأنا فى حياة المجتمع المصرى ، فقد كانت تضم ٤٤ عضوا سافروا الى باريس « ١٨٢٦ » وخصصوا لدراسة مختلف العلوم والفنون والاداب ، فمنهم من اختص بدراسة الترجمة أو الطباعة أو الكيمياء أو التاريخ الطبيعى أو الادارة أو الفنون العسكرية أو الطب .

وقد هبط أفراد هذه البعثة ثرى فرنسا ولم يكن بينهم من يحسن التكلم باللغة الفرنسية ، فأفردت لهم مدرسة خاصة عرفت باسم « المدرسة المصرية بباريس » حيث تلقوا فيها مبادىء اللغة الفرنسية ودرسوا موادا فى التاريخ والحساب والهندسة. ومما يدل أبلغ الدلالة على اهتمام حكومة فرنسا بهذه المدرسة أنها جعلتها تحت رعاية وزير حربيتها واشراف العلامة جومار الذى عرفته مصر صديقا لها منذ أيام الحملة الفرنسية .

وتوالى ايفاد البعوث العلمية عقب ذلك فمنها ما كان يحل بالمانيا أو ايطاليا أو فرنسا ، ومنها بعثات صناعية وعسكرية أوفدت الى النمسا وأخرى بحرية وفنية درس أفرادها فى انجلترا .

وليس من شك فى أن هؤلاء المبعوثين الذين عبوا من ينابيع الثقافة الغربية وأشربت نفوسهم صفات الجد والعزم ، وتمسكوا بحرية الفكر التى امتاز بها رجال أوربا ، كانوا نواة النهضة وقادة الرأى وطليعة الجيل ، فقد آبوا من ربوع الغرب ، وصقلوا أفكارهم بما درسوه وحذقوه من العلوم والفنون ، فنفثوا فى المجتمع قبسا من روحهم وأغدقوا عليه فيضا من علمهم ونشروا بين طوائف الشعب تعاليم أوربا وانماطها فى العلم ومنهجها فى الدرس ونظمها فى الادارة، وكانوا أشبه بمنار يتلقى ضياءه من الغرب ويعكسه على وادى النيل.

والواقع أن هؤلاء المبعوثين كانوا بمثابة برزخ بين الحضارتين الشرقية والغربية ، وهمزة الوصل بين القديم والجديد ، فقد

استروحوا نسمات الحيــاة فى ربوع وطنهم ورضعوا لبان المجتمع الاسلامى والشرقى فحافظوا على تقاليده واستمسكوا بفضائله ، ثم نزحوا الى الغرب فنهلوا من ورده وأفادوا من تجاربه وكشفوا عن بواعث رقيه ونهضته وتسابقوا فى مضمار التقدم العلمى والاجتماعى ، فلما أنفسح المجــال أمامهم كانت تجاربهم فى الحيــاة قــد نضجت فاستطاعوا أن يوفقوا بين الحضارتين وأن يصطنعوا من هذا المزيج خميرة الثقافة العربية الحديثة .

وكان من أثر هذا المزج ظهور مدرسة جديدة فى الفكر المصرى ، تلك المدرسة القائمة على ثقافتين أصيلتين ، احداهما تمثل الثقافة العربية وقوامها النقاش والجدل والاستناد الى أصول الدين وعلوم العرب وجامعة الاسلام ، والاخرى تمثل الثقافة الغربية القائمة على التفكير المنظم والتبويب العلمى والمنطق الصحيح ، ومحاولة تمثيل الحضارة الغربية لتحويل الصالح منها الى كيانهم الاجتماعى .

وكانت هذه المدرســة المصرية الصــميمة أول من نادت بفكرة تأسيس امبراطورية عربية تكون القاهرة قاعدتها وأحياء القــومية المصرية ، كما كانت الصلة التى ربطت بين مصر العربية الى تستمد حياتها الثقافية من معارف الاولين وبين مصر الحــديثة التى ترنو بأبصارها نحو المستقبل وتشق طريقها الى الحيــاة بعزم صــادق وقدم راسخة .

• • •

واتخذت الترجمة كوسيلة من وسائل أحيــاء الثقــافة وتنمية المدارك والافهام . وقد كانت الترجمة ولاتزال عنصرا من عناصر الحياة الفكرية فى وادى النيل ، وبرزت جهود هذه المدرسة فى حلبة النقل والمحاكاة والاقتباس أكثر منها فى مضمار التأليف والابتكار .

والواقع أن الذين توفروا على نقل آثار الغرب وعلومه وفنونه ، أفادوا الحركة العلمية بطريق غير مباشر ، فقد كانت المؤلفات المترجمة بمثابة الينابيع الرئيسية التى انتشرت معها الافكار الاوربية ، وكان من المحتم أن تتجه ميول أشتات المترجمين من أعضاء البعوث العلمية الى الثقافة الغربية وتأثرهم بالحركات السياسية والاجتماعية التى لمسوها فى ربوع الغــرب ، وقوى فيهم هذا الميل اطلاعهم على لباب الادب الفرنسي وعلى الحركات الديمقراطية التى قامت فى فرنسا فى سبيل الحرية والمساواة ، فهم كانوا طلاب اصلاح سياسى واجتماعى الى جانب التطور العقلى المنشود .

وقد ارتبطت حركة الترجمة بنشر التعليم والطباعة . وبدأت هذه الحـركة فى أواسط عام ١٨٢٠ حين أرادت الحكومة تزويد الرجال العسكريين بالمؤلفات التى تبحث فى شتى الفنون الحربية ، ثم انتقلت هذه الحركة الى مدرسة الطب فالهندسة فالمعاهد العلمية الاخرى .

ولمدرسة الالسن التى أشـار بتأسيسها رفاعة رافع الطهطاوى الفضل فى بعث حركة الترجمة وتركت آثارا بارزة فى التطور العقلى الذى تمتعت به مصر زمنا .

وقد عرفت هذه المدرسة فى بداية أمرها باسم «مدرسة الترجمة» ثم استبدلت باسمها الذى اشتهرت به فيما بعد . وفتحت أبوابها للرعيل الاول من الطلاب وعددهم ٥٠ طالبا ، أما الغرض من تأسيسها فهو اعداد طبقة من المترجمين يعملون فى دواوين الحكومة ويحلون محل الاجانب ، ويضطلعون بأعباء نقل العـلوم الحديثة وآدابها ، وتزويد المدارس بطائفة من المدرسين الذين يصلحون لتدريس مادة الترجمة .

وكانت المواد التى تدرس فى هذه المدرسة هى : التاريخ والقصص والادب والجغـرافية والرياضـة ، واللغـات : العـربية والفرنسية والايطالية والانجليزية والتركية والفارسية .

وأنشئت بها عدة شعب منها : شعبة لدراسة الفقه والشريعة لتخريج طائفة من القضـاة . وشـعبة لدراسـة الادارة الملـكية ، كما ألحقت بالمدرسة مكتبة حافلة بشتى ألوان الكتب .

وقد قام بتدريس اللغة العربية فريق من علماء الازهر كالشيخ محمد قطة العـدوى واحمد عبـد الرحيم الطهطاوى وعبـد المنعم الجرجاوى والدمنهـورى وحسـانين الغمـراوى وعلى الفـرغلى الانصارى . وتولى تدريس الشريعة الشيخ خليل الرشيدى ومحمد المنصورى . وأخذ رفاعه الطهطاوى على عاتقه مهمة تدريس فنون الادب والقاء دروس فى المقارنة بين الشريعتين الاسلامية والغربية .

ونحن نفهم أن تدريس اللغات الاوربية كان يحتل الصدارة من اهتمام القائمين بالامر نظرا لحاجة المدارس الى طائفة من كتب المواد الحديثة ، وحاجة الجيش والمدارس العسـكرية الى المؤلفات التى تبحث فى الفنون الحربية ، وحاجة المصانع الى كتب الكيمياء حتى يكون الصناع فى مستوى أرقى بكثير من غيرهم . أما تدريس اللغتين

التركية والفارسية فلم يكن لهما ارتباط البتة بالفرض الاساسى الذى أنشئت من أجله مدرسة الالسن ، وانما تقرر تدريسهما بالنسبة الى أن اللغة التركية كانت لغة الهيئة الحاكمة والطبقة العالية ، وكانت المكاتبات الرسمية تحرر بها ، كما كانت دار الطباعة ببولاق تقوم على طبع الكثير من مؤلفاتها ، وكانت صحيفة الحكومة الرسمية « الوقائع » تحرر موادها بها ، لهذا احتلت اللغة التركية مكانة خطيرة فى برامج الدراسة وعنى بدراستها عناية ملحوظة .

أما الفارسية فهى متصلة بالتركية بصلات لغوية وثقافية وتاريخية ، فقد كان العثمانيون ومن يمت اليهم بوشيجة من العرق والنسب تلوك ألسنتهم الفارسية ، وكانوا يفرضون على أبنائهم دراستها ويحثونهم على مطالعة فرائدها .

والواقع أن كلا من الثقافتين الغربية الحديثة والشرقيةالتقليدية التقيتا فى « مدرسة الالسن » وكان طلابها أنفسهم مزيجا من هاتين الثقافتين .

وفى غضون عام ١٨٤١ أنشئت شعبة فنية عرفت باسم « قلم الترجمة » والحقت بمدرسة الالسن لغرض تزويد دور العلم والمدارس بما تحتاجه من كتب المواد الحديثة . وقسمت هذهالادارة الفنية الى أقسام أربعة :

الاول لترجمة العلوم الرياضية .. والثانى لترجمة العلوم الطبية والطبيعية . والثالث لترجمة الادبيات كأسفار التاريخ والقصص والقوانين والجغرافية . والرابع خاص بالترجمة التركية .

وكان عدد المترجمين فى هذه الادارة يتراوح ما بين الاربعين والستين مترجما ، يعاونهم نفر من المصححين والنساخين ، واستقبلت مصر بفضل تعاونهم وجهودهم المثمرة اشتاتا من المؤلفات فى العلوم والآداب .

وقد تبع حركة الترجمة حركة أخرى تهدف الى وضع سلسلة من المعاجم اللغوية ، فاستهل هذه الحركة رفاعة الطهطاوى حين أخذ يذيل معظم الكتب التى يقوم على ترجمتها بجدول أبجدى يشرح فيه غوامض الالفاظ الافرنجية الواردة فى صلب الكتاب ، ويتولى شرحها شرحا مبسطا ، ثم حذا حذوه بقية تلاميذه فى الكتب التى تولوا نقلها الى اللغة العربية .

• ● •

تعد شخصية رفاعة الطهطاوى من أبرز الشخصيات العلمية فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهو بحق امام النهضة العلمية والادبية وزعيم من زعماءالاتجاه الجديد ، ومن الافراد القلائل الذين حملوا الى ربوع وطنهم رسالة فكرية سامية تفيض بالحياة وبعناصر القوة والنضوج .

وقد جمع رفاعة بين ثقافة الشرق الاسلامى وبين العقليةالغربية المبوبة ، فطوى صدر شبابه فى الازهر ، يستقى من معين الثقافة الشرقية ، وتلقى العلم عن أديب عصره حسن العطار شيخ الازهر ، ثم اتجه بتفكيره الى دراسة العلوم العصرية المتصلة بالادب كالتاريخ والجغرافية ، وامتاز فى مراحل دراسته بالدأب على التحصيل ، وتفتحت آفاق ذهنه على شتى الصور والفنون الادبية .. ثم تهيأت الاسباب ليكون اماما للبعثة العلمية الثالثة التى أوفدت الى فرنسا ، فلم يقنع بهذا المنصب كغيره من الأئمة الثلاثة الذين زاملوه ، بل راح يستثمر مواهبه وينمى محصوله الفكرى ، فتعلم مبادىء اللغة الفرنسية حتى برز فيها ، وأكب على العلوم يعب من ينابيعها ، واتجهت ميوله الى دراسة الادب الفرنسى والفلسفة والاجتماع فأصاب منها حظا وافرا ، ثم تخصص فى فن الترجمة ونقل الى العربية عدة رسائل كانت محور الامتحان الذى نال به درجته الجامعية من باريس .

وانتهز رفاعة فرصة السنوات الست التى قضاها فى فرنسا ، فطوف بشتى أنحائها ، وتفقد مؤسساتها العلمية ودور كتبها ومسارحها وساجل علماءها ، وعكف على دراسة النظم الاجتماعية فيها ، وبواعث نهضة الغرب ومدى تقدمه فى مضمار العلوم والفنون ، ثم راح يوازن بين حالة الغرب والحالة التى كان عليها العرب فى ابان مجدهم وفتوحاتهم ، وكان ذهنه دائما مشغولا بكلمات خمس : مصر ، العرب ، الاسلام ، فرنسا ، النصرانية ، يستخدمها فى نظراته وأحكامه .

وفى أثناء اقامته فى باريس تعرف الى طائفة من المستعربين ومنهم البارون سيلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال وأفاد منهم فائدة تجلت آثارها فى دراسته وفى بعض المشروعات الادبية التى أقدم على تنفيذها ، كما انتفعوا هم من علمه ومن معلوماته الثمينة فى الادب العربى .

كان رفاعة يقدر لهؤلاء المستعربين خدمتهم اللغة العربية وهم ليسوا من أبنائها ، وكان معجبا بما يقومون على طبعه ونشره من أمهات الكتب والمراجع والمظان التاريخية والادبية . وقد أثمر هذا الاعجاب بعد حين ، حين هيأت له الظروف أن يؤسس « القسم الادبى » ، بمطبعة بولاق ، وهو القسم الذى أخرج باكورة الاسفار التاريخية وكتب الفقه واللغة والادب والمعاجم .

ولقد بقى رفاعة متاثرا بكل ما هو فرنسى ، وظهر انطباع الثقافة الغربية فى كل ما ترجمه ونشره فى الادب مثل « اندروماك » أو فى الشعر مثل « نشيد المارسيليز » ، على أن هذا التاثر لم يتعد طور الاخيلة وبعض الافكار ، فقد ظل ينظم الشعر العربى التقليدى ويجرى فى أسلوبه ومنهجه على نمط القدماء . ولمس وهو فى باريس أعظم حركة قامت فى الادب افرنسى وهى حركة الرومانتسم ولكنه لم يعن بها بحيث لا نجد لها أثرا فى كل ما كتبه ، وكانت ثورة سنة ١٨٣٠ تجتاح فرنسا ، والابحاث الدستورية والمبادىء الديمقراطية تشغل الاذهان ، و « الاوامر » التى أصدرها شارل العاشر ملك فرنسا من الشئون التى أقلقت البال ، وكان من الطبيعى أن نجد اثر ما لمسه وشاهده بعد أن يدرسه ويستقصى أصوله ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك .

وحين عاد رفاعة الى مصر أصبح عاملا قويا فى الحركتين التعليمية والادبية ، كانت رسالته الكبرى أن يغزو الجهل ويمحو الامية ويسمو بالنهضة الثقافية الى الاوج . وهنا يبدو لنا أثره كامام من أئمة التعليم ، فقد زاول تدريس اللغة الفرنسية لطلاب المدارس العالية ، وعمل مترجما فى مدرسة الطب ، واستطاع أن ينفخ فى الطلاب روحا وثابة أحسوا أثرها ، فالتف حوله أمثال محمد على البقلى الذى أصبح من أعلام الطب ، وانتفعوا بثمرات علمه وأدبه . ثم نقل الى مدرسة المدفعية فى طره ، وعهد اليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية، ثم نقل الى المدرسة التجهيزية فى أبى زعبل

ووجد رفاعة أن مصر بحاجة الى طبقة من العلماء الاكفاء فى الآداب والفنون ، يحلون محل الاجانب الذين يجهلون روح مصر الحقيقية وعاداتها وتقاليدها ويتعامون عن مقاصد الحكومة الناشئة

وقد يضعون العراقيل فى سبيل تقدمها ونهوضها ، فضلاً عن انهم لا يتفاهمون بلغة أهلها . ففكر فى تربية نخبة صالحة من المصريين تؤهلهم مداركهم للاضطلاع بالاعباء العامة ، وان يكونوا فى المستقبل واسطة فى نقل الاساليب العصرية واقتباس علوم الغرب وفنونه وتطبيق الصالح منها على وطنهم ليصبح فى مصاف الدول العظمى ، وعلى هذا تقدم بمشروع انشاء « مدرسة الالسن » التى لم تكن فى الواقع سوى كلية للاداب والحقوق .

كانت سنى حياة هذا العالم مملوءة بالانتاج الخصب والعمل المتواصل ، فتفرغ للكتابة والتاليف ، وساعد على نشر أفكارالحضارة والرقى وتثقيفالجيل الجديدثقافة صالحة،وخدم الحركة الادبية عن طريق ترجمة طائفة من الكتب الشائعة فى عصره .

وقد تقلب فى عدة مناصب وأسندت اليه شئون خطيرة تتعلق بنشر الثقافة ، وتنقل بين مختلف البيئات ، فكان مديرا لقسم الترجمة ومحررا لصحيفة « الوقائع المصرية » نحو خمسة عشر عاما استطاع فى خلالها أن يفرض شخصيته على الصحيفةالرسمية وان يصبغها بطابع مصرى ، ثم تولى التفتيش على المدارسوالاشراف على تنقيح برامجها وامتحاناتها ، وأسس دار الكتب الملحقةبمدرسة الالسن ، وفى الاجمال فقد وجه مصر من النواحى التعليمية والثقافية توجيها مثمرا .

وبدت جراته ومبلغ تأثره بما لمسه فى ديار الغرب حين جاهر بضرورة تعليم المراة لتكون اما فاضلة وزوجة رءوم ، وأوضحماينبغى عليها أن تقوم به من نصيب فى المساهمة للنهوض بالمجتمع .

وقد أسس رفاعة أول مدرسة فى الفكر المصرى الحديث ، وانتشر تلاميذه ومريدوه فى كل ركن من أركان البلاد يبثون تعاليمه ويذيعون رسالته وينهجون نهجه ويضع كل منهم لبنة فى صرح النهضة ، وليس من شك فى أن الكتب التى الفوها أو ترجموها هى خميرة النهضة وشارة رقيها .

وكان لاتباعه أثر عميق فى تيار الحركة الفكرية ، فقد شغلوا مناصب التدريس فى المدارس والمعاهد العلمية وأسندت اليهم وظائف مترجمين فى الدوائر الحكومية وعين البعض منهم قضاة ، وتكونت منهم الشعبة الفنية التى عرفت باسم « قلم الترجمة » .
ومن أتباع رفاعة الجدير التنويه بهم : خليفة محمود الذى صار

رئيسا للشعبة الخاصة بترجمة كتب الادب والتاريخ والقصص والجغرافية فى قلم الترجمة . واحمد عبيد الذى صار رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية . وابراهيم مرزوق الشاعر . وعبد الله ابو السعود الذى صار فيما بعد من اعلام الادب والصحافة فى عصره ، والسيد صالح مجدى الساعد الايمن لرفاعة فى تحرير صحيفة « روضة المدارس » ومترجم طائفة من المؤلفات العلمية فى الهندسة والفلك والرياضيات والقانون . ومحمد قدرى الذى نبه ذكره فى ترجمة قانون العقوبات وتقنينه ما فى الشريعة الاسلامية من نظم وقوانين فى الاحول الشخصية والاوقاف الى غيرها من المؤلفات التى لا تغيب عن ذاكرة محام أو قاض أو رجل من رجال الشرع .

وهناك فئة اخرى تجلت مواهب أفرادها فيما بعد ومنهم : محمد مصطفى البياع ، ومحمد عبد الرزاق ، ومصطفى سيد الزرابى .

ورأى عباس الاول أن يبعد رفاعة عن مصر على أثر ظهور طبعة من كتابه « تخليص الابريز » الذى يحوى آراء ومبادىء لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، فنفاه الى الخرطوم بحجة الاشراف على انشاء مدرسة ابتدائية بها ، واختار محمد بيومى أستاذ الرياضيات فى مدرسة الهندسة ليعاونه فى مهمته ، وبعد أن قضى رفاعة سنوات ثلاثا فى السودان شغل نفسه خلالها بانشاء المدرسة وترجمة طائفة من المؤلفات الفرنسية عاد الى مصر عقب مصرع عباس واسترد زعامته العلمية وواصل تأدية رسالته .

• • •

لم تتناول يد الاصلاح الازهر ، فظل قائما على نظامه العتيق ، محتفظا بشخصيته المستقلة وبمبادئه الخاصة فى التفكير ، بعيدا عن حركات التجديد والانشاء والتعمير . وقد أنكرت النهضة حظ الازهر ولم تعطف عليه فتضاءل نفوذ شيوخه وزالت هيبتهم وضعفت كلمتهم وأقصوا عن الاشتراك فى حركة التقدم والاصلاح .

وقد كان الازهر موطن النهضة القومية ومصدر الزعامة الشعبية وموئل الحياة الدينية ومنبع كل حركة ثقافية فى العالم الاسلامى ، وقد برزت قوته فى كل حالة احتكت فيها مصر بالاجنبى . وفضلا عن هذا وذاك فقد غذى الازهر النهضة العلمية فى بداية نشوئها وأمد الكنانة بطائفة من زعماء الاصلاح الذين شيدوا صرح النهضة القومية ،

وكان طلابه نواة مدارس الطب والهندسة والالسن ، وكان منهم شباب البعوث العلمية الذين قامت على أكتافهم دعامة مصر الحديثة، بل أن الذين اضطلعوا بقسط وافر من ترجمة المؤلفات الطبية والهندسية والفنية ، والذين أسهموا فى بعث التراث العربى واخراج الموسوعات والكتب والمراجع التى تولت مطبعة بولاق نشرها من رجال لازهر .

وكان نظار المدارس ومدرسو اللغة العربية وعلوم الدين والحساب ينتخبون من بين رجال الازهر ، وقد ظل تأثير الازهر الروحى مسيطرا على دور التعليم الحديثة ، فان كتب تعليم اللغة وقواعدها من نحو وصرف وبيان وأصول الدين كانت هى نفسها الكتب التى تدرس فى الازهر .

هذا الى أن الازهر كان لا يزال يجذب اليه مئات الطلاب لا من مصر فحسب ، بل من أرجاء العالم الاسلامى ، تستهويهم الثقافة الدينية الخالصة ويلقون فى رحابه من الحرية الشخصية ما لا يجدونه فى المدارس حيث كان النظام السائد فيها لا يختلف عن النظام العسكرى .

ثم أن الازهر يحمى طلابه من الجندية ، وقد كانت الجندية بغيضة الى قلوب السواد الاعظم من الشعب ، وطالما عمد الفلاح الى سمل عينيه أو كسر أصبعه أو تشويه عضو من أعضاء بدنه حتى لا ينجح فى الكشف الطبى للانخراط فى سلك الجندية .

هكذا تضاءل نفوذ الازهر واختفت زعامته من الميدان ، بسبب انتقال مركز الثقافة الى المدارس التى أخذت تمد البلاد بطبقة من المتعلمين الذين اضطلعوا بأعباء الحياة العامة ، وظل الازهر على حاله ملازما جموده دون أن تبدو من رجاله بادرة توحى بمسايرة النهضة مسايرة تذكر .

ويبدو لنا أنه كان لشخصية كل من الشيخين العباسى والعروسى دخل فى التغيير الذى طرأ على الازهر . ففى عام ١٨٧١ استصدر شيخ الازهر قانونا قصد به رفع مستوى الاساتذة والطلاب والزامهم بترقية مداركهم ومعلوماتهم توطئة للسير بهم فى مضمار الحياة الاجتماعية . وأهم ما حواه هذا القانون : تحسين حال الاساتذة بتقرير رواتب ثابتة لهم وتعديل برامج الدراسة بادخال العلوم العصرية ، واداء الطلبة لامتحان عند اتمام الدراسة ومنحهم شهادة العالمية .

وأراد الشيخ العباسي أن يبعد عن الازهر العناصر التى لا تتميز بالكفاءة والجدارة ، وأخذ التنافس والتشاحن على الامور التافهة يتلاشى بعد أن كان شائعا بين الطوائف الازهرية وتركزت الادارة فى يد شيخ الجامع ، بيد أنه قام خصم عنيد قوى لحركة الاصلاح ، ذلك هو الشيخ محمد عليش فرفع لواء المعارضة والتف حوله خصوم الاصلاح ، وكانت حجتهم أن الاصلاحات القليلة التى أدخلت الى الازهر مدنسة لحرمة هذا المكان المقدس .

وعلى الرغم من هذا وذاك فقد أقصى الأزهر عن محيط النهضة وتحرر التعليم الحديث فى المدارس من نفوذه ، فلم تعد الحكومة بحاجة الى خريجيه لتعليم النشء قواعد اللغة ومبادىء الدين فى المدارس ، وأسست معهدا راقيا هو « دار العلوم » وجعلته بعيدا عن نظام الازهر وتقاليده ليكون منه مدرسين للغة والدين وقضاة فى المحاكم الشرعية . وبدأ خريجو دار العلوم يزاحمون الازهريين فى وضع كتب النحو والدين بأسلوب يتفق وحاجة العصر فى التربية ، ويشغلون مناصب ، محررين ومصححين فى المطابع ، وبذا انقطعت الصلة بين الازهر وبين التعليم الحديث .

• ● •

ولم تلتفت مصر الى احياء فن الطباعة ، واستخدامه فى نشر الوان المعرفة الا بعد عشرين عاما من استرداد الحملة الفرنسية لأدوات الطباعة التى جلبتها معها الى مصر . ففى نهاية عام ١٨١٩ اسست مطبعة بولاق لنشر ما يحتاجه الجيش من كتب التعليم والتدريب ، واذاعة القوانين واللوائح العسكرية والادارية ، ثم اتسع نطاق العمل شيئا فشيئا فبدىء بطبع مجموعة من الكتب التركية والفارسية ، ثم توسعت دار الطباعة فى نشر مؤلفات شتى فى قواعد اللغة العربية والطب والصحة والرياضيات والطبيعة والكيمياء والزراعة والنبات والتاريخ والجغرافية والفلسفة والمنطق والفقه والدين .

ووقع الاختيار على طائفة من علماء الازهر بصفة « مصححين » لمراجعة هذه الكتب قبل الطبع وضبط الفاظها ومصطلحاتها وتقويم أسلوبها ، وليس من شك فى أن هؤلاء المصححين امتازوا فى عصرهم بثقافة أوسع من معاصريهم ، وقد اقتضاهم عملهم بين الكتب والمحابر والأقلام الاطلاع على أشتات من الكتب المترجمة فى شتى الفنون ومراجعة الكتب المخطوطة فى التاريخ والادب واللغة والفقه

او نسخها وتصحيح ما حرف منها عند النسخ ، فاتسعت بذلك آفاقهم وتنورت مداركهم ، وقد دفعهم هذا العمل الى أن يذيلوا خاتمة كل كتاب بتعليق أو نظم قصيدة فى الغرض الذى وضع الكتاب من أجله ، فجرت بذلك أقلامهم ومرنوا على الانشاء والكتابة فى عصر عز فيه الادب وندر فيه الكاتب النابغة . وقد جاهد هؤلاء المصححون فى نشر أشتات من المخطوطات القيمة ، ولقوا فى تصحيحها ونسخها عنتا وعناء .

وكان انتاج مطبعة بولاق فى بادىء الامر عسكريا وتعليميا ، ثم تدرج الى نشر بعض الكتب الموضوعة واحياء التراث العربى ، وكان لمدرسة الالسن الفضل الاكبر فى تغذية دار الطباعة بطائفة من الكتب المترجمة ، منها ما يبحث فى تاريخ أوربا أو أحوالها السياسية والاجتماعية أو نظمها الادارية ، ومنها كتب أخرى فى شتى الفنون والمعلومات العامة . أما أسفار الادب والموسوعات وأمهات المظان والمراجع وكتب الفقه ودواوين الشعراء فقد تأخر طبعها . ويمكن أن تعد سنة ١٨٣٣ بداية نشر وتداول هذه الاسفار والكتب .

وفيما عدا مطبعة بولاق كانت توجد مطابع متناثرة هنا وهناك تملكها الدولة منها : مطبعة المدفعية فى طرة ، ومطبعة مدرسة الطب فى أبى زعبل ، ومطبعة الفرسان فى الجيزة ، ومطبعة القلعة ، ومطبعة رأس التين بالاسكندرية وعدة مطابع حجرية بعضها تابع لوحدات الجيش والآخر للوحدات العسكرية .

وليس من شك فى أن ادخال الطباعة الى مصر قد أحدث أثرا ولكن ليس كالاثر الذى أحدثته المطبعة فى الغرب ابان عصر النهضة ، ولم تزد المطبعة على أن يسرت للدولة نشر ألوان التعليم بين العسكريين وطوائف المدنيين فى المدارس ، وعممت التوسع فى العلم لطبقات الراغبين فى الاستزادة منه ، وحفظت للتاريخ أخبار الوقائع والاحداث الجارية ، ومهدت السبيل الى مطالعة مؤلفات بعضها فى الفقه والتفسير والآخر فى الادب والقصص حتى أحس القراء أن وراء المخطوطات الضئيلة العدد التى كانت متداولة بين الخاصة منهم ، عالما يمور بالصور والافكار والالوان بعثته المطبعة فمنهم من ساير النهضة وآزرها بكل ما يملك من شباب وقوة ، اذ أدرك انها ستكون أداة فى نشر ألوان المعرفة ووسيلة للتطور الذهنى ، ومنهم من وقف حائرا متشككا .

وفى وسعنا أن نحكم بوضوح على فضل الطباعة على الادب اذا

عرفنا انه للمرة الاولى فى تاريخ العربية، صار الادب قديمه وحديثه فى متناول راغبيه ، ونعنى بذلك أن الفنـون الادبية أصبحت دانية القطوف بعـد أن كانت مؤلفاتها نادرة الوجـود ، باهظة التكاليف والثمن ، أكثرها من المخطوطات التى تقتنيها طبقة خاصة .

وبدلا من أن تكون المطبعة أداة فى فقد التوازن بين الافكار التقليدية الشائعة وبين فكر مستقيم منظم يبعثه احياء تراث العرب وظهور طائفة من المؤلفات العلمية والادبية وغيرها مما نقله شباب العلمـاء مع ما نقلوه من ألوان الحضارة الغربية ، فان المطبعة أسرفت فيما بعد فى نشر الادب الوليـد الذى توفر أصحابه على صناعة جمع الكلمات وتفريقها ورص الالفاظ على طريقة الرموز والطلاسم .

وكانت الصبغة التى اتسمت بظهور المطبعة توفر لفيف من الكتاب المقلدين على الانتاج التافه ، وهؤلاء الكتاب أخذوا يستمدون قوام حياتهم الادبية من بطون الكتب وصحف الاولين ، مرددين النغمـة نفسها دون ابتكار أو توليـد حتى قضى اتصالهم بالادب القـديم وخضوعهم لتقاليده على كل نهضة فكرية تحريرية كان من المنتظر تحقيقها كما جرى فى الغـرب عقب انتشار الطبـاعة وازدهارها .

ولكن ليس هذا معنـاه أن المطبعـة وأدت المـواهب وقضت على الكفايات أو أنها صرفت الشباب عن استغلال المحصول الفكرى الذى حصلوا عليه من معاهد الغرب . كلا ! بل أن البعض منهم حين نقل الى العربية عشرات الكتب والاسفار أحدث انقلابا طفيفا من الوجهة التفكيرية واكتسبت اللغة من المعانى والالفاظ ومن حرية ابداء الرأى ما صقل بعض المعتقدات وهذب من حواشيها .

واصلت دار الطباعة ببولاق تأدية رسالتها ، ولقيت عقبات فى أيام الوالى سعيد وعطلت أعمالها الى أن وهبها هدية الى أحد موظفيه — عبد الرحمن رشدى مدير الوابورات الميرية فى البحـر الاحمر — بما فيها من الآلات والادوات والورق والحبر . بيد أن هذا الموظف لم يحسن استغلالها فأعادها الى الدولة . ثم تقدمت دار الطبـاعة فيما بعد وأدركت شأوا بعيـدا حتى أصبحت تضارع مثيلاتها فى الغرب حين تولى ادارتها حسين حسنى الذى كان له الفضل فى النهوض بها ، واستيعابها طبع كل ما تحتاجه الوزارات والمصـالح الحكومية والمدارس الى جانب تلبيتها طلبـات الجمهـور . وأسس حسين حسنى الى جانبها مصـنعا للورق يغذى دوائر الحكومة ويصـدر الفائض منه الى الشام والحجاز والهند .

وتوسعت المطبعة فى متابعة اخراج أسفار الادب والتاريخ والفقه، كما كانت هناك هيئة أدبية باسم « جمعية المعارف » تضم ٦٦٠ عضوا من علماء الازهر ورجال الادب والعلم والصحافة بقصد احياء آثار الادب العربى القديم وتيسير نشره بين القراء واليها يرجع الفضل فى تغذية دار الطباعة ببولاق بنحو ثلاثين سفرا من أمهات المراجع والمظان وكتب اللغة والادب .

وأقدم الانبا كيرلس بطريق الاقباط على تأسيس مطبعة فى عام ١٨٦٠ جلب أدواتها من أوربا واختار لها بضعة شبان تدربوا على فنون الطباعة بمطبعة بولاق ، واحتفل بوصول أدوات هذه المطبعة الى القاهرة فى احتفال شائق فحملت على الاعناق فى موكب سار فيه القسس والشمامسة بالشموع . وأطلق عليها اسم « المطبعة الاهلية القبطية » وخصصت للمطبوعات الدينية ثم للكتب الادبية والصحف .

على أن الاقدام الشخصى لم يلبث أن برز فى الميدان ، فتأسست مطبعة جريدة وادى النيل فى عام ١٨٦٦ وكانت تطبع فيها الى جانب الجريدة مجلة روضة المدارس ومجلة أركان حرب الجيش ، ثم تعددت المطابع على أثر اطلاق حرية المطبوعات فقامت فى القاهرة مطبعة جمعية المعارف والمطبعة الوهبية ، ونشرت الكثير من المؤلفات والصحف والمجلات .

• ● •

وأسس على مبارك دار الكتب المصرية على نسق المكتبة الاهلية بباريس وسن لها اللوائح والقوانين التى تكفل بقاءها ونموها، وأقام الى جانبها مطبعة حجرية ، واشتغل هو ومن معه فى التأليف والترجمة وتغذية هذه المكتبة وتلك المطبعة بثمرات قرائحهم .

ولم يكن فى مصر قبل ذلك دور عامة للكتب ، ولكن كان فى كل مسجد مكتبة خاصة تحت اشراف شيخ المسجد ، فمكتبة الازهر مثلا كانت تشمل عدة آلاف من المؤلفات الدينية ، وكذلك كان الحال فى المكتبات الملحقة بمساجد أبى الذهب وأزبك وشيخون ، وكانت جميعا تستخدم فى الدرس والتدريس .

وكانت هناك مكتبات خاصة أكثر منها عامة مقرها ديوان المدارس وفى دور التعليم لكنها كانت موضوعة لمنفعة المدرسين والطلاب ، فلما أنشأ على مبارك دار الكتب المصرية فى سراى درب الجماميز نقل اليها أشتاتا من الكتب والمخطوطات التى كانت متناثرة

فى المساجد والتكايا وخزانة الاوقاف الاهلية وما عثر عليه فى مستودع للكتب تملكه الدولة فى بيت المال وبعض المكتبات الخاصة، وفتحت الدار أبوابها لعشاق البحث فى ٢٤ سبتمبر ١٨٧٠ ويسرت لهم الاطلاع والمطالعة .

وعلى مبارك يعد بحق أبا للمعارف المصرية وباعث نهضة التعليم، ومع انه لم يدرس على نظام مدارس المعلمين فقد خلق بفطرته مربيا للجيل ، فجاهد فى سبيل تكوين ثقافة قومية وترقية البيئة ،وكان يميل الى أساليب التعليم الغربى فاقتبس النظم السائدة فى مدارس فرنسا وعمل على تمصيرها ففاقت خطاه جميع الذين سبقوه وعاصروه .

وكان على مبارك ساخطا على نظم الازهر ، نافرا بطبعه السليم من أساليب التعليم فيه ، وشاركه سخطه عبد الله فكرى وعثمان جلال ،فأقدم على تأسيس « دار العلوم » ودعا الازهريين المستنيرين الى الالتحاق بها ليتفقهوا ويتزودوا من العلم على الطريقة العصرية ثم يتخرجوا ليعلموا النشء تعليما خاليا من الخرافات ، وليكون لهم حظ موفور فى تهذيب البيئة ونشر الفصحى بين المتعلمين .

وكان مؤمنا بضرورة التأليف والتوسع فى استيعاب المعارف العامة ، فاستخدم مواهبه فى تنفيذ هذه الرغبة وتحقيقها ، وكانت داره بمثابة ندوة يؤمها الكتاب والشعراء والطبقة المستنيرة ، فأخذ يبث فيهم النزعة العلمية والطموح الى المجد ، ويحضهم على تأليف الكتب وتصنيف الموسوعات ويشرف على التنفيذ اشرافا أقرب ما يكون الى تدوينه بنفسه فخلق بذلك مدرسة للفكر والتأليف فى مختلف فروع الآداب والفنون .

ولم يكن على مبارك من كتاب الانشاء حتى يخشى أن يضيع مجهوده فى تصيد الالفاظ المهجورة واحتذاء أساليب الاولين وانما كان رجلا عمليا منتجا ، له نظرات صائبة فى التجديد وفى اقتباس العلوم العصرية كما يتضح فى مؤلفه الموسوم بعنوان « علم الدين » الذى يجمع الى الاسلوب العلمى والاخلاقى نخبة صالحة من المعلومات والمعارف العامة .

على أن عمله لم يقتصر على نشر روح العلم بل تعداه الى وضع موسوعة بعنوان «الخطط التوفيقية» جمع فيها تاريخ مصر وآثارها وجغرافيتها فى العصور القديمة والحديثة . ويعد الكتاب من هذه الناحية تكملة لخطط المقريزى ولكتاب « وصف مصر » الذى وضعه

علماء الحملة الفرنسية . فضلا عن انه يحتوى على أوصاف شاملة لمدن مصر وعواصمها وقراها فى أطوارها التاريخية ، ثم بيان ترعها وسواحلها وتخطيط كامل لأحيـاء القاهرة والاسكندرية مع تدوين تراجم البارزين من الوجوه والحكام والشعراء والادباء فهو من هذه الناحية أيضا تتمة لكتاب الجبرتى فى تاريخ مصر .

وكان أثر زميله عبد الله فكرى فى اصلاح التعليم أعظم من انتاجه فى مضمار الادب ، فعالج النقص المتفشى فى المدارس ، واشـترك فى وضع لائحة التعليم ، وتوفر على وضع طائفة من الكتب المدرسية التى جمع فيها فصولا تهذيبية راقية . وعلى الرغم من أن له آثارا فى الشعر والنثر ، غير أن نبوغه كشاعر يشار اليه ويحتذى به لم يظهر ظهورا واضحا اذ كان شعره ضعيفا فاترا ، يكثر فيه الجناس والتورية والمحسـنات اللفظيـة ، أما نثره فينسب الى المدرسـة الديوانية ، تلك المدرسة التى قامت دعوتها على التبشير بالاساليب الانشائية والرسائل الاخوانية والمقامات الوصفية ، فنهضت بأسلوب الكتابة الرسمية ، وأصلحت لغة الدواوين ، وأصبحت رسائلها قدوة مرموقة لكل أديب يتطلع الى مراكز التحـرير والانشاء فى دواوين الحكومة ويبتغى الحظوة عند الحكام ، كما كانت نموذجا لما يجب أن يتميز به الاديب من الاحتفال للمعنى وتركيب اللفظ وتوشيته .

• • •

ولم يكن للمسرح شأن يذكر الا فى محيط الترجمة والاقتباس والتمصير ، ولم يعتبر مظهرا جـديا من مظاهر الثقافة الا بفضل الجهود التى بذلها محمد عثمان جلال ، اذ اتجه بتفكيره نحو الاقتباس عن الادب الفرنسى وثابر على تمصير بعض مسرحيات موليير فى لهجة مبسطة لتكون أدنى الى الافهام .

كان محمـد عثمان جلال ابن المدرسة الحـديثة ، فلم يتتلمذ فى الأزهر ، وانما تلقى علومه فى المدارس ، ثم التحق بمدرسة الالسن وتتلمذ بصفة خاصة على ناظرها رفاعة الطهطاوى ، ثم استهل حياته الادبية على صفحات مجلة « روضة المدارس » تحت اشراف على مبارك فعهد اليه بتحرير قسم عنوانه «كتاب النكات وباب التياترات» وكانت فيـه نزعة فطرية لخـدمة الادب ، فتفرغ لنظم الشـعر ، وساعده على ذلك تعمقه فى اللغة الفرنسية ، واطلاعه الواسع على آدابها ، على تهذيب أسلوبه العربى .

وكان يميل بفطرته الى فن الرواية والمسرح ، فهجر الشعر وانصرف الى صياغة القصص ، ويبدو لنا انه لم تكن لديه القدرة على الابتكار فى التأليف ، فاستعاض عن هذه الموهبة بترجمة نخبة صالحة من عيون الادب الفرنسى ، فاقتبس عن موليير وراسين ولافونتين وأسبغ على آثارهم مسحة مصرية خالصة ، فقد كان الى جانب براعته فى فنون الادب ملما بأخلاق مختلف طوائف الشعب ، بصيرا بعوائد الطبقات وتقاليدها ، فجاءت مسرحياته قطعة حية من المجتمع المصرى ومن البيت المصرى .

وقد يعاب على عثمان جلال اختياره اللهجة الدارجة أداة للتعبير ، ولكن الواقع أن الفنان يرى اللهجات أمامه كالالوان يأخذ منها مايروقه وما يعجبه وما يمكنه أن يؤدى بها آراءه ويبسط بها وجهة نظره .

وعلى الضد من نزعة عثمان جلال العصرية ، نجد الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى يمثل الشق الآخر من الحياة العقلية ، كانت ثقافته أزهرية خالصة ، فتجلى نشاطه فى دائرة العلوم اللغوية والفقه والادب ، وقد تصدر التدريس فى الازهر زمنا وحاول أن ينفخ فى طلابه قبسا من روحه ليناهضوا معهد دار العلوم ، ويعيدوا الى الجامعة الاسلامية المصرية سؤددها ومجدها ، وكانت شخصية الابيارى الادبية أقوى من تفكيره ، فذاعت شهرته فى البلاد العربية وراسله ادباؤها .

ويعتبر المرصفى صاحب الوسيلة الادبية حلقة الاتصال بين القديم والجديد ، ورسول التوفيق بين المحافظين والمجددين ... كانت له اليد الطولى فى تكوين بيئة أدبية راقية ، فوجه الاذهان الى تراث العرب ، وهدى مريديه الى الموازين الصحيحة لفن النقد ، والى أصول الذوق الادبى ، وكان لا يفتأ يحضهم على وجوب الاحتفال للمعنى اذ أن اللفظ مجرد أداة لا ينبغى أن يستهلك المعنى فى سبيله .

والى ابراهيم المويلحى امام المجددين فى عصره ، وأحد مؤسسى « جمعية المعارف » يرجع الفضل فى تغذية النهضة بالمعانى المستطرفة ، وبعث أفانين البلاغة ، وتجديد ما درس من معالم البيان .

وقد نما ميل المويلحى الى الادب والشعر بين مشاغل السياسة والادارة ، وتقلب فى أعمال مختلفة بين تجارية وعلمية وصحفية ، بيد انه استطاع أن يشق لنفسه طريقا وسطا ، يعاونه فى ذلك

سليقة مكتسبة وموهبة نادرة ، فشرع أسلوبا لم يكن للجيل عهد به ، ونهج فى تدبيج المقالات نهجا مبتكرا ، وعلم الادباء كيف يرقون بلغتهم الى مرتبة رفيعة من مراتب البلاغة والانشاء ، وكيف يودعون كتاباتهم أسرار البيان والبديع .

وكان قلم المويلحى كالسوط اللاذع ، فنقد المجتمع بقسوة ، وتحامل على حكومة السلطان عبد الحميد ، وحمل حملات شعواء على سياسة الدولة العثمانية .

• • •

وفيما عدا الطباعة التى ساعدت على غرس البذرة الاولى فى محيط التثقيف الشعبى فان الصحافة الدورية مثلت دورها فى تكوين الثقافة وتنشئة الرأى العام .

ولم تستطع صحيفة « الوقائع » التى صدرت فى ٣ ديسمبر ١٨٢٨ أن تؤدى رسالتها الصحفية الا بعد سنوات حين تولى تحريرها رفاعة الطهطاوى يعاونه نخبة من فحول المنشئين كالشيخ احمد عبد الرحيم واحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين ، وبدأت الصحيفة تتمصر بعد أن كانت تركية الصبغة ، وتتخذ لونا مبتكرا مشوقا أقرب ما يكون الى الصحيفة اليومية ، وبعد ان كانت تصدر فى صورة مضطربة صارت تصدر أسبوعية وتشمل موضوعات فى الادب والعلم والسياسة وتوسعت فيما تنتقله عن صحف الغرب .

ثم عطلت الوقائع فى عهدى عباس وسعيد ، وأصدر عبد الرحمن رشدى لحسابه الخاص بضعة اعداد منها الى أن عاد احمد عبد الرحيم الى رياسة تحريرها بالاشتراك مع مصطفى سلامه ومحمد عبده وسعد زغلول وصارت تصدر مرتين فى الاسبوع وتهتم بنشر محاضر مجلس شورى النواب والانباء الداخلية وحفلات سباق الخيل والانباء الخارجية وترجمة برقيات وكالات الانباء .

وأصدرت وزارة المعارف صحيفة « روضة المدارس » فى بداية عام ١٨٧٠ لغرض احياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة بين الطلاب ، وأسند تحريرها الى رفاعة الطهطاوى يعاونه نخبة من أعلام الفكر والادب ومنهم : على مبارك وعبد الله فكرى ومحمد قدرى واحمد ندا ومحمد عثمان جلال وحسونه النواوى وحمزة فتح الله وعبد الهادى نجا الابيارى وصالح مجدى . وصارت هذه الصحيفة صورة ناطقة للحياة العقلية ومثالا واضحا لجهد طائفة من العلماء كانوا يتبارون فى مضمار الرياضيات ، وقد ساعدت على بث

روح البيان فى نفوس النشء ، وظهرت باكورة انتاج المدرسة الحديثة فى الشعر على صفحاتها ، كما كانت تقوم على نشر ما يهم المدارس من الانباء فتذيع أسماء نوابغ الطلاب والتقارير عن حالة التعليم .

ونهض الافراد باصدار الصحف السياسية التى تولى تحريرها طائفة من العلماء والمفكرين والادباء . ولا يخفى ما كان لهذه الصحف من الفضل فى انارة البصائر والافكار وتوجيه الانظار الى العناية بالشئون العامة ونقد الأعمال الضارة التى تصدر عن الحكومة ومناهضة التدخل الاوربى فى الشئون المالية والداخلية ، فكانت بهذا وبغيره أداة لظهور الرأى العام ومن العوامل التى ساعدت على نمو حرية التعبير فى الامور السياسية ، كما كان لها الفضل فى نشر العلوم والمعارف وتهذيب لغة الكتابة .

وفى طليعة الصحف التى أصدرها المصريون : وادى النيل فى عام ١٨٦٧ لصاحبها عبد الله ابو السعود وكانت فى حجم المجلات الشهرية . والوطن فى عام ١٨٧٧ لصاحبها ميخائيل عبد السيد ، ونزهة الافكار فى عام ١٨٦٩ لصاحبيها ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال .

ومن العوامل التى تعزى الى انتشار الصحافة بين مختلف طبقات الشعب ، انه لما نشبت الحرب بين الامبراطورية العثمانية وروسيا « ١٨٧٧ » وجد الجمهور لذة فى الاطلاع على أنباء هذه الحرب وتطوراتها للاطمئنان على موقف الدولة صاحبة السيادة الروحية والسياسية عليهم من دولة أخرى لا تمت اليهم بصلة من الصلات . وانقسم المواطنون بسبب هذه الحرب الى فريقين : الناقم عليها والمناصر لها . وكثر الجدل والنقاش حول ذلك فى المجتمعات والاندية وهو أمر كان الشعب يتهيبه من قبل ولا يجرأ على المكاشفة أو المصارحة به فى الجهر .

وسهل جلب صحف أوربا الى مصر ووجود جاليات أجنبية بها تهافت الصحف المحلية على نشر الانباء والتعليقات المختلفة عن هذه الحرب ، فأقبلت صحف الاسكندرية على تغذية قرائها بالانباء . ولما كانت معظم هذه الصحف أسبوعية فقد عمدت الى أصدار ملاحق يومية تفيض ببرقيات وكالات الانباء حتى يقف الرأى العام على أهم الاحداث العالمية .

على أن المهم أن الصحف العربية لم تقتصر على سرد أنباء الحرب وحدها بل أن البعض منها تمادى فى التعليق عما عليه سائر الامم والشعوب من ألوان الحكم وأساليب الحياة وخلصت من ذلك الى

المقارنة بين ما عليه حال الامة المصرية ونقد أحوال الحكومة المالية والادارية ، ثم خرج الاحرار من ذلك الى اعلان تبرمهم بسياسة الخديو فى سلسلة نشرات تروى فضائحه ومباذله .

والواقع أن سنة ١٨٧٧ كانت نقطة التحول فى تاريخ حرية الرأى العام . اهتم المصريون بالحرب التركية ـ الروسية لانها كانت تهدد سلامة الامبراطورية العثمانية التى تدخل مصر ضمن دائرتها . وكان من المفهوم بداهة أن أقل هزيمة تصيب الدولة العلية ستفضى حتما الى الاعتداء على مصر وتغيير مصيرها السياسى . . ووعت الطبقة المثقفة آراء الأفغانى التى ترمى الى تحديد مركز الحاكم وتسفيه الفكرة الشائعة من ان الشئون الخاصة والعامة هى ملك الحاكم المطلق ولا ينازعه فى سلطته أحد ، وهضم المتعلمون ما تلقوه فى المدارس ومعاهد الغرب وما طالعوه من أشتات المؤلفات الاجنبية ، فنشأت من ذلك حركة قوية اصطدمت فيها أفكار مصرية تقف موقف الدفاع عن وطنها بأفكار أوربية استعمارية تقف موقف الطمع والهجوم ، وكان سلاح كل من الفريقين الصحف ، يدافع بوساطتها عن نظريته ويبسط فكرته .

ومن الصحف التى آزرت الشعب فى مواقفه وفى كفاحه المجيد جريدة « مصر » لسان حال الوطنيين لصاحبها أديب اسحق فى عام ١٨٧٧ وقد عرفت بمقالاتها الحماسية الضافية فى تعريف معنى «الوطنية» وبيان مزايا الحرية ، وهى الصحيفة الاولى التى وردت فيها عبارة « مصر للمصريين » . وكانت هى وشقيقتها « التجارة » من أركان النهضة الانشائية فى الصحف ، وقد أديا أجل خدمة للحركة القومية . وتقريبه الى الافهام ، وقد احتذاهما الكتاب ونسجوا على منوالهما وكان القائمون على تحريرهما يعنون بتهذيب العبارة واتساق المعنى فتحرروا من التعقيد والسجع والتوشية الى الاسلوب المبسط ، وانتقلوا من العبارات الركيكة الى الرشاقة والطلاوة فأحدث ذلك حركة فى الافكار وحرية فى التعبير لم تكن معروفة من قبل . وكانت هذه الصحيفة تنقد بصفة خاصة سياسة وزير الداخلية مصطفى رياض نقدا عنيفا فوجهت الحكومة اليها الانذار تلو الآخر وأخيرا عطلتها واضطر صاحبها الى مغادرة مصر الى باريس .

وليعقوب صنوع المعروف باسم « ابو نظارة زرقاء » أثر بالغ فى حركة الكفاح الشعبى ... استطاع أن يصور بقلمه مدى الظلم والعبث بحياة الافراد والجماعات ويحمل على الفساد والرشوة

والمحسوبية ويقدم صورا فاضحة من الحكومة التى تسيطر على شئون المواطنين ، وبين أوزار الخديو وبطانته التى انتهت بانهيار اقتصاديات البلاد ، ثم لا يفتأ بشن حملات جريئة على تكميم الافواه ومصادرة الحريات .

وقد ولد يعقوب صنوع فى القاهرة وتلقى تعليمه فى ايطاليا وتأثر بروح الحرية وأساليب الحكم فى الغرب . فلما عاد الى وطنه عكف على تدريس اللغات الحية فى مدارس الحكومة ، والموسيقى والادب والرسم فى قصور العظماء والاعيان .

وأخذ يجرب قلمه فى معالجة التمثيليات ، وعزم على أن يقيم مسرحا قوميا وهو عمل فنى لم يسبقه اليه أحد فى مصر ... كان ذلك فى عام ١٨٦٩ أى فى العام نفسه الذى أنشئت فيه دار الاوبرا ، فكون أول جوق مصرى من الهواة ووضع سلسلة مسرحيات قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحينا شعبيا ، ومثلها أمام باشوات القصر والوجوه فضحكوا لها من أعماق قلوبهم وشجعوه على أن يعرضها على مسرح أقيم فى الهواء الطلق بحديقة الازبكية .

وكان انشاء مسرح عربى فى ذلك العصر يعد مجازفة خطرة بسبب تفشى العناصر الرجعية وتزمت المتدينين ، ولكن مصر فى غضون هذه الحقبة كانت مقبلة على عصر جديد وكانت تسير فى ركاب الغرب وتصطنع حضارته وتقتبس فنونه ، فقام مسرح صنوع الانتقادى بعرض أثنين وثلاثين تمثيلية فى خمسمائة حفلة ، وكان صنوع هو المؤلف وناظم الاغانى والملحن والموسيقار والمخرج والملقن .

على أن الخديو وان أبدى اعجابه بالمسرح الوليد وخاطب صاحبه بقوله : نحن مدينون لك بانشاء مسرحنا الوطنى .. ان كوميدياتك وتمثيلياتك قد أوضحت للشعب ما هو الفن المسرحى » ولقبه بموليير مصر « وان اسمه سيخلد » . الا انه لم يمهله طويلا بسبب غمزات صنوع لمساوىء الحكم ومعالجة المشكلات الاجتماعية التى تعانيها مصر .

والواقع أن هذا المسرح كان المتنفس الوحيد للاحرار ، وكان يختلف اليه جمهور الساخطين المتبرمين بسياسة الطغيان ، فضاق الخديو ذرعا بهذه الدعاية المسمومة وأصدر أمر باغلاق أبواب المسرح والقضاء على « الكلمة المجسمة » التى تنبعث من فوق خشبته .

وظلت الافكار حبيسة فى صدر صنوع وعز عليه أن يعطل قلمه ولسانه ، وكانت حركة الافغانى قد نمت وأتت أكلها وامتدت جذورها فى أعماق المجتمع ، فاتصل صنوع بزعامة الرأى العام . . كان يدرك قيمة الكلمة المطبوعة وتأثيرها فى العقول ، فاتفق مع الافغانى ومحمد عبده على اصدار صحيفة باللهجة الدارجة التى يستوعب الشعب معناها ومرماها ، وتنطق بلسان الطبقات الشعبية وتدافع عن حقوقها وتعمل على تنوير أفكارها .

وهكذا صدرت صحيفة « ابو نظارة زرقاء » الواسعة النفوذ والانتشار ، وتجلت على صفحاتها مقدرة صنوع الصحفية ونقده اللاذع لمساوىء الحكم وتصويره مدى الظلم والعبث بحياة الافراد والجماعات والتنديد بأعمال الحكومة : من تفشى الرشوة والمحسوبية وتغلغل الفساد فى جهاز الدولة ، ومعالجة المسائل العامة ، بأسلوب يفيض سخرية وتهكما .

وقد انزعج الخديو وبطانته وتبرموا بمسلك هذه الصحيفة لا سيما وان نقدها كان يجد استجابة وهوى فى نفوس مختلف طوائف الشعب ، مما حمل الخديو على أن يدبر مؤامرة لاغتيال صنوع تحت جنح الظلام ، فلما فشل فى ذلك حاول أن يعصف بالصحيفة، الا أن صاحبها كان قد اتخذللامر عدته فتجنس بالجنسية الايطالية واحتمى بظل الامتيازات الأجنبية . ولم يكن صنوع بأول صحفى احتمى بدولة أجنبية ، بل لقد سبقه الى ذلك صحفيون كثيرون حتى يأمنوا بطش الخديو وبطانته وحكومته . وأخيرا رأى الخديو أن يطلب الى حكومة ايطاليا نفى صنوع من مصر ، فغادر القاهرة فى أواخر يونيو ١٨٧٨ الى ايطاليا ففرنسا ، ومن غرائب الاتفاق أنه تنبأ بعزل الخديو بعد سنة ، فعزل ونفى من مصر فى أواخر يونيو ١٨٧٩ .

حط صنوع رحاله فى باريس ، واتجه الى الصحافة يواصل رسالته من منبرها فكتب فى صحف عربية منها : ابو نظارة وابو صفارة وابو زمارة والحاوى والثرثار والنظارات المصرية الخ . وكان يحمل على صفحاتها حملات شعواء على الخديو ويتعقبه فى منفاه بنشر مخازيه ومآثمه ، وهاجم حكم توفيق لان عزل سلفه لم يقض على المفاسد والشرور والاثام اذ احتفظ العهد الجديد بكل شرور ومفاسد وآثام العهد القديم .

وصار صنوع يتحايل على ادخال صحفه الى مصر بطرق ملتوية. اذ كانت الحكومة قد أصدرت أمرا بمعاقبة كل من توجد فى حوزته نسخة منها بالسجن والغرامة ، ولكن على الرغم من عيون الحكومة كانت صحفه تصل الى قرائها ، وكان الاحرار يتلقفونها فى شوق ولهفة ويتهافتون على مطالعتها زرافات ووحدانا . وكان يتناول على صفحاتها نقد مساوىء الحكم فى قالب محاورات شائقة ونوادر ومقالات لاذعة موضحة بالرسوم الهزلية ، ويعمد أحيانا الى الكناية والتورية ، فأطلق على الخديو اسم « شيخ الحارة » وعلى السلطان العثمانى « شيخ التمن » وعلى رياض رئيس الوزارة « ابو ريضة » وعلى نوبار « غوبار » وعلى الخديو توفيق «توقيف» وأحيانا « الواد الاهبل » وعلى الفلاح « ابو الغلب » وعلى وادى النيل « وادى الدموع » .

ظل صنوع فى ديار الغربة ٣٢ عاما يواصل رسالته ويكافح حكم الطغاة المستبدين ويندد بالاستعمار ويأخذ بناصر الاحرار ، وكان لا يفتأ يردد بأن مصر للمصريين ولا ينى يكرر بأن صحفه هى لسان حال الامة المصرية الحرة ، الى أن كف بصره فأوقف اصدار صحفه ثم لحقت به الشيخوخة فالامراض فلفظ الروح فى عام ١٩١٢ ودفن بباريس ، بعيدا عن مصر التى أخلص لها ووقف عليها قلمه ولسانه وخطرات فكره .

• ● •

وكان أديب اسحق عقب نفيه واغلاق جريدتيه « مصر ــ والتجارة » قد لزم باريس بدوره واستأنف منها اصدار صحيفة « مصر القاهرة » وجعل شعارها : حرية ــ أخاء ــ مساواة . ونشر على صفحاتها سلسلة مقالات حوت الكثير من حدة مزاجه ويقظته الذهنية ، كما كانت تحمل طابع حماسته وتبرمه بسوء الاحوال فى مصر ، فتابع على صفحاتها نقد سياسة رياض ، واطماع الدول الاجنبية ودسائسها فى وادى النيل ، وحمل حملات شعواء على من أسماهم «ولاة النظام» ، وأخذ يثير بقلمه الحمية الاسلامية والنخوة العربية فى نفوس المصريين ويرفع عن عيونهم الغشاوة التى تركها حكم الولاة المستبدين « حتى يعلم أهل مصر بأن لهم حقا مسلوبا فيلتمسونه ومالا منهوبا فيطلبونه ، وليخرجوا عن خطة الخسف ، وينبذوا كل ظالم يغتال حقوقهم » . وكانت هذه الصحيفة تعبر عن آراء رجال الحزب الوطنى بزعامة محمد شريف وتفصح عن أمانى الاحرار فى مصر .

البعث القومى

شخصية مصر نتاج النيل ـ بين الوجدان الدينى والعاطفة الوطنية ـ مبدأ الدفاع المشترك ـ الجنرال يعقوب يضع أول مشروع لاستقلال مصر وسلخها عن الدولة العلية ـ دور المرأة فى الكفاح ـ خصوم الامة وخونة الشعب ـ السيادة والاذلال ـ جمال الدين الافغانى ـ دور الصحافة الحرة ـ انتصار الحرية على الاستعباد

استكانت مصر زمنا للحكم الاجنبى وتعاقبت عليها الوان من الحضارات والتقاليد ، الى جانب ما ابتليت به من الرزايا وما لحقها من المحن ، ولكن شخصية مصر القوية كانت تطوى الغريب تحت جناحها وتخضعه لعظمتها ، وتصقله بطابعها الخاص ، فلايلبث ان يصبح أسيرا لها بعد أن جاءها غازيا ومغيرا .

والامة المصرية فى كل عصر من عصورها هى نتيجة تطور اجتماعى واندماج بين سلالات امم غالبة ومغلوبة ولكنها برغم هذا الاختلاف فى النشأة اخذت تتأقلم وتتحد وتتجمع فى اوقات الشدة تحت راية موحدة وعقيدة راسخة ثابتة ، وتؤمن بمصلحة قومية مشتركة ، فمن العبث اذن ان نضع فواصل تاريخية أو عنصرية ، فان مجرى الحياة مستمر يمتزج فيه القديم بالجديد ، ويرتبط الماضى بالحاضر .

وقد انتقل العثمانيون ، ومن قبلهم الفرس والرومان الى ضفاف النيل ، وكذلك انتقلت معهم التقاليد والطقوس والاوضاع الاجتماعية الخاصة بهم ، بيد انها لم تؤثر تأثيرا مباشرا فى جوهر الحياة المصرية ولا استطاعت ان تصبغها بصبغتها ،اذ لم يكن هناك سوى شخصية مصرية مستقلة أخضعت الغزاة والفاتحين لسلطانها وبهرتهم بقوتها وجبروتها ، وهذه الشخصية هى نتاج النيل ، وثمرة هذه الارض الخصبة الغنية التى يأتيها النماء فى اوقات محددة ، وفوق هذا فهى اثر من اثار هذه الشمس المتألقة والسماء الصحو ، الصافية الاديم التى تظلل وادى النيل .

وجاء القرن التاسع عشر ، فكان فجره عصر النمو القومى وازدهاره لا فى مصر وحدها ، بل فى كثير من البلدان الشرقية ، فان الانسلاخ تدريجيا عن الدولة العلية ، صاحبة السلطة الروحية والسيادة الزمنية ، ثم انتشار التعليم باللغة العربية واقتباس الاساليب والانظمة الغربية فى السياسة والادارة والتشريع والاقتصاد ، وتسرب المبادىء

الديمقراطية ، وانتفاء روح التعصب الدينى والعنصرى ، كل ذلك كان فى طليعة البواعث التى مهدت السبيل لانبعاث الشعور القومى ..

على ان اليقظة القومية على ضفاف النيل كانت اقوى منها فى أى بلد عربى اخر ، فقد ترعرعت هذه القومية ونمت شيئا فشيئا .. غذتها الارزاء والمحن والنكبات التى نزلت بالوادى ، وقوتها الفتن والانقسامات والمشاحنات التى كانت تنشب من وقت لاخر بين المصريين وبين العناصر الدخيلة التى تتزعم الحكم ، ووطد دعائمها ضعف هذه العناصر نتيجة التكالب والتنافس على السلطان .

* * *

نعمت مصر زمنا طويلا بالاستقرار تحت ظلال الحكم العثمانى اللهم الا بعض انتفاضات قام بها العلماء ورجال الدين ، ولكنها لم تكن ذات اثر حاسم فى تغيير مجريات الامور ، وكانت لا تلبث ان تخبو أو تنفض بصلح أو ترضية ثم تمر العاصفة وليس فيها صفة المقاومة الجماعية .

ولم يثر المصريون ثورات دامية على حكامهم العثمانيين أو المماليك لا عن استكانة او رضوخ ، ولا رضاء بالهوان ، ولكن لان الحكم العثمانى لم يكن شديد الوطأة عليهم ، ولم يكن حكما مباشرا يمس حياة المصريين بسوء ويتدخل فى شئونهم الخاصة ، فالحكومة لا تضع يدها على كل شىء بل هى تترك للمواطنين من الحقوق والواجبات ما اكتسبوه على مر الزمان ، ولكل طائفة شيخها المسئول عنها ، فهو يحميها ويحسم مشكلاتها ويدافع عن حقوقها ، والحكومة لا عمل لها سوى جمع الضرائب والاتاوات المقررة وضبط الامن وحماية ارض الكنانة من غوائل فيضان النيل ومن اى اعتداء خارجى .

وفضلا عن هذا وذاك كان للوازع الدينى المقام الاول ، فكانت مصر تعيش فى ظلال الخلافة وتتكتل تحت رايتها ، والنزعة الغالبة على تفكير المواطنين هى العاطفة الدينية والرابطة الاسلامية ، وكان المصريون يحترمون اوامر الخليفة ويوقرون اتباعه من رجال الباب العالى اذ ان طاعة الخليفة وتأييده معناهما تأييد الاسلام واعلاء شأن الشريعة والوقوف صفا واحدا فى مواجهة الغرب ، او بالاحرى النصرانية فقد كانت الخصومة بين الاسلام والنصرانية خصومة تقليدية لا ينقطع أوارها ، وكانت من التراث الذى خلفته الحروب الصليبية .

اما المماليك فهم قوم انقطعت صلتهم بمنبتهم الاصلى منذ عشرات

السنين ، وصارت مصر بمثابة وطنهم الذى لا يعرفون سواه فتأقلموا واندمجوا شيئا فشيئا فى المجموع ، وصارت عادات مصر وطقوسها وتقاليدها وثقافتها ، هى عاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم وثقافتهم ، حتى ان الجبرتى لا يطلق عليهم الا «الامراء المصرلية» وانما الذى كان يميزهم عن عامة الشعب احتكارهم سلطة الحكم وقبضهم على زمام القوات العسكرية التى تذود عن البلاد ضد اى خطر قد يداهمها فى الظلام .

ومع ذلك نسمع بثورات صغيرة محلية قامت فى وجه هؤلاء الحكام ، فرض الشعب خلالها ارادته وذب عن حقوقه واستبسل فى الدفاع عن كرامته ، فمن ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة ١٢٠٩ من ان سكان احدى القرى فى بلبيس قدموا الى الشيخ الشرقاوى ليشكوا محمد الالفى بك ، فقد حاق بهم ظلم من اتباعه . وطالبوهم بما لا قدرة لهم عليه ، فانتفض الشيخ ونهض ليجمع العلماء ورجال الشرع فى الازهر ثم أوصد ابواب الجامع وامر التجار بغلق المتاجر والاسواق .

وعقد العلماء اجتماعا اخر فى بيت الشيخ السادات واكتظت الطرق والشوارع بالالوف ، فلما بلغ ذلك الاجتماع ابراهيم بك اوفد وكيله ايوب الدفتردار الى العلماء والمشايخ فوقف بين ايديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال المغارم والتكاليف التى ابتدعتموها وطوقتم بها الاعناق .. فأجابهم بان من الصعب تلبية هذه المطالب دفعة واحدة والا ضاقت المعايش والنفقات علينا ، فانبرى احد المشايخ وخاطبه بقوله :ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والامير يكون اميرا بالعطاء وليس بالاخذ

وانفض المجلس وعاد العلماء والمشايخ الى الازهر ، واجتمع سكان العاصمة وقضوا ليلتهم فى الجامع ، وخشى ابراهيم عواقب هذا التمرد فأرسل الى المشايخ يعضدهم فى موقفهم ويقول لهم : انا معكم وهذه الامور على غير خاطرى ومرادى ، وانذر شريكه فى الحكم مراد بك بسوء العاقبة ، فبعث مراد بك الى العلماء يقول لهم : اجيبكم الى مطالبكم عدا مكوس ميناء بولاق والتجاوز عن المنكسر من الجامكية ونبطل ما عدا ذلك من التكاليف والوان الظلم وندفع لكم جامكية سنة واحدة . ثم طلب اربعة من المشايخ فمضوا اليه فى قصره بالجيزة

وظل يلاطفهم ويلتمس اليهم السعى فى الصلح .

ورأى الوالى العثمانى فى المسألة انذارا بهبوب العاصفة فنزل من مقرد فى القلعة الى قصرابراهيم بك واجتمع به وبالامراء المماليك ودعوا العلماء الى الاجتماع فحضر المشايخ : السادات والشرقاوى والبكرى والامير ونقيب الاشراف وجرى نقاش طويل حاد بين ممثلى الشعب الذين دافعوا عن حقوقه وذبوا عن كرامته ، وبين الحكام ، ولم يقبل العلماء التنازل عن شرط واحد من مطالبهم واخيرا وجد الحكام الا مفر من قبول هذه المطالب والا انتفض الشعب وقام بثورة عارمة ، فحنوا رءوسهم للعاصفة ، واملى ممثلو الشعب شروطا تعد بمثابة وثيقة دستورية واول اعلان لحقوق الانسان .

ومن بين هذه الشروط : ان يسير الحكام بين المواطنين سيرة حسنة وان يكفوا اتباعهم عن امتداد ايديهم الى اموال الشعب ، ويرفعوا المظالم والاتاوات والتكاليف التى طوقوا بها الاعناق ، ويدفعوا مبلغ سبعمائة وخمسين كيسة ، ويرسلوا الغلال وأموال الصرة والمرتبات المقررة الموقوفة على الحرمين ، وكذلك غلال الشون والاموال المحبوسة على الرزقة .

وحرر قاضى القضاة حجة شرعية بما جرى فى هذا الاجتماع التاريخى المشهود وقع عليها مراد بك وابراهيم بك وبقية الامراء المماليك و «فرمن» عليها الباشا ، اى صدق الوالى عليها ، واتخذت صورة الفرمان .

وبذلك انتصر الشعب انتصارا باهرا وانجلت الفتنة ، وكانت هذه المطالب بمثابة طلائع الحرية واعلاء كلمة الشعب واقرار سيادته والاعتراف بكيانه ورد ما انتقص من حقوقه .

وعاد العلماء الى الازهر ، وحولهم الوف المواطنين وهم يتصافحون ويتبادلون التهانى بيوم الخلاص وعيد الحرية ، ويهتفون وينادون فى الشوارع والاسواق بان جميع المظالم والاتاوات والتكاليف قد رفعت عن كاهل الشعب «حسب ما رسم سادتنا العلماء» ثم فتحت المتاجر وعادت الحياة سيرتها الاولى .

اذن فما هو الباعث على ثورة المصريين الدامية على الفرنسيين دون العثمانيين والمماليك ؟

الواقع ان حملة نابليون بونابرت كانت اشبه بصاعقة هوت من السماء ، وهز الجيش الفرنسى مصر من اقصاها الى اقصاها ، فهب

المصريون من غفلتهم ودهشوا مما وقعت عليه ابصارهم ، ودهشة الغافل هى اول مظاهر يقظته والتفاته .

كان المصريون يظنون بانه لا توجد قوة حربية تغلب قوة المماليك وان جيشهم هوفى مقدمة جيوش العالم مناعة وقدرة ، وان مصر بعيدة عن منال اية دولة اجنبية ما دامت مستظلة بحماية الخليفة كما انه لا توجد علوم او معارف الا فى الازهر ، فلما شاهدوا الجيش الفرنسى وعتاده وعدده وتفوقه فى معظم المعارك التى خاضها والتحم فيها مع المماليك ، وعندما لمسوا اثار علماء الحملة سواء فى انشاء المجمع والمكتبة والمطبعة ، امنوا بان هناك قوة خارقة مصدرها الغرب مما قوى فى النفوس الوقوف على ماهيتها .

بيد ان هذه الغشاوة لم تلبث ان انقشعت وانقلب الهدوء والاستقرار الى ثورات متصلة ، وتحول الفلاحون والتجار والصناع والعمال الى قوات للمقاومةوالفداء ، فتكتلوا تحت راية واحدة ، وأعلنوها حربا لا هوادة فيها على الدخيل ، ولم يهدأ لهم بال أثناء السنوات الثلاث التى اقامها المستعمرون بين ظهرانيهم برغم وسائل الزلفى والتقرب الى العلماء والتودد الى افراد الشعب وتظاهر القواد باعتناق الاسلام، وبرزت من خلال هذه المعارك الطاحنةمعالم القومية المصرية واضحة جلية .

ولم تكن الثورة التى قامت فى القاهرة والاقاليم سوى ثمرة الاحساس بالظلم سنوات طوالا ، ورغبة المصريين فى اقصاءقوم دخلاء يختلفون عنهم فى الدين والتقاليد والاخلاق ، هذا الى فداحةالضرائب والتكاليف التى ناء الشعب تحت اثقالها ، وجورهم فى ابتزاز خيرات المصريين والتنكيل بالزعماء واستباحة دمائهم ومنهم محمد كريم الذى قتل غدرا وغيلة وطوف برأسه فىأنحاء العاصمة ، فاذا أضفنا الى هذه المظالم عوامل استفزازية اخرى كتدنيس حرمة الجامع الازهر بربط الخيول فى صحنه وامام القبلة وهدم منارات المساجد وازالة بوابات الحارات والتدخل فى الشئون الخاصة وشرب الخمر وبهرجة النساء واقدام ضباط وجنود جيش الاحتلال على التزوج من فتيات مصر واغتصابهن قسرا ، لحق لنا ان نقرر بان هذه المظالم تحولت الى مشاعر وتحركت هذه المشاعر بالدعايات الروحيةوالقومية الى ثورةعارمة .

فمن ذلك يتضح ان الشعب المصرى هو الذى قام بالثورة وتحمل اعباءها ، وان الواعز اليها لم يكن بتأثير دعاية اجنبية او اثارة مشاعره

عن طريق تحريض عناصر اخرى ، فقد كان افراد الشعب يتلاقون على غير سابق معرفة ويتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة والفناء فى سبيل مصر .

واذن لم يكن الوعى القومى وليد الحملة الفرنسية ولا نتيجة مباشرة لها ، بل كان مستكنا فى الصدور خلف ستار رقيق من المعتقدات الدينية والوراثات الاصيلة والفضائل العالية ، ولا يمكن ان نذهب مع بعض المؤرخين من ان انشاء الديوان هو الذى أوجد هذه القومية او انه «كان فيه رحمة لاهل مصر» على حد تعبير الشيخ الشرقاوى ، بل أن هذه القومية أصيلة فى النفوس ، انبعثت فى صورة واضحة منذ اليوم الاول الذى وطئت فيه اقدام الفرنسيين ثرى النيل . اما الديوان فكثيرا ما اثار الاحرار الشكوك حول مسلك اعضائه واتهموهم بالتحيز الى جانب الفرنسيين وممالاتهم ، وفى اثناء ثورة القاهرة الثانية خرج الشعب على العلماء ومشايخ الازهر واعضاء الديوان الذين حملوا اليهم رغبة المحتلين فى عقد الهدنة واعتدوا عليهم بالضرب ووجهوا اليهم شتى الاهانات بسبب توسطهم فى الصلح مما يبرهن على ان الوجدان القومى تغلب على الوازع الدينى

وقبل قدوم نابليون عارض المصريون نلسن عندما اراد ان يرسو بأسطوله على شواطىء الاسكندرية فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ بحجة الدفاع عن مصر ضد الجيش الفرنسى المرتقب وصوله ، فقد ازاد قائد الاسطول البريطانى ان يوهم المصريين بانه قدم حليفا يريد الدفاع عنهم ، فأجابه محمد كريم حاكم الثغر «هذه ارض السلطان» وطلب اليه مغادرة المياه الاقليمية على الفور ، وكان هذا الرد بمثابة اول رفض لمبدأ الدفاع المشترك بين المصريين والبريطانيين .

وقد برزت خلال السنوات الثلاث التى قضتها الحملة الفرنسية شخصية جديرة بالتنويه ، تلك هى شخصية المعلم يعقوب القبطى او الجنرال يعقوب ، وسواء كان الرجل صنيعة الفرنسيين أو مخدوعا فيهم فانه دون شك اول مفكر عملى نشد استقلال مصر .

كان المعلم يعقوب ملحقا بحملة الجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد ، وكان موكولا اليه تدبير المؤن وتحصيل الضرائب ، ثم جند كتيبة من شباب الاقباط الحقها بالجيش الفرنسى وارتدى افرادها الزى العسكرى لجيش الاحتلال ، وقد كافأه الفرنسيون برتبة

«جنرال» واهدوه سيفا وجعلوه مستشارا للشئون المالية ومشرفا على جمع الضرائب ، ولم يكن بأول من زود الجيش الفرنسي بالرجال من مصر ، بل لقد سبقه الى ذلك عمر القلقجى الذى حشد الشبان المغاربة حيث امر نابليون بتدريبهم على الفنون العسكرية وكون منهم كتيبة الحقها بجيش الاحتلال .

ورأى المعلم يعقوب فى الاحتلال الفرنسى بداية حياة جديدة لوطنه وتخليصه من براثن الحكم العثمانى ، وكان مؤمنا بقوة العلم الاوروبى فاستمع الى احاديث علمائهم واصغى الى ارائهم ، ثم تولدت عنده آمال واسعة للنهوض بأحوال بلاده السياسية والقومية ، فاستوعب الوسائل التى تذرع بها الغرب لسيادة العالم ، وتحمس للانتفاع باثار الحضارة الغربية حتى يرى من مصر قطعة تماثل فرنسا .

وعندما أبحرت الحملة عائدة الى فرنسا سافر الجنرال يعقوب برفقتها ، على ظهر المركب الحربى البريطانى «بلاس» بغية ان يبسط قضية مصر أمام العالم المتمدين ويستعين بأساطين «الحرية والاخاء والمساواة» على تحرير وطنه ، وجعله فى مصاف الامم الناهضة ، ووضع مشروعا اطلع عليه صديقه لاسكاريس والقبطان ادموندس لاستقلال مصر بضمان الدول الاوروبية ، وتكوين جيش وطنى لصد أى عدوان عن الكنانة ، ولكن الاجل لم يمتد به ليشهد ثمار جهوده فمات فى ١٦ اغسطس ١٨٠١ وهو فى عرض البحر ودفنت اماله معه .

* * *

وفى أعقاب الجلاء الفرنسى برزت القومية المصرية واضحة جلية على المسرح السياسى ، ولعب الزعماء دورا خطيرا فى تقرير مصير وطنهم وانتهاج سياسة قومية بحتة ، وقاوم الشعب اعتداءات الجند العثمانيين مقاومة باسلة ، وهب الفلاحون فى وجوه جباة الضرائب ، ولاننسى ثورة فلاحى قليوب عندما مضى اليهم الجند الدلاة بقصد جباية «حق الطريق» وسلبهم المحصولات الزراعية وسبى النساء والبنات ، فقد تصدى الفلاحون لهم واشتبكوا معهم فى قتال مر المذاق ، وقتل المئات من الفريقين « حتى تمنى الناس وخصوصا الفلاحين منهم أحكام الفرنساوية » .

وكان للوعى القومى أثره فى ثورة الشعب على البرديسى حتى اضطروه الى التنازل عن الحكم والفرار من القاهرة فكأن يوم فراره آخر عهد المماليك بالحكم .

وجلجل صوت الشعب عند ما جاهر بالتمرد والثورة على الوالى المعين من قبل الخليفة ، وانتشر المواطنون فى شوارع العاصمة وهم يهتفون ويصيحون « يارب يا متجلى أهلك طائفة العثمانلى » مما يدل على أن الوجدان القومى تغلب هنا على العاطفة الدينية والرابطة الاسلامية ، ثم حاصروا القلعة واجبروا الوالى على التنازل عن الولاية وأصروا على اختيار محمد على واليا بشروط فرضوها عليه .

وعلى الرغم من الحجاب والقيود التى فرضها المجتمع على المرأة فقد وقفت جنبا الى جنب مع الرجل فى ادوار الكفاح الشعبى ، فكانت النساء فى القرى يحاربن مع الرجال ، ويمددن المجاهدين بالماء والمؤن ويقاومن جنود الاحتلال الفرنسى مقاومة باسلة . وكذلك اشتركن فى ثورة الشعب على البرديسى وصبغن وجوههن بالنيلة وتظاهرن فى الشوارع وصحن بعبارات كلها تهكم وسخرية بالحاكم . وفى بداية عهد محمد على بالحكم لجأ النساء اللواتى اغتصب الوالى اراضيهن الزراعية الى الازهر لرفع ظلامتهن الى العلماء ، وصحن فى وجوههن وأبطلن الدروس ، وهددن المشايخ بأنهن سيفدن فى كل يوم لابطال الدروس وتمزيق الكتب حتى ينلن حقوقهن .

وكان محمد على يقدر الوعى القومى ويخشاه ويلجأ الى الزعامة الشعبية ليشاورها فيما يعن له من كبريات المسائل ويرجع اليها فيما يشكل عليه من الاحداث، ويستعين بنفوذها على اقرار السياسة الادارية والاصلاحات الضرورية ، فلما اختفت الزعامة الشعبية من الميدان ونحى المصريون عن الاشتغال بالمسائل السياسية اصبحت حرية الشعب مهدورة . فأعوان الحاكم يراقبون الافراد والجماعات، ويرصدون حركاتهم ويتتبعون اقوالهم ، والجاسوسية فى حركة دائبة لتشعر المواطنين بان عينها ساهرة لا تغفل عن مراقبتهم ، وخصوم الامة وخونة الشعب يوغلون فى الايقاع بالاحرار واستغلال مظاهر الحكم لمصلحة الحاكمين .

كان الاحرار اذا ما نادوا برأى أو نقدوا أمرا معينا نالوا من أذى الحاكم وبطانته ألوانا من البطش . وكانت المناقشة العلمية تؤول بانها اعتداء صارخ على حرمة الدين وتدخل فى نطاق الزندقة والتجديف، وكان خصوم الحكام يخرجون من بيوتهم فلا يعودون اليها ، لذلك ملك المواطنين الخوف وتولتهم الرهبة ، واصبحوا يخشون جانب

الحاكم ، ولا يكترثون لتصرفات الحكومة ، واخذت الروح التركية تحط شيئا فشيئا على الروح المصرية وأوشكت ان تطفئها .

وأخذ الشعب يتذمر من ارهاقه بمطالب عدة : كفداحة الضرائب، السخرة ، التجنيد، سلطة الحكام المستبدة ، فساد القضاء، ثم تدفق تجار الخمور من حثالة الافرنج واختلاطهم بالفلاحين ، وانتشار الموبقات ودور الميسر والبغاء ، ومع ذلك فان أحدا لم تواته الجسارة فيفصح عن مكنون ضميره ، وظلت مصر فى حالة استياء صامت لا تجد منفذا تعبر به عن آلامها وارائها امام رهبة الحكام الذين يشجعون أساليب الدس فى الظلام ويتهمون الابرياء ، ويأخذون بالشبهة كل من تحوم حوله غمامة شك ، فيسوقون الاحرار الى المعتقلات والسجون كالانعام ، ويتكلمون بعلماء الازهر وحملة الشريعة ، وينفون الى أعالى النيل كل من يتعرض لنقد نظام الحكم أو الاعتراض على فرض ضريبة .

وقد دام الحال على هذا المنوال الى ان عاد شباب البعوث العلمية الذين عاشوا فى كنف المدنية الغربية وتذوقوا طعم الحرية الشخصية وعرفوا قدرها ، فصاروا يتناقشون ويتجادلون بحرية فى كل شىء الا فيما يتعلق بصلة الحاكم بالمحكومين ، أو المجاهرة بمبدأ مسئولية الحكومة أمام الشعب .

وترتب على الحرية الوحيدة التى اكتسبها المصريون ، ونعنى بها حرية الفكر أن صرح بعض المتعلمين بأشياء فيها مخالفة للدين وللافكار السائدة ، ومع ذلك لم يستطع أحد سواء من رجال الدين أو أفراد الشعب أن يعارضهم فى آرائهم ، لانهم كانوا بمثابة أعوان للوالى فى خدمة الدولة ، يدافعون عن مسلكه ويدعمون اركان حكمه .

ويؤيد نظريتنا هذه ما وجهه حسنين بسيونى احد افراد البعثة العلمية الى انجلترا فى عام ١٨٣٨ الى لورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا فى كتاب طبعه ونشره بالانجليزية وقال فيه : من الامور التى لا يختلف فيها اثنان ان الحكومة المصرية نالت القسط الاوفر من الرقى والاصلاح ، وانه ليس هنا لك ما يمنع انجلترا من منح مصر الحق فى ان تصير أمة مستقلة ، وان توضع فى مصاف البرازيل والمكسيك وكولومبيا واليونان ، ولهذا جئت راجيا ان تنظروا الى المسألة بعين العطف ، وانى مؤمن بان رفاهية مصر فى المستقبل يتوقف كلها أو بعضها على اعتراف انجلترا باستقلال مصر .

نادى انصار الجديد بقطع الصلة بالماضى ، واستندوا الى محاكاة الغرب دون ان يحاولوا الابتكار ، اذ ان الافكار الغربية لم تكن قد تأصلت فى نفوسهم ولا رسخت فى اذهانهم حتى يهضموها هضما جيدا ويعملوا على تمثيلها ، ومن ناحية اخرى لم يكن فى وسعهم ان يهزوا الوسط الذى عادوا اليه ولا البيئة التى يعيشون فيها ، لان هذه البيئة كانت لا تزال متصلة بالوراثات الاصيلة للماضى سلطان قاهر عليها ، فهو حى فى أعماقهم ، ولا يمكن أن تؤثر فيه التطورات الحديثة .

والواقع ان السواد الاعظم من الشعب لم يدرك فى غضون الحقبة التى حكم فيها محمد على مصر وهى قرابة نصف قرن ، الوطنية القومية على وجهها الصحيح ، وانما فهمها على أنها وطنية دينية أو بالاحرى نخوة اسلامية ، وكانت الحروب التى قام بها محمد على وحشد لها الوف الفلاحين ، وزج فيها بزهرة شباب الامة هى حروب الدولة العلية أو حروبه هو فيما بعد وليست حروب مصر ، لذلك لم يعطف المصريون على الحركة الاستقلالية فى الحكم التى كان محمد على ينزع اليها كلما اشتجر الخلاف بينه وبين الباب العالى .

وعندما تولى سعيد الحكم أخذ يمالىء الشعب ، فاقطع الفلاحين الاراضى التى يزرعونها بالوراثة ، وقرب اليه بعض المصريين وولاهم مناصب رئيسية ، وأبطل اللغة التركية من بعض المكاتبات الرسمية وأحل العربية محلها ، ومع انه خطب مرة فى حفل رسمى وزعم بانه يعد نفسه مصريا وليس بتركى ، وانه سيربى ابناء الشعب ويهذبه حتى يجعله يخدم بلده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الاجانب ، فان تقلب اهواء هذا الحاكم جعلت اقواله بمثابة ذر للرماد فى العيون ، فلم تبطل اللغة التركية من المكاتبات ، ولم يستغن عن خدمات الاجانب ، ولم يهذب الشعب أو يعلمه بل سار على سياسة الحد من انتشار التعليم واقصاء المصريين عن المناصب العليا فى الجيش والادارة ، وقرب اليه طغمة من الافرنج وولاهم أرفع المناصب فى الدولة .

وارتقى اسماعيل العرش ، فكان عهده كعهد جده ينطوى على السيادة والاذلال وتتمثل فيه مظاهر العظمة والبؤس ، ويقترن بطابع الثروة وطابع الاملاق . ففى الشق الاول منه تدفقت الثروة نتيجة ارتفاع اثمان القطن على أثر نشوب الحرب الامريكية ، وخلق جو من

الرخاء الاقتصادى فى البلاد ، فتفتحت الامال وتحركت المطامع وبدا على العواصم والريف طابع الازدهار ، وفى الشق الثانى شهدت مصر غزو الحضارة الغربية غزو اذلال واستعباد ، وكذلك شهدت تقلبات سياسية واجتماعية خطيرة ، منها تدفق الجاليات الاجنبية والتدخل الاستعمارى فى الشئون المحلية بانشاء المراقبة الثنائية وصندوق الدين والمحاكم المختلطة واشراك وزراء اوربيين فى الوزارة وتوجيه جهاز الدولة الى خدمة مصالح الاغراب ، وخضوع الحكومة لمطالب الدول الاجنبية وقبولها وصايتها .

وكان للاجانب امتيازات أدت بهم فى كثير من الاحيان الى الخروج عن طاعة الحكومة ومناهضتها ، وكانت المحاكم المختلطة لا تهتم بالمصريين ولا تبالى بحكومتهم وتصدر أحكاما على هواها ضد الدولة وفى غير مصلحة المحكومين ، وتجبر الحكومة بما لها من صفة دولية على تنفيذ هذه الاحكام .

ومن الوجهة الاجتماعية تطورت الحياة تطورا لم يكن لمصر عهد به ، فتمردت الطبقة الحاكمة على مظاهر الحياة الشرقية التى ألفوها ، وهجر الاعيان والموظفون الزى الشرقى والعوائد والتقاليد الموروثة وبدأت المنازل تشيد على النمط الغربى ، وأسرفت الطبقة العالية فى مجاراة الاوربيين فى نظم المعيشة ، وانفاق ثرواتهم فى سبيل المظهر الاجتماعى ، ثم نشأ نظام الطبقات ، وكانت النتيجة ان الموسرين لم يتمكنوا من فهم الحياة الاوربية على حقيقتها ولا هضمها هضما صحيحا . ومنهم من وقف حائرا متشككا بين تقاليد الحياة الشرقية وبين الحضارة الغربية فضعفت روحهم المعنوية وتفككت روابط الاسرة وتمكن الدخيل من استغلالهم لمصالحه وقضاء مآربه .

وقد اقام اسماعيل التماثيل فى شوارع العاصمة الاسلامية وشجع الاقبال على التصوير واحيا الحفلات الراقصة الماجنة واباح حلق اللحى بعد ان كان لها احترام الشرقيين واستعمال الفرش المصنوعة من شعر الخنزير دون ان يدور بخلده استفتاء رجال الدين .

ومن الوجهة الاقتصادية قام الاجانب بمشروعات لم يكن لرءوس الاموال المصرية نصيب فيها وزاد الانتاج القومى ولكن مستوى الشعب ظل على ما هو عليه نتيجة ارهاقه بالسخرة وبمختلف انواع

الضرائب وارتباك مالية الموسرين للاستدانة ، ثم لتدفق المصنوعات الافرنجية وانتقال التجارة من ايدى المصريين الى الاجانب .

ولنمو الوعى القومى ونشوء الرأى العام عدة بواعث منها :

تدفق سيل الاجانب على وادى النيل واحتلالهم المناصب الرئيسية فى الادارة والجيش بالاشتراك مع بقايا العثمانيين ، وقد أدى هذا الاختلاط والتكالب على المناصب، الى ارتكاب عدة اخطاء جوهرية استنزفت فى سبيلها اموال الخزانة العامة وذهبت ضحيتها مصالح البلاد مما ادى الى القضاء على الامانى المشروعة .

ومنذ ان تولى اسماعيل العرش تعود الشعب ان يرى عرشه محاطا بجيش زاحف من شتى عواصم العالم ، وكان هؤلاء الافرنج حثالة أممهم ومن أبعد الطبقات عن خلق منزلة كريمة لهم فى قلوب الشعب الذى حلوا بين ظهرانيه ، فأقبلوا على افتتاح الحانات والملاهى ودور الميسر واقامة المصارف التى تقرض بالربا الفاحش ونشر الموبقات والمخدرات ، وانبثوا فى الريف ينفثون البغى والفساد ، ويقودون اعيان الريف الى مغامرات اجرامية استنزفت فى سبيلها ثرواتهم .

هناك تنبهت الطبقة المفكرة الى الخطر المحدق بأمتها وبدأت تشكو وتتذمر ويكاشف بعضها الآخر بما ينتابه من خوف وقلق . ووضع الاحرار فى احدى الكفتين اندفاع حاكمهم فى سبيل احتفائه بهؤلاء الاغراب ووضع يده فى ايديهم وتكالبهم على امتصاص ثروة مصر وسوقها الى الخراب ، ويضعون فى الكفة الاخرى مصلحة مصر الحيوية ورفاهية بنيها .

ومما زاد فى نمو شعور المصريين والعطف على حركتهم للتخلص من هذه الحال المؤلمة ان السلطان أرسل منشورا فى عام ١٨٦٩ يندد فيه بمسلك الخديو ويؤاخذه على انه أثقل أهل مصر بالضرائب الفادحة ، وارسل الى اوربا شخصا اسمه نوبار يدعى بغير وجه حق انه وزير خارجية مصر للمفاوضة فى عقد قروض وابرام معاهدات وتعديل نظام الامتيازات مع ان هذه حقوق لا يملكها سوى السلطان وحده .

وقد نشرت صيغة هذا الانذار باللغة العربية وعلق بابواب

المصالح الحكومية فتجمهر المصريون يمعنون النظر فيما يحويه واخذوا يعلقون عليه بمختلف الاراء .

من ذلك الحين بدأ المصريون يهتمون بشئون بلادهم ويترقبون الانباء الواردة من دار الخلافة ويتباحثون فى تحديد علاقة الحاكم بالمحكومين ويفطنون الى أنه ليس للحكومة أن تصنع بهم ما تشاء ، وبدأ الرأى العام يتكون ويتكتل ، وأخذ الاحرار على عاتقهم ترجمة البرقيات التى ترد الى وكالات الانباء عن سوء الحال فى مصر وجرائم اسماعيل ، وينقلون مقالات الصحف الاجنبية الى اللغة العربية ونسخها وتوزيعها سرا .

وكان لتعاليم جمال الدين الافغانى أثر نافذ فى تطور العقلية وفى حركات الاصلاح ونزعات التحرر السياسى والاجتماعى كافة ، وقد تمكن من اعداد جيل من الكتاب ، وبعث القوة والنشاط فى الحياة الفكرية وخطا بها خطوات واسعة فكون الاندية واذكى الامال فى النفوس وحفزها للنهوض وهيأ لاتباعه الفرصة لاعتلاء اعواد المنابر للخطابة ، وأخذ يدربهم على انشاء المقالات وتدبيج الفصول السياسية والاجتماعية ومعالجة الكتابة على صفحات الصحف لرفع مستوى تحريرها .

وفد الافغانى على مصر للمرة الاولى فى مستهل عام ١٨٧٠ ولم يمكث بها الا قليلا ، ثم عاد اليها ثانية فى مارس ١٨٧١ حيث مكث بها ثمانية اعوام ظل نشاطه فى خلالها متصلا لا ينقطع ، واستطاع ان يجذب الى حلقته طلاب المعرفة المجدين فى التحصيل فدربهم على اسلوبه فى التوفيق بين الاوضاع التاريخية للدين والفلسفة فى الاسلام وبين نتائج الفكر العلمى الحديث .

وكان نشاطه الفكرى ذا شعبتين : الاولى دروس علمية منتظمة يلقيها فى داره بحى « خان الخليلى » والثانية دروس عملية يبثها فى نفوس مريديه واتباعه فى المحافل والمجتمعات .

فاما دروسه العلمية فكانت تتناول شرح الكتب التى تدرس فى الازهر من منطق وفلسفة وتصوف . ولكنه كان يتبسط فى شرحها ويعلق عليها بما يعن له من أفكار وآراء . وكان فى مقدمة الذين

حضروا عليه هذه الدروس : محمد عبده وعبد الكريم سلمان وابراهيم اللقانى وسعد زغلول وغيرهم ممن استضاءوا بأنوار العلم والعرفان وتحررت عقولهم من قيود الجمود والاوهام .

على ان وجهة الافغانى الحقيقية كانت وجهة سياسية ، وكانت هذه فى الواقع هى دروسه العملية . فعمل على بث الروح الوطنية فى الطبقات المختلفة وعلى اشاعة الفكر الدستورية . وتنبيه الشعب الى مضار التدخل الاجنبى فى شئونه ، وكشف عن سوءات الرقابة الاوربية التى فرضت على مصر ، حتى تمكن فى خلال فترة قصيرة من اعداد رأى عام ناضج .

كانت العامة تعتقد بان الحاكم هو السيد المطاع ، ولكن الافغانى استطاع عن طريق خطبه الحماسية وبياناته المتطرفة أن يغير هذه الفكرة . فكان يخاطب افراد الشعب جهرة بقوله : انك أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت منها ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمار أتعابك ؟.. وكان يحرض على الثورة بقوله : انكم معاشر المصريين نشأتم على الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد وينزل بكم الخسف والذل وانتم صابرون ، بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم وموارد غذائكم » ..

ولم يكن للمواطنين عهد بمثل هذا الكلام ، فكانوا يسحرون بمنطقه ويدهشون لاقواله ، ثم يمضى سامعوه فيتحدثون الى جلسائهم بما صافح اذانهم من معان سامية ، وكانت النتيجة ان تحركت الخواطر وتنبهت الافكار حول تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم وواجب كل منهما حيال الاخر ، حتى نفت عن الاذهان عقيدة الحق الالهى فى الحكم .

وقد وجدت دعوة جمال الدين الافغانى أرضا صالحة وبيئة متحفزة لقبول هذه المبادىء والافكار ، فقد كانت هذه البيئة مكونة من مجموعة ثقافات علمية متعددة ووجهات تفكير متباينة . فمنهم من درس فى المدارس العصرية ومن تعلم فى معاهد اوربا فشب على الجديد ، ومن طوى صدر شبابه فى رحاب الازهر فتمسك بالقديم ، وكانت هناك حركة اصلاح قوية ولكنها كانت فى حاجة الى من يقودها نحو الخير والاصلاح ، فلما وفد الافغانى على مصر وجد التربة مهيئة

فغرس فيها بذور اصلاحه ولم تلبث قليلا حتى اينعت وازدهرت .

ومن مظاهر الوعى القومى الذى تعهده بالرعاية ، نشاط الصحف السياسية ، والاقبال على مطالعتها ، والتحدث فى شئون البلاد ومصيرها ، والتبرم بالاوضاع السياسية والمالية ، وظهور روح اليقظة والمعارضة بين اعضاء مجلس شورى القوانين .

ونحن نلمس الصلة الروحية بين الافغانى وبين مريديه الذين رفعوا لواء الجهاد والكفاح الشعبى كمحمد عبده واديب اسحق وعبد الله نديم وسليم النقاش ويعقوب صنوع ، وفى روح المعارضة بين النواب وعلى رأسهم عبد السلام المويلحى .

وعلى الرغم من أن الافغانى هو الاب الروحى للحركة الاستقلالية ، فقد ظلت تعاليمه بارزة الاثر فى المجتمع المصرى عقب نفيه فى اغسطس ١٨٧٩ وبقيت النفوس ثائرة تتطلع الى الاصلاح وارساء قواعد الحكم على دعائم الشورى والديمقراطية .

وفى مقدمة العوامل التى ساعدت على يقظة الشعور القومى ظهور الصحافة الحرة وجعل الراى العام قوة يعتد بها فى السياسة والحكم .

كان اسماعيل يزعم « بان للصحافه منافع ومحسنات عند الاهالى » فأطلق لها الحرية فى التعبير عن مختلف الافكار والخوض فى أى موضوع الا فيما يختص بشخصه أو التنديد باعماله . والواقع انه كان يريد الاستفادة من هذه الحرية لمحاربة التدخل الاوربى فى تصرفاته المالية والحد من سلطته . بيد ان الصحافة كان قد اشتد ساعدها فى اواخر حكمه فما لبث ان انقلبت عليه وهيأت الافكار للانعتاق من اسار الرهبة الذى حاول هو ان ينشره ، مع الذود عن حقوق الشعب المهضومة ورفع الغشاوة عن العيون وتخفيف حجاب الغفلة عن العقول .

يضاف الى ذلك ان هيبة الخديو كانت قد سقطت فى عيون الشعب نتيجة تشهير البعثة المالية بمساوىء حكمه وبأخلاقه الشخصية ، وتطاولها عليه وتشجيعها الصحافة على مهاجمته والزج باسمه فى كل مناسبة ، وتحميله مسئولية الكوارث المالية التى حلت بالبلاد .

ووجدت الحكومة يدها مغلولة ازاء اعتقال اصحاب الصحف بسبب رعويتهم الاجنبية وتحصنهم بالامتيازات ، فقد حدث ان

قبض على صاحب جريدة الاهرام ولكن الحكومة عجزت عن محاكمته والانتقام منه بسبب تجنسه بالجنسية الفرنسية فاطلقت سراحه ، واقدمت الحكومة على مصادرة جريدة « مصر الفتاة » فاقام صاحبها دعوى فى المحاكم المختلطة مطالبا بالتعويض ، وهيأ الفرصة لان يطعن محاميه فى نظام الحكم وتعسف الحكومة فى محاربة الصحافة والقضاء على حرية التعبير فى الكتابة .

وكانت النتيجة ان قوى الشعور القومى واثارت هذه العوامل مجتمعة بوادر القلق والتمرد ، فهب الفلاح يناضل العدو المشترك ، ويتمرد على دفع الضرائب التى كانت لا تعود بالخير على ارضه بل تذهب نهبا مقسما بين العاهل واعوانه وبين الاغراب .

وكان الجيل الذى تلقى تعليمه فى المعاهد وجامعات الغرب قد صقلت عقليته وحنكته التجارب وهضم ما طالعه فى مؤلفات الغربين لا سيما ما يتعلق بالكفاح فى سبيل الحرية والاستقلال وثورة الشعوب على الظلم والمستبدين .

وزاد من قوة هذا الشعور احتكاك هؤلاء المتعلمين بعناصر هبطت مصر من الشرق الاسلامى ، وكانت تتألف من رجال ضاقت صدور الحكام بنظراتهم فى الاصلاح ونزعتهم فى التفكير الجرىء ، فنزحوا عن اوطانهم وهم يحملون بين جوانحهم شعلة التحرر وحماسة الثورة وقلب النظم السياسية والاوضاع الاجتماعية التى ترسف فيها الشعوب المظلومة ، وكانوا من الجراة فى القول والتعمق فى المعرفة بحيث اخذوا يندون جهرة بالاستبداد وبالسلطان المطلق ، واوحوا الى صفوة المتعمين ضرورة المطالبة بالدستور وبالنظام النيابى والسعى الى وضع الحق فى نصابه .

والواقع ان اسرة محمد على حكمت الكنانة بالحديد والنار فى عصر ازدهرت فيه مبادىء الاستقلال فى كل أمة ، وصارت الحرية حقا مقدسا للجميع ، ولم تحاول المظالم التى صبتها أن تنكس الرءوس او تقتل فى النفوس الشعور بالكرامة والعزة ، وكانت النتيجة ان تأثر فريق كبير من افراد الشعب بمزايا الحريات العامة والخاصة التى كان وطنهم محروما منها فهبوا فى وجه الظلم وثاروا لمقاومة الطواغيت المستبدين .

محتويات الكتاب

صفحة

تاريخ مصر فى ظل التحرير ٥

كشاف بالكلمات الدخيلة ١٣

الشعب خالد لا يموت

نشوء فكرة الحملة الفرنسية ـ المقاومة فى الاسكندرية ـ موقف حاكم الثغر السيد محمد كريم ـ معركة شبراخيت ـ معركة الاهرام ـ الكفاح المسلح فى الاقاليم ـ ثورة اكتوبر ـ معارك الفداء والتضحية ـ ثورة مارس ـ مصرع كليبر ـ جلاء القوات الفرنسية.

ص ٢٢

شعب فى المزاد

جلاء الحملة الفرنسية ـ نشأة محمد على ـ مناوراته السياسية ـ نفوذ الالبانيين ـ الولاة ومصيرهم ـ الباب العالى يطالب بطرد محمد على ـ التطاحن على السلطة ـ الفزع والارهاب فى القاهرة ـ اخر عهد المماليك بالحكم

ص ٤٣

صوت الشعب

نفوذ الالبانيين فى مصر ـ فظائع الجند ـ ولاية خورشيد باشا ـ تحذير الباب العالى لمحمد على ـ مناورات فى سبيل الحكم ـ ثورة القاهرة.

ص ٥٦

الزعيم الاول

نشأة السيد عمر مكرم ـ الوثيقة السياسية التى سبقت اعلان حقوق الانسان ـ الشيخ الشرقاوى ـ الشيخ السادات ـ عزل الوالى بارادة الشعب ـ اول انقلاب من نوعه فى الشرق ـ حصار الوالى فى القلعة ـ تولية محمد على بشروط يمليها نواب الشعب.

ص ٦٣

مؤامرة لابادة شعب

محاولة لابعاد محمد على عن مصر ـ الاتراك يبيعون ذممهم ـ حملة فريزر وهزيمة الانجليز فى رشـــيد ـ تنحية المصريين عن الاشتراك فى الحكم ـ نهب اموال الاوقاف ـ الوقيعة بين محمد على والعلماء ـ تنكره لعمر مكرم ـ ابادة الزعامة الشعبية .

ص ٧٦

مظالم حكومة محمد على

قرصان باشا ـ صنيعة فرنسا ـ نهضة الاصلاح وبواعثهــــا واهدافها ـ نقص عدد السكان ـ خفراء قوله امراء مصر ـ محمــد الدفتردار وجرائمه ـ الغدر بزعماء الشعب ـ الدعوة الى الجمهورية ـ جنون محمد على .

ص ٨٥

حمام الدم فى القلعة

دفاع عن المماليك ـ مهرجان فى القلعة ـ الغدر بالامراء المصريين ـ نهب مساكنهم ـ اختلاف الرأى فى مذبحة القلعة ـ مقارنتها بمذابح عالمية اخرى ـ محمد على امام محكمة التاريخ .

ص ١٠١

جلاد الشعب

التحقق من بنوة ابراهيم ـ مجونه وعبثه ـ الفتك بعلماء الدرعية داخل المسجد ـ تشجيع تجارة الرقيق ـ الخراب والدمار فى المورة ـ الشك فى كفاءة ابراهيم العسكرية ـ البواعث الحقيقية لغزو الشام ـ محاولة خلع السلطان ـ مصر ضيعة تتوارثها اسرة محمد على

ص ١١٢

الوالى المجنون

نشأة عباس الاول ـ عداؤه لافراد اسرته ـ اتجاهه الى السياسة البريطانية غلقه المدارس والمعاهد والمصانع ـ نفى الاجانب ـ موقفه من الشعب ـ بوادر جنونه وهوسه ـ مصرعه

ص ١٢٢

قيود العبودية

نشأة سعيد واخلاقه ـ المنافسة بين انجلترا وفرنسا ـ وثيقة العار ـ اثار الدماء فى السودان ـ ارتباك الحالة المالية ـ مصر مقاطعة فرنسية ـ زحف الاجانب على وادى النيل .

ص ١٣٥

الخديو الخليع

عقلية اسماعيل وصفاته ـ افراطه فى الانانية وسلبه حقوق المواطنين ـ فراره من مصر بسبب وباء الكوليرا ـ الحياة الداخلية فى قصوره ـ افندينا فى مباذله ـ الامتيازات التى حصل عليها الباب العالى ـ اشهر لص فى التاريخ ـ عزله وطرده من مصر

ص ١٤١

الفلاح والارض الطيبة

الحياة الاجتماعية ـ الحياة الاقتصاديه ـ الصراع من اجل الخبز ـ سياسة الاحتكار فى الزراعة والصناعة والتجارة ـ الضرائب واللصوصية السافرة ـ خراب مصر المالى

ص ١٥٧

السخرة والكرباج

السخرة مقام الخدمة العسكرية الاجبارية ـ الهجرة الجماعية من الارض ـ معارضة الباب العالى ـ المصريون يحفرون القناة ـ ويدفنون تحت الرمال ـ اسماعيل يبطل النخاسة ويبيح استعباد المصريين .

ص ١٧٦

بين أنياب الاستعمار

الوادى هدف الاستعمار منذ اقدم العصور ـ على بك الكبير يعلن استقلال مصر ـ معاهدات مع المماليك لحماية تجارة الغرب ـ فرنسا وانجلترا تفرقان كلمة الزعماء ـ فرنسا تحتضن محمد على وانجلترا تؤازر محمد الالفى ـ اخفاق حملة فريزر ـ معاهدة لندن ـ انضمام عباس الى السياسة البريطانية وسعيد الى السياسة الفرنسية ـ موقف الدول الاوربية من مصر

ص ١٨٤

قناة السويس

نبذة عن ترعة السويس قديما ـ خطط فرنسا فى الشرق ـ فرديناند دى لسبس وصداقته للوالى سعيد ـ الحرب الباردة بين انجلترا وفرنسا ـ عقد الامتياز ـ مصر تكتتب فى نصف رأس مال الشركة ـ الخلاف بين الحكومة والشركة ـ تحكيم نابليون الثالث ـ حفلات افتتاح القناة ـ خسائر مصر فى القناة .

ص ١٩٩

خراب مصر المالى

اسماعيل الثانى ـ ارتباك الحالة المالية ـ التدخل الاجنبى ـ محاولة يائسة لمواجهة العاصفة ـ بعثة كييف ـ القبض على المفتش ـ اعدامه دون محاكمه ـ مصادرة ثروته ـ صندوق الدين ـ بعثة جوشن ـ لجنة التحقيق الاوربية

ص ٢١٤

الوعى الدستورى

اشراك الشعب فى الحكم بوساطة نوابه فى ديوان الوالى ـ الفرنسيون يدعون الى مبادىء الثورة ـ الديوان العالى ومجلس المشورة ـ مجلس شورى القوانين ـ نمو روح المعارضة بين النواب ـ الدستور الاول لمصر ـ تعطيل المجلس .

ص ٢٢٨

الحياة العقلية

القاهرة ترث بغداد ـ مظاهر الثقافة ـ رسالة الازهر ـ التأثير الفكرى للحملة الفرنسية ـ تنظيم صلة مصر بالغرب ـ النهضة التعليمية ـ البعوث ـ الترجمة ـ رفاعه الطهطاوى ومدرسته ـ دور الازهر فى النهضة ـ على مبارك واعلام الفكر فى عصره ـ الطباعة ـ الصحافة .

ص ٢٤١

البعث القومى

شخصية مصر نتاج النيل ـ بين الوجدان الدينى والعاطفة الوطنية ـ مبدأ الدفاع المشترك ـ الجنرال يعقوب يضع اول مشروع لاستقلال مصر وسلخها عن الدولة العلية ـ دور المرأة فى الكفاح ـ خصوم الامة وخونة الشعب ـ السيادة والاذلال ـ جمال الدين الافغانى ـ دور الصحافة الحرة ـ انتصار الحرية على الاستعباد .

ص ٢٧٦

تم المجلد الاول من

كفاح الشعب

ويليه المجلد الثانى بعنوان :

الوعى الثورى

طبع بمطابع « الصباح » بالقاهرة

962:H35kA:v.1:c.2
حسونة ،محمد امين
كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال ع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01068501

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

962
H35 kA
v.1, C.2
General Library

962
H35kA
V.1
C.2